الدكتورة سماح السلاوي







المقدمة

يتناول هذا البحث دراسة لأوضاع مصر وبلاد العام في العصر المملوكي من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين، وقد اخترت دراسة مصر والعام معا نظرا لأنهما تمثلان وحدة جغرافية وتاريخية واحدة و متكاملة، حيث أن بلاد العام مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصر من الناحية السياسية والاستراتيجية والدينية، كما أن هناك العديد من الرحالة العرب والأجانب بدءوا رحلتهم من مدينة الإسكندرية وزيارة الأماكن المقدسة، ثم المرور بالمدن المصرية الأخرى والعودة شن طريق يافا وبيت المقدس إلى جزيرتي قبرص ورودس أو العكس، ثم الرحيل إلى بلادهم.

وترجع أهمية هذا البحث في تقديري إلى ما كتبه الرحالة المسافرون شند زيارتهم لمصر وبلاد العام، فالرحالة تعد نوشا من الحركة والتنقل، وهي كذلك تقيم اختلاطا قويا بالناس، ولذلك فإنها شين مبصرة ووجهة نظر مختلفة شن أهل البلد الوطنيين، وهنا تبرز قيمة الرحالة حيث يتمكن من رؤية واضحة وشميقة لبعض الأحداث وللوصف الجغرافي للبلاد مثل التضاريس والمناخ والنبات الطبيعى والظواهر البيئية والسكانية المختلفة ومدى تأثيرها، ويستنتج بعض الأمور ويكعف النقاب شن أشياء وأحداث لم نكن لنعرفها إلا شن طريق كتابات هؤلاء الرحالة، حيث لاحظوا ودرسوا أحوال البلاد التي مروا بها في حالة الازدهار، أو في حالة الانهيار والتدهور، وقد ترك لنا الرحالة مؤلفات قيمة تسرد ظروف البلاد وشعبها في شتي نواحي الحياة مسجلين أدق الملاحظات والتفاصيل التي قد تبدو للمؤرخين من أبناء البلد شيئاً مألوفاً فلم تلفت نظرهم، وخلفوا لنا سجلات حافلة بوصف المدن التي زاروها وأحوالها واهتموا بصفة خاصة بأخبار إخوانهم من الغربيين من تجار وحجاج، وكذلك أحوال الوطنيين كما اهتموا بوصف المدن المصرية والعامية وثغورهما والطرق المؤدية لكل مدينة، بالإضافة الي ذكر أهم محطات رحلة الحج التي انحصرت بين يافا فبيت المقدس ثم سيناء بمصر ولذا فإنهم تركوا لنا معلومات هامة وذات قيمة شن كل بقعة شاهدوها.

كما تناول البحث فترة الحكم المملوكي)٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠- ١٥١٧م(أي حوالي قرنين ونصف القرن من الزمان، حيث لعبت الدولة المملوكية دورا شظيما فى النهوض بأشباء البلاد واستطاشت حماية العالم الإسلامى والمنطقة العربية من أخطار متعددة، ولذا فقد تمتعت تلك الدولة بنعاط خارجى شلى نطاق واسع مع الدول الإسلامية ومع الدول الأجنبية شلى حد سواء، حيث هدأت العلاقات بين **العرق** والغرب نسبياً، وخفت حدة الصراع الإسلامي الصليبي، مما ساشد شلي تطور **ونمو** العلاقات بينهما فساشد ذلك شلى سفر وتجول الأوربيين إلى بلاد العرق، **وفي تلك** الفترة الطويلة استطاشوا خلالها رصد مراحل الازدهار والانهيار **في الدولة** المملوكية.

فضلاً شن أن لكل رحالة كتاباته الخاصة وآراءه المختلفة **شن غيره** وذلك نظرًا لاختلاف جنسياتهم وأهدافهم، فأدي ذلك إلى اختلاف و**تنوع اهتماماتهم** وفقاً للبيئة التي نشئوا فيها ولظروفهم السياسية والاقتصادية والدينية **فكان منهم** الإيطالي والإسباني والألماني و الفرنسي، و منهم من اهتم بال**جانب السيا**سي وأنظمة الدولة والوضع العسكري في البلاد الإسلامية، و**منهم من اهتم بالجانب** التجاري فعمل وصف الموانئ والثغور ومدي حجم التجارة في **هذه الموانئ و**أهم الصناشات والحرف التي شمل بها أهل البلد، وكذلك اهتمام ال**كثيرون** من الرحالة الأوروبيين بعراء السلع والمنتجات من أجل بيعها في أوطانهم **لتحقيق بعض** الربح المادي وخاصة إذا شلمنا أن العديد من الأسواق التجارية **في العرق** كانت متمثلة في أسواق مصر والعام والتي ترد إليهما المنتجات العرقية **كلها وتوزع** فيما بعد إلى أوربا، وهناك الرغبة الملحة في كعف سحر **العرق ومعاهدة** معالمه التي قرءوا شنها في الكتاب المقدس، أو فى رحلات **السابقين فأرادوا** تحقيق الحلم وذلك بالرحلة والسفر إلى مصر والعام.

ومنهم المسيحيون وهم قد اهتموا بأحوال المسيحيين في مصر والعام ومعاملة **الدولة المملوكية** لهم وزيارة الأماكن المقدسة ووصف الكنائس المسيحية القديمة ومدي أهميتها وقدسيتها للمسيحيين الوطنيين والأجانب وكذلك الضريح المقدس وبيت لحم وكنيسة القيامة والأماكن التي ارتبطت بسيرة السيد المسيح ؛، أما الرحالة اليهود، فقد

كان اهتمامهم منصباً شلي أشداد اليهود في البلاد الإسلامية وأشمالهم وذعاطهم الاقتصادي ووضعهم في المنطقة وشلاقتهم بالمسلمين والمسيحيين والسلطات المملوكية وذكر ديارات اليهود ومعابدهم.

أما بالنسبة للمنهج المتبع في هذة الدراسة فهو المنهج الوصفي والذي اشتمدت شليه في وصف المدن والثغور والعوارع والأماكن الدينية التى زارها الرحالة، **كما** استخدمت المنهج النقدي لتوضيح صحة أو خطأ المادة العلمية التى أوردها **الرحالة** وقارنتها بالمصادر الاسلامية المعاصرة، وكذلك المنهج التحليلى.

ومن أهم الصعوبات في البحث، هى أن هذا الموضوع متسع من الناحية **الزمنية** والجغرافية، فهو يمتد لفترة زمنية طويلة من منتصف **القرن الثالث** شعر الميلادي حتى أوائل القرن السادس شعر الميلادى، ومن الناحية **الجغرافية فإن** هؤلاء الرحالة الأجانب جاءوا من أصول متباينة وتجولوا في **المدن المصرية** والعامية فكانت المعاهدات كثيرة ومتعبة ومتنوشة، فضلا شن ذلك **فإن المادة** العلمية متناثرة وفى بعض الجوانب نجدها قليلة نسبيًا وفي جوانب **أخري** متوفرة بصورة واضحة، وثمة صعوبة أخري تمثلت في اشتماد **بعض الرحالة شلي نقل** ما جاء في الرحلات السابقة دون فحص أو التأكد من صحتها **ويكاد يكون نقلاً** حرفيًا.

وكذلك جهل بعض **الرحالة** بالنواحى الدينية وضعف المستوى الفكرى والعلمى والثقافى وجهلهم بكثير من **المعتقدات** والاوضاع الاسلامية كان من صعوبات البحث شند تفسير **معاهداتهم وتحليلاتهم**، ثم صعوبة أخرى تمثلت فى شدم تحديد المقاييس والموازين التى **نكرها الرحالة** وشدم معرفتهم العلمية بها ومن ناحية أخرى نجدها غير **متوافقة مع المقاييس** والموازين فى العصر المملوكى بالاضافة إلى اختلاف تلك **المقاييس والموازين** شن بعضها فى جهات مصر والعام فى العصور الوسطى حيث **كان كل إقليم** يتعامل بما تعارف شليه ولم تتفق مع بعضها البعض فى البلاد وكذلك مع ما هو متعارف شليه فى أوربا وبالتالى لا يوجد ترابط بينهم، وسوف أحاول في هذه الدراسة شرض أفكار وأراء هؤلاء الرحالة ثم نقدها مقارنة بالمصادر الإسلامية المعاصرة لآثبات صدقهم أو افترائهم. وقد قسمت الدراسة إلى فصل تمهيدي وأربعة

فصول كالإتي:-

خصصت الفصل التمهيدي لدراسة دوافع الرحلة إلى مصر والعام حيث ظل العرق الإسلامي محط أنظار الرحالة والمسافرين الذين جاءوا من كل حدب وصوب، ثم طرق السفرإلى العرق شن طريق البرأو البحر، وكذلك المخاطر والمصاعب **التي** واجهها الرحالة فى رحلته البحرية فى البحر المتوسط حيث اشتاد الرحالة **القادمون** من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا المجيء إلى مواني‍ء البندقية وجنوه **وبيزه** ومرسيليا براً داخل حدود بلادهم حتى الوصول إلى تلك الموانئ، والتي كانت **تعد أهم** وأقوى وأفضل موانئ البحر المتوسط في أوربا، وكذلك أنواع السفن **وتطورها** وتحسين مستوى الملاحة، ومواشيد السفر التي ارتبطت ب**وصول السلع** العرقية الي المونيء البحر المتوسط، ثم شرض التكاليف التي تحملها **الرحالة منذ** خروجه من وطنه حتي شودته.

أما الفصل الأول، فهو بعنوان "أوضاع وأنظمة **البلاط** المملوكي" وذلك من خلال رؤية الرحالة ومعاهداته، حيث **تناولت في هذا** الفصل الحديث شن الطبقة الحاكمة في الدولة وهي المماليك **وحياتهم الخاصة،** وكذلك السلطان المملوكي الذي كان يعتبر رأس السلطة الحاكمة **وطريقة وصوله** للحكم وهيئته في المجلس وملابسه وحروبه الداخلية وال**خارجية، ثم** أوضحت طرق شقاب المجرمين والخارجين شلي القانون، والنظم الإدارية **والقواشد** التي وضعها المماليك لتنظيم استقبال السفراء الأجانب والوافدين، **وما يلي** ذلك من ضرورة وجود بعض الوظائف الهامة في البلاط المملوكي مثل **الترجمان و** المهمندار.

تناولت في الفصل الثاني "الأوضاع الاقتصادية في مصر والعام" والتى **اشتملت شلي الزراشة** ومصادر المياه -نظم الري- المحاصيل، أما الصناشة فقد **استعرضت** أهم الصناشات مثل النسيج والأقمعة والملابس - الزجاجية - الخعبية - الطوب - السكر والعسل - الخمور - الزيوت - طحن الحبوب - الأسلحة(، ثم انتقلت للحديث شن التجارة بعقيها، الداخلية)طرق التجارة الداخلية البرية والمائية - الأسواق والسلع - تربية الطيور والحيوانات - حركة البيع والعراء(، وكذلك التجارة الخارجية

)شوامل الجذب والبعد – السلع الصادرة والواردة - الموانئ المصرية والعامية - إجراءات دخول السفن الموانئ المملوكية - المنعآت التجارية(.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث شن "الأوضاع الاجتماشية للسكان في مصر والعام"، موضحة مراحل النمو السكاني والظروف والعوامل التى ساهمت فى نمو أو تناقص شدد السكان والذى تمثل فى شدم الاستقرار السياسي داخلياً وخارجياً والتدهور الاقتصادي الملحوظ، وشدم استتباب الأمني الداخلي وانتعار الأوبئة والمجاشات شلى فترات متقاربة، ثم قسمت السكان وفقا لرؤية الرحالة أنفسهم حيث انقسم السكان إلي مسلمين ومسيحيين ويهود وبدو ومعدمين، وتناولت بالعرح والتوضيح حياتهم الاجتماشية وشاداتهم وتقاليهم في المأكل والملبس والأفرح والأحزان، ووسائل الترفية والتسلية والمنعآت الاجتماشية التي اشتمد شليها السكان مثل الحمامات والأسبلة والمدارس.

ثم الفصل الرابع بعنوان "الطوائف الدينية والمزارات المقدسة في مصر والعام" تناولت فيه أحوال الطوائف الدينية المختلفة في مصر والعام، فالطوائف الإسلامية وأهمها ما ذكره الرحالة من العيعة مثل الحعاشون ثم الدروز فقط، ثم الطوائف المسيحية حوالي شعرطوائف ذكرها الرحالة وتحدثوا شن أوضاشهم وشقائدهم وظروف حياتهم ومعيعتهم وأماكن وجودهم، أما الطوائف اليهودية فهي ثلاث طوائف أساسية انتعرت في مصر والعام، ولا يسعنا هنا إلا أن نتعرض أيضاً للمزارات والمقدسات الدينية للطوائف الدينية استكمالاً لموضوع الدراسة.

وأنهيت الدراسة بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها وألحقت بها قائمة بالمصادر والمراجع والدوريات التى استعنت بها فى إشداد هذه الدراسة.

والله أسأل أن يجعل من هذا الجهد شطاءً نافعاً فى مجال البحث العلمى،

والله الموفق والمستعان.

درا ••• ••••••••• در

اشتمدت هذه الدراسة شلى شدة مصادر أصلية إنجليزية وفرنسية، أو مترجمة من اللاتينية إلى الإنجليزية والفرنسية والعربية أيضا، هذا بالإضافة إلى جانب شدة مصادر شربية معاصرة استفدت منها في نقل بعض الآراء والنصوص الأصلية وشقد مقارنة بين النص الأجنبي والنص العربي لإثبات صحة المادة العلمية للوصول إلى بعض الحقائق.

أ و: • •ول ر• •ا• ور •ت

يأتي في مقدمة هذه المصادر كتب الرحلات التي هي أساس الدراسة، والتي خلفها شدد كبير من الرحالة المسيحيين واليهود من رجال الدين أو التجار أو الحجاج أو السفراء وغيرهم الذين زاروا مصر والعام، وترجع أهمية تلك الكتب إلى الملاحظات التي تركها الرحالة شن المدن والسكان والأحداث التاريخية، فقد نزلوا المدن وسجلوا معاهدات قيمة لم تذكرها المصادر الإسلامية المعاصرة وكلما طالت إقامتهم في المدن كلما شرفوا المزيد فيفتحون بنلك سبلا جديدة تكعف غموض بعض الأمور، ولكن رغم ذلك يجب أن نتناول كتاباتهم وآرائهم بشيء من العك والتدقيق بسبب اتجاههم نحو التعويق والإثارة فقد استخدموا كلمات مثيرة وفي غير محلها مما يبعدنا شن الواقع، كما يجب أن نراشي اختلاف الثقافات والأفكار والبيئة التي نعأ فيها كل رحالة وأثرها شلي شخصيته واهتماماته، وهناك بعض الرحالة الذين نقلوا شن الآخرين معافهة دون أن يعاهدوا ما سمعوه ودونوه، والبعض منهم نقل شن بعض المؤلفات السابقة حرفيا دون شرض أو تعليق، وآخرون سجلوا معاهداتهم بعد رجعوهم للوطن بعدة سنوات مما شرضوهم للنسيان فكانت بعض النصوص غير منضبطة وغير متكاملة.

أمكن تقسيم كتب الرحلات إلى كتب رجال الدين الذين تولوا مناصب دينية هامة في بيت المقدس أو الذين زاروا العرق بغرض الحج وزيارة الأماكن الدينية المقدسة، أو التجار الذين اهتموا بالنواحي الاقتصادية، وأهم مصدر لكتب الرحالة الرهبان هو رحلة الراهب "بورخارد من جبل صهيون Burchard of Mount Sion"، والذي

اقترن اسمه بجبل صهيون وذلك بسبب إقامته شلى هذا الجبل أكثر من شعر سنوات حيث كان رئيسا لدير جبل صهيون، وكان بورخارد راهبا دومنيكانى سافر إلى العرق شام ٦٣٠هـ/١٢٣٢م وزار مصر وسوريا وشاش في بيت المقدس ولم يعد إلى ألمانيا حتى تقدم به السن، ويبدو للقارئ أن تاريخ الرحلة كان قبل بداية العصر المملوكي بعدة سنوات إلا أنه قد رجع إلى أوربا ثم شاد إلى بيت المقدس مرة ثانية، ومن خلال مؤلفه نعتقد أنه كتب الرحلة في شعر سنوات وخاصة في المدة التي تتراوح)من ٦٧٤هـ- ١٢٧٥م(إلى)٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥م(والدليل شلى ذلك أنه شاصر فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس)٦٥٨-٦٧٦هـ( )١٢٦٠-١٢٧٧م(وشاهد سقوط بعض القلاع والحصون بفضل مجهوده الحربي، ثم شصر السلطان المنصور قلاوون)٦٧٨-٦٨٩هـ( )١٢٧٩-١٢٩٠م(وشلم بالهدنة بينه وبين فرسان الداوية والإسبتارية[١].

( ) [illegible] ١٩٩٥، ص ١٩

- الدومينيكان: [illegible] Albigeois [illegible]

Margaret ,A history of medieval church 590-1500,London ,1972,pp.150-153.

[illegible] ١٩٨٩م، ص ٢٤٤ [illegible]

- الداوية: [illegible] ١٩٩٠م، ص٧٣ [illegible]

أما بالنسبة لرحلته فقد أفادت الباحثة كثيرا، حيث تناول بورخارد في رحلته جميع مظاهر الحياة في بلاد العام سواء الاجتماشية أو الاقتصادية أو العمرانية أو السياسية في فترة الحروب الصليبية فضلا شن استقراره في الأرض المقدسة وتجول فيها وشرف طرق الوصول إليها ودروبها ومسالكها ومدنها وقراها وأنهارها وشيونها، كما اهتم كثيرا بذكر الأماكن المقدسة فقد كان مرشدا للحجاج، ولذلك جاء وصفه لهذه الأماكن دقيقا، كما لاحظت شليه اشتماده الكبير شلي ما ورد في العهد القديم والعهد الجديد.

وذكر أشياء ذات أهمية شن المسلمين فقد تناول في مؤلفه زراشة قصب السكر وشرح شملية صناشته، كذلك اهتم بالجانب العمراني في العام شند ذكر وصفه للمدن العامية وبنائها ووصف معيعة سكانها من البدو والتركمان وطريقه حياتهم ومعيعتهم، فضلا شن حديثه شن الطوائف الإسلامية ومنهم الحعاشين وهنا نجده قد انفرد شن بقية الرحالة الأجانب الآخرين الذين لم يهتموا بطوائف المسلمين، ويبدو من خلال كتاباته شدم التعصب فقد شاش مع طوائف متعددة ولم يوجه نقدا سلبيا لهم كما تعير كتاباته إلى سعة إطلاشه وثقافته المتنوشة وقدرته شلى استيعاب المعلومات وإلمامه بالأحداث التاريخية السابقة لعهده، ولكن لم تخل كتاباته من الخرافات والأساطير سواء شن القديسين والعهداء أو شن بعض الأماكن المقدسة وخاصة القصة التي أوردها شن رغبة السلطان المملوكي في نقل أشمدة ورخام إحدى الكنائس في بيت المقدس ليزين بها القاهرة وشندما بدأ العمال في العمل ظهر فجأة ثعبان ضخم وشندئذ صرف السلطان النظر شن ذلك وشاد إلى القاهرة (١)، ومن المؤكد أنه إذا ثبت صحة تلك الواقعة فإن السلطان لابد وأنه شلم بشيء ما أو شاهد شيئا ما جعله يلغي فكرة نقل الرخام من الكنيسة ولكن هذه القصة لا يستوشبها العقل وقد ذكر نفس القصة "الراهب

" [illegible] ٢٠٠٧م ص٢٧

ـ الإسبتارية: [illegible] ص٦ [illegible] ٢٢٠).

([illegible] ص[illegible] ١٣

ـ الحعاشون: [illegible] ص٢٠

فيلكس فابري" Filx Fabri" أيضًا، وشلي أية حال فإن بورخارد كان راهب ورحالة تقي ومتسامح ودقيق جدًا في معلوماته وساشدت صحة أقواله الكثير من الرحالة ولذا تعتبر رحلته أفضل وأهم الرحلات.

ثم يليه في الأهمية الراهب "لودولف فون سوخم Ludolph von Suchem" [3] الذي قضى خمس سنوات في العرق من شام)٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م(إلى شام)٧٤٢هـ/ ١٣٤١م(، وكتب "وصف الأراضي المقدسة والطرق المؤدية إليها"، فقد كان قسيسا في أبرشية في كنيسة سوخم وقد ألف كتابه وأهداه لصديقه أسقف بادر بورن شام٧٥١هـ/ ١٣٥٠م بعد شودته من بيت المقدس بعغر سنوات ولذلك فإنه يعتذر في مقدمة رحلته شما قد يقع فيه من أخطاء نظرا لضعف الذاكرة والنسيان فاشتمد بعكل واضح شلى كتابات قديمة، كما نبه القراء إلى أنه لخص بعض المعلومات والأوصاف من رحلات سابقة مثل سقوط شكا [4]، حيث يبدو لنا أن لودولف لم يكن معاصرا لسقوط مملكة شكا شام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م لأنه كان قد مر شلي تلك الأحداث ٤٥ عاما، وبذلك فهو لا يعتبر شاهد شيان لسقوط شكا بل نقله شن السابقين، كما أهتم بالحديث شن ميناء شكا وقال: "أن تجار إيطاليا وغيرهم من أنحاء العالم كانوا ينزلون فيه واشتبر مخزنا ضخما لجميع أنواع السلع والبضائع" [5].

تناول فون سوخم في رحلته الطرق المؤدية إلى الأرض المقدسة فوصفها باختصار دون أن يغفل أحدها، منها الطريق البرى المجري – الأناضولى الذي يمر بالمجر وبلغاريا إلى القسطنطينية مارا بتركيا ورودس، أما الطريق البحري فمن البندقية أو مرسيليا، كما أشار إلى طريق بري آخر يبدأ من أسبانيا إلى شمال أفريقيا، وقدم لنا معلومات طريفة شن الأخطار التي يتعرض لها المسافر في البحر مثل العواصف العديدة والرياح وحدد أسماءها، وكذلك مناطق المياه الضحلة في حوض

)3(Ludolph Von Suchem , Description of the Holy land and the way thither , translated by Aubrey Stewart , London , 1895.

)4(Ludolph ,op.cit, pp. 1-3

)5(Ibid , p. 53.

البحر المتوسط التي تعوق حركة الملاحة ومواشيد السفر المناسبة. ثم قدم لنا معلومات تفصيلية شن الأماكن المقدسة وشن البلاد المقدسة وما جاورها من بلاد العرق من الناحية الجغرافية والتاريخية والاجتماشية، فتحدث شن أحوال البلاد وقراها وأماكنها الحصينة وقلاشها وسكانها وأماكن التعبد فيها، وتناول الحديث شن الطوائف النصرانية المختلفة كالسريان واليونانيين والأرمن والموارنة وغيرهم، ولكنه خلط بين التاريخ والقصص والعائعات كأنه دون كل ما سمعه دون نقد أو تصحيح.

أما الراهب الأب "فرانسيسكو سوريانو Francisco Souriano"[6] البندقي الأصل ولد شام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م وهو من أسرة تجارية نبيلة، تعلم في المدرسة ، وشندما بلغ سن ١٢ سنة اشتغل بتجارة السفن مع شمه في سواحل البحر المتوسط، وزار اليونان وبيروت والإسكندرية، وشاهد في رحلته شواطئ شمال أفريقا وتعرف شلى شادات وتقاليد السكان، وكان مطلعا شلى فنادق المدن البحرية شن طريق التجار الأوربيين، وشند سن ٢٥ سنة أصبح راهبا فرنسيسكاني، وكانت رحلته الأولى بعد الرهبنة من شام)٨٨٦هـ ١٤٨١م(إلى)٨٨٩هـ- ١٤٨٤م(إلى بيت المقدس وكان مساشدا للراهب "بولا كانتو Paul de Canneto" الذي شين رئيسا لدير جبل صهيون وشين سوريانو في دير في بيروت وأصبحت مهمته مساشدة المسيحيين الذين كانوا أسرى حرب وتحولوا شن المسيحية، وقد اختير لتلك المهمة لمعرفته باللغة العربية ولصغر سنه، ثم شاد إلى البندقية شام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م، ومرة أخري إلى بيت المقدس رئيسا لدير جبل صهيون من شام)٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م(إلى شام)٩٢١هـ/ ١٥١٥م([7]، وقد استفادت الباحثة من الرحلة في تحديد تكاليف ومصاريف الحجاج

)6(Souriano ,)F.(, Treaties on the holy Land , translated by Fr. Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948.

)7(Souriano, Treaties on the holy Land ,p p. 1-2.

إلى بيت المقدس شبر البحر والبر إلى يافا وقدم وصفا تفصيليا دقيقا ومنهجيا للتكاليف والرسوم المدفوشة معتملة شلى أجرة السفينة وضرائب الجمرك ورسوم دخول الأماكن المقدسة وإجراءات الدخول في الميناء حتى العودة للوطن، والأمر الآخر والأكثر أهمية هو العرض المفصل الدقيق للطوائف النصرانية الععرة، حيث تحدث شن كل طائفة شلى حدا واختلافهم شن بعض ثم شرض لأهم مهام ومسئوليات رئيس الدير، كما استمر في وصف الطرق والحقول والمدن وموانيها ومحاصيلها، واختص بالذكر والإسهاب الأرض المقدسة من حيث المناخ والتربة والمحاصيل والحيوانات والطيور فيها، وخصص جزءا شن شبادات المسلمين مثل الصلاة والصيام وتناول حقوق المرأة المسلمة شند الزواج وطريقة المعاملة بين الرجل و المرأة، ورغم استمرار وجوده في بلاد العام حتى أواخر العصر المملوكي إلا أنه لم يذكر التدهور الذي حدث في الدولة ولم يهتم بالنواحي السياسية في المنطقة بل كان اهتمامه منصبا شلى الوصف الجغرافي ووصف الحياة الاجتماعية للسكان وتقديم الخدمات والإرشادات اللازمة للحجاج(8).

---

(8) Souriano,op.cit,pp.33-36.

أما الرحلة التي تحمل شنوان "معاهدات وتجولات فيلكس فابرى Filx Fabri" فتنسب للراهب الألماني الدومنيكاني فيلكس فابرى [9] وقد ترجمت من اللاتينية إلى الفرنسية والإنجليزية المقسمة إلى أربعة أجزاء - وينتهي الجزء الرابع بوصول الرحالة إلى سيناء - ضمن مجموشة حجاج بيت المقدس ويرمز لها((Palestine Pilgrims Text Society، أما النسخة الفرنسية [10] فهي مقسمة إلى ثلاثة أجزاء تعمل الرحلة كاملة وقد اشتمدت شليها فيما يختص بالحديث شن القاهرة والإسكندرية، وقد زار العرق مرتين، الأولى كانت قصيرة أما الثانية فكانت من شام)٨٨٦هـ/ ١٤٨١م(إلى شام)٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م(وسجلها بدقة وإسهاب شديد، وقد سعى لذلك تنفيذًا للعهد الذي قطعه شلى نفسه لإخوانه الرهبان في دير "أولم Ulm" بأن يسجل كل ما يعاهده تسجيلًا دقيقًا وواقعيًا حول الأماكن المقدسة وشن كل ما نزل به في رحلته ولكنه أيضًا قد أضاف بعض النصوص شن الأماكن التي لم يزرها قط بل سمع حولها أو قرأ شنها من روايات سابقة [11].

تبين من خلال رحلة الراهب فابرى أنه متعصب كثيرا لديانته فكثرا ما انتقد المسلمين وطريقة حياتهم وأتهمهم بالكثير دون تحرى الأسباب وفهم الأحداث بدقة، كما وصف المرأة المسلمة بالخلاعة، وفى نفس الوقت اختلط بالطوائف المسيحية المختلفة ورأى أن كل الطوائف غارقة في الآثام والخطايا وكلهم يخطئون في فهم العقيدة وبالتالي فهم هراطقة ولا يستحقون الرحمة، أما أفضل طائفة فهي طائفة الدومينيكان التي ينتمي إليها، وتتميز كتابات فابرى بالإسهاب العديد وخاصة شند الحديث شن النواحي الدينية، فنجده استخدم المنهج السردي الوصفي التفصيلي والتحليلي أيضا شند ذكر المزارات المقدسة مثل الكنائس والأديرة وذلك باستخدام المقاييس المتنوشة مثل الذراع و الخطوات، ولم يكتف بالزيارة مرة بل قام بزيارة تلك

)[9](Fabri ,)F.(, The book of the Wandering of Felix Fabri , trans. by Aubrey Stewart , London , 1896.

)[10](Fabri ,)F.(, Le Voyage en Egypte 1483, trad. Du Latin Presente et annote par J. Masson , Le Caire , 1975.

)[11](Fabri , The book of the Wandering , vol 1 part 1, pp. ii – iv.

الأماكن المقدسة شدة مرات ليستطيع تدوينها بأمانة ودقة، كما ذكر آيات كثيرة من الإنجيل ومن أقوال وأشعار القديس جيروم شن السيد المسيح و الحج إلى الأراضي المقدسة، وقرأ رحلات بورخارد ولودولف وغيرهم مما سبب له الحيرة والارتباك لأن وصف الأماكن المقدسة لم يكن متفقا مع ما رآه، وقد استفادت الباحثة من رحلته شند الحديث شن الصعوبات والمخاطر التي يواجهها الرحالة في السفر في البحر والتعليمات التى قدمها للمسافرين والعروط التي يجب أخذها في الاشتبار شند الاتفاق شلى العقد مع القبطان، وكذلك شند وصف الأماكن المقدسة وخاصة كنيسة الضريح المقدس)كنيسة القيامة(ووصف الضريح ذاته، وكنيسة الميلاد، كما وصف معبد السيد Templum Domini)مسجد قبة الصخرة(وأنه مقدس شند المسلمين وهم مستعدون للدفاع شنه والتخلي عن أي مكان باستثناء المعبد، كما وصف الطريق البرى من غزة إلى سانت كاترين شبر الصحراء وصفاً بالغاً في الدقة والأهمية، ثم تحدث حديثا مطولا شن حاكم غزة وشن سلطة المماليك ومدي الخوف الذي كانوا يسببونه للسكان، كما وصف بدو سيناء وكيف كانوا يهاجمون القوافل وذكر ملابسهم وحياتهم الخاصة وكيف تعرض لخطرهم شدة مرات، وزار دير سانت كاترين وقال شنه "أن هناك حدائق جميلة ورائعة في الدير بها أنواع شديدة من الفاكهة الجيدة والتي كان الرهبان يرسلون منها إلى السلطان في القاهرة" ثم اتجه إلى الطور ثم القاهرة وتقابل مع رئيس التراجمة الذي أسكنه في منزله، وشاهد فيه ما يعبه حديقة الحيوان أو السيرك [١٢]، ومن ناحية أخرى فقد أهمل فابرى ذكر الجوانب السياسية والعسكرية.

وهناك أيضًا الكتاب المتفرد "الرحالة اليهود "Jewish Travelers" [١٣] ومؤلفه أدلر"Adler" لأنه يتضمن فقط العديد من الرحالة اليهود الذين زاروا مصر والعام من شام)٣٤٩هـ/ ٩٦٠م(إلى)شام ١١٧٧هـ/ ١٧٥٥م(، ويهمنا في البحث ثلاثة من الرحالة اليهود هم "إسحاق بن شلو الأسباني Isaac ben Joseph ibn

)[12](Fabri , The book of the Wandering , vol 1 part 1, , pp. 56-89,261-246,265 ff.
[illegible]

)[13](London , 1930. Adler,)E.N.(, Jewish Travelers, 1 ed

Chelo" الذي هاجر مع أسرته إلى بيت المقدس شام٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م وأقام هناك وفى شام٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م أرسل إلى أبيه وأصدقائه برسالة فيها وصف مختصر للقدس واتبعه بوصف شامل ومفصل للطرق التي تصل القدس بالمدن الفلسطينية الأخرى، وأهم ما ذكره في الرحلة هو الحديث شن اليهود في فلسطين وشلاقة المدن والقرى بالحوادث التي ذكرت في التوراة، كما تحدث شن أبواب القدس ومزارات اليهود المقدسة في نظره مثل برج داوود، وقصر سليمان، وقبر القديسة هيلدا) [١٤].

أما الرحالة اليهودي الآخر فهو "الرابى ميعولم بن مناحم الفولتيرى Rabbi Meshullam ben Menahem of Volterra" فقد قام بزيارة الدعرق العربي شام ٨٨٦هـ/١٤٨١م، والرحالة الثالث هو "شوبديا برتينورو Obadiah DA Bertinoro"، وقد تضمنت رحلاتهما التنقل بين الإسكندرية والقاهرة وغزة والخليل والقدس ويافا وبيروت ودمعق، وذكر معلومات مفيدة شن الناجيد رئيس اليهود وشن دوره ومهامه والنعاط المختلف للطوائف اليهودية وشادات وتقاليد اليهود وأحوالهم الدينية والاجتماشية وأشيادهم، وكلاهما شديد الملاحظة وشديد العناية بالتعرف شلى الأشخاص والأماكن، كما وصف ملابس السكان، ووصفوا القاهرة بأنها مدينة كبيرة وهى أكثر حجما من أربعة مدن إيطالية، ومزدحمة السكان، كما أوضحا شاداتهم وتقاليدهم وشقائدهم المختلفة والمتنوشة ومدنهم وأسوارهم وأسواقهم، ويوضح ميعولم أشداد اليهود وأشمالهم ويلفت نظر بني ديانته أن يلبسوا زي التجار المسلمين شند السفر مع القوافل العربية في الصحراء حتى لا يتعرضوا لأذى العربان في الطريق، ثم حكي شن المؤامرة التي تعرض لها من قبل العربان بين الخليل والقدس، كما شاهد بنفسه معاقبة السلطان للمماليك والعربان الذين يعتدون شلى القوافل، كما ذكر بعض أنواع الأمراض التي يصاب بها المسافر في الصحراء وطريقة شلاجها مثل لدغة قملة فرشون واستخدام شصير الليمون للتخلص من آثارها) [١٥].

ولا ننسى أيضًا الرحالة الألماني الفارس "أرنولد فون هارف Arnold von

---

)14(Ibid , pp.130- 149.

)15(Adler ,op.cit pp. 157-171, 178 , 219 -229.

"Harff" [16] الذي زار مصر شام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، وأمدنا بالعديد من المعلومات التى أفادت البحث في كثير من المواضع، فقد اهتم بالنواحي الاقتصادية فتناول الحديث شن موانئ مصر وخاصة الإسكندرية وميناء الطور وأهمية ذلك للتجار البنادقة وحجم البضائع العرقية وأسعارها ومدى الكسب المادي الذي حصلت شليه مصر والبندقية كوسيط تجارى بين مصر وأوربا ووصف ميناء الإسكندرية والتقاليد المتبعة في استقبال المسافرين الوافدين إلى الميناء فيقول: "إن حاكم الثغر يرسل رسولا ونحن في شرض البحر ليسأل شنا وشن هدفنا من الرحلة ويعرف شددنا وحجم البضائع شلي السفينة ثم يرسلها إلى الحاكم الذى يرسلها بدوره للسلطان في القاهرة ليعطي الإذن بدخول السفينة" كما ذكر الضريبة التي يدفعها التجار والحجاج، وكذلك ملابس السكان من المماليك والعامة من اليهود والمسلمين والمسيحيين نساءً ورجالا، كما تناول بالذكر الصراشات بين الأمراء المماليك للوصول إلى السلطة وتنقلاته مع اثنين من المماليك من أصل ألماني وشلم منهم الكثير شن الحياة في مصر، وأهم ما ذكر في هذه الرحلة هي الرسوم والصور التي رسمها لملابس السكان [17]، ورحلته في الحقيقة خالية من التعصب أو التكلف والمبالغة بل كان محايدًا وصريحًا.

ومن كتب الرحلات العاملة التي أمدتنا بصورة واضحة شن المجتمع المصري وأحواله الاقتصادية والاجتماشية والسياسية ما سجله الرحالة الأصدقاء الثلاثة "فريسكو بالدى Frescobaldi" و"جيوشى Gucci" و"سيجولى Sigoli" [18] وهم مواطنون من فلورنسا الإيطالية وجميعهم من أسر فلورنسية شريقة ونبيلة وصحبهم خدمهم وكانوا جميعا في رحلة حج إلى مصر والأرض المقدسة شام ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م أي في بداية حكم المماليك الجراكسة)٧٨٤-٩٢٢ هـ( )١٣٨٢-١٥١٧م(، وتولى

)16(Harff ,)A.V.(, The Pilgrimage of Arnold Von Harff , trans by Letts Malcolm , London , 1946.

)17(Ibid, pp. 67-71,92-94,103 -105 123 -129.

)18(Frescobaldi , Gucci , Sigoli , A visit to the Holy Places , trans. by Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948.

الظاهر برقوق السلطة)٧٨٤-٧٩١هـ( )١٣٨٢-١٣٨٩م(، وتكمن أهمية هذه الرحلة في كونها رحلة متكاملة كتبها ثلاثة أصدقاء لذلك جاءت رحلتهم مترابطة ومتعابكة وكل نص يكمل النص الآخر، وقد أوضحوا قيمة المال في الرحلة حيث تحدثوا كثيرا شن أسعار السلع والبضائع والأجور التي يأخذها المكاري والمترجم والدليل، ووصف فريسكو بالدي فنادق الأجانب في الإسكندرية وصفا معماريا جيدا، وشن حجم السلع المكدسة في فنادق البنادقة، وحدد الإجراءات المتبعة في الميناء شند دخول السفن الأجنبية والقواشد التي وضعتها السلطات الحاكمة لتفتيش السفن والركاب والبضائع، وقد وصفوا المدن التي زاروها ونعاط سكانها والطرق التي سلكوها والجاليات الأجنبية التي شاهدوها في تلك المدن، وأهم ما لفت نظرهم بصفة شامة، التحصينات العسكرية في الثغور المصرية وخاصة ميناء الإسكندرية، أما سيجولى فقد استرشى انتباهه شدد السكان وملابسهم وشاداتهم وتقاليدهم، وشن اتساع القاهرة وشوارشها، واستتباب الأمن في العاصمة فلم يجد شخصا يحمل سلاحا شلى شكس ما كان في الغرب الأوربي، وقد أراد فريسكو بالدى السفر إلى جنوب مصر ولكن الطريق كان مغلقا في وجه الأجانب لأنهم بذلك سيعرفون الطريق السري إلى التجارة الهندية شن طريق صعيد مصر وهذا أيضا ما أكده الرحالة لانجلير، ثم سافر من القاهرة إلى سيناء حيث دير سانت كاترين، ثم إلى فلسطين وبيروت ثم العودة إلى البندقية شن طريق قبرص وكريت[١٩].

وكتاب "إيمانويل بيلوتي الكريتي Emmanuel Piloti de Crete"[٢٠] وهو مواطن كريتي له خبرة طويلة في بلاد شديدة من العرق، وكان تاجرًا ثريًا في منطقة شرق البحر المتوسط فيما بين شام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م وشام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، وامتلك مخازن تجارية في القاهرة والإسكندرية، واستمر في تنقلاته لمدة أربعين شامًا وشاصر خمسة من سلاطين المماليك، وقد كسب صداقة السلطان الظاهر برقوق

)19(Frescobaldi, A visit to the Holy Places, pp.35- 44, 66, 105 -133, 16-171.

)20(Dopp , Le Egypt du Commencement du 15 Siecle de Apres le Traite de Emmanuel Piloti de Crete 1420 , Le Caire , 1950.

ولذلك شهد إليه بمهمة دبلوماسية صعبة وقد نفذها شلى أكمل وجه مما جعله محببًا ومقربًا إليه، وكان رجلًا ذا فطنة وقوة ملاحظة حيث شاهد الطرق المستخدمة في تدريب المماليك الجدد، ونتيجة أقامته في القاهرة والإسكندرية فترة طويلة أدرك حجم التجارة التي تمر من خلال مبنى الجمرك بالإسكندرية مما جعله يؤكد أن القاهرة وباقي المدن لن تكون هكذا بدون مدينة الإسكندرية، كما وصف واردات الأقمعة الصوفية من إقليم الفلاندرز، وبرشلونة، والبندقية وغيرها من السلع والمنتجات الغربية، بالإضافة إلى التوابل والفلفل العرقي التي كانت تساوى مبالغ طائلة، كما كان يتم تصدير كميات كبيرة من السكر والعطور والكتان والقطن والحرير الممتاز والحيوانات والطيور [21].

زار الرحالة الألماني "يوحنا بولونير Johan Poloner" [22] العام شام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م، ويلاحظ شلى كتابات بولونير أنها متعابه مع كتابات الرحالة الراهب بورخارد من جبل صهيون حيث يتوافق شرحه بالكلمات نفسها مع كلمات بورخارد - الذي شاش في بيت المقدس وتوفى قبل مجيء بولونير بسنوات شديدة - مع أنها تختلف في الترتيب، ولقد لاحظت الباحثة وجود توافق مستمر بين الأماكن التي رآها بولونير والتي رآها فابرى وبورخارد أيضا، وهناك شبارات صريحة وواضحة تدل شلى ذلك، ولذلك فمن المؤكد أن بولونير قد نقل حرفيا من بورخارد، كما أنه لم يصف كنيسة الضريح المقدس والتي كانت هدفا أساسياً في الرحلة، ولدى قراءة الرحلة نجدها كتلة واحدة ولا يوجد في كلامه ما يعير إلى أنه سيخصص جزء من الرحلة لعرح ووصف الكنيسة، بالإضافة إلى أنه لم يقدم لنا حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، أما أهمية الرحلة فترجع إلى أنه أول حاج رسم خريطة للأرض المقدسة وقسم فيها البلاد إلى مربعات كثيرة العدد.

وهناك رحلة السفير البندقى "دومينكو تريفزانى Dominco Trevisani" [23]
زار [illegible] م ٩١٨هـ/ ١٥١٢م و أر [illegible]

[21] (Dopp , Le Egypte , pp.17-18 , 21-26, 43-63.

[22] (Poloner ,)J.(, Description of the Holy Land 1421 , trans by Aubrey Stewart , in P.P.T.S , vol 6 , London , 1894.

[23] (Schefer ,)C.H.(, Le Voyage de Jean Thenaud et Dominico Trevisani , Paris , 1864.

[illegible]

أما الرحالة الإيطالي "لودفيكو فارتيما "Ludovico Di Varthema"[25] فهو إيطالي المولد فقط ثم شاش في البرتغال وربما كان رجلا شسكريا نتيجة اهتمامه بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية في رحلته وفى نفس الوقت فإنه كان شلى صلة بملك البرتغال وكون شلاقة قوية معه جعلته يحصل منه شلى شهادة الفروسية، فكانت رحلته بمثابة جزء من جهود الملك البرتغالي في اكتعاف الطرق المؤدية إلى ثروات العرق شامة والهند خاصة وقد تلامنت رحلته من شام)٩٠٩هـ/١٥٠٣م(إلى شام)٩١٥هـ/١٥٠٩م(لمصر والعام والحجاز واليمن مع رحلات فاسكو دى جاما لتحقيق نفس الهدف، وكانت مهمته وصف شادات العموب ووصف المدن وحياة المماليك فيها وشاهد بنفسه سلطة المماليك وقوتهم وتسلطهم شلى الناس، ولكي يصل إلى الحجاز والبحر الأحمر قدم نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج الفارسي شلى اشتبار أنه الحاج يونس المصري وفى بلاد الهند باسم يونس الفارسي، ولاحظنا أن وصفه لمصر والعام قد اقتصر شلى مدن معينة مثل القاهرة والإسكندرية ودمعق وحماة وبيروت، وأسهب واشتنى بوصف بلاد اليمن والهند وهذا دليل واضح شلى أن مهمته كانت التجسس وإرسال المعلومات اللازمة للملك البرتغالي)[26].

)24(Schefer, Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 180- 191, 205 -207.

)25([illegible] ١٩٩٤م

)26([illegible] ص ١٢، ٢٣-٣٢

"Ghillebert de Lannoy"[27]

- اشتماد الرحالة شلى ما جاء في الكتاب المقدس من التوراة والإنجيل وأشعار القديسين وأقوالهم وخاصة شند وصف المزارات الدينية المقدسة لزيادة قدسيتها.
- اتجه بعض الرحالة إلى الاقتباس من الرحلات السابقة أو السرقة منها متعمدا مثل يوحنا بولونير وغيره.
- ذكر الخرافات والأساطير شن العخصيات الهامة أو شن الأماكن الدينية لإضفاء قدر من الإثارة.
- شدم ذكر أسماء بعض المناطق والأسواق والعوارع كما هى، وشدم القدرة شلى تحديد المكان بدقة.
- لم يصف الرحالة ملابس سكان الريف بل اهتموا بذكر ملابس الطبقة الحاكمة والععب في المدن وربما يعود ذلك إلى أنهم لم ينزلوا القرى أو يقيموا فيها بل كانت إقامتهم في المدن والثغور.
- أغفل الرحالة ذكر مساحة الأراضي الزراشية وتقسيمها ونظام الملكية

---

(27) Potvin,)C.H(,Oeuvres de Ghillebert de Lannoy, London, 1878.

والتغيير الذى حدث للأرض، في حين أنهم اهتموا كثيرا بذكر مصادر المياه وخاصة نهر النيل وطوله وشرضه وفيضانه وفائدته.

تكرار قول الرحالة بازدحام المدن الكبرى حتى في وقت الضعف وتدهور الأحوال الداخلية ويرجع ذلك إلى ضيق العوارع وكثرة المنازل المتلاصقة، بالإضافة إلى قله السكان في أوربا بالنسبة للعرق.

ذكر بعض المزارات والأماكن الدينية الهامة والتي لم تذكر في المصادر العربية المعاصرة.

استخدموا لفظ أو كلمة بابليون شند الحديث شن القاهرة أو مصر، لأنه الاسم الذي شرفه الأوربيون في العصور الوسطى.

كما استخدموا كلمة "moors" وتعنى المغاربة، وكذلك كلمة الكفار للدلالة شلى المسلمين بصفة شامة. وأيضا كلمة Saracen وتعنى السراقنة أو السوريين وقد اتسع مدلولها في شصر الحروب الصليبية، حيث أطلق الحجاج والمؤرخون الصليبيون هذه الكلمة شلى المسلمين وكثر تفسيرها فقد أرجعها البعض إلى قبيلة السوارقة أو السواركة التي كانت تسكن الساحل بين غزة والفرما، ورأى آخر أنها معتقة من لفظ سرق ويقصد بهم البدو الذين شاشوا شلي السلب والنهب، في حين رأى آخرون أن اللفظ معتق من شرق بمعنى الجهة [8].

تعرض بعض الرحالة للحبس والاشتقال مثل جستيل وكازولا وفون هارف وقت غارات القراصنة شلى السواحل المصرية والعامية، وهذا يعنى أنهم كانوا رهائن في أيدي السلطات الحاكمة وورقة تضغط بها شلى القراصنة والدول التي تساشدهم لإجبارهم شلى كف أيديهم شن الثغور والسفن المملوكية في البحر المتوسط.

أكد الرحالة شدم استتباب الأمن في الطرق الصحراوية وتعرضهم لأذى العربان كثيرا رغم الجهود العسكرية التي قام بها سلاطين المماليك إلا أنهم سرشان ما كانوا يعودون دون خعية السلطان.

كما توجد بعض المصادر الأجنبية الهامة والتي أفادت الباحث كثيرا في موضوع الدراسة مثل، كتاب توماس رايت Wright بعنوان " Early travelers in Palestine" وبه العديد من الرحلات التي ترجمها المؤلف من اللاتينية أو الفرنسية إلى الإنجليزية، و كتاب "The book of Margery Kemp" للمؤلف سكينر

([8]) مز ودك و ٠ا٠ ار ٠ا٠ ٠٠٠٠،٠٠ ص٣.

Skiner وهو أول شرض لرحلة سيدة إنجليزية سافرت للأراضي المقدسة لطلب الغفران، وكذلك كتاب " The Travel of Martin Baumgarten through Egypt , Syria , Palestine" لصاحب الرحلة ذاته وهو مارتين بوم جارتن، ثم الكتاب الذى جمع فيه المؤرخ والكاتب "دوب "Dopp مجموشة من الرحلات المختصرة في شصر المماليك ويحمل شنوان " Le Caire vu par les Voyageures"، وأيضًا كتاب " Canon Petro Casola Pilgrimage to Jerusalem" والذي ترجمة الكاتب Newett.

ـ••• •• دور • •:•

أما فيما يتعلق بالمصادر التاريخية التي اشتمدنا شليها في هذه الدراسة، فيأتي شلى رأسها كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي المتوفى شام ٨٤٥هـ / ١٤٤١م [٩] الذي أفاد الباحثة في الإشارة إلى مظاهر النمو والازدهار في الدولة، ثم مظاهر الانهيار، وأثر ذلك شلى الوجود الأجنبي في الدولة المملوكية، كما أشار إلى موقف السلطات المملوكية من الأجانب المقيمين في حالة الغارات التي شنها القراصنة شلى السواحل المصرية، و شلاقة السلطان المملوكي بالعربان، ووصف شادات وتقاليد المصريين وملابسهم ومعيعتهم، وكذلك كتابه "المواشظ والاشتبار بذكر الخطط والآثار" [١٠] الذي يعد من أشهر مؤلفاته حيث تناول فيه ذكر الخانات والحمامات في القاهرة، وكذلك تاريخ ذعأة الطوائف الدينية للنصارى واليهود في مصر فقط وأماكن تواجدهم وحياتهم الخاصة وطقوسهم واختلافهم شن بعض، وذكر الكنائس والأديرة اليهودية والنصرانية. ويليه كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس المتوفى ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م [١١] الذي يعد أحد المصادر الإسلامية المعاصرة حيث أضاف تفصيلات واضحة للحالة المتردية في المجتمع المصري والأخطار الخارجية التي واجهت الدولة المملوكية في العصر الجركسي متمثلة في الخطر العثماني والبرتغالي والوسائل إلى اتخذتها السلطات المملوكية لمواجهة هذين الخطرين، وكذلك سوء معاملة المماليك للناس ومصادرة الأموال والأراضي وهجمات

---

(٩) [illegible] ١٢م" [illegible]
[illegible] ١٩٧٠م
(١٠) [illegible] ١٩٩٦م
(١١) [illegible]
[illegible] ١٩٨٢

المماليك شلى الأسواق والمحلات التجارية وشن شلاقتهم بالسلطان.

كذلك يأتي كتاب "الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل" [٢]، ومؤلفه هو مجير الدين الحنبلي المتوفى شام ٩٢٨ هـ/١٥٢١م مثالا لكتب التراث والتاريخ المحلى، وهو من أبناء بيت المقدس وكان معاصرا للفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك، واتصفت كتاباته بالأمانة والدقة، كما لم تكن كتاباته تكملة للمصادر الأخرى، بل هو كتاب متفرد ومتميز في تاريخ القدس والخليل، ويعتبر أيضا موسوشة تاريخية احتوت شلى السير والتراجم لعخصيات سياسية ودينية وأدبية وشلماء معهورين في شصره، كما أمدت الباحثة بصورة تخطيطية لمدينة القدس فذكر أبوابها ومبانيها وشوارشها وحاراتها وأسواقها والخانات والقياسر وهذا الجزء الثاني مثز كتاب الخطط للمقريزي، كما حدثنا شن اضطراب الحياة الاقتصادية وأسبابه، إلى جانب التركيبة السكانية والطوائف المختلفة في المدينة والعلاقات بينها، وأهم المزارات والمقدسات الدينية لتلك الطوائف وتاريخ بنائها والتطورات التي حدثت شليها مثل المسجد الأقصى وأبوابه والمدارس التابعة للمسجد وطريقة التعليم، ومسجد الصخرة، وكنيسة القيامة، وكنيسة الميلاد، وأديرة اليهود، بالإضافة إلى ذكره للمنعآت الاجتماشية مثل الأسبلة والحمامات.

ومن المؤلفات العاملة كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" [٣] لمؤلفه ابن فضل الله العمري المتوفى شام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، وكان كاتب السر في البلاط المملوكي، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أنه مصدر شامل يضم معارف شديدة ومعلومات متنوشة شن الديانات والتاريخ والآثار والمعلومات المتوفرة شن الحياة الاجتماشية والاقتصادية والنظم الإدارية ووظائف البلاط المملوكي في مصر والعام وبيت المقدس، وخصص لكل منهم فصلًا مستقلًا.

[illegible] ٧٣٠هـ/ ١٣٠٤م [٤] وهـ [illegible]

[illegible]

---

(٢) [illegible] ١٩٧٣ م

(٣) [illegible] الله [illegible] ١٩٨٦ م

(٤) [illegible] ١٩٦٠

[illegible] وخاصة العيعة.

ومن كتب الفقه، كتاب الفقيه المغربي "ابن الحاج" المتوفى)٧٣٧هـ/ ١٣٣٦ م((٣٦) الذي انفرد بأهمية كبيرة لأنه تضمن الكثير من المعلومات حول شادات وتقاليد المجتمع المصري في القرن الثامن الهجري / الرابع شعر الميلادي، كما وضح أيضا روح التفاهم والوئام التي سادت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة من اليهود والنصارى واشتراك الجميع في شادات وتقاليد واحدة وتعبههم بالبعض وخاصة في الأشياد والمناسبات المتنوشة، ومن ناحية أخرى فإنه وجه النقد اللاذع لمختلف نواحي الحياة لما ساد فيها من فساد أخلاقي وديني وسخر من بعض الأوضاع السائدة في شصره، ويأتي بعده في الأهمية كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة (٣٧) الذي حدد

---

(٣٥) [illegible]

(٣٦) [illegible] ١٩٨١ م

(٣٧) [illegible]

العروط والقيود التى كان شلى أهل الذمة أن يخضعوا لها وقد أوضح ابن الأخوة أنها قيود نظرية لا تطبق في الواقع حيث لم توجد فروق واضحة بين المسلمين وبين أهل الذمة، كما أكد مدى حرص المحتسب شلى الاهتمام بالنظافة العامة ودوره في مراقبة نظافة الحمامات العامة في المدن الكبرى.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

اتصل الأوربيون بالعرق الإسلامي منذ العصور القديمة التي شهدت أولى العلاقات التجارية والدينية والعسكرية والسياسية بين أوربا وتلك المنطقة، وبحكم قانون التطور ونمو الحاجات الاجتماشية والعلمية، بالإضافة إلي ظهور سياسات متعددة ومتنوشة في العالم، وخاصة سياسة التبعير الديني المتجه إلي العرق الإسلامي والتي أدت إلى تقوية الصلات والعلاقات في العصور الوسطي.

لقد ظل العرق الإسلامي محط أنظار الرحالة والمسافرين الذين جاءوا من كز حدب وصوب، ولم تتوقف تلك الرحلات، ولكنها كانت أحيانا تزيد وأحياناً تقل، وفقاً للظروف السياسية والعسكرية المحيطة بالمنطقة، ووفقاً للعلاقات بين الدولة المملوكية وبين الدول الأوربية، فكلما كانت العلاقات ودية وطيبة استمر تدفق المسافرين، وشندما كان يتعكر صفو تلك العلاقات وتسوء الأحوال بين الطرفين، أثر ذلك شلى حركة السفر والملاحة وتقل أشداد الرحالة إلا إنها لم تتوقف تماماً.

اشتاد الرحالة الأوربيون زيارة بلاد العرق الإسلامي لأغراض شتى كالسفارات والبعثات أو السياحة أوالاستطلاع أو التجارة أو الحج، وقد جذبتهم تلك البلاد بما فيها من جمال وغنى ومتعة للوافدين، ولم تأخذ تلك الرحلات شكلها الفعلي إلا في القرون الوسطي بمصاحبة الحملات الصليبية شلى العرق وبقيت بعد رحيل الصليبيين مستمرة ولكنها ليست شلى وتيرة واحدة.

تنوشت الأهداف ودوافع الرحالة الذين جاءوا إلي الدولة المملوكية، وتحملوا مصاشب جمة ومخاطر كبيرة، فهنالك من جاء بهدف الحج وزيارة الأماكن المقدسة في مصر والعام والمرتبطة بسيرة السيد المسيح، وكذلك زيارة الأديرة والكنائس والأضرحة الخاصة بالقديسين، أومن جاء راهبا وواشظا ليتم تعيينه في أحد الأديرة، أو كان سفيراً من ملك ما لطلب الصلح أو شقد هدنة أو للتهديد، أو للتجسس، أو لعقد اتفاقيات تجارية والحصول شلى امتيازات تجارية جديدة لرشايا بلاده، بالإضافة إلى

الدوافع الاقتصادية إذ ذهب الكثيرين إلى بلاد العام منذ بداية الحروب الصليبية وأقاموا فيها وحققوا أرباحاً مادية هائلة، نتيجة القيام بدور الوسيط التجاري بين العرق والغرب فتردد الكثير من هؤلاء الرحالة شلى الموانئ المصرية والعامية وتجولوا في البلاد للبيع والعراء. هذا بالإضافة إلي الرغبة في معرفة أوضاع إخوانهم المسيحيين العرقيين للتمهيد لإرسال حملات صليبية أخرى إلى العرق لحماية المقدسات المسيحية في العرق الإسلامي، أو لأسباب خاصة تتعلق برغبة الرحالة ذاته في التجول والاستطلاع للتعرف شلى أحوال الناس ودراسة شادات وتقاليد شعوب جديدة لا يعلم شنها شيئًا.

تعتبر كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا العرق زمن سلاطين المماليك مصادر من الدرجة الأولى إذ إنها شبارة شن سرد للأحداث ووصف للأماكن وفقاً لرؤية شاهد شيان لمس تلك الأمور بنفسه إما شن طريق المعاهدة أو شن طريق الرواية أو المعاركة الفعلية، ولذلك سوف نتناول تلك الدوافع وفقاً لما ذكره الرحالة أنفسهم.

انتعر الحج منذ بداية المسيحية وازداد في قرونها الأولى ولكنه كان نادرًا إلى حد ما، وما أن جاء القرن الثالث الميلادي حتى بدأ المسيحيون بزيارة الأماكن المقدسة وخاصة بعد انتصار المسيحية واشتراف الإمبراطور قنسطنطين الأول Constantine 1) ٣٠٦ – ٣٣٧ م(بها ثم قيامه بالسماح للمسيحيين بالحج إلى الأرض المقدسة، وفى ذلك الوقت وضعت الكنيسة برنامجاً لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين ومصر وشجعت العديد من المسيحيين الأوروبيين "للذهاب ورؤية المناطق التي ولد فيها السيد المسيح وشاش وشمل ونعر دشوته وتعرض للعذاب والخيانة حتى رفع إلى السماء والهدف من ذلك هو المعاركة الروحية لحياة المسيح من خلال تأدية هذه الطقوس الدينية" [٣٨].

اختلفت وجهة النظر في رحلة الحج فالبعض أوضح أنها أكثر من كونها مجرد رحلة، أو أنها العودة إلى الوطن بهدايا تذكارية وقصص ومغامرات شاشها

)38(Encyclopedia of Religion , vol 10 ,2ed , U.S.A, 2005, p.7153.

الحجاج، بل ربما تكون مرحلة هامة تتضمن تغيرات وتحولات داخل وخارج الإنسان وتؤثر في تكوينه، أو أنها مرحلة للبحث شن الهدف العظيم والبحث شن الذات، وآخرون قالوا أن رحلة الحج وسيلة للدخول في إطار التقوى والورع وخاصة أن الكنيسة شجعتهم شلي الرحيل ومنحتهم الغفران حتى لو استغرقت الرحلة شدة شهور، وكان القساوسة يباركون الحجاج وهم يرتدون ملابس الحج لإضفاء صورة روحية ودينية شلي الحاج. ومنذ العصور اليونانية الكلاسيكية حتى اليوم كانت الرحلات الدينية تعنى شيئا هاما ومختلفا لكل شخص ليدرى حقيقة نفسه وحياته (١).

تلازمت رحلات الحج والحملات الصليبية معاً والدليل شلي ذلك أن الحملات الصليبية بدأت شلى أساس أنها رحلات حج)تحت ستار ديني(ورغبة الحجاج في تقديم فروض الطاشة والولاء والندم والتوبة (٢) بدأ الحج المسيحي من فلسطين حيث ولد السيد المسيح وأكمل رسالته ثم إلي مصر مهد الرهبنة المسيحية، ولذلك ليس من المدهش أن تصبح القدس هي نقطة ومركز الحج المسيحي، هذا بالإضافة إلي أنها كانت مركز الحج اليهودي أيضا لأن بها معبد القدس الذي كان يعتبر مكاناً دائماً للحج اليهودي (٣).إلي جانب أنها بقعة إسلامية مقدسة بدأ منها سيدنا محمد صلي الله شليه وسلم رحلة المعراج إلي السماء وبها أيضا المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين العريفين.

هكذا قام كثير من اليهود والنصارى برحلات الحج إلى بيت المقدس منذ سنوات شلى اشتبار أنها من أجمل وأهم المدن في ديانتهم وأصبحت تلك الرحلة جادة وهامة بعد نجاح قنسطنطين الأول في الاشتراف بالمسيحية ديانة رسمية شام ٣١٣ م بعد إصدار مرسوم ميلان، وكانت أول رحلة مسيحية إلى بيت المقدس تلك التي قامت

)1(Coleman,)S.(, and Elsmere)J.(, pilgrimage past and present in the world religions ,Cambridge , 1995 , p.6.

)2(Atiya,)A.S.(,the latter crusades in the middle ages , London ,1938, p.155.

)3(Encyclopedia of religion , p.7152

بها الإمبراطورة القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قنسطنطين وسجلت رحلتها ودونت ما شاهدته وما قدمته من خدمات للأماكن المقدسة، كما بنت هناك كنائس وأديرة وساشدها في ذلك الإمبراطور قنسطنطين ما أدى إلى ذعر المسيحية وتطور رحلة الحج (٢)، وبذلك أصبحت رحلة الحج الحقيقية هي الرحلة إلى الأرض المقدسة ويقصد بها الرحلة إلى بيت المقدس وذلك منذ بداية العصر المسيحي واستمرت إلى القرن السابع الهجري / الثالث شعر الميلادي وحتى بعد سقوط شكا شام ٦٩٠هـ / ١٢٩١ م واضمحلال المملكة الصليبية (٣). ولازالت حتى يومنا هذا.

زادت بذلك أشداد الحجاج إلى فلسطين منذ شام (٤٩٣هـ- إلي٥٨٣ هـ (١٠٩٩م- إلى شام ١١٨٧م) وهى الفترة التي حكم فيها الصليبيون المنطقة وبعد شام ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م حدثت تغيرات وتأثيرات شديدة وهامة، أهمها استخدام القوة التي حققت السلام لكل النصارى فساهم ذلك في حرية الحركة والسفر لمعاهدة الأماكن المقدسة، وبذلك قد أشطى الغزو الصليبي للأراضي المقدسة للناس فرصة سهلة وميسرة للنصارى للسفر إليها فأدى ذلك إلى زيادة واضحة في رحلات الحج في تلك الفترة، وبالتالي زيادة في النصوص المكتوبة (٤). وهناك إشارات واضحة من خلال الرسوم شلى حوائط وسراديب الموتي توضح أن هناك تدفق واضح وثابت لرحلات الحج إلى فلسطين (٥).

اشتمد نظام الكنيسة للتكفير شن الذنوب التي يرتكبها الفرد الكاثوليكي شلى أساس ثلاث مراحل هي الاشتراف والرضا والمصالحة، ثم تطورت مفاهيم الكنيسة حول هذا الموضع بحيث صار شلى المذنب أن يقوم بأشمال قاسية لفترة طويلة للتكفير شن ذنوبه، وكان الحج إلى الأراضي المقدسة واحدا من أهم أشمال التكفير شن

)4(Calemon , pilgrimage past and present , pp.78-80.

)1(Wad,)M.(,Medieval travelers , London ,1983 , p.72.

)2(Renna,)T.(, Jerusalem in medieval through 400-1300 , Lewiston ,2002, p.108, 181.

)3(Gale,)T.(,New catholic encyclopedia ,U.S.A , 2003 , p. 345.

الذنوب، ويستمر ذلك لسنوات طويلة، وكان المذنب يرتدى ملابس وضيعة أوكان يقيد بالسلاسل رمزاً شلى إنه معاقب مؤقتاً بسبب الذنوب التي اقترفها) ﴿٦.

ولم تقتصر رحلات الحج إلى الأراضي المقدسة في العصور الوسطي شلى المذنبين والمجرمين بل قام بتلك الرحلات أيضاً جميع الطبقات، فالملوك والملكات كانوا يفضلون القيام بالرحلة إلى الأضرحة المقدسة في المملكة، وكان النبلاء والسادة ونساء النبلاء يفضلون جميعاً السفر بالسفن أو شن طريق البر إلى الأرض المقدسة أو إلى القسطنطينية، كما سافرت تلك الطبقة العليا من الحجاج في راحة وأمان، محاطة بالرشاية والاهتمام من قبل الحاشية والأتباع، ولكنهم جميعاً كانوا يعتركون في رغبة واحدة هي رؤية المناطق التي شاش فيها السيد المسيح، والحصول شلى البركة والغفران والعكر شند زيارة أضرحة القديسين المعهورين، وفى فترة العصور الوسطي كانت هناك تقوى وورع بين العامة والخاصة وأصبحت رحلة الحج تستحق التقدير والاهتمام وكانت تقوى المرء تكمن في زيارته للأماكن المقدسة بصفة شامة (﴿٧.

ومن بداية شام)٤٩٠هـ /٩٦٠ 'م(وحتى القرن السادس الهجري / الثاني شعر الميلادي، ومع استمرار إرسال الحملات الصليبية إلى الأراضي المقدسة، وفى شام)٥٨٣هـ / ١١٨٧م(استطاع المسلمون بقيادة صلاح الدين استرداد بيت المقدس، وفيما بعد استولي الصليبيون علي جزء صغير من الأراضي المقدسة، وحتى سقوط شكا أخر المعاقل الصليبية في بلاد العام شام ٦٩٠هـ/١٢٩١م(ومنذ القرن الخامس الهجري / الحادي شعر الميلادي، كان الحجاج يتعرضون لأخطار ناتجة شن قطاع الطرق واللصوص، مع انتعار المجاشات والجفاف والطاشون الذي سبب جزشاً للحجاج القادمين، ونتيجة للحروب الصليبية زادت الأسعار والرسوم والضرائب) ﴿٨، وفى شهد المماليك)٦٤٨ – ٩٢٣ هـ( )١٢٥٠ ـ١٥١٧ م(كانوا ينظمون بدقة تلك

)4(Gale, New catholic encyclopedia ,pp. 345 – 385
)1(Wad, Medieval travelers , p.68.
)2(Mina,)K.(,Israel land of Jews , new York , 1972 , p. 165.

الرحلات ويضعون قواشد معينة منذ هبوط الحجاج إلى يافا من السفن البندقية سواء فيما يتعلق بإجراءات استقبال السفن أو التحميل والعحن والنزهة وإشداد المرشدين وجدول مواشيد وصول السفن [٩].

أما مصر فقد حظيت بزيارة الحجاج إليها وأجمعت المراجع والمصادر التي تؤرخ لتاريخ المسيحية أن سيناء أرض مقدسة مثل بيت المقدس وزادت أهميتها بعد أن أصبحت مركزاً لحركة الرهبنة، كما كرمها الرب برحلات الأنبياء والرسل والقديسين في كل مراحلها، وهكذا اشتبرت مصر أرضاً مقدسة وكان أغلب الحجاج الذين يذهبون إلى بيت المقدس يمرون شلى مصر ضمن برنامج الرحلة [١٠].

جاء الرحالة جلبيرت دي لانوى Ghilbert de lanoy إلي العرق بتكليف من ملك فرنسا شارل السادس Charlvi)١٣٨٠ – ١٤٢٢ م(، وملك إنجلترا هنري الخامس Henry v)١٤١٣- ١٤٢٢ م(لدراسة أحواله وتقديم تقرير شنه، وقد قام برحلتين متتاليتين وسجل رحلتيه في ثلاثة أجزاء، حيث جعل الجزء الأول من كتابه المسمى))أسفار وسفارات((شن رحلته الأولى شام)٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م(، والجزء الثاني خصصه لتعداد الأماكن المقدسة وآثار القديسين وما يغلفها من قصص وأساطير، وأفرد الجزء الثالث للحديث شن مصر وبلاد العام في رحلته الثانية شام)٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م(، وشرض فيه لقوة المماليك السياسية والعسكرية، ووصف المدن وأسوارها والقلاع والحصون، والطرق المؤدية إلى هذه البلاد، وكذلك الوسائل المساشدة للدخول إليها بسهولة ويسر، كما تناول الدولة المملوكية فتحدث شن قوة السلاطين وطريقة اغتيالهم وما يصاحب ذلك من حالات اضطراب الأمن، وتحدث كذلك شن الجيش المملوكي وتكوينه والتدريبات العسكرية محدداً مواطن القوة والضعف فيه، فكانت نظرته ذات سمة شسكرية بهدف تحقيق غرض معين [١١].

)3(Callis,)L.(, Memory of medieval women, new York, 1962, p. 52.

)4([illegible] ١٩٨٨، ص ٥

([illegible] ١٩٤٣م ص ١١٣ - ١١٤؛
Potvin ,)C.H.(, Oeuvres de Gillerbert de Lannoy , London , 1878 , pp. 1-44 , 99-112 , See also , Atiya, the latter crusades ,pp. 190 -192.

جاء الرحالة براتراندو لابروكيير Bertrando de la broquière (٨٦٣ هـ / ١٤٣٢ م) إلى العرق بتكليف من قبل دوق برجنديا فيليب الطيب Good Philippe (١٣٩٦ – ١٤٤٦ م) لعمل دراسات حربية لعواطئ بلاد العام ومصر والدردنيل (٥٢)، وهذا ما أكده لابروكيير بنفسه في مقدمة كتابه حيث قال: "لقد كتبت هذه الرحلة لإثارة وجذب قلوب الرجال النبلاء الراغبين في رؤية العالم، وكذلك لإرضاء سيدى دوق برجنديا فيليب الطيب، أنا المواطن براتراندو لابروكيير المندوب المفوض السياسي من قبل الدوق لجمع الأحداث والمعلومات في كتاب صغير شن البلاد الواقعة وراء البحر لمن تحدثه نفسه من ملوك النصارى وأمرائها لغزو بيت المقدس وقيادة جيش مسلح إلى هناك" (٥٣). وهو بذلك يعد أحد دشاة الحروب الصليبية في أوربا في تلك الفترة.

كذلك رحل الراهب جان جيرمان Jean Jermein (٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م) إلى العرق بهدف شسكري، وذلك بطلب من الدوق فيليب الطيب دوق برجنديا الذي لعب دوراً نعطاً ورئيسياً طوال فترة حكمه، حيث كان منعغلاً بفكرة انتزاع مقبرة المسيح من أيدي المسلمين وإنقاذ المسيحيين بفلسطين منهم وخلال انتظاره للحملة التي كان يتمنى دائماً قيادتها قام بتوزيع الكثير من الصدقات في الأراضي المقدسة، كما اشترى مبنى في رام الله شهد بحراسته لرجال الدين الفرنسيسكان وقام باستخدامه كدار للضيافة لرجال الدين والرحالة، كما ساهم في نقل الأخعاب من البندقية إلى بيت لحم لإشادة بناء سقف كنيسة دير صهيون، ولم يكتف بذلك فقد كلف ذلك الأسقف جان جيرمان بتولي أسقفية الكنيسة في دير صهيون، والقيام بالتجول والرحلة في الأراضي المقدسة بصفة خاصة وبالدولة المملوكية بصفة عامة، وذلك للتعرف شلى جوانب القوة والضعف في الدولة وإشداد القوات المملوكية، وكذلك الفتوحات التي قام بها السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٦ – ٨٤٢ هـ) (١٤٢٢- ١٤٣٨ م) لفتح

(52) Schefer, (C.H.), Le Voyage de la Saincte de Hierusalem, Paris, 1882, pp. i – ii.

(53) Wright, (T.), Early travelers in Palestine, London, 1948, p. 283.

قبرص، والسلطان الظاهر جقمق)٨٤٢ – ٨٥٧ هـ( )١٤٣٧ – ١٤٥٣ م(الذي فتح رودس، كما وصف استعدادات القوات التركية في المنطقة للاستعداد لتجهيز حملة صليبية جديدة بالاتفاق مع ملك فرنسا شارل السابع Charl vii)٨٢٦- ٨٦٦هـ( )١٤٢٢ – ١٤٦١ م(ودوق البندقية فرانعيسكو فوسكاري Francesco Foscari)٨٢٧-٨٦٢هـ( )١٤٢٣- ١٤٥٧ م( )٥٤(. هكذا لم تكن دوافع الورع والتقوى والرغبة في الحج وزيارة الأماكن المقدسة فقط هي التي قادت هؤلاء الرحالة في رحلتهم إلي العرق.

هناك أيضا نوع من الرحالة سعى لحث البابا بروما وملوك أوربا لإرسال حملة صليبية إلى العرق كدافع شخصي ولم يكن مفوضاً من قبل دوق أو ملك ما، مثلما فعل الرحالة مارينو سانوتو Marino Sanuto الذي كان يعمل شازفاً في كنائس البندقية، ثم مستعاراً في محكمة بالرمو وقد زار العرق وتجول في البحر المتوسط خمس مرات زار فيها إيطاليا واليونان وأرمينيا وبلاد العام ومصر، وأقام في الحي البندقي في شكا شام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م، واستحوذت شليه فكرة القيام بحملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة، وألف كتاباً خاصاً بذلك تناول فيه أوضاع العرق في ذلك الوقت وطرق الإشداد للحملة، واستغرق ذلك منه ستة عشر عاما حتى أكمله شام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م وقدمه للحبر الأشظم البابا يوحنا الثاني والعرون)٧١٥-٧٣٥هـ( )١٣١٦ – ١٣٣٤ م( )٥٥(. دفعه ذلك أن يقول بنفسه في مستهل كتابه للبابا

---

(54) Germaine ,)J.(, Le Discours du Voyage de Oltremere au tres victoorieux roi Charles vii , R.O.L , tome 3 , Paris ,1895 , pp. 303- 308.

(٥٥) [illegible] ص١٠٤-١٠٥

[illegible] Jacque Duses [illegible] ١٢٤٩٠م [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

"أقدم لكم هذا العمل ولست مدفوشاً من قبل أي ملك أو أمير أو مجموشة أو أي شخص آخر شلى الإطلاق بل بإرادتي الحرة المطلقة، ففكرت في طريقة لإذلال وإبادة أهم وأقوى أشداء الإيمان المسيحي، وخاصة سلطان مصر وإمبراطور التتار العابثين في المناطق الجنوبية وسلطان الأتراك العثمانيين، ولتحقيق هذا الهدف شبرت البحر خمس مرات لأذهب تارة إلى قبرص وصولاً إلى أرمينية أو الإسكندرية ومرة إلى رودس، كما أقمت طويلاً في الإسكندرية وشكا وقد ظمئت نفسي إلى مثل هذا اليوم الذي نحقق فيه السيادة، وإشادة امتلاك الأراضي المقدسة" [٦].

شهد العصر المملوكي انتعار الجواسيس الأجانب في الديار المملوكية وذلك بسبب سوء العلاقات بين المماليك وبعض الدول الأجنبية نتيجة لعمليات القرصنة التي قام بها قراصنة أوربيون منذ سقوط شكا شام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م حتى نهاية العصر المملوكي شلى سواحل البحر المتوسط، فمن الطبيعي أن ترسل تلك الدول جواسيسها وشيونها للاستطلاع، ومعرفة ما يدور داخل الأراضي المصرية والعامية من أحداث وظروف سياسية واقتصادية واجتماشية، لعلها تستفيد من تلك المعلومات في توجيه ضربة لمصر، ولا شك أن هؤلاء القناصل والتجار كانوا بمثابة خطر داخلي شلى الدولة لأنهم أكثر العناصر الأجنبية تردداً شلى الأسواق والمدن المصرية والعامية وأكثر استقرارًا في مصر نتيجة لطبيعة شملهم مما جعل لبعض العخصيات الأوربية صلة مباشرة وشلاقات قوية بالسلاطين المماليك.

يهمنا هنا ما ورد شلى لسان الرحالة من أقوال تساشدنا في أن نستعف أنهم كانوا جواسيس وشيونا لبلادهم في مصر والعام وأهم هؤلاء الرحالة هو لودفيكو فارتيما LudvicoVarthema (٩٠٩ – ٩١٦ هـ) (١٥٠٣ – ١٥١٠ م)، أو كما سمي نفسه الحاج يونس المصري، حيث كانت رحلته جزءا من الجهود البرتغالية في

ا c! و با ✓ ···· ·ا· ا·ن ا! o # ا·ا ···ي ... ! M ·* ·· آ ا ب ظا، ٠٠٦٠٠م
ط ... < (⊙)·· J

([٦] ... رزق الله ... ١٩٩ م ص ٥٥

اكتعاف الطرق المؤدية إلى ثروات العرق شامة والهند خاصة، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الإسلامي، واستمرارا لما يسمونه حرب الاسترداد. وقد قدم فارتيما نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج العربي وبلاد فارس باشتباره الحاج يونس المصري وفي بلاد الهند باسم يونس الفارسي و أحيانا جعل نفسه درويعا صوفيا مما أتاح له الفرصة للتغلغل في المجتمع الإسلامي في العرق)[٧].

كعف فارتيما شن رغبته في معرفة ثمرات ومنتجات العرق بقوله: "قررت شخصيا أن أرى بنفسي وشيني الثمار المختلفة والأشجار العطرية وأجناس الحيوانات والنبات في مصر وسوريا وصحراء شبه الجزيرة العربية وبلاد العرب السعيد وبلاد فارس والهند وإثيوبيا واضعاً في اشتباري أنه ليس من رأي كمن سمع ورغبت في تحقيق بعض التقدير والاحترام مثل السابقين، فقررت أن أتفقد هذا الطريق شاشراً برغبة شارمة لتحقيق الغايات نفسها، وهذا لن ينفع بالدراسة والاستنتاج ولكن بالبحث والمعاهدة والرحلة"، كما أكد الناقد والمؤرخ ياد جريان yadgrian بأن فاريتما كان رحالة إيطاليا، و شسكرياً نتيجة اهتمامه الكبير في رحلته بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية، وكذلك بسبب شلاقته بالكونتيسة وزوجها البرتغالي، وهذا يعنى أنه إيطالي المولد ويعمل لحساب ملك البرتغال)[٨].

سافر بعض الرحالة كذلك من أجل التخفيف شن نفسه نظراً لتعرضه لمصاشب وآلام ومحن وشدائد في حياته الخاصة، مثل السيدة مارجري كمب Margery Kemp)٨٠٦ – ٨١٨ هـ( )١٤١٣– ١٤١٥م(، فقد تعرضت لظروف نفسية سيئة للغاية، حيث إنها كانت قد ارتكبت ذنباً في شبابها ولم تعترف به لأحد، ثم تزوجت وأنجبت طفلها الأول وحاولت الانتحار شدة مرات، كما اتهمتها الكنيسة بالهرطقة فكانت رغبتها في السفر إلى الأراضي المقدسة في أوربا والعرق بهدف

)[٧] [illegible] ب ١٩٩٤م ص١٠

)[٨] [illegible] ص١: ١٧

التكفير شن الذنوب والحصول شلى الراحة النفسية والروحانية التي فقدتها، كما إنها تعرضت لظروف صحية صعبه بسبب شمليات الولادة المتكررة والتي جعلت الكثير من نساء أوربا يعرن بنهاية أجلهن واقتراب الموت منهن بسبب شدم وجود أدوية تخفف آلامهن فوضعت في مصحة نفسية، ثم شادت لطبيعتها ومارست تجارة الخمور ولكنها لم تعر بالاطمئنان والسلام الداخلي فحاولت الرهبنة والدخول في خدمة الكنيسة ولم تفلح في ذلك، فقررت القيام برحلة خاصة لطلب الغفران والحصول شلى السلام النفسي والإيمان الكامل(٥٩)، وكذلك نجد الرحالة الألماني مارتين بوم جارتن Martin Baumgarten (٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م) والذي التحق بالجندية في سن السادسة والعرين ثم تزوج وأنجب أبنتين، ولكنهما توفيتا في سن مبكر ثم توفيت زوجته في العام التالي وبذلك حرم من الزوجة والأولاد، وفى نلك الوقت فكر في السفر لزيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس ومصر فنظر إلى الرحلة والسفر شلى أنها وسيلة للراحة واستعادة الاستقرار النفسي والعاطفي للتخفيف مما أصابه من آلام ومحن(٦٠).

كما جاء بعض الرحالة الآخرين إلى بيت المقدس وبلاد الشام شامة لتولى وظيفة رئيس دير أو كنيسة أو أسقفية كما كان في حالة الرحالة الراهب لودولف فون سوخم Loudolph von suchim (٧٣٧- ٧٤٢ هـ) (١٣٣٦ - ١٣٤١م) والذي شاش في بيت المقدس لمدة خمس سنوات وذلك بموجب أمر تعيينه أسقفا في دير جبل صهيون مما جعل كتاباته تتميز بالدقة والصراحة والقدرة شلى التعبير الواقعي شند سرد الأحداث ووصف العادات والتقاليد ووصف الأرض المقدسة بدقة(٦١).

---

(59) Skinner,)J.(,The book of Margery Kemp , New York , 1998,chaptr,26 , Marty,)W.(, and Echols,)A.(Between pit and pedestal ,Women in the middle ages,Prinston ,1994,pp.41- 45.

(60) Baumgarten ,)M.(, The Travel of Martin Baumgarten through Egypt , Syria , Palestine ,London , N.D, p. 426.

(61) Ludolph Von Suchem , Description of the Holy land and the way thither

كذلك الرحالة الراهب الأب فرانسيسكو سوريانو Fra Fransesco Soriano الذي أرسل إلى الأرض المقدسة من شام ٨٨٦ هـ/ ١٤٨١ م إلي٩٢١ هـ / ١٥١٥ م، ولكن شلى فترات متفاوتة وشاش في بيروت من شام)٨٨٦هـ إلي ٨٩٤ هـ( )شام ١٤٨١ إلى ١٤٨٨ م(، وشمل في دير الرهبنة من أجل مساشدة شدد كبير من التجار للعودة إلى الدين حيث تعرض المسيحيون في ذلك الوقت إلى غضب المسلمين وأصبحوا أسرى وشبيد، وتحولوا شن المسيحية وكان هو الأمل الوحيد لاستعادة هؤلاء المسيحيين وبالفعل استطاع دير الفرنسيسكان في بيروت أن يقوم بتلك المهمة فضلاً شلى معرفة الأب سوريانو باللغة العربية أيضاً[٦٢].

وفد آخرون إلى مصر والعام بهدف السفارة من قبل ملك ما مع اختلاف أهداف السفارات ولكن أهم تلك السفارات هي ما جاءت بهدف تجاري وتحسين العلاقات التجارية بين الدولة المملوكية والدول الأخرى أو الحصول شلى حقوق وامتيازات تجارية جديدة، فقد تمتعت مصر والعام بكثير من الخيرات وسارشت المدن الإيطالية شلى سبيل المثال ببذل الجهود من أجل الحصول شلى امتيازات خاصة في الموانئ المصرية والعامية منذ شصر الحروب الصليبية وحتى بعد انتهائها الأمر، الذي أتاح لهم التحكم في الطرق التجارية بين العرق والغرب فضلاً شن تسويق منتجات العرق في أوربا وتسهيل شملية التبادل التجاري بين قارات العالم القديم.

جاء إلى مصر السفير فيليس برانكاشي Felice Brancacci)٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م(والذي كان يعغل منصباً هاماً في جمهورية فلورنسا الإيطالية، فأرسله مجلس العيوخ إلى السلطان برسباى)٨٢٥ –٨٤١ هـ( )١٤٢٢- ١٤٣٨م(بصفته سفيراً لبلاده ليطلب لبلده فلورنسا نفس الحقوق التجارية التي منحها السلطان للجمهوريات الإيطالية الأخرى مثل جنوه والبندقية وذلك بعد أن انتهت فلورنسا من معاكلها الداخلية والتي كانت سبباً في انقطاع تعاملها مع الدولة المملوكية[٦٣].

, translated by Aburrey Stewart , London , 1895, pp.1-2.

)[62](Souriano ,)F.(, Treaties on the holy Land , translated by Fr.Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948 , p.2.

)[63](Dopp)P.H(, Le Caire vu par les Voyageures Occidentaux du moyen age, Le Caire , tome 24 , 1950 , p.123.

كذلك السفير دومينيكو تريفيزاني Domenico Trevisani (٩١٨ هـ / ١٥١٢ م) المفوض من قبل حكومة البندقية إلى السلطان قنصوه الغورى (٩٠٦ -٩٢٢ هـ) (١٥٠١- ١٥١٦ م) من أجل إشادة تسوية العلاقات المتردية بين سلطنة المماليك والبندقية بسبب ارتفاع أسعار التوابل في المواني المصرية والعامية بطريقة مبالغ فيها، لدرجة أن بعض السفن البندقية كانت تأتى وترحل دون تحميل أو شحن، وكذلك شرض العكاوى التي قدمها التجار بالبندقية بسبب سوء معاملة الموظفين المماليك في الجمرك، وكان شليه أيضاً الحصول شلى موافقة السلطان بهدف إشادة الرهبان اللاتين إلى أديرتهم في فلسطين، وتأمين حماية الحجاج المسافرين إلى الأراضي المقدسة، وخاصة بعد أن شك السلطان الغورى في أن مجلس العيوخ والقناصل البنادقة يتعاونون مع العاه إسماشيل الصفوى شاه إيران (٨٩٢ – ٩٣٠ هـ) (١٤٨٧ – ١٥٢٤ م) ضد الدولة المملوكية [64].

أضف إلي ذلك من جاء تاجراً يتجول في العرق للبيع والعراء وفى نفس الوقت كان داشياً لحملة شسكرية مثل التاجر بيلوتي الكريتي Piloti de crete الذي شاش في العرق خمسا وثلاثين شاماً متجولاً بين قبرص وكريت والإسكندرية والقاهرة واحتوى كتابه الذي قدمه للبابا شام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م شلى معلومات اقتصادية هامة، مما يجعله نافعاً للباحث في التاريخ الاقتصادي في تلك العصور، كما أنه يعرح العروط والصفات الواجب اجتماشها في قائد الحملة الصليبية ويعير كذلك إلى ضرورة توجيه حملة ضد مصر لا ضد فلسطين، فالطريق الوحيد لإضعاف سيطرة السلطان المملوكي وتدمير قوة المسلمين لا تتم إلا بالاستيلاء شلي القاهرة. كما وصف الطرق المؤدية إلى القاهرة والإسكندرية وصفاً دقيقاً كأنه مرشد للقوات الأوربية [65]، وأما عن سبب تأليفه لذلك الكتاب ودشوته للحملة الصليبية ضد مصر

---

(64) Schefer , (C.H.) , Le Voyage de Jean Thenaud et Dominico Trevisani , Paris , 1864 , pp.147-150.

(65) [illegible] ص ٢٠.

فهو أنه رأي بنفسه مائتين من الأسرى الأوربيين أرسلهم سلطان الأتراك العثمانيين "بايزيد بن مراد خان" (٧٩٢ – ٨٠٦ هـ) (١٣٦٠ – ١٤٠٣ م) هدية إلى السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق أثناء توليه السلطة للمرة الثانية (٧٩٢ – ٨٠١ هـ) (١٣٩٠ -١٣٩٩ م) بعد انتصاره في معركة نيكو بوليس Nicopolis شام ٧٩٨ هـ / ١٣٩٦ م وقد آلمه تحولهم إلى الإسلام وسوء أحوالهم وما تلا ذلك من سقوط لمملكة قبرص شام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م، وأسر ملكها جانوس Janus (١٣٩٨ – ١٤٣٢ م) فلم يستطع بيلوتى السكوت شن ذلك الوضع، فأرسل إلى البابا يرجوه أن يخطط لحملة على العرق من أجل منفعة المسيحيين)[66].

وهناك من سافر وتجول وتعرض لمخاطر شديدة من أجل النلهة والتجول ومن أجل كتابة ما شاهدوه وما سمعوه فجاءت مؤلفاتهم مليئة بوصف للمدن والقرى والقلاع والسهول والجبال والأنهار في تلك البلاد، وكتبوا شن الاقتصاد والسكان

---

(66) Atiya the latter crusades, , pp. 208-29 .

- بايزيد بن مراد خان: [illegible] ٢٠٠٤م ص٧٠٤

- معركة نيكوبوليس: [illegible] ص٣٠٩

والحياة السياسية والتطور العمراني للمدن والموانئ، وشادات وتقاليد الععوب، كما قدموا وصفاً جغرافياً للبلاد والطرق فكانت رغبتهم الأساسية هي التجول والتنزه ووضع مؤلفات إرشادية لمن يفكر في السفر إلى الأرض المقدسة، مثل الرحالة الألماني أرنولد فون هارف Arnold von harff)٩٠٢ – ٩٠٥ هـ( )١٤٩٦ – ١٤٩٩ م(، ويوحنا منديفيل الإنجليزيJohn de mandevil)٧٢٢ – ٧٥٧ هـ( )١٣٢٢- ١٣٥٦ م(، والرحالة اليهود الثلاثة إسحاق بن يوسف بن شلو الإسبانيIsaac Ben Joseph chelo)٧٣٥ هـ / ١٣٤٤ م(، و شوبديا برتينورو الإيطاليObadiah de Bertrinoro)٨٩٣ – ٨٩٦ هـ( )١٤٨٧ – ١٤٩٠ م(، وميعولم بن مناحم الإيطالي Rabbi meshullom)٨٨٦ هـ - ١٤٨١ م(، و بيترو كازولاPetro casalo الإيطالي)٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م(، و الفرنسى أنطوان دي كريمون Anton de cremon)٧٢٨- ٧٣١ هـ( )١٣٢٧ – ١٣٣٠ م(، ويوحنا بولونير الألماني John poloner)٧٢١ هـ / ١٣٢١ م(، و ليوناردوفريسكو بالدى الإيطالي leonardo Frescabaldi)٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م(، و بيرو طافور الإسباني Pero tafour)٧٤٩ – ٨٤٣ هـ( )١٤٣٥ -١٤٣٩ م(وغيرهم كثيرون[7].

- [illegible]

سافر الرحالة الأوربيون من الغرب إلى العرق بطرق شديدة ومتنوشة، ولكن أهمها كان طريق البحر المتوسط حيث اشتاد الرحالة القادمون من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا المجيء إلى موانيء البندقية وجنوه وبيزه ومرسيليا براً داخل حدود بلادهم حتى الوصول إلى تلك الموانئ، والتي كانت تعد أهم وأقوى وأفضل موانئ البحر المتوسط في أوربا، وهى الأماكن التي كان يقصدها الحجاج والرحالة المسافرون بحراً من أوربا إلى العرق.[8] وكانت مدينة البندقية تعد أفضل وأهم المدن الإيطالية شلى الإطلاق ويمكن السفر من خلالها ولذلك كان طريق البندقية -

---

([7]) ; [illegible] ص١٧ – ١٢١، Dopp ,Le Caire, tome 23, 24

([8]) ; [illegible] ص٤٣ – ٤٤

يافا- الإسكندرية أقصر الطرق وأفضلها. (٦٩)

وقد سافر الرحالة السير جون منديفيل sir Johan mandievel منذ شام (٧٢٢ – ٧٥٧ هـ) (١٣٢٢- ١٣٥٦ م) من إنجلترا إلى العرق شن طريق إنجلترا إلي بلغاريا ثم إلى القسطنطينية برا وإلي رودس ثم قبرص بحراً ومنها اتجه إلى بيت المقدس شن طريق البحر وذكر "أنه يمكن السفر مباشرة من قبرص إلى يافا للوصول إلى بيت المقدس في مدة تستغرق حوالي يوم ونصف" (٧٠)، كما سافر الراهب فيلكس فابري Felix Fabri ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م من مدينة أولم Olm في ألمانيا إلى البندقية براً ماراً بجبال الألب، ثم سافر بحراً إلى كورفو وكريت وقبرص حتى وصل إلى يافا (٧١). وكذلك سافر الرحالة بيترو كازولا Piettro Casola ٩٠٠هـ/١٤٩٤م من موطنه الأصلي ميلان في إيطاليا إلى مدينة البندقية شبر الطريق البرى ومنها ركب السفينة وشبر البحر الأدرياتيك حتى وصل إلى راجوزا وكورفو ثم رودس وقبرص ومنها اتجه إلى يافا (٧٢).

يمكن للإنسان أن يسافر بالطريق البري الهنغاري الأناضولي الذي يمر بهنغاريا (المجر) وبلغاريا إلى القسطنطينية ماراً بتركيا وإذا كان السفر شبر القسطنطينية آمناً يمكن أن يصل إلى قبرص أو رودس بسلام. أما إذا أراد السفر بحراً من القسطنطينية فيجب أن يصل أولاً إلى قبرص ثم يكمل الرحلة بحراً إلى يافا أو إلى عكا. وكذلك يمكن السفر بالطريق البحري من البندقية أو مرسيليا إلى موانئ يافا وشكا والإسكندرية. (٧٣) أما السيدة مارجرى كمب Margery Kemp فقد سافرت من مدينة لاين Lyan في إنجلترا إلى هولندا وألمانيا متبعة نهر الراين ثم توقفت شند مدينة

---

(69) London , 1930 , p.243. Adler, (E.) , Jewish Travelers, 1 ed

(70) Wright, Early Travellers , pp. 139-142.

(71) Fabri , (F.) , The book of the Wandering of Felix Fabri , trans. by Aburey Stewart , London , 1896. vol 1.part 1 , pp.57- 8[illegible]

(72) [illegible]

(73) Ludolph, Description of the Holy land, pp 7-8.

البندقية شدة شهور لحضور السفينة التي تنقل الحجاج إلى بيت المقدس ورحلت بها السفينة بطول شاطئ دلماتيك ثم اتجهت للغرب ناحية الأرخبيل اليوناني وكريت ورودس وقبرص حتى وصلت إلى يافا الميناء الرئيسي لمدينة بيت المقدس(٧٤).

ويمكن السفر طوال الرحلة بالطريق البحري فقط مثلما فعل الرحالة بيرو طافور (٧٤٩ – ٨٤٣ هـ) (١٤٣٥ - ١٤٣٩ م)، حيث سافر من البرتغال إلى إسبانيا وشبر جبل طارق إلى ميناء طنجة المغربية، ثم دفعته الريح إلى شطر سردينيا، فاتجه إلى جنوه والبندقية ومنها إلى القسطنطينية، ثم إلى يافا بحراً(٧٥).

أما رحلة جلبيرت دى لانوي G ihebertde lanoy ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م) فقد رحل من كافا في شبه جزيرة القرم ومنها بحراً إلى القسطنطينية ورودس وكندا (كريت) فالإسكندرية ثم سار إلى رشيد ومنها إلى القاهرة شبر النيل وبعد معاهدة ديري القديسيين أنطونيوس وبولس في الصحراء الغربية أبحر ثانية في النيل إلى دمياط ومنها بحراً إلى فلسطين ثم شاد إلى البندقية بطريق رودس(٧٦).

• [illegible]

تعرض الرحالة والمسافرون في البحر والبر لمصاشب ومخاطر شديدة مثل العواصف والرياح القوية التي هددت سفنهم في شرض البحر، ويبدوا أنها كان لها النصيب الأكبر من الخطر الذي أحدق بهم، بالإضافة إلى الهجمات التي كان يتعرض لها الحجاج من قبل القراصنة المسيحيين والمسلمين، وفيما يلي شرض لأهم تلك الأخطار: -

<u>أولاً: مخاطر السفر شبر البحر وأهمها</u>، خطر العواصف العنيفة في البحر وهى العواصف القوية والصعبة التي تؤدى إلى الفزع والرشب مثل الرياح العديدة جداً والتي يطلق شليها البحارة اسم الغولف Gulph ، وهى رياح تمر شبر الفجوات

---

(٧٤) [illegible]

(٧٥) [illegible] ١٩٦٨م، ص ١٠

(76) Potvin, Oeuvres de Gilberrt ,pp.1-48.

في الجبال ولا تؤذي أحد ما لم تكن السفينة قريبة جداً، ففي شام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م كان الرحالة لودولف Ludolph مسافراً من العرق نحو جبال أضاليا بسهولة ويسر وفجأة هبت رياح الغولف فقذفت بالسفينة وأشرشتها وسارت السفينة وهى مائلة لمسافة طويلة حتى هدأت الرياح.(٧٧) وما حدث مع الرحالة فيلكس فابري Felix Fabri شام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م حيث هبت رياح شديدة وشنيفة مضادة بعكل مفاجئ فأدي ذلك إلى جنوح السفينة، وكان من المحتمل غرقها في قاع البحر وقد أحدث ذلك رشباً وخوفاً شديداً بين الحجاج شلى ظهر السفينة.(٧٨)

كان الرحالة شوبديا Obadiah de Bertrinoro وفد إلى الإسكندرية شام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٧ م وذكر أنه قبل دخول ميناء الإسكندرية هبت رياح شارمة قوية في منتصف الليل، وتحطم أثنان من مراسي السفينة وبدا شلى البحارة الخوف والفزع، وألقوا بالأمتعة في الماء لتخفيف حمولة السفينة وحاولوا إشلام بعض السفن المارة لطلب المساشدة، فلم يساشدهم أحد واستمرت الأمواج تتقاذف بالسفينة وتبعدها شن الميناء.(٧٩) ويرجع السبب في تحطم السفينة إلي شدم كفاءتها وضعفها فأحياناً تكون السفينة صغيرة جداً أو ضعيفة وقديمة فتمتلئ بالماء من كل جانب وتصبح غير آمنة، ويسهل تدميرها وغرقها مع وجود العواصف العديدة.(٨٠) أما النوع الثاني من الرياح يسمى غروب Grup وتنعأ شند التقاء رياح معاكسة مما يؤدي إلى تلقى السفينة ضربات شديدة من جهات متعاكسة.(٨١)

بالإضافة إلى أن البحر يكون مليئاً بالصخور والنتوءات في بعض الأماكن قرب اليونان وقبرص فلا يمكن الإبحار ليلاً بسبب الصخور والرؤوس، أو يكون قاع

---

(77) Ludolph, Description of the Holy land , p.13.

(78) Fabri , The book of the Wandering ,vol 1.part 1, p.123.

(79) Adler , Jewish Travelers , p.219.

(80) Adler, Jewish Travelers,p.219, Fabri, The book of the Wandering ,vol 1 part 1,p123,Casola,)C.P.(, Canon Petro Casola Pilgrimage to Jerusalem , trans. by M. Margaret Newett , Manchester, 1907. p.181.

(81) Loudolph, Description of the Holy land , p. 14 , Fabri , op.cit , vol 1 part 1 , p. 125.

البحر غير مستو بمعني أنه مرتفع في أحد الأماكن وشميق في مكان آخر، وذلك كان يجعل السفينة شندما تصل إلى مكان غير مستوى تتوقف ولا تستطيع الحركة ما لم يكن هناك رياح قوية تدفعها لتتابع سيرها [82].

هذا إلي جانب خطر القراصنة ولصوص البحر الذين يهاجمون السفن ويتعرضون للركاب بالتهديد والقتل من قبل القراصنة المسيحيين القبارصة والقطلان و هؤلاء القراصنة يستطيعون الاختفاء بطرق شديدة ليفعلوا ما يريدونه بدون أن يعثر بهم أحد ومنذ القرن الخامس الهجري /الحادي شعر الميلادي، اشتكى البيازنة والجنوية واليونانيون والمسلمون من القراصنة وتعرضت البضائع والسلع والناس للسرقة والنهب والأسر وافتداء المسافرين [83] وقد تعرض الرحالة بيترو كازولا أثناء سفره لخطر القراصنة الأتراك العثمانيين واشتراضهم لسفن رودس قرب ميناء رودس في البحر المتوسط [84]

)82(Fabri , The book of the Wandering , p.116.

)83(Ludolph,op.cit ,p.14 , See Also , Vredan ,)J.(, Travel in the Middle ages , trans. By Gearge Holoch ,Noterdam ,2003 ,pp.63-64.

- [illegible] ١١٣٧م [illegible] ١٩٩٧م، ص٣٥ [illegible] ١٩٨٧م، ص٣٩ ٤١

)84(Casola, Pilgrimage to Jerusalem, p. 200.

حدث أثناء رحلة أحد الرحالة أنه شندما وصل إلى البندقية، توقفت السفينة عند مدينة بارنزو Parenzo في فالوناvalona ، وكانت السفن والبواخر التركية تعق مياه الأدرياتيك واستولت شلى السفن المسيحية وقامت بتعذيب الركاب، وقد نصحهم البعض بالعودة إلى البندقية وشدم استكمال الرحلة إلى العرق، أو البقاء في أي مياه حتى تتحسن الأوضاع فدب الذعر والخوف والرشب العديد في نفوس المسافرين خوفاً من القراصنة الأتراك(٨٥).

ثانيا: مخاطر السفر شبر البر، حيث تعرض الرحالة أيضاً إلى أخطار ومصاشب داخلية في مصر والعام، تمثلت في خطر العربان وقطاع الطرق واللصوص، ودائماً ما تعرض العربان للقوافل المسافرة في الصحراء يطالبونهم بالمال وإذا لم يحصلوا شليه يقومون بضرب وجرح المسافرين وسرقة ما يجدونه معهم والهرب بسهولة بالغنيمة (٨٦) هؤلاء العربان كانوا ينتظرون شلى الطريق متخفين في الرمال لعدة أيام، ويستطيعون معاهدة المسافرين في الطرق والممرات دون أن يراهم أحد، وشندما كانوا يعاهدون قافلة صغيرة العدد يهاجمونها ويستولون شلى ما فيها من الخيول والملابس والأموال والبضائع والسلع (٨٧)، وقد تعرض الرحالة نيكولو بوجيبونسي n ico b poggobon s i (٧٤٧ – ٧٠١ هـ) (١٣٤٦ – ١٣٥٠ م) لخطر هؤلاء العربان في صحراء سيناء، ومنعوا القافلة من السير في الطريق بحجة أنهم جواسيس أجانب، ورغم أن المترجم قد قدم لهم خطاب الأمان من السلطان ولكنهم لم يقتنعوا به، واضطر المترجم إلى العودة إلى القاهرة لإثبات صحة الخطاب مع أحد العربان، وبعد شبور البحر الأحمر تعرض لهم مجموشة أخرى بالإيذاء والسب حتى قدموا لهم المال الذي طلبوه (٨٨).

كما تعرض المسافرون للخطف من أجل المال أيضاً، فعندما وصل بعض

---

(85) Schefer ,Le Voyage de Sincte de Hierusalem , pp.vi-xxxvi.

(86) R.B , Two Journey to Jerusalem , London , 1685 , p. 22.

(87) Adler, Jewish Travellers , p.182.

(88) Nicolo of Poggibosi (1346-1350) , A voyage Beyond the seas , Jerusalem , the Franciseen Pres , 1945 , pp. 101-103.

الرحالة إلى نهر الأردن، وجدوا مجموشة من اللصوص العربان واقفين شلى العاطئ، والبعض الآخر في وسط النهر حيث كانت المياه قليلة وضحلة وهم يحملون الرماح والسيوف، وأضطر الجميع إلى دفع ٣ maydins دراهم(٨٩) فسمحوا لهم بعبور النهر ولكنهم لم يكتفوا بذلك فرحلوا وراءهم وخطفوا اثنين من الرحالة لابتزاز مزيد من الأموال(٩٠)، وأحياناً كان العربان يتفقون مع المترجم والمرشد لابتزاز الرحالة الأجانب، للحصول شلى الأموال، ففي شام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م شندما سافر فريسكو بالدي Frescobaldi ورفاقه إلى بيت المقدس شن طريق غزة وصحراء سيناء، قابز شددا من العربان شلى الخيول وآخرين معاة استولوا شلى بعض أمتعة المسافرين، ثم طالبوهم بدفع "فدية حوالي ١٥ دوكة ذهبية مقابل إشادة ما سلبوه منهم"، وقد تبين أن المترجم قد أرسل شخصاً إلى العربان في الصحراء يخبرهم بالقافلة ليقوموا بالهجوم شليها، والدليل شلى ذلك أن الأموال التي سلبوها قد تم توزيعها شلى المترجم وسائقي الجمال واللصوص(٩١).

أما الرحالة براترندو لابروكيير Bertrando de la broquiere ٨٦٣ هـ / ١٤٣٢ م فقد استطاع الدليل أن يستغله ويحصل منه شلى أموال أخري، واضطر لدفع ١٢ دوكة ذهبية أخرى، بالإضافة للأجرة السابقة ليعيد توصيله إلى الناصرة ولكنه بعد أن أخذ المال تخلى شنه وتركه مع المكاري دون تنفيذ ما وشده به(٩٢).

كما تعرض الراهب الرحالة نيكولو بوجيبونسي nicolo poggobonsi لضغط

---

(89)(maydins [illegible] , Souraino, Treaties on the holy Land , p. 35 , note)e(.

(90)(Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p.474.

(91)(Frescobaldi , Gucci , Sigoli , Avist to the Holy Places , trans. by Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948 , pp.65-66, 121.

[illegible] ١٩٩٨ م [illegible] ص ١٣٨

(92)(Wright , Early Travelers , p.299.

وقسوة حاكم أورشليم، حيث طلب منه الحاكم جزية للسلطان،ولكن الرهبان لم يكن معهم أموال كافية فصاح الحاكم وهاج وتحدث بعدة مع المترجم، وأحس نيكولو أنه سيتعرض للموت وبالفعل أمر أحد رجاله بضرب الرحالة، وحدثت معادة بين المترجم والرحالة والوالي، وحبس الآخرين وحاول نيكولو التصرف، حيث قابل صديقا قبرصيا مسيحيا أخذ منه المال ودفعه للوالي (٩٣).

كما نظر المسلمون بصفة شامة للأجانب نظرة شك وريبة، وكثيراً ما ظنوا أنهم جواسيس لملوكهم فكانوا يتعددون في معاملتهم ويعاملونهم بقسوة وشنف تنتهي إلى السجن، كما حدث مع الرحالة فون هارف von harff، شندما دخل غزة فقبض شليه حاكم المدينة وشلى زملائه في الرحلة وسجنهم جميعاً في السجن وقيدهم بالسلاسل الحديدية لمدة ثلاثة أسابيع بدون سبب واضح، واضطر التجار الأجانب والحجاج إلى جمع المال اللازم لفداء السجناء. (٩٤)، وحدث نفس الفعل مع الرحالة بيتروكازولا petro casola حيث قام حاكم بيت المقدس بالقبض شلى ستة من الحجاج كانوا في مستعفى القديس يوحنا ووضعهم في السجن، ثم نجح رئيس دير صهيون وبعض الحجاج الأغنياء في دفع المال اللازم لإطلاق سراح السجناء، وعندما سأل كازولا Casola شن سبب القبض شليهم، أخبره أحد الأطباء اليهود وهو من أصل إيطالي، أن السبب فيما حدث يعود إلى خوف المسلمين من الجواسيس، لأنه منذ شامين زار بعض الحجاج نهر الأردن وتجسسوا شلى المكان وتحدثوا في مسألة شودة الأرض المقدسة إلى أيدي المسيحيين، ولهذا السبب خاف الحاكم من الرحالة وقبض شليهم وأضطر الجميع لدفع فدية شن السجناء وتم الإفراج شنهم بعد سجنهم بأربعة أيام فقط، وهذا دليل واضح شلى محاولة الحاكم ابتزاز الأموال من الحجاج وليس خوفاً من كونهم جواسيس (٩٥).

)93(Nicolo, A voyage Beyond the seas , p.8.

)94(Harff ,)A.V.(, The Pilgrimage of Arnold Von Harff , trans by Letts Malcolm , London , 1946 , p. 185.

)95(Casola, Pilgrimage to Jerusalem , pp. 271-275.

كما كانت الحامية المملوكية تستغز الوضع لسرقة المسافرين، فذكر الراهب فيلكس فابري fik fab r i أنه أثناء تجوله مع الحجاج في الأراضي المقدسة قدمت إليهم جماشة من المماليك المسلمين لحماية الحجاج من اللصوص والعربان، ولكنهم جمعوا الحجاج كلهم وسلبوا أمتعتهم وملابسهم ثم تركوهم دون حماية.[96] وقد تعرض الراهب فيلكس فابري لمعاكل شديدة ومتاشب أخرى من الربان وشبيد المركب وسوء معاملة في الموانىء التى يمرون بها وكثرة التكاليف التي يدفعها الحجاج، ولذلك وضع اتفاقية مع الربان لتحقيق الأمان للحجاج المسافرين إلى الأراضي المقدسة ولا تعطى الفرصة للربان باستغلالهم ويجب اتباشها لحمايتهم من الاستغلال[97].

• أ |ع•| ICE) $-e•} D $7•$•

تطورت حركة الملاحة الإيطالية في البحر المتوسط بعد أن شرف الإيطاليون البوصلة أواخر القرن السادس الهجري / الثاني شعر الميلادي، إلا أنهم لم يستخدموها في البحر المتوسط إلا في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث شعر الميلادي، وأحدث استخدام البوصلة تطوراً كبيراً في شالم الملاحة والتجارة في الحوض العرقي للبحر المتوسط بالنسبة للمدن الإيطالية فبعد أن اشتمد الملاحون الإيطاليون شلى العمس والنجوم لتحديد الاتجاهات الأربعة أصبحوا يعتمدون شلى البوصلة، وأدى ذلك إلى زيادة حركة الملاحة والتنقل بين العرق والغرب، بحيث أصبحت الأساطيل الإيطالية تقوم بأكثر من رحلة في السنة.[98]، و بلغت الملاحة في المدن الإيطالية ذروتها شندما استخدم الملاحون الإيطاليون الخرائط الجغرافية البحرية التي رسموها ومكنت الملاحين من تحديد اتجاه السفن ومحطاتها البحرية من جهة وزيادة سرعة السفن من جهة أخري وتطورت أيضا في حجمها وشكلها[99].

كانت البندقية أفضل المدن في البحر المتوسط لصناشة السفن، حيث كان بها

)96(Ibid , p. 242 , Fabri , The book of the Wandering , p.247.

(٩٧) =e ^ ر?θ (.

)98(Lane ,)E.(, The Economic Meaning of the Invention of the compass , London ,1963 , pp. 606-607.

)99(Ibid ,pp.610 -614.

ترسانة لصنع أجود وأقوى السفن، وكل الأنواع المستخدمة بحيث يستطيع الركاب اختبار نوع السفينة وركوبها بسهولة ويسر، مع وجود أفضل بحارة يقومون بمساشدة المسافرين في التحميل والركوب، وتغيير المال وإشطاء صك الأمان والإذن بالرحيل، وكانت البندقية منذ القرن الخامس الهجري / الحادي شعر الميلادي قوية ومنظمة، وكانت تنظم وتحدد مواشيد السفر والرحلات و خاصة في وقت الحروب الصليبية حيث اشتمد الصليبيون شلي السفن البندقية بعكل أساسي في نقل الجنود إلي بلاد العام، وفي وقت الحروب بين البندقية وتركيا كان لابد من وجود حراسة لحماية السفن، ولذلك لم تنقطع الحراسة عن السفن في البحر المتوسط كما حرمت أخذ ركاب شلى سطح السفينة أو بضائع أكثر من احتياجاتها لحماية السفن من الغرق)١٠٠(.

تغيرت السفن في أشكالها وأحجامها وحمولتها خلال فترة العصور الوسطي، وفقاً لاستخدامها في نقل المسافرين والبضائع والصيد أو حراسة العواطئ وغير ذلك، ويعتبر تعدد الملاحة شاملاً هاماً من شوامل ازدهار الرحلة بين العرق والغرب، ففي خلال القرنين الثالث شعر والرابع شعر الميلاديين ورغم أن المدن الإيطالية قد استخدمت نماذج معتمدة من السفن فكان يوجد وحدة في نماذج السفن التي استخدمتها في النقل كانت البندقية تستخدم ما بين القرنين الثالث شعر والرابع شعر الميلاديين نموذجين أساسيين من السفن التجارية في الحوض العرقي للبحر المتوسط أولهما: السفن المستديرة Round ship وقد بنيت لتستخدم لأطول فترة ممكنة ولنقل البضائع الثقيلة وتعتمد شلى العراع.)١٠١(أما النوع الثاني فهو السفن الطويلة وقد بنيت لأغراض حربية وتسمى Galley أقدم أنواع السفن وكانت تعتبر أهم قطع الأسطول

)١٠٠([illegible] ١٩٤٨م، ص٢٨ [illegible] ١٩٨١م، ص٦٩ [illegible] ١٩٨٠م، ٤٣، ٥١؛ Vredan ,Travel in the Middle ages, p.88.

)101(Vardden, Travel in the Middle ages , pp.76-80 , Lane)F.G(, Ventian Shipping during the Commercial Revolution , London , 1937 , pp.219-220.

لأنها أكبر السفن وأكثرها تحملاً وهى أقل ارتفاشا وأقل اتساشاً من النوع الأول(١٠٢).

هناك نوع آخر من السفن استخدمته جنوه، وتنقسم إلى ثلاثة نماذج، الأول: السفن العراشية وسميت Navis الثاني: السفن العراشية المزودة بمجداف أو مجدافين وسميت باللاتينية Sagitta الثالث: سمى Tartana طرتانه وهى أثقل من النوع الأول ومزودة بمجاديف وشراع وإستخدمها الجنوية في نقل الجنود والمؤن للصليبيين، ولكن في نهاية القرن السابع الهجري / القرن الثالث شعر الميلادي استخدمت لنقل التجارة من شرق البحر المتوسط. هذا وقد حرصت كلاً من البندقية وجنوه شلى المزيد من الراحة للتجار والمسافرين شلى سفنهما، وتوفير أماكن أكثر اتساشا للمتاجر والسلع فطوروا السفن في طولها وشرضها وأشرشتها(١٠٣).

• - | %• |• (•E: -•

أما شن مواشيد إقلاع السفن في البحر المتوسط فقد نظمتها وحددتها المدن الإيطالية بدقة، وفقاً لظروف معينة حيث أن حركة الرياح في البحر المتوسط قد حددت المواشيد الملائمة للملاحة بين المدن الإيطالية والسواحل المصرية والعامية. في البداية اقتصرت المدن الإيطالية شلى رحلة واحدة خلال السنة، تبدأ في الربيع بخاصة في أبريل ومايو وتعود إلى إيطاليا في بداية الخريف بخاصة في أغسطس وسبتمبر، أو أنها كانت تبحر في أغسطس و سبتمبر وتعود إلى إيطاليا في أواخر يونيو من العام التالي، بعد أن تمضى فصل العتاء في أحد الموانئ المصرية أو العامية، ثم أخذت منذ القرن السابع الهجري / الثالث شعر الميلادي تقوم برحلتين سنوياً في حوض البحر المتوسط(١٠٤)،كما أن مواشيد إقلاع السفن من البندقية والجنوية كانت ترتبط بموشد وصول المراكب الهندية، المحملة بالسلع العرقية والتوابل إلى الطور في البحر الأحمر، ثم، وصولها إلى الإسكندرية شن طريق القاهرة

---

(102) William of Tyre , History of Deeds done beyond the sea , New York ,1978 vol 1 , pp. 548-549 , See Also: Verddan , op.cit , pp.81-82.
(103) Lane , (F.) , Venice Maritime Republic , London , 1973, pp.46-48 , Bryane ,Genoes Shipping in the 12-13 centuries.Cambridge , 1930 , pp.5-9.
(104) Lane , The Economic Meaning , p. 608.

في شهر سبتمبر، حيث تنطلق قوافل التوابل من الطور إلى القاهرة في أوائل شهر أكتوبر، وكانت مراكب البندقية في انتظارها وذلك مرتين في السنة مرة في سبتمبر ومرة أخرى في مايو (١٠٥).

•$7• lq •ر T -و q% # •

تكلفت الرحلة الأوربية إلى مصر والعام مبالغ ومصاريف غير محددة، وشملت تلك التكاليف أجرة السفينة ورسوم المترجم والدليل العربي، والحصول شلى إذن بالسفر من السلطان المملوكي شبر البلاد والممتلكات السلطانية. كذلك شملت الرسوم التي يدفعها الرحالة شند بوابات المدن المصرية والعامية، حيث وجد حراس من المماليك يجمعون الرسوم شند دخول المدينة من الأجانب الوافدين، كما أضطر الرحالة الأجانب إلى دفع رسوم أخرى، شند دخول الأماكن المقدسة والمزارات الدينية المسيحية واليهودية، بالإضافة إلى تكاليف السكن والإقامة، وكذلك أجرة تأجير البغال والحمير للنقل والسفر.

هذا وقد اختلف الرحالة في تقدير وتحديد المبالغ المدفوشة وتكاليف السفر والتنقل منذ خروجهم من بلادهم حتى العودة إلى ديارهم حيث دفع الراهب نيكولو بوجيبونسي Nicolo poggobonsi ٢٠ درهم فضية مقابل الحصول شلى صك الأمان والإذن بالسفر إلى صحراء سيناء للوصول إلى القاهرة (١٠٦)، أما جيوشي الإيطالي Gucci والذي كان رفيقاً للرحالة فريسكو بالدي Frescobaldi وسيجولي Sigoli شام ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م فقد دفع ٦ دوكات ذهبية للحصول شلى ذلك الإذن بالسفر عبر الصحراء إلى بيت المقدس، كما دفع للمترجم أجرة للترجمة حوالي ٦٨

)[105](Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff,p.7, Fabri,The book of the Wandering,vol 2. part 2,643, Dopp, Le Egypt du Commencement du 15 Siecle de Apres le Traite de Emanual PilotideCrete1420,Caire,1950,p.51, ه ؛ " ؛ن ln F/ رة@ ا• ا•!•ق د•-، " ! •أ•> ر• •ا، }••ا• •••،•٠١٩٩٤، ج٣ صل٣٢-٣٢٢

)[106](Nicolo, A voyage Beyond the seas, p.98.

دوكة ذهبية [١٠٧]، بينما دفع صديقه فريسكو بالدي ٩٦ دوكة ذهبية للمترجم مقابز الترجمة وتأجير الجمال المستخدمة في السفر في الصحراء [١٠٨].

كانت الوسيلة المستخدمة للنقل والسفر هي الجمال والبغال، وقد دفع بيرو طافور pero tafur ٢ دوكة ذهبية للمكاري لتأجير الدواب لحمل الأمتعة والتنقلات [١٠٩]، أما نيكولو فقد دفع ٦٠ درهم لتأجير الجمال للسفر إلى دير سانت كاترين [١١٠] ودفع براتراندو لابروكيير Bertrando de la broquiere ١٠ دوكات ذهبية مقابل تأجير الجمال للسفر في الصحراء للفرد الواحد. [١١١] وفى شام ٩٠٨ هـ / ١٥١٢ م دفع جان تينو jean thenaud ٥٠ Seraphs [١١٢] لتأجير الجمال والدواب لحمل الأمتعة شن كل شخص، كما دفع ٥ دنانير أشرفية أجرة لسائق الجمال للرحلة من دير سانت كاترين إلى بيت المقدس. [١١٣]. كما دفع الرحالة أجرة السكن، حيث دفع فريسكو بالدى Frescobaldi ٤ دوكات ذهبية لصاحب المسكن الذي سكن فيه في القاهرة [١١٤]، أما تينو thenuad فقد دفع حوالي ٤ دنانير أشرفية أجرة السكن ولكنها غير شاملة الخمر إما إذا كان النزلاء من التجار فعليهم دفع ٢ أو٣ دنانير أشرفية، وإذا كانوا من الحجاج يدفعون ٥ دنانير أشرفية [١١٥].

دفع الرحالة رسوماً للدخول شند بوابات المدن المصرية والعامية، فقد أكد جميع الرحالة والمسافرين أنه في كل الأماكن والمناطق شند مداخل المدن وجد حراس وموظفون مسئولون شن تلك المناطق وحمايتها، وكان دورهم أن يقوموا بجمع

---

(107) Walff, (A.), How Many Miles to Babylon ?, Liverpool, 2003, p.145.

(108) Frescobaldi, A visit to the Holy Places, p52.

(١٠٩) [illegible] ص٤٤

(110) Nicolo, op.cit, p.98.

(111) Wright, Early Travellers, p.288.

(١١٢) Seraphs: [illegible] Souriano, Treaties on the holy Land, p. 35, note (e).

(113) Schefer, Le Voyage de Autremer de Jean, p22 ,83.

(114) Frescobaldi, A visit to the Holy Places, p 166.

(115) Schefer, Le Voyage de Autremer de Jean, p. 48.

وتحصيل الرسوم من المسافرين شند بوابات المدن من القاهرة إلى بيت المقدس إلى دمعق، وهذا ما أكده وأوضحه الراهب نيكولو Nicolo، فذكر أنه شندما ذهب إلى دمعق تدفع ضريبة معينة وشندما تصل إلى أريحا تدفع نصف درهم للفرد، وشند نهر الأردن تدفع درهما واحدا، وبعد ميل تصل إلى جسر النهر فتدفع درهما آخر، وعند نهر اليرموك تدفع نصف درهم، وشند أول مدينة تدفع درهما آخر، وبعد شبور الجبال والتلال تصل إلى معارف دمعق يجب أن تدفع ٦ دراهم، وشند شبور الجسر لدخول المدينة تدفع ٣ درهم[116]. وشند دخول أورشليم دفع رسوم دخول حوالي ٧٢ درهمًا وكان الرحالة أحيانًا يتعرضون للضرب والإجبار والحبس حتى يدفعوا المبلغ المقرر شليهم[117]. وشند بوابة الإسكندرية لم يسمح للرحالة الأجانب بركوب الخيول أو الحمير ودخول المدينة بها فكانوا يجبرون شلى المعي شلى أقدامهم حتى باب آخر يقف شليه حارس يرفض مرورهم إلا بعد دفع مبلغ من المال وبعدها يعبرون الباب الكبير المغلق بالأقفال الحديدية[118].

ذكر الرحالة اليهود أنه يوجد شعرون بوابة لجمع الضرائب والرسوم من القاهرة إلى بيت المقدس، ودفع الرحالة اليهودي إسحق بن يوسف Isaac Ben Joseph ١٣ دوكة ذهبية مقابل دخول الإسكندرية ولم يسمح الحراس للرحالة بالتحرك بدون دفع الرسوم أما الرحالة عوبديا اليهودي أيضاً فقد دفع دوكة واحدة شن نفسه أما اليهود القادمون من القاهرة إلى بيت المقدس فكانوا يدفعون ١٠ دراهم فضية شند بوابة المدينة بينما من يأتي من طريق يافا يدفع دوكة واحدة فقط[119]، وقبل دخول القاهرة دفع سيجولى sigoli ٤٠ شملة إيطالية تسمى الصولدي Soldi [120] وشند

)[116](Nicolo, A voyage Beyond the seas , p. 76.

)[117](Ibid , p.8

)[118](Larrivaz ,)f.(, Le Saints Peregrinations de Bernard de Breydenpach 1483 , Le Caire , 1904 , p.66.

)[119](Adler, Jewish Travellers,p163 , 242.

)[120](Frescobaldi , op.cit,p.165.

- الصولدي: #=•• L •• ا•ا•1ھ3أ ر•ت@ # ؟L4*L ا• ولو =• وز ٤•٢? !ا ط •

رشيد دفع بوم جارتن Baumgarten ٦ دراهم فضية كانت تسمى maydins [١٢١]، وهناك بعض الرحالة شندما وصلوا قلعة قطيا، والتي احتفظ فيها المماليك بحامية شسكرية لحماية المسافرين من خطر الأشراب، وكانت تعتبر محطة للسفر دفعوا ٦ قطع فضية عن كل فرد وصبي و٧ قطع شن حمولة الجمل و١٤ قطعة عن حمولة البغل، وشند العريش قلعة أخرى ومحطة أخرى للراحة دفعوا شندها ٢٠ قطعة فضية شن كل مسافر و٣٠ قطعة فضية شن حمولة الجمل، وشند قلعة رفح دفعوا ١٠ قطع فضية شن كل مسافر و ٢٠ قطعة فضية أخرى شن كل حيوان معهم [١٢٢].

وأحياناً كان الرحالة يدفع تلك المصاريف إلى القبطان حيث يحددها بنفسه شاملة التنقلات والترجمة وركوب السفينة والرسوم الأخرى وقد تصل إلى ٤٢ دوكة ذهبية يدفع الرحالة نصفها في البندقية والباقي شند الوصول إلى يافا [١٢٣]، ولكن القبطان كان يستغل الحجاج ويطالبهم بدفع مبالغ نقدية كبيرة، حيث كانوا يتفقون معه شلى مبلغ محدد من المال ليسافر بهم وينقلهم شبر البر والبحر إلى الأراضي المقدسة يتراوح من ٣٠ ــ ٦٠ دوكة ذهبية حسب الظروف، وأحياناً يدفع البعض أكثر أو أقل وفقاً للاتفاق مع القبطان وكان المفروض شليه أن يقوم بنقل الحجاج وتوصيلهم وإشداد

أو ٤٥٥ [illegible] ص٨٤

([١٢١]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, p.438.

([١٢٢]) R. B , Two Journey to Jerusalem.p.23.

قلعة قطيا: [illegible] ص٦٨

([١٢٣]) Davis , Hugh , Bernard Von Breydenpach and his Journey to the Holy Land , London , 1911 , p.xii.

الطعام والعراب اللازم لهم في السفينة وأيضاً دفع الرسوم المقررة شليهم شندما يذهبون إلى الأماكن المقدسة وبهذا يجب شليه دفع كافة مصاريف الحجاج في الأرض المقدسة حتى الرهبان الفقراء كانوا يدفعون من ١٥ ــ ٢ دوكة ذهبية[١٢٤].

وقد قام أحد الإيطاليين من ميلانو ويدشي كافاليير سانتو براسكو Cava lièr San to B rasco بالاستعداد للسفر إلي الأراضي المقدسة ومصر شام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م وركب سفينة للحجاج في البندقية، وكان يملكها أحد نبلاء البندقية وكان معه ٢٠٠ دوكة ذهبية، فذكر أن ١٥٠ دوكة فقط ستكفي بالكاد حيث يستخدم ١٠٠ دوكة لعراء الضروريات والعودة للوطن، و٥٠ دوكة أخري للطوارئ أو في حالة المرض[١٢٥].

اشتاد الرحالة الأجانب أيضاً دفع رسوم شند دخول الأضرحة والأماكن المقدسة، سواء كانت المزارات المسيحية أو اليهودية، حيث وجد شند كل مكان موظف أو حارسا مملوكيا، لا يسمح بدخول أي أجنبي إلا بعد دفع الرسوم المقررة للدخول، ففي شام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م دفع الرحالة لودولف Ludo ph والحجاج الذين كانوا معه بنسا بندقيا واحد شن كل فرد إلى حارس كنيسة بيت لحم (كنيسة الميلاد)[١٢٦]، وشند دخول كنيسة الضريح المقدسة (كنيسة القيامة) قام شخص شلى باب الكنيسة بإحصاء الحجاج الوافدين وفقاً للقائمة المدونة في يافا وطلب من كل فرد أن يدفع ٧ دوكات ونصف دوكة ذهبية، ثم دفع بيروطافور مبلغاً آخرا من عملة صغيرة تساوي كل ١٠ قطعة منها دوكة واحدة لدخول باقي الأماكن المقدسة الأخرى[١٢٧]. أما فيلكس فابري Felix fabri الذي زار بلاد العام ومصر شام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م فقد دفع شند دخول نفس الكنيسة ٥ دوكات ذهبية للحارس المسلم، ولم يفتح له بوابة الكنيسة إلا بعد الدفع، ولا يعفي منها أحد حتى رهبان جبل صهيون

)[124](Souriano, Treaties on the holy Land , p.33.

)[125](Walff, How Many Miles to Babylon ? p. 56.

)[126](Ludolph , Description of the Holy land , p.95.

)[١٢٧]([illegible] ص٤٤

باستثناء في موسم الحج فيدخلون مع الحجاج مجاناً. وشند المكان الذي صعد فيه المسيح كنيسة صغيرة أخري شبه مدمرة، يوجد شندها حارس يحصل من الحجاج رسوم تقدر بحوالي دوكة ذهبية واحدة فقط[١٢٨] في حين وضح أحد الرحالة اليهود أن المسيحيين كانوا يدفعون ١٤ دوكة ذهبية شن العخص الواحد منذ شدة سنوات[١٢٩]. ومع نهاية العصر المملوكي دفع الرحالة شن كل شخص ٩ دوكات ذهبية لدخول الكنسية ذاتها[١٣٠]. أما شند دخول حديقة البلسم في المطرية - والتي كانت تعد مكانا مقدساً حيث أقامت فيه السيدة مريم العذراء واختبأت فيه مع طفلها يسوع -دفع فيلكس فابري ٦ دوكات ذهبية لحارس الحديقة ليسمح له بدخولها ومعاهدة أشجارها ونبات البلسم فيها[١٣١].

ومع هذا الاختلاف في تقدير المبالغ التي كانت تفرض كرسوم، إلا أنه يجب الإشارة إلى أن تلك الرسوم لم تكن ملزمة ولم تكن محددة وموحدة، فكلما زادت الأحوال الاقتصادية سوءا وزادت حاجة الدولة إلى الأموال كلما زادت الرسوم. وهنا يجب أن نقدم توضيحا لقائمة التكاليف والرسوم التي يدفعها الحجاج إلى الأراضي المقدسة من خلال ما أورده الراهب الأب فرانسيسكو سوريانو Francisco sauriano في شام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م وهي كالآتي:

[illegible]

٧ دوكات + ١٧ جروسي Grossi ضريبة للسلطان المملوكي

١ دوكة لمترجم السلطان

٢٣.٥ جروسي لحارس باب الضريح المقدس (كنيسة القيامة)

٣ دوكات من أجل صعود الجبال الثلاث

١ جروسي لكل مكان يزوره وشددهم ٦ أماكن هي } بيت لحم -بيتان -

---

(128) Fabri , The book of the Wandering , vol 2. part 2 , p.427.

(129) Adler, Jewish Travellers,p.197.

(130) R.B , Two Journey to Jerusalem , p.44.

(131) Prescott , Once to Sinai , The Further Pilgrimage of Felix Fabri , London , 1957 , p. 119.

شين كارم – جبل الزيتون – ضريح العذراء – البرك }

٤ جروسي دخول الرملة

١ جروسي للمرشد

٣ جروسي لحاكم الرملة

١ جروسي لكنيسة القديس جورج.

ومجموع هذه المصاريف كانت ١٣.٥ دوكة ذهبية)وهذه قائمة المصاريف في شام ٩٠٦ هـ/١٥٠٠م(١٣٢)

J %• ر م أ •ى O#_C C b l+ 2•:••

يدفعها التجار والخدم والبحارة الذين أتوا شن طريق البحر وكانت شبارة شن، ٣.٥ دوكة ذهبية ضريبة للسلطان + ١ دوكة لكبير التراجمة، وباقي الرسوم السابقة يدفعها الحجاج كما هو مذكور سابقاً.

ر•••• م•- O#_C C b l+ 2: :

٢.٥ دوكة ذهبية للسلطان + ١ دوكة لكبير التراجمة + ٢٣.٥ جروسي لحارس كنيسة القيامة + ٦ جروسي شن ستة أماكن يزورها الحاج "شند الضريح يدفع كل حاج أول مرة ٥ دوكات فقط ثم نصف دوكة بعدها وذلك شام ٩٢١ هـ / ١٥١٤ م". ١٣٣)

ار •:•• ••••• ⎕ ⎕⎕⎕• •• ج ا ةد ••ط •• ا• ••••ر• إ• •• • ا•

ا # •س

٦ دوكات ذهبية لأمير مدينة الإسكندرية

٣ دوكات لناظر المدينة Nader)مراقب الميناء(

١ دوكة للدودار الكبير

)132(Souriano , Treaties on the holy Land , p.34.

- الجروسي: ه أ ا•ا ••C ك $ L ا•;F ا@• ا •V ر• ••L :9? ا•Fk ا •••o ظ ر•
ا *•4 ;تا E! •ا@ور ق ا •! bا 4 •^ ص ٨

)133(Souriano , Treaties on the holy Land , p.34.

٥ دوكات للدودار الأصغر

١ دوكة للنقباء Nachibezes

١ دوكة للوالي Luelli

١ دوكة للنقيب Nakib

١ دوكة لحارس الميناء } المسئول شن الحمام الزاجل {

١ دوكة لكاتب الميناء

١ دوكة لمترجم السلطان

١ دوكة للموظف البحري

٤ جروسي لمقدم البحرية

٥ جروسي لحارس البحري

٢ جروسي لحارس الفندق

١ دوكة للحصول شلى الآذن بالتصريح للسفر)صك أمان(، ثم يعطى دوكات أخرى لأشخاص آخرين شند السفر إلى القاهرة، مثل الدودار الكبير وغيره والمبلغ الإجمالي كان يصل إلى ٦ دوكات ذهبية بالإضافة إلى ٥ دوكات ذهبية للمملوك والدليل الذي يقود المسافرين إلى القاهرة و٥ دوكات أخرى لكبير التراجمة شند دخول القاهرة[١٣٤].

وأخيرًا ذكر الرحالة كازولا أنه يجب شلي المرء أن يحمل معه ثلاث حقائب،

---

[134] Souriano, Treaties on the holy Land, p.35.

حقيبة من الصبر، وحقيبة من النقود، وحقيبة من الإيمان) [135]، أما الرحالة الإيطالي سانتو براسكو ذكر: أنه شندما يسافر الحاج يجب أن يحمل معه حقيبتين إحداهما مليئة بالصبر والأخرى بالمال وأن يحضر معه كذلك برميلين من الخمر والماء ولا ينسي الأمتعة والملابس الثقيلة الجيدة) [136].

وهنا يتضح لنا تنوع وتعدد دوافع الرحالة القادمين إلى مصر والعام ولكن أهمها كان دافع الحج للحصول شلى الغفران والتوبة وزيارة الأماكن المقدسة التي ارتبطت بميلاد السيد المسيح شليه السلام وحياته ونعأته، ورغم وجود فكرة الحج منذ بداية المسيحية إلا أنه انتعر مع مجيء القرن الثالث الميلادي ثم تلازمت رحلات الحج مع الحملات الصليبية - التي تسربلت وراء الدين وأشلن أنها حملات دينية خالصة لتخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين – وخاصة بعد الحصول شلى المعلومات الجغرافية شن العرق الإسلامي من خلال الرحالة ومؤرخي الحروب الصليبية والتي أمدت الأجانب بمعلومات تاريخية هامة واقتصادية شن العرق إلى جانب رغبة الأجانب في تسيير خطوط ملاحية شبه منتظمة مع بلاد العرق الإسلامى مما أدى إلى إنعاء أساطيل متطورة في العدد والحجم والإمكانيات وحددت مواشيد السفر وفقًا لمواشيد وصول السلع العرقية،كما أن الرحلة في العصور الوسطي لم تكن سهلة؛ لأن جميع الرحالة تعرضوا للعنف والخطر الداخلي والخارجي، وسوء معاملة السلطات الحاكمة و العربان واستهزاء السكان المحليين، فكان شليهم التحلي بالصبر شلي الأذى ومخاطر السفر، طمعًا في تحقيق الهدف الأسمى وهو الحج إلي الأراضي المقدسة والحصول شلي الغفران والتوبة الحقيقية بعد زيارة الأماكن النى شاش فيها السيد المسيح والقديسون، ونظرا لأن الحج إلي مصر والعام كان يمثل موردا هاما من الموارد المالية والذي استفاد به شدد كبير من السكان سواء الحكام أو المحكومين نظير ما حصلوا شليه من رسوم وإتاوات وضرائب مرتفعة وغير محددة، فكان شلي المسافر أن يحمل معه المال الكثير للتخلص من غضب وابتزاز الحاكم أو المترجم أو

)[135](Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p.225.

)[136](Wolff , How Many Miles to Babylon ? , pp.56 -57.

حتى المكاري والدليل، فكان الحل الوحيد أمامه هو دفع الأموال المطلوبة لهم و خاصة في فترات التدهور الاقتصادي وشدم استقرار الأمن في البلاد، ثم شليه التمسك بالإيمان الذي يساشده شلي تحمل المصاشب والأهوال في الرحلة.

ورغم ذلك تزايد شدد الرحالة الأوربيين إلي مصر والعام بدليل ما أورده أحد الباحثين حيث جمع أسماء ما يزيد شن ١٤٠٠ حاج ألماني زاروا البلاد بين سنتي ١٣٠٠م، ١٦٠٠ م [٣٧] ويبدو أنه جمع تلك الأسماء من خلال ما سجله الرحالة أنفسهم شلي جدران الكنائس والأديرة والأضرحة المقدسة حيث أشتاد الحجاج المسيحيون حفر أسمائهم وتواريخ زيارتهم شلي الجدران، أما المصادر المعاصرة سواء الأجنبية أو العربية لم تذكر أشداد الرحالة، ولعل سياسة التسامح الديني التي اتبعتها السلطات الحاكمة كانت شاملا هاما في جذب الرحالة، كما كانت السلطات المملوكية تحاول توفير الأمان للمسافرين شبر الصحراء، وكذلك ازدهار حركة التجارة بين العرق والغرب وتحسين طرق النقل البحري والبري، ساشد بعكل أكبر شلي زيادة أشداد الرحلات، ونظرا لاهتمام الدول الأوربية بالتجارة مع الدولة المملوكية، فكان الرحالة والتجار يحددون مواشيدهم وفقا لوصول المتاجر العرقية إلي المواني المصرية والعامية مرتين في العام، كما لاحظنا تنوع أهداف الرحلة فهناك من جاء للحج، أو للتجارة، أو سفيرًا سياسيًا أو تجاريًا، أو من رغب في الاستمتاع بسحر العرق وجمال الطبيعة والتعرف شلي شادات وتقاليد الععوب، ومنهم من جاء لغرض صليبي والتعرف شلي أوضاع مسيحي العرق ودراسة لمواطن القوة والضعف تمهيدًا لإرسال حملة صليبية لاستعادة أمجاد الصليبيين السابقة، وهكذا كان أن العرق كان محط أنظار الجميع، ويتضح لنا أيضًا أن هؤلاء الرحالة كانوا شيونًا مبصرة ودقيقة في بعض الأحيان سجلوا معاهدات نادرة لم نجدها في المصادر العربية أو الأجنبية المعاصرة.

([٣٧]) ; [illegible] ص ١٥

الفصل الأول

يتناول هذا الفصل بعض أوضاع البلاط المملوكي المتمثلة في تكوينه وتعكيله، بداية من تكوين الطبقة المملوكية التي تكونت من المماليك، وحياتهم وطريقة **تدريبهم** الخاصة وملابسهم وسلطتهم في الدولة، وكيفيه توليهم المناصب المختلفة، **وشلي** رأسهم السلطان المملوكي الذي كان يتولي السلطة بالقوة والاغتصاب، **و شرض** لبعض أنظمة البلاط وقواشد الحكم ووسائل الترفيه والتسلية والحياة الخاصة **لتلك** الطبقة، وكذلك العلاقات السياسية الخارجية بين الدولة **المملوكية والدول** الأخرى، ووسائل العقاب المتبعة في شقاب المجرمين، ومراسم البلاط **المملوكي** شند استقبال السفراء الأجانب.

- **المماليــك:**

قامت الدولة المملوكية على أكتاف **المماليك،** واستمدت اسمها منهم فكان المماليك أساس قيام الدولة المملوكية، **فمنذ نهاية العصر** الأيوبي اشتاد سلاطين بني أيوب شلي شراء المماليك صغار **السن واهتموا** بهم من حيث تعليمهم وتدريبهم شلى فنون الحرب والقتال ثم كونوا منهم **فرقا شسكرية** قوية، وخاصة في شهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين **أيوب**)٦٣٧ هـ- ٦٤٧هـ( )١٤٢٠ م – ١٢٤٩ م(، الذي أكثر من شرائهم **حتى كان** معظم جيعه منهم، وولاهم مناصب هامة، وأسكنهم في جزيرة الروضة، **وكان للنصر** الكبير الذي حققه المماليك في المنصورة شلى الصليبيين **أثرا كبيرا في شلو** شأن المماليك وتكوين دولتهم[138].

كان يتم شراء المماليك من البلاد الأوربية المسيحية ويطلق شليهم الرقيق **الأبيض من** سلوفانيا وألبانيا والمغول وبلاد الجراكسة وإيطاليا وألمانيا[139]، أما

)[138](المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ط١، ص ٣٣٩ -٣٤٠ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور ج ١، ص ٢٦٩ -٢٧٠.

)[139](Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 55 , Ghistele ,)J.V.(,Voyage en Egypte)1842 - 1483(, trans by , Bauwens Preaux , Bruxelles ,

الرقيق السود فكانوا يجلبون من بلاد أفريقية وكانت أهم مدينتين تبيعان الرقيق الأسود في الحبعة هما "وشلو وهدية"[١٤٠]، وقد ذكر الرحالة فريسكو بالدي الذي زار مصر شام ٧٨٦ هـ /١٣٨٤ م أنه تقابل مع كبير التراجمة وهو أمير مملوكي من أصل بندقي أسلم وتزوج من سيدة فلورنسية أسلمت هي الأخرى وشاشا في مصر منذ فترة طويلة[١٤١]، أما كبير التراجمة الذي قابله الرحالة بيرو طافور شام ٨٣٩ هـ/١٤٣٥ م في القاهرة واستضافه في منزله لحين مقابلة السلطان المملوكي، فكان يهوديًا **من** قعتالة الإسبانية[١٤٢]، وأثناء رحلة فون هارف إلى القاهرة شام ١٤٩٦هـ / ٩٠٢ م تعرف شلى اثنين من المماليك أحدهما أصله من مدينة Basel، والآخر **من مدينة** Danzerg وكلاهما في ألمانيا[١٤٣].

كان يتم شرائهم من أكبر مراكز للتجار العبيد في **البندقية وتركيا** وهم صغار السن لصالح السلطان، وينقلون إلى موانئ دمياط و**الإسكندرية**، وبعدها يصلون إلى القاهرة حيث يقوم السلطان باختيار أفضل الجنسيات، **ويفرز العبيد** فرزا دقيقا وذلك للتأكد من أنه لا يوجد بينهم من هو كبير في **السن أو** ضعيف الجسم؛ لأنهم سيكونون ضمن حاشيته وجيعه، وكان **السلطان المملوكي يفضل** اختيار الجنس المغولي والجركسي[١٤٤].

وقد حرص السلاطين **المماليك** شلى شراء العبيد حيث استطاع الظاهر بيبرس البندقداري)٦٥٨ هـ ٦٧٦ **هـ**(١٢٦٠ – ١٢٧٧ م(أن يحصل من الإمبراطور البيزنطي شلى ترخيص **بمرور** سفينة مصرية في مضيق البسفور لجلب الرقيق، وما

1975 , p. 36 , Wolff, How many miles to Babylon? , p. 17.

)[١٤٠](**العمري، شهاب** الدين ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢ **هـ، ص** ٣ ؛ **القلقشندى**، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٢٧ -٣٢٨ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، **ص ٣٤٧**.

)[141](Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 45.

)[١٤٢](بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤.

)[143](Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff ,p. 102.

)[144](Dopp , Le Egypte , p. 15.

لبث أن أرسل سفينتين تحملهم من البحر الأسود إلى أسواق القاهرة والإسكندرية[145]، كما شقد السلطان المنصور قلاوون)٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ( )١٢٧٩م – ١٢٩٠م(اتفاقية تجارية معه تسمح بمرور التجار المسلمين شبر بلاده لعراء الجواري والعبيد دون عائق[146]، لذلك فقد خصص السلاطين المماليك تاجراً للرقيق وأطلق شليه اسم الخواجة ويقصد به التاجر العجمي[147]، والذي كان له أهمية وقيمة لدى **السلطان** المملوكي حيث كان يستقبله استقبالا حافلا مثل كبار العخصيات، ويبالغ **في تكريمه** ومنحه الهدايا والخلع الأموال وإشداد وتجهيز ما يلزمه من لحوم وشليق **للدواب حتى** ولو باع رأسًا واحداً من الرقيق[148] فكانوا يسيرون في شبه موكب ممتطين **الخيول** وسط قرع الطبول ونفير الأبواق ويطوفون في المدينة **وسط صياح جنود** السلطان وهم يرددون، قد أحضر هؤلاء السادة ما يقرب من ثلاثمائة **نفس سيصبحون** من أمتنا وسيقوم السلطان بعرائهم ويحيون ويموتون شلى **دين محمد**[149]، وكان المصدر الثاني للحصول شلى المماليك هم أسرى الحروب حيث **يتم جمع** الأسرى من كل جنس وبيعهم في أسواق الرقيق، بعد أن يأخذ السلطان **ما يريده** منهم[150].

كان المماليك يعيشون في **ثكنات عسكرية في** قلعة الجبل أطلق عليها الطباق، ويتكون من أربع طبقات **به العديد من** الغرف لسكنى العبيد الصغار[151]، وكانت طباق المماليك **بساحة الإيوان** بالقلعة، واشتمل كل طابق شلى شدة مساكن تتسع لألف مملوك وقد أنعأ الظاهر **بيبرس** طبقتين بالقلعة تطلان شلى رحبة الجامع كما

---

[145] سمير **علي الخادم، الشرق** الإسلامي والغرب المسيحي، بيروت، ١٩٨٩ م، ص ٣٥٣.

[146] **القلقشندى، صبح** الأعشى، ج ١٤، ص ٧٧ ؛ ابن عبد الظاهر، محي الدين ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام والعصور** في سيرة الملك المنصور، تحيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١ م، ص ٢٠٥.

[147] **القلقشندى**، صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٣.

[148] **المقريزي**، السلوك، ج٢ ق١، ١٩٤١ م، ص ٢٤١ ؛ الخطط المقريزية، ج ١، ط١، نشر كلية الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٣٤٨، ٣٧١. ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٣٦.

[149] Dopp ,Le Egypte , p. 15.

[150] Adler , Jewish Travelers , p. 238.

[151] Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 106.

أنعأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة وأنعأ إلى جواره طباقا للمماليك أيضًا(١٥٢) ثم اهتم به الناصر محمد بن قلاوون وشمر حارة تختص بهم وجمع فيها جميع فئات المماليك السلطانية (١٥٣)، وكان يتم تقسيم المماليك إلى فصول يضم كل فصل خمسة وشعرين مملوكا، ولكل فصل غرف نوم خاصة بهم، وكانت الأرضيات مفروشة بالحصير بدلا من السجاد للنظافة، كما اهتم السلاطين المماليك بمستوى **النظافة** والرشاية والتغذية الخاصة بهم (١٥٤) حتى أن السلطان المنصور قلاوون كان **يخرج** في أغلب أوقاته ليرى بنفسه طعام المماليك ويأمر بعرضه شليه، ويتفقد اللحم **ويختبر** مذاقه ومدى جودته أو رداءته، فمتى رأي فيه شيبا شاقب المعرف (١٥٥) **وكان كل** مملوك يقيم في طباق جنسه ولكل مجموشة من الصبية **معلم خاص بهم** يعلمهم اللغة العربية والعريعة الإسلامية وحفظ القرآن الكريم والتدريب **شلى الخط العربي** (١٥٦).

وشندما كان المماليك يصلون إلى سن البلوغ، **كانوا يتلقون** دروسا في الفروسية وركوب الخيل وفنون القتال والحرب، وبعد أن يتم **المماليك فترة** التدريب العسكري، يقام لهم استعراض أمام السلطان، ويقوم بنفسه **بلمتحان** واختبار هؤلاء المماليك، فيما تعلموه ودرسوه شن فنون القتال **والحرب، وشند التأكد** من قدرتهم ونجاحهم في

---

(١٥٢) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو **المحاسن يوسف**، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، دار اكتب المصرية، ١٩٦٥ م، ص ١٩٠ -١٩١ ؛ - وهنا يجب أن نوضح أن طباق المماليك كانت حوالى ١٢ طبقة كل طبقة **قدر حارة** تشمل عدد من المساكن ويمكن أن يسكن في كل طبقة ألف مملوك.ابن شاهين، **غرس الدين** خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق **بولس راويس**، باريس، ١٨٩٤، ص ٢٧.

(١٥٣) **المقريزي، الخطط**، ج ٣، ص ٣٤٦.

- **وكانت الطباق متجاوزة** وليست فوق بعضها وأحيانا على أرتفاع دورين على الاصطبلات عادة **وقد قسم الأشرف خليل** بن قلاوون المماليك كل مع بنى جنسه فأدى ذلك إلى العنصرية والتباغض **بين المماليك ولذا** قام السلطان الناصر محمد بتعمير حارة تجمعم جميعا دون تصنيف الاجناس.

(154) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 31 ,See Also, Wolff , **How Many** Miles to Babylon ?, p. 17.

(١٥٥) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٣٤٦.

(١٥٦) نفس المصدر، ص ٣٤٧ ؛

Dopp,Le Egypt,p. 17, Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff,p.106.

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , note)1(, p. 49.

– الدنانير الأشرفية:تنسب إلى الأشرفيات وأجودها التي تنسب إلى الأشرف برسباى وكانت تسمى البرسبيهية تمييزاً له عن الأشرفيات التي تنسب إلى قايتباى والغورى، أنظر، إبراهيم على طرخان، النظم الأقطاعية، ص ٥٢٦.

)[159](Ghistele , Voyage en Egypte , p. 34 , Harff , op.cit , p. 108.

)[160](Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 49.

)[161](Ghistele , op.cit , p. 34.

مناصب شليا في البلاط المملوكي ومنهم من يصل إلى أمير شعرة، أو أمير شعرين وآخر أمير خمسين وهكذا[١٦٢]، وهؤلاء يعلنون تحت القسم أنهم إخوة شجعان، تربطهم شلاقة قوية معاً ويضعهم السلطان في مقدمة جيعه[١٦٣]، ويتولى الأمراء الكبار وظائف النيابة والولاية في المدن مثل حاكم بيت المقدس ووالي دمعق ووالي القاهرة[١٦٤]، وهؤلاء الأمراء المماليك كانوا يمتلكون شددا من الجند مثلوا **جيوشًا** صغيرة، ففي النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث شعر **الميلادي** والنصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع شعر الميلادي امتلك **الأمير الغني** ما بين ٣٠٠ و ٦٠٠ وأحيانًا ٨٠٠ مملوك، وفي القرن التاسع الهجري / **الخامس شعر** الميلادي لم يمتلك الأمراء أكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ مملوك، **وكانوا يمثلون** القسم من الجيش المملوكي ويعسكرون خارج القاهرة[١٦٥]، وكان القسم **الثالث يتألف** من أجناد الحلقة، وهم من أبناء المماليك والمواطنين **الأصليين الأحرار الأقل** شأنًا من بقية المماليك[١٦٦]، وبذلك يتكون الجيش المملوكي من ثلاثة **أقسام، وهي** المماليك السلطانية التي يعتريها السلطان لنفسه، والأمراء الكبار، **أجناد الحلقة**)أولاد الناس(.

أما عن ملابس المماليك، **فقد ارتدوا ملابس** مميزة شن السكان، فكان الحرس

)١٦٢(العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٩٣ ؛

Potvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 118 -119.

)163(Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 279.

)164(Potvin , op.cit , pp. 118 -119.

)١٦٥(**السيد الباز العريني**، الإقطاع الحربي بمصر، القاهرة، ١٩٥٦ م، ص ٧ ؛ آشتور، التاريخ **الاقتصادي والاجتماعي** للشرق الأوسط في العصور الوسطي، ترجمة عبد الهادي عبله، دمشق، ١٩٨٥، **ص** ٣٧٠.

)١٦٦(**بيرو طافور**، رحلة بيرو طافور، ص٦٦.

- أولاد الناس: هم فرقة عسكرية في الجيش المملوكى وهم من عناصر مملوكية مختلفة كان أبوهم مملوكا وأصبح حرا فهم أحرار وأنضم معهم أيضا البدو والتركمان وبعض فئات المصريين واطلق عليهم أجناد الحلقة، أنظر، العمرى، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٥١، أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص ٢٦، العرينى، الأقطاع الحربى، ص ٤.

المملوكي يرتدي عمامة حمراء [١٦٧] وشليها تطريزات رائعة بيضاء وحول الخصر قماش كتاني ويرتدون الدروع والسيوف والأسلحة في الحزام [١٦٨]، أما كبار المماليك فكانوا يرتدون ملابس كتانية بيضاء طويلة وفوقها ملابس أخرى من الكتان الرقيق المطرز والمزخرف برسوم رائعة[١٦٩] وفي القدم حذاء من الجلد أو الخعب، وشلى رأسه أيضا شمامة حمراء شالية ويتدلى من فوقها قماش صوفي وأحياناً تكون العمامة بيضاء اللون [١٧٠] ويصف لنا العمري ملابس الأمراء والجند وصفا جيداً فذكر أن زيهم الأقبية التترية والكلوتات فوقها ثم القباء الإسلامي فوقها وشليه يعد الحزام والسيف، ثم أن الأمراء والمقدمون وأشيان الجند يلبسون فوقه أقبية قصيرة الأكمام أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كثيرة في قصر الكم والطول وكلوتات صغار غالبها من الصوف الأحمر وشليها شمائم صغار ومهاميز في الأخفاف[١٧١] وقد حدث تغيير شلى هذه الملابس التي تكونت من غطاء للرأس وأقبية وخف وغيرها، كان غطاء الرأس يتغير شكله ففي البداية كان العربوش وهو شلى هيئة تاج مثلث العكل

)[167](Adler, Jewish Travelers , p. 158.

)[168](Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 31 ,See Also, Wolff, How Many Miles to Babylon ? p.74.

)[169](Dopp , Le Caire vu par les Voyageures , tome24 , pp. 125-126.

)[170](Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 121.

)[١٧١](العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ٩٩.

- الأقبية: مفردها قباء، وهي نوع من الملابس المملوكية، عبارة عن قفطان ضيق الأكمام، انظر، سعيد عاشور العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٦ م، ص ٤٦٠ ؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠ م، ص ٢٠'.

- الكلوتات: مفردها كلوتة، وهي غطاء للرأس عبارة عن طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة وتسمي أيضا كلفه وكلفتاه وكلفته، انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٣٠، حاشية (١).

- مهاميز: حديدة تكون في مؤخرة الحذاء وكانت من الذهب أو الفضة الخالصة،ثم صنعت من الحديد المطلي بالفضة أو الذهب وكان في القاهرة سوق خاص لبيع المهاميز، انظر: المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ١٥٨

نفسه الموت حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسائر والظلم [174]، وقد

([172]) أحمد عبد الرازق، الجيش المصري في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٢٧ - ١٣٣

([173]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 48.

([174]) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، في العصور الوسطي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠ م، ج ٢، ٢٥٢.

أثبتت الأحداث أنه كان هناك مائتا تاجر في شهد الناصر محمد بن قلاوون)٧٠٩ – ٧٤١ هـ( )١٣١٠ – ١٣٤١ م(، والمؤيد شيخ)٨١٥ – ٨٢٤ هـ( )١٤١٢ -١٤٢١م(، يتاجرون في السلع العرقية ولكن بعد وفاة المؤيد شيخ تدهورت أحوالهم وكادوا يختفوا من السوق بسبب سياسة المصادرات والظلم ولم يعد يظهر في السوق اسم تاجر الكارم بل اسم تاجر السلطان فقط، وذلك لهجرة البعض ولتقاشس البعض الآخر شن **العمل** والاستسلام لمصيرهم)[١٧٥](.

شاهد الرحالة بوم جارتن Baumgarten يوم ٢١ جمادي الآخر ٩١٣ **هـ / ٢٩** سبتمبر ١٥٠٧ م في أحد شوارع القاهرة، أحد المصريين يبكي **ويصرخ** ويضرب شلى رأسه وصدره، وقد اندهش مما رآه وشندما سأل شن **سبب ذلك، قيل** إنه اشترى منزلا بمبلغ كبير من المال وشندما انتهي من سداد المبلغ **قام أحد المماليك** بالاستيلاء شليه بالقوة والظلم، لأنهم أصحاب السلطة ويحق لهم **فعل ما** يريدون ويعاقبون أي شخص بأي طريقة كانت وليس له حق الا**شتراض أو العكوى**، كما كان لا يسمح للمصريين بركوب الخيل ولا حمل السلاح **في المدينة** ويجبرون شلى المعاملة كعبيد ولا بد شليهم من تقديم فروض ا**لطاشة والولاء** وشندما يسمح الأمير لأي شخص بتقبيل يده كأنه أشطاه شرفًا كبيرًا و**فضلًا منفردا**)[١٧٦](وقد قاسي الفلاحون من جراء النظام الإقطاشي والتعسف **في أ**واخر العصر المملوكي حيث ذكر بوم جارتن أن التعسف هؤلاء المماليك و**صل حد** الاستيلاء شلى الحيوانات التي كان يمتلكها هؤلاء الفلاحون)[١٧٧](.

وبلغت إساءات المماليك ذروتها شندما كانوا ينزلون المدن ويرون سيدة جميلة **في العارع أو في** منزل من المنازل، أن فيدخلوا الدار شنوة ويعتدون شليها حتى لو **كان أهلها في** المنزل، وقد حاول بعض السلاطين الحد من تلك الاشتداءات، ولكن لم

)[١٧٥](ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦ ؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، القاهرة، ١٩٩٠ م، ص ١٨٨.

)[176](Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 454.

)[177](Ibid , pp. 460 -461.

الاجتماشية، وتولوا مناصب شليا وأصبحوا هم أصحاب السلطة السياسية والقوة

([178]) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٣٣٦ ؛ Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 56.

([179]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٣٢ ؛ فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٣٠.

([180]) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٣١ ؛ Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff,pp.121 – 122.

العسكرية، كما كانت انتماءات المماليك شخصية فنسمع شن المماليك الصالحية نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، والمماليك الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس، والمماليك المنصورية نسبة إلى المنصور قلاوون وهكذا، وكانت تلك الرابطة سببا في حدوث تنافس وانعقاقات مستمرة بين الطوائف المملوكية مما أحدث صراشات وخلافات قوية أدت إلى تحويل المدن المصرية والعامية إلى ميادين للمعارك والحروب الداخلية واشتد التنافس القائم شلى القوة والدم و تبدأ سلسلة الخلافات والصراشات شندما يتوفى السلطان، فيسارع كبار الأمراء المماليك بجمع جنودهم وشسكرهم الذين مثلوا جيعا مسلحا مصغرا ويبدأ الصراع للوصول إلى السلطة بالمكر والخداع والاغتيالات والنفي، وهكذا فقد كانت القوة العسكرية وزيادة شدد المماليك لدي الأمير المملوكي مساشدا فعالا وقويا لتوليه السلطة وخلال فترة ٢٦٤ عاماً تولي ٤٥ سلطانا شن طريق الصراع والاغتيالات والخلافات المستمرة [١٨١].

وهنا يذكر الرحالة السير جون منديفيل Sir Johan mandievel الذي شاصر فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون)٧٠٩ – ٧٤٠ هـ( )١٣١٠ – ١٣٤١ م(ما حدث حتى تولى الناصر محمد السلطة للمرة الثالثة، حيث استولي السلطان المملوكي المنصور قلاوون شلى السلطة باستخدام القوة والعنف، ثم ابنه الأشرف خليل)٦٨٩ - ٦٩٣ هـ( )١٢٩٠ – ١٢٩٣ م(الذي قتلوه بالسم، وتولي أخوه الناصر محمد، ثم من بعده الأمير كتبغا)٦٩٤ – ٦٩٦ هـ( )١٢٩٤ – ١٢٦٩ م(، والذي سجن الناصر محمد في قلعة الجبل، ثم قام الأمراء المماليك بخلع كتبغا، وشينوا بدلًا منه الأمير لاجين)٦٩٦ – ٦٩٨ هـ( )١٢٩٧ – ١٢٩٩ م(الذي قتله أحد أمرائه، ثم حدث صراع طويل شلى السلطة انتهي بتولي الناصر محمد للمرة الثالثة ولفترة طويلة)٧٠٩ – ٧٤٠ هـ( )١٣١٠ – ١٣٤١ م([١٨٢].

)181(Wright, Early Travelers ,pp. 117– 118,Casola , Casola Pilgrimage to Jerusalem , p. 279 , See Also ,Wolff , How Many Miles to Babylon ?, p. 24.
)182(Wright , Early Travelers , pp. 145-146.

- السلطان العادل كتبغا: هو كتبغا المغولي المنصوري تم أسره من عسكر هولاكو عام ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م، وعظم شأنه في دولة المنصور قلاوون وأولاده، ثم ولي النيابة في أيام الناصر محمد بن

يرجع السبب في ذلك إلى تعصب الطائفة المملوكية وارتباطها بأستاذها فقد استطاع المنصور قلاوون إنعاء فرقة شسكرية قوية من الجراكسة وأسكنهم في أبراج القلعة ولذا سموا بالمماليك البرجية ووصل شددهم إلى ٣٠٠٠ مملوك وشزلهم شن بقية المماليك وأغدق شليهم بعطفه وأمواله وإقطاشيات كثيرة [١٨٣] سار **أبناء** المنصور شلى سياسة أبيهم في الاهتمام بالمماليك الجراكسة البرجية، مما أدى **إلى** الكراهية ومعاشر الحسد بين البرجية والطوائف الأخرى وظهر ذلك واضحا **شندما** دبر الأمير بيدرا مؤامرة لقتل الأشرف خليل بن المنصور قلاوون فقامت **المماليك** المنصورية بقتل الأمير بيدرا انتقاماً لابن أستاذهم [١٨٤]، واختار **المماليك** الناصر

قلاوون واستقل بالسلطنة ولقب بالعادل عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م، **ولكن الأمراء وثبوا** عليه وأسروه وسجنوه بقلعة صرخد، ثم لما عاد الناصر محمد إلي السلطنة **للمرة الثالثة عينه** نائبا علي حماه ومات ودفن فيها يوم عيد الأضحى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م، انظر: **الشوكاني،** البدر الطالع ج ١، ص ٣٩٢.

- السلطان لاجين: هو الملك المنصور **حسام الدين لاجين بن عبد** الله المنصوري، وكان أصله من مماليك المنصور قلاوون، واشترك مع **الأمير بيدرا في قتل** الأشرف خليل بن قلاوون، ولما تولي الناصر محمد اختفي لاجين حتى شفع **فيه كتبغا فلنعم** عليه بتقدمة ألف، فلما تسلطن كتبغا جعله نائب السلطنة، وعندما وقع خلاف بين الاثنين **خلع كتبغا** وتولي السلطنة، وفي عهده أمر بمسح شامل للأراضي الزراعية " الروك **الحسامي** " ولكنة ظلم الجند والأمراء عند التوزيع فاتفق المماليك الأشرفية مع المماليك البرجية **علي قتله** عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٩٤ – ٣٩٩.

[١٨٣] المقريزي، **السلوك، ج ١** ق٣، ص ٧٥٥ -٧٥٦.

[١٨٤] بيبرس **المنصوري، مختار** الأخبار، ص٩٤ -٩٧ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٧٤ – ٣٧٥ ؛ **ابن تغري بردي،** النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٦ -١٩.

- **الأمير بيدرا: كان أحد** مماليك المنصور قلاوون، ثم صار من مماليك الأشرف خليل الذي كان له **وزير يدعي شم**س الدين بن محمد السلعوس، وزادت مكانته وعندما دخل الإسكندرية وجد غلمان **الأمير بيدرا النائب** قد استولوا علي البهار، فحصلت مشاجرة بين بيدرا والسلعوس، الذي وشي به عند الأشرف خليل وأوغر صدره عليه فقرر بيدرا التخلص من السلطان قبل أن يقتله مثلما فعل مع بعض الأمراء الآخرين، ونفذ مؤامرة أثناء رحلة الصيد، ولكن المماليك تبعوه وأحضروه بين أيدي الأمير كتبغا، الذي قتله وقتل معه المتآمرين، انظر ؛ بيبرس المنصوري، ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الدوادار، مختار الأخبار، تحقيق، عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية،

محمد بن قلاوون سلطاناً شلى البلاد في سلطنته الأولي)٦٩٣ هـ – ١٢٩٣ م(وكان صغيرا في السن، وكان كل من الأمير كتبغا وسنجر العجاشي يحكمان البلاد باسم الطفل الصغير فاشتد الصراع بينهما للوصول للسلطة والتخلص من الآخر ومن الطفل الصغير، واستطاع الأمير سنجر العجاشي هزيمة كتبغا وأنصاره بمساشدة المماليك البرجية الجراكسة[١٨٥]، ثم تخلى المماليك الجراكسة شنه فيما بعد مما أثر تأثيرا سلبيا في الصراع بينه وبين الأمير كتبغا الذي استطاع أن يعتت شمل الجراكسة ويفرقهم وأنزلهم في ثكنات بالقلعة وفي أحياء القاهرة خوفا من تجمعهم مرة أخرى [١٨٦].

ثم ساءت أحوال المماليك الجراكسة في شهد كتبغا)٦٩٤ – ٦٩٦ هـ( )١٢٩٤ – ١٢٦٩ م(، وفي شهد لاجين)٦٩٦ – ٦٩٨ هـ( )١٢٩٧ – ١٢٩٩ م(اللذان اغتصبا السلطة من الناصر محمد، ثم نجح الجراكسة في الانتقام وذلك بقتل السلطان لاجين [١٨٧]، وشاد الناصر محمد بن قلاوون للسلطة للمرة الثانية)٦٩٨ – ٧٠٨ هـ( )١٢٩٩ – ١٣٠٨ م(، وبعدها بدأ نفوذ الجراكسة السياسي يزداد بزشامة أميرهم بيبرس الجاشنكير وهنا بدأ الصراع مرة أخرى شندما فكر بيبرس وزملاؤه في

ط١، ١٩٩٣ م، ص ٩٣ -٩٧ ؛ لبن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٧٣ – ٣٧٥.

[١٨٥] المقريزي، السلوك ك، ج ' ق٣، ص ٧٩٨ -٨٠٠.

- الأمير سنجر الشجاعي: هو الأمير سنجر بن عبد الله الجاولي أبو سعيد، ولد في آمد عام ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م، ثم صار لأمير يدعي جاول في سلطنة الظاهر بيبرس، ثم خدم المنصور قلاوون، ثم أخرج إلي الكرك، ثم استخدمه كتبغا، و تولي نيابة الشوبك، ثم عمل إستادار صحبة الناصر محمد، الذي أرسله إلي دمشق لعمل مسح شامل للأراضي " الروك الناصري "، فاختار لمماليكه أفضل الإقطاعات، فلم يعجب الأمير تنكز نائب الشام وحرض الناصر علي حبسه، ثم أفرج عنه وتولي نيابة غزة، وتوفي عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م، انظر، العسقلاني، شهاب الدين احمد بن علي بن محمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٢، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م، ص ١٠٠ - ١٠١.

[١٨٦] المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٨٠٤ -٨٠٦.

[١٨٧] بيبرس المنصوري الدوادار، مختار الأخبار، ص ١٠١ – ١١٠ ؛ أبن أيبك الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق، أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ٣٧٠ – ٣٨٠.

مصالحهم الخاصة شلى حساب السلطان، وشلى الجانب الأخر تزشم المماليك البحرية الأمير سلار ومازال المماليك البحرية يتمتعون بقدر وافر من النفوذ والقوة فكان الصراع بين الأمير سلار وركن الدين بيبرس الجاشنكير من ناحية والسلطان الناصر محمد من ناحية أخرى وشندما لم يستطيع التخلص منهم تنازل شن الحكم وهرب إلى حصن الكرك (١٨٨) ثم استطاع العودة للمرة الثالثة إلى السلطة وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطة شدد من أبنائه وأحفاده الصغار في السن وهنا زاد نفوذ الجراكسة وظهر الأمير برقوق، الذي أسره القراصنة وهو صغير واشتراه الأمير يلبغا الخاصكي، وتدرب في المدرسة العسكرية، وتعلم فنون الحرب والقتال، وشندما أصبح فارسا قويا أشتقه سيده وترقي في مناصب شديدة (١٨٩)، واستطاع بمساشدة

(١٨٨) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، **تحقيق**، هانس روبرت، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٥٥ -١٧٦ ؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر بن حبيب، **تذكرة** النبيه في أخبار المنصور وبنيه، ج ١، تحقيق محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، **١٩٧٦**، **ص** ٢٨١- ٢٨٣.

- الأمير بيبرس الجاشنكير: هو بيبرس **العثماني الجاشنكير الملك** المظفر كان من مماليك المنصور قلاوون وترقي أمير طبلخانة وهو من **الأمراء الذين** ناصروا الناصر محمد ثم انقلب عليه وولي نفسه سلطانا ولكن الناصر استطاع العودة **للسلطة و**عفا عنه وأقطعه صهيون وعندما وصل غزة وجد نائب الشام في انتظاره **فقبض عليه** وأعاده إلي القاهرة، انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ١١٥ ؛ "الجاشنكير": تعني: **الأمير** الذي يقوم بتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفا من أن يدس فيه السم، ولقب أحيانا بالإستدار، وهي وظيفة من وظائف أرباب السيوف ويتولى صاحبها شئون بيوت السلطان **كلها من** المطابخ والشراب والحاشية والغلمان، انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥، ٤٦٠ ؛ **٤٥٧**.

- الأمير **سلار**: **هو الأمير** سلار التتري المنصوري، كان من مماليك الصالح علي بن قلاوون، ثم **من خواص الأشرف** خليل، ثم نائب عن الناصر محمد، ثم أصبح هو وبيبرس الجاشنكير في النيابة، **وزاد دخله وإقطاعه**، ثم قبض عليه الناصر محمد في سلطنته الثالثة وسجنه حتى مات، انظر: **الشوكاني، البدر** الطالع، ج١، ص ١٨٧ ؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص ١٠٦ -١٠٧.

(١٨٩) **المقريزي**، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٤٧٦- ٤٧٧ ؛
Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 45 , See Also , Wolff, How Many Miles to Babylon ?p.27.

- الأمير يلبغا الخاصكي: هو الأمير يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري تولى إمرة تقدمة ألف في عهد الناصر محمد، ثم استقر أمير مجلس، وتولي الرياسة ولقب نظام الملك في عهد الأشرف شعبان

زميله الأمير بركة أن يتخلصا من السلطان الجالس شلى العرش واقتسما السلطة معاً، ولكن حدة التنافس والصراع ظلت موجودة بين المماليك وباستخدام المكر والدهاء من الأمير برقوق استطاع أن يحرض المصريين ضد الأمير بركة وثاروا ضده، وهنا حدث الصراع المرتقب بين بركة وبرقوق، وجهز الأمير بركة قواته من الأتراك وجهز برقوق قواته من الجراكسة، وانتهى الصراع بفوز برقوق والقبض شلى **بركة** ووضعه في السجن ثم قتله[١٩٠]، وقبض شلى السلطان حاجي وتزوج زوجته **وأقنع** الطفل الصغير بالتنازل شن العرش وتولى السلطة في ١٦ رمضان ٧٨٤ **هـ /** ٢٦ نوفمبر ١٣٨٢ م ورغم ذلك كان له معارضون وظل في الحكم سبع سنوات **وفي شام** ٧٩٢ هـ/١٣٨٩م تنازل شن العرش واختفي، ثم شاد مرة **أخرى حتى مات** شام ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦ م[١٩١].

تولى الحكم من بعده ابنه السلطان الناصر **فرج بن برقوق**) ٨٠١ – ٨٠٨ هـ( )١٣٩٩ – ١٤٠٥ م(والذي شاصره التاجر **إيمانويل بيلوتي** الكريتي Piloti de crete وشاهد ما حدث أثناء فترة حكمه، حيث **تمرد** ضده اثنان من مماليكه في دمعق وحلب وقام بحعد قواته في القاهرة **استعدادًا لمحاربة** المتمردين، وكان جيعه حوالي ٢٠٠٠ مقاتل شلى رأسه اثنان من **مماليكه المقربين** إليه ولكنهم خانوه وانضموا إلى المتمردين وتراجعوا للخلف **وانهزم** شدد من قوات السلطان في دمعق واضطر للهرب مع ٢٠٠ من **الخيالة، واحتمى** بقصره في دمعق، أما المتمردون فقد حددوا

وصار **صاحب الحل والعقد وأكثر** من المماليك الجلبان وفي زمانه كثر فساد العربان والتركمان، ثم **اجتمع عليه مماليكه لقتله** في البحيرة مع السلطان، ولكنه هرب ووصل ساحل القاهرة وضم إليه **المراكب، ومنع العسكر** من المرور، فلما جاء السلطان ركب هو و جميع العسكر في الشواني التي **عمرها يلبغا لغزو** الفرنجة فحاربهم يلبغا وأقام في جزيرة أرواد وعين أنوك أخو السلطان الأشرف **شعبان سلطانا**، ثم قبض عليه العسكر السلطاني وقتلوه بأمر من السلطان، انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

)١٩٠(المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٤٧٣ – ٤٧٤ ؛ Frescobaldi ,op.cit , pp. 174-175.

)191(Wolff,op.cit, p. 28.

إقامته في القصر ولكنهم خافوا من انتقامه منهم لذا اتبعوا أسلوب المكر والخديعة واتجهوا إلى الخليفة العباسي المستعين بالله)٨١٥ هـ / ١٤١٢ م(، وأظهروا له الولاء والطاشة وأوغروا صدره شلى السلطان الناصر فرج بن برقوق ليقوم بعزله وقتله وتولية غيره، ونتيجة لتلك الوشايات صرح الخليفة بعزل السلطان وقتله وحل الخليفة محل السلطان مؤقتا لحين تولية سلطان غيره)[١٩٢](.

كان الأميران اللذان تحالفا ضد السلطان فرج هما الأمير نوروز نائب **العام** والأمير المؤيد شيخ نائب طرابلس وأشلنا الثورة شليه وزحفا بجيعهما إلى **القاهرة شلم** ٨١١ هـ - ١٤٠٨ م وشندما خرج السلطان فرج للعام لقمع الثورة حلت **به الهزيمة** قرب دمعق وقبض شليه وقتل، في حين أدى التنافس بين **نوروز وشيخ** إلى اختيار الخليفة المستعين بالله سلطاناً مؤقتًا)[١٩٣](.

أما الرحالة جسيتل Ghistele الذي زار مصر **شلم ٨٨٨ هـ** / ١٤٨٣ م، وكان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي)٨٧٣-٩٠١هـ( )١٤٦٨ - ١٤٩٥م(، وشلم ظروف توليه السلطة، فعندما تولى قايتباي السلطة كانت **الظروف** صعبة وكانت الفترة فترة انحلال وتدهور سياسي داخلي، **حيث تولي السلطان** تمربغا شام ٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م لمدة شهرين فقط وتم شزله شلي **يد الأمير** خير بك شن طريق الصراع والخديعة والدهاء والذي لقب نفسه **بالظاهر** واختاره المماليك في اجتماع شاجل بالقلعة أثناء الليل، ولكن ذلك لم يرض **الأتابك** قايتباي فدخل القلعة ومعه شدد من الأمراء بلغ شدددهم حوالي ٤٠ **أو** ٥٠ مملوكاً، حيث قاموا بإلقاء القبض شلى الأمير خير بك رافضين توليه **السلطنة** وأطلق شليه سلطان ليلة، وأشلنوا تولية قايتباي سلطاناً شلى البلاد **شام ٨٧٣ هـ** - ١٤٦٨ م(ولم يجرؤ أحد وقتها شلى الاشتراض شلى حكم **قايتباي شلى** السلطان المخلوع خير بك بالنفي إلى الإسكندرية والإقامة فيها حتى

)[192](Dopp , Le Egypte , pp. 12-14.

)[١٩٣](المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص ٢٠٥-٢١٦ ؛ ابن الصيرفي، علي بن داود بن إبراهيم الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٢، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٠٢ -٢٠٥ ؛ ٢١٢ -٢١٤ ؛ ٣٠٥-٣١٦.

مماته[١٩٤]، وشندما تولي الناصر محمد بن قايتباي)٩٠١- ٩٠٤هـ/ ١٤٩٦-١٤٩٨م(السلطة اختاره المماليك بعد وفاة والده، ولكن هناك بعض المماليك الذين اشترضوا شلى تولية ذلك العاب، فجمعوا الجنود والعسكر وهاجموا القلعة لمدة ثلاثة أيام ومعهم ٣٠٠٠ مملوك وذلك لإجبار العاب شلى الخروج من القلعة والتنازل شن الحكم، وكان يتزشم المماليك المتمردين الأمير قانصوة خمسمائة والذي تولي السلطة **ثلاثة** أيام فقط، ودارت رحى الصراع بين السلطان محمد بن قايتباي وقانصوة **خمسمائة،** حتى اضطر السلطان محمد إلى الهرب، وفي اليوم التالي قام قانصوة بقتل **كل أتباع** السلطان محمد، وتابع الطرفان الصراع مرة أخرى واستطاع السلطان **محمد بن** قايتباي القضاء شلى قانصوة خمسمائة ومعه ٥٠ من الجنود **وشاد السلطان** محمد بن قايتباي إلى القاهرة)[١٩٥].

استمر ذلك الوضع المضطرب وظلت الخديعة **وسفك الدماء** والانقلابات هي الطريقة المثلى للوصول إلى العرش وتولية السلطنة **حتى نهاية** العصر المملوكي، وأحيانا كان السلطان يضطر للبقاء في القلعة **لفترة طويلة** ولا يخرج منها **خوفًا** من هجوم المماليك شليه شند خروجه. **فقد ذكر الرحالة** تينو الذي زار مصر شام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م أن السلطان الغوري)٩٠٦ – ٩٢٢ هـ( )١٥٠١ – ١٥١٦ م(، لم يخرج من قصره منذ فترة طويلة **إلا في** حالات نادرة، والسبب في ذلك هو خوفه من أن يدخل أحد قصره ويستولى **شلى السلطة**،كما سبق و فعلوا مع بعض السلاطين المماليك السابقين، فمنهم **واحد قد تم** إيداشه في السجن بالإسكندرية مكبلًا بالقيود والسلاسل الحديدية **وهو)السلطان** جانبلاط ٩٠٥ – ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ -١٥٠١ م(، والآخر تم

)[١٩٤](**ابن إياس**، بدائع الزهور، ج٣،ص ٣ - ٤ ؛ Ghistele ,Le Voyage en Egypte, pp. 27- 29. – الأتابك: الأتابك أو الأطابك معناها الوالد أو الأمير وهو مقدم العسكر والقائد الأعلى للجيش، انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨.

)[١٩٥](ابن إياس بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٤٢ -٣٤٥ ؛ Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff, pp.103-105

إشدامه والتخلص منه وهو)السلطان العادل طومان باي)٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م([١٩٦]،
وكل هؤلاء السلاطين المماليك من حكم قايتباي إلى شهد السلطان قنصوة الغوري قد حكموا فترات قصيرة مما يدل شلى مدى الفوضى السياسية وشدم الاستقرار الذي ساد البلاد في ذلك العصر، وليس أدل شلى ذلك من أن معظم السلاطين المماليك **الذين** تولوا الحكم في شصر الجراكسة انتهت حياتهم بالقتل أو السجن، والنفي مما جعل **كبار** الأمراء المماليك لا يرغبون في السلطنة القائمة شلى سفك الدماء والخيانة **فعندما قتز** العادل طومان باي شرض المماليك شلى قنصوة الغوري السلطنة ولكنه **رفض في** البداية خوفاً من تمرد المماليك شليه وقتله، ولكنهم سحبوه **وأجلسوه** بالقوة شلي العرش، ثم اضطر في النهاية للقبول واشترط شليهم ألا **يقتلوه وأن يعفوه** بالمعروف إذا أرادوا شزله حيث قال لهم: أقبل ذلك بعرط **ألا تقتلوني بل إذا** أردتم خلعي وافقتكم([١٩٧].

أما بالنسبة إلى هيئة السلطان في **مجلسه** وملابسه فقد دونها الرحالة الأوربيون واندهعوا مما شاهدوه، **فقد كان السلطان** يجلس في إيوانات)قاشات فسيحة(بالقلعة أو في الأحواش **خارج القصر**، حيث كان في القلعة إيوانات شديدة معدة لاستقبال الضيوف **والزوار وشقد جلسات** السلطنة، وكانت تلك القاشات فخمة وشظيمة البناء والمعمار، **فالحوائط** مغطاة بالرخام والفصوص الذهبية ومزخرفة برسوم مذهبة **أو بلون زرقة** السماء، والأرضية مغطاة بالرخام الأبيض الملون، والسقف مذهب **ومغطى بزخارف** ورسوم رائعة الجمال، و كانت القاشة مليئة بعدد من الأشمدة **الرخامية ناصعة** البياض والحمراء، كما غطت الأرضية بالفرش والبسط **والسجاد**([١٩٨] **كما كان** داخل القاشة ذاتها نافورة مربعة العكل غير شميقة تسبح فيها

)[١٩٦](**ابن طولون**، شمس الدين محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج١، تحقيق محمد مصطفي، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ٢٣٠ -٢٤١ ؛

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.50.

)[١٩٧](ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤.

)[١٩٨](الوزان، الحسن بن محمد الوزان الزياتي)جان ليون الأفريقي(، وصف أفريقيا، ترجمة عبد

الأسماك (١٩٩) كانت القاشة تطل شلى حديقة رائعة من خلال نوافذ ذهبية أو حديدية، والحديقة شبارة شن بستان بديع المنظر به شتى أنواع الفاكهة والنباتات والزهور والعديد من النافورات (٢٠٠).

كان السلطان يجلس في الهواء الطلق ولاسيما وقت الصيف الحار، فتقام في أحد الأماكن في القلعة خيمة ضخمة وكبيرة وسط الميدان الفسيح، وفيها يجلس **السلطان** لتناول الطعام أو لاستقبال الوافدين، وشلى مقربة منه خيمة أخرى أكثر فخامة **يستقبل** فيها العخصيات الهامة(٢٠١)، وكان يوجد في صدر المجلس تخت السلطنة **وهو شبارة** شن منبر مرتفع من الرخام والعاج والأبنوس(٢٠٢)، وأحيانًا يسميه الأجانب **المصطبة،** وفي مناسبات أخرى كان السلطان يجلس شلى كرسي **خعبي مغطى بالحرير**(٢٠٣) جرت العادة أن ينظر السلطان في العكاوى والمظالم يومي **الاثنين والخ**ميس من كل أسبوع في الإيوان المعروف بدار العدل بالقلعة(٢٠٤)، **وكان السلطان** يجلس وحوله الأمراء والمماليك وشدد من الفرسان مسلحين **بالأسلحة من** السيوف والدروع والحراب(٢٠٥)، ويقف بجانبه أيضًا شدد من **المماليك كان** أحدهم يمسك سيفًا والآخر إبريقًا والثالث يحمل شلى كتفه الأيمن **قضيبًا طويلًا من** الذهب(٢٠٦).

الرحمن حميدة، السعودية، ١٣٩٩هـ، ص ٥٩٠ ؛ Dopp , Le Caire , tome 24 , pp. 127-129 , Schefer , Le **Voyage de** Jean Thenaud , p.188

(199) Ghistele , Le Voyage en Egypte , pp. 24.

(٢٠٠) المقريزي، **الخطط، ج٣، ص**٣٤٤-٣٤٦

(٢٠١) بيرو طافور، **رحلة بيرو** طافور، ص ٦٧.

(٢٠٢) **المقريزي، الخطط، ج٣،** ص٣٣٥ ؛ Dopp , Le Caire , pp. 126 -127.

(203) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.189.

(٢٠٤) **المقريزي، الخطط،** ج٣، ص ٣٣٩ ؛ ابن كنان، محمد بن عيس بن كنان، حدائق الياسمين، **تحقيق عباس** الصباغ، بيروت، ١٩٩١م، ص ٨٠ ؛

Adler, Jewish Travelers , p. 170 , Harff, The Pilgrimage of Arnold **Von Harff,p.** 107.

(٢٠٥) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٦ Wright , Early travelers , p. 147.

(206) , Dopp , Le Caire , pp. 126-127 .Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.189

كانت ملابس السلطان مثل ملابس المماليك شبارة شن رداء من الكتان الأبيض وشمامة بيضاء مزينة [٢٠٧]، وأحيانا كان يرتدي الثوب البعلبكي الأبيض، وشليه شباءة من المخمل العديد الاخضرار، وشلي رأسه شمامة ذات قرون [٢٠٨]، وقد تعود السلطان شلى تغيير ملابسه ثلاث مرات في اليوم، ويلقي بها في غرفة خاصة ولا يرتديها مرة أخرى ليقدمها فيما بعد إلى أقاربه وأمرائه المقربين إليه و**الولاة** المخلصين له في مناسبات شديدة [٢٠٩].

أما عن وسائل الترفية والتسلية للطبقة الحاكمة، فكان الصيد **رياضة** المماليك المفضلة ووسيلة من وسائل الترفية والتسلية التي أحبوها **وبالغوا** في الاهتمام بها، ومارسوها شلى نطاق واسع، فقد كانوا منذ صغرهم **يتدربون شلى** فنون القتال وأساليب الصيد، ويرون أنه أرقي وأسمى الأشمال **التي يقوم بها المملوك** سواء كان سلطانا أو أميرا،لذلك كانوا يحرصون شلى تعلم **أساليب الصيد** وكل ما يتعلق به. وكانت رحلات الصيد تسمي باسم سرحات **الصيد، والتي كان** موشدها شادة أيام الربيع، حيث يسرح السلطان شدة مرات **وجميع الأشيان** بخدمته بالموكب الكامل إلى مواقع مخصوصة [٢١٠] وأهم تلك **المواقع هي** منطقة سرياقوس والتي تبعد حوالي ١٥ ميل شن القاهرة[٢١١]، وتلك **المنطقة أنعأ** فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون شام (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) **القصور** الفخمة ومنازل شديدة، وغرس فيها الأشجار

---

(207) Ghistele,Voyage en Egypte, p.26,Baumgar**ten,The** **Travel** of Martin Baumgarten,p.443

(208) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.184.

(209) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 172 , , **Dopp , Le Caire ,** tome 23 , p. 148 , See Also , Wolff, How Many Miles to **Babylon ? , p. 144.**

(٢١٠) **ابن شاهين**، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٧.

(211) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 172 , Schefer , **Le Voyage** de Jean Thenaud , pp.xiv .

- سرياقوس: بلدة في الشرقية بها قصور ينزل بها السلطان وميدان وبساتين وقصور للأمراء الصغار والمماليك السلطانية ينزلون بها في أوائل فصل الخريف للتنزه، انظر: ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٥، ص ٤٩.

والزهور ونقل إليها بعض النباتات من العام حتى اكتملت شام ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م، وكان يخرج معه الأمراء والأشيان، فينزل هو القصر وينزل الأمراء والأشيان منازلهم التي بنيت لهم وكانوا يتوجهون إليها كل سنة للعب والصيد [٢١٢].

لا ريب أن سرحات الصيد كان يصاحبها شدة مظاهر اجتماشية وترفيهية، لضخامة أشداد المرافقين للسلطان، فقد شاهد بعض الرحالة موكب السلطان والأمراء شند الخروج في رحلة الصيد والذي كان يحتوي شلى أكثر من ٥٠٠٠ خيمة. [٢١٣] وبصحبته آلاف من الرجال الفرسان، يصل شددهم إلى ١٠٠.٠٠٠ فارس – **ويبدو أنه** شدد مبالغ فيه - ومعهم شدد كبير من طيور الباز، الذي يستخدمونه **في الصيد،** ويحملون معهم إيوان السلطان وأمتعة أخرى ثمينة يحمله **مائة جمل، وشند** ما ينصب الإيوان يصبح كأنه قصر صغير، حيث يحتوي شلى **غرف للنوم** وقاشات السمر والعراب، ثم ينصب إيوانات أخرى أقل حجما للأمراء **والنبلاء** والأشيان، ويصبح المكان مثل المدينة بها شوارع وصناع وباشة الطعام **والعراب**[٢١٤]، وقد بلغ اهتمام السلاطين المماليك بالصيد إلى حد أنهم أقاموا **أحواشاً** لطيور الصيد في طول البلاد وشرضها، والتي كانوا يستخدمونها **في صيد الطيور والحيوانات** وخصصوا لرشايتها ما لا يقل شن ٥٠ أو ٦٠ رجلًا **للعناية بها** وتربيتها[٢١٥]، وأول من اهتم بذلك هو السلطان الظاهر بيبرس، **وبعده** السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذي كان مولعًا بالصيد، ولذا أقام أحواشا **بالقلعة وجعل** فيها خدما من الأسرى النصارى ولم يقتصر الأمر شلى ذلك **بل أقام تلك** الأحواش في كل الأقاليم المصرية وسكن بها الأسرى لتربية الطيور **والأغنام**[٢١٦].

أما طريقة الصيد فكانت تتم بأن تطلق الطيور في الهواء، ثم ترمي لها الحبوب

---

[٢١٢] **المقريزي**، الخطط، ج٣، ص ٣٢٤.

[213] Dopp , Le Cairo , tome 23 , p. 131.

[214] Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 172.

[215] Ghistele , LeVoyage en Egypte, , p. 115.

[٢١٦] المقريزي، السلوك، ج٢ق٢، ص ٥٣١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧٨ ؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٧ -١٢٨.

فتهبط شليها، ويقوم الأمراء بعمل حلقة حولها[٢١٧]، ويدقون شلي طبول يضعونها حول خصرهم مصدرين بذلك أصواتاً شالية تفزع الطيور حتي يتم صيدها[٢١٨]، وبعد أن يأخذ السلطان حظه من صيد الطيور يتحول إلي صيد الوحوش، فتعد الخيول وتقيم العساكر حلقة كبيرة واسعة تطلق داخلها النعام والظباء والبقر الوحعي، فيطاردها السلطان ومعه الطيور الجارحة، التي تصطادها فتعر الوحوش بالذشر والفزع، وبعد أن يصطاد السلطان ويأخذ كفايته يترك لأمرائه حرية الصيد[٢١٩].

كانت لعبة الكرة من وسائل التسلية للطبقة الأرستقراطية الحاكمة في الدولة المملوكية والتي كانت لعبة شائعة أيضا شند العرب، وهي في الأصل لعبة فارسية لم يعرفها بنو أمية، وأول من لعبها كان بنو العباس، وكان أسبقهم هارون الرشيد وهي شبارة شن كرة في أرض الميدان فيتسابق الفرسان إلي التقاطها، وكانت تصنع من مادة خفيفة مرنة، وتلقي بعصا معوجة يسمونها الصولجان أو الجوكان، ويرسلون الكرة بها في الهواء، وهم شلي خيولهم، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها[٢٢٠]، وشرفت تلك اللعبة باسم الجوكان أو لعبة البولو في أيامنا هذه[٢٢١].

وقد شغف السلاطين المماليك بلعبة الكرة بدرجة كبيرة حتى أننا نجد مظاهر كثيرة من حياتهم تدل شلى الاهتمام بها، فكان المعز أبيك أول السلاطين المماليك الدغوفين بها ففي اليوم الذي قتل فيه في ربيع الأول شام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٧ م نزل المعز من القلعة في الصباح ولعب الكرة في ميدان اللوق، وصعد آخر النهار إلى القلعة ومعه الأمراء في خدمته. [٢٢٢]، أما الظاهر بيبرس شندما تولى الحكم، كان

---

(٢١٧) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٦٧.

(218) Ghistele, LeVoyage en Egypte , p. 115.

(٢١٩) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٦٩ - ١٧١، L.OC.

(٢٢٠) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧ م، حاشية (٣)، ص ٢٩٣.

(٢٢١) سعيد عاشور، المجتمع المصري في العصر المملوكي، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ٧١.

(٢٢٢) العيني، بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ الزمان، ج١، تحقيق محمد محمد

بدمعق شام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م لترتيب المملكة وتوزيع النيابات شلى الأمراء، ركب إلى الميدان بدمعق ولعب الكرة مع الأمراء، ثم اجتمع معهم وحدد الإقطاشيات لهم[٢٢٣]، وفي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م أمر السلطان بيبرس بعمارة الدور والمساكن في أرض اللوق لينزل فيها طائفة التتار المستأمنين)هم التتار الذين طلبوا الأمان واللجوء إلى اليدار المصرية بسبب النزاشات القائمة في بلادهم(وخرج بنفسه **للقائهم** ومعه العسكر وركب إلى الميدان وأركبهم معه للعب الكرة وأشطى **كبراءهم** الإمارة[٢٢٤].

بلغ اهتمام السلاطين بتلك اللعبة أنهم أنعئوا الميادين **الخاصة للعب فيها مثل** الميدان الظاهري الذي شيده السلطان الظاهر بيبرس **البندقداري بأ**رض اللوق، ومازال يلعب فيه الكرة ومن بعده من السلاطين حتى شام ٧٠٤ **هـ /** ١٣١٤ م، حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بهدمه بسبب **بعد النيل شنه** وجعله بستانا حمل إليه أصنافاً شديدة من العجر من دمعق[٢٢٥]، **كما أنعأ الناصر** محمد بن قلاوون الميدان الناصري في أراضي بستان **الخعاب فيما** بين مدينة مصر)الفسطاط(والقاهرة للعب الكرة، وكان يركب **دائماً أيام** السبت حتى في شدة الحر بعد وفاء النيل

أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٧ م، **ص** ٤٠.

- اللوق: معناها الأرض اللينة **فإذا انحسر** عنها ماء النيل لا تحتاج إلي الحرث ولذا فهي أرض زراعية لينة يزرع **بها البساتين و**المحاصيل ولم يوجد بها بناء إلا في عام ٦٦٠ هـ /١٢٦١ م بعد وصول المغول فأ**سكنهم الظاهر** بيبرس فيها، انظر: سعاد ماهر، القاهرة وأحياؤها القديمة، القاهرة، ١٩٦٧ م، **ص** ٦.

(٢٢٣) **بيبرس المنصوري**، مختار الأخبار، ص ١٩ ؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب **النويري، نهاية الإرب** في فنون الأدب ، ج٣٠، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة،الهيئة العامة، ١٩٩٠، **ص** ٤٦.

(٢٢٤) **ابن عبد** الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٦٧ م، ص ٣٥ ؛ ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، ج ١٣، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٣٤، المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٩٠-١٩١

(٢٢٥) المقريزي، الخطط، ص ٣٢٢ ؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٣٧.

([٢٢٦]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٢٥ -٣٢٦.

([٢٢٧]) نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٧١.

([٢٢٨]) المقريزى، الخطط، ج ٣، ص ٣٢٤.

([٢٢٩]) النويري، نهاية الإرب، ج٣٠، ص ١٧٠؛ المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ٥٨٤؛ ابن عساكر، شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز خويطر، ١٩٧٦ م، ص ١٤٩.

([230]) Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 22.

---

[٢٣١] بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٧٤.

[232] Wolff,op.cit, p. 24

[٢٣٣] سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٧٢

[٢٣٤] المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٨١ ؛ ابن عساكر، حسن المناقب، ص ١٦٢-١٦٣ ؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ١٥٥ ؛ Wolff , op.cit , p. 19.

[235] Fabri , Le Voyage en Egypte 1483, trad. Du Latin Presente et annote

وكفى أننا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا شن البلاد[٢٣٧]، وتجمعوا في أماكن

---

par J. Masson, Le Caire , 1975 , tome 3 , p , 954.

(236) Wright , Early travelers ,p. 160.

(٢٣٧) المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص ٣٨٦.

- الأمير حصن الدين بن ثعلب الجعفري: ينتهي نسبه إلي جعفر بن أبي طالب وكان من أشراف الصعيد ومقره مدينة ديروط ولذلك تسمي ديروط الشريف، انظر، علي مبارك، الخطط التوفيقية

شدة حتى بلغ عدد فرسانهم ١٢ ألف، فتجمع لهم جيش المماليك بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي، الذي أوقف العربان وهزمهم، وكذلك فعل بعرب الغربية والمنوفية وقتل وسبي وغنم الكثير، وأخمد تلك الثورة وهرب ابن ثعلب ثم طلب الأمان فأجيب له، ثم قبض عليه مع عدد من أصحابه وشنقوا جميعا، إلا ابن ثعلب فإنه سجن بالإسكندرية[٢٣٨]، ثم عادوا مرة أخرى عند مرض السلطان المنصور قلاوون **سنة** ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م وتولية ابنه الأشرف خليل بن قلاوون، وثاروا في مدينة **قوص** لكن الأمير طرنطاي استطاع كبح جماشهم وتأديبهم[٢٣٩].

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون انتهز العربان فرصة **انشغاله بالحروب** ضد المغول ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على السلطان عام ٧٠١ **هـ /** ١٣٠٠ م، ولكن الأميرين سيف الدين سلار وركن الدين الإستادار استطاعا **أن يوقعا بهم** هزيمة ساحقة وكسر شوكتهم عند مدينة قوص[٢٤٠]، ثم اشتد **خطرهم بعد ذلك** حتى سيطروا على الصعيد، وعندئذ استعد لهم الناصر محمد بن **قلاوون، فأعد جيشًا** قويًا وبعد أن اكتملت العدة اتجه الجيش إلى الصعيد، حيث **حاصر العربان،** وصدرت الأوامر من السلطان الناصر محمد بأن يعمل فيهم **السيف كبيرا أو** صغيرًا ولا يبقوا على أحد، وكانت بالفعل حرباً قويةً فعالة حققت نصرا **رائعا عليهم**، بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم في حين فر الباقون **إلى الكهوف**[٢٤١].

الجديدة لمصر و**القاهرة، ج** ''، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ م، ص ٣-٦ .

[٢٣٨] النويري، **نهاية الإرب،** ج ٢٩، ص ٤٢٨-٤٢٩.

[٢٣٩] ابن **تغري بردي، النجوم** الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٤.

- **الأمير طرنطاي: هو** الأمير طرنطاي المحمدي، كان من مماليك المنصور قلاوون، وشارك في **قتل الأشرف خليل** بن قلاوون، ثم تولي الإمارة، ثم قبض عليه وسجن لمدة سبع وعشرين عاما **وأفرج عنه عام** ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م، وأخرج إلي دمشق فمات بها، انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، **ج ٢، ص** '٣' .

[٢٤٠] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، تحقيق زبيدة عطا، القاهرة، ١٩٨٩ م، ص ٣٤٧ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترستين، ليدن، ١٩١٩م، ص ١٠٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٥٣.

[٢٤١] المقريزي، السلوك، ج ٢ق ٢، ص ٣٣٥.

وخلال الفترة التي شاش فيها الرحالة منديفيل في قصر السلطان محمد بن قلاوون واشترك في بعض غزواته ضد العربان، لكنه لم يتناول ذكر تلك الغزوات وما حدث فيها، و يبدو أن أهم تلك الغزوات كانت شام ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م. وكذلك ما حدث شام ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م في شهد السلطان الملك الصالح صالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون)٧٥٢ – ٧٥٥ هـ( )١٣٥١ – ١٣٥٤ م(، حيث ثار شربان الصعيد ثورة جامحة استمرت لمدة شام كامل، ونعروا الفساد والرشب، ونهبوا الغلال وقتلوا شدداً من العمال وكان زشيمهم أبن الأحدب شيخ قبيلة شرك، واجتمع حوله شدد كثير، فخرج لهم السلطان بنفسه ومعه أمراؤه وجنده، بقيادة الأمير شيخو العمري والأمير ضرغتمس الناصري والأمير طاز وأوقعوا بهم وقتلوا نصفهم وقطعوا رءوس كثير منهم وبلغ شدد القتلي حوالي ١٠ الآف – والراجح أن هذا العدد مبالغ فيه - واستمر شيخو في محاربة العربان لمدة ثلاثة شهور، وشادوا إلى القاهرة بالأسرى والغنائم الكثيرة من الجمال والسيوف والأغنام،وأشدموا الأسرى وكان شددهم ٧٠٠ أسير، وفر الباقي وبعد فترة طلب زشيمهم ابن الأحدب الأمان فأمنه السلطان وخلع شليه وأقره شلى معيخة قبيلته)[٢٤٢](.

)[٢٤٢](المقريزي، السلوك، ج ٢ق٣، ص ٨٩٨ – ٨٩٩ ؛ ٩٠٧ – ٩١٥.

- ابن الأحدب: هو محمد بن واصل ولكنه لم يكن أحدباً ولكن أقفص)كل ما طال وانحني(ولذلك اشتهر بالأحدب وقام في عرب عرك بالصعيد، ونتيجة إهمال الولاة بعد موت السلطان الناصر محمد، قلت مهابة الكشاف والولاة فخرج العربان عن الحد وقطعوا الطرق برا وبحرا، وأدعي الأحدب السلطنة وجمع العرب حوله والفلاحين، ولكن السلطان الملك الصالح قبض علي عدد كبير من العربان وهرب الأحدب، ثم شفع له الشيخ المعتقد أبي القاسم الطحاوي، فعفا عنه السلطان وأعطاه إقطاعا وأكرمه تكريما للشيخ، انظر، المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣، ٩٠٩ – ٩١٣.

- **الأمير شيخو**: هو شيخو الناصري، تقدم في أيام المظفر حاجي، واستقر في أول دولة الناصر حسن وكان له شأن عظيم، ثم تولي نيابة حلب، ثم سجن بالإسكندرية، وفي عهد الصالح صالح أفرج عنه و توجه معه لمحاربة العربان، ثم شارك في خلع الصالح وإعادة الناصر حسن، واستقر هو مدبر المملكة، وفي عام ٧٥٨ هـ / ١٣٥٦ م وثب عليه احد المماليك وجرحه بالسيف في وجهه ويده، وظل في منزله حتى توفي في نفس العام، انظر، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١١٥ -١١٦ ؛ الصفدي، صلاح الدين بن خليل بن ايبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج٢، تحقيق، علي أبو زيد وآخرون، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨ م، ص ٥٣١ – ٥٣٥.

لم تسلم المدن الكبرى في بلاد الشام أيضًا من غلوات العربان، ففي عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م عندما زار الرحالة معيولم بن مناحم مصر والشام وقبل وصوله إلى غزة في يوم ٢٢ جمادى الآخر الموافق ٢١ يوليو، علم أن العربان اللصوص قد هاجموا ثلاث رجال قرب مدينة غزة وأخذوا جملين محملين بالبضائع، وعندما وصل غزة عرف أن نائبها ذهب لمحاصرة العربان الذين هاجموا مدينة رام الله وأشعلوا **فيها** النيران، وكان هؤلاء العربان يتزعمهم فارس منهم وقد قام السلطان منذ **فترة قريبة** بقتل أخيه فقرر الانتقام له، وذلك بمهاجمة القوافل في الصحراء، وتدمير **وتخريب** المدن والقرى الريفية، وباءت حملات السلطان بالفعل حتى استطاع ذلك **الأعرابي** دخول مدينة رام الله، وخاصة أن السلطان الأشرف قايتباي **كان معغولًا** في ذلك الوقت بالحرب، ضد زعيم قبيلة الشاه البيضاء التركماني **أوزون** حسن أو حسن الطويل Uzan Hassan وقتل من جند السلطان **٣٠ ألف جندي**، ولذا كانت هناك فرصة مناسبة للتمرد ولقيام العربان بالهجوم والنهب، **وعندما ذهب** أمير غزة لمساندة أمير رام الله لم يحققا نجاحًا وانهزمت قواتهما **وقتل جنودهم** وكانوا حوالي ٢٣ ألف جندي، وعاد إلى غزة منهزمًا(٢٤٣).

- الأمير صرغتمش: هو الأمير صر **غتمش الناصري** جلبه ابن الصواف التاجر، فاشتراه الناصر حسن بأربعة آلاف دينار وترقي **إلي أمير** طبلخانة، ثم راس نوبة كبير فتصرف في الولاية، وعظم شأنه في دولة الصالح صالح، **ولذلك قبض** عليه السلطان وسجنه بالإسكندرية ثم قتلوه عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م، انظر، **العسقلاني، الدرر** الكامنة، ج٢، ص ١٢٢ -١٢٣ ؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص ٥٥٦ – ٥٥٧.

- الأمير **طاز: هو الأمير طاز** بن قطغاج، كان بدايته أيام الناصر محمد إلي حكم الصالح إسماعيل **والناصر حسن، وزادت** شهرته، وهو الذي امسك بيبغاروس)احد المماليك المتمردين(في طريق **الحجاز والملك المجاهد** صاحب اليمن و ثقبة صاحب مكة و طفيل صاحب المدينة، وتولي نيابة حلب **في أول دولة الناصر** حسن الثانية، ثم أعلن العصيان وخذله أمرائه، وامتنع عن الحضور إلي مصر **فقام نائب الشام** بالقبض عليه وسجن بالكرك، ثم الإسكندرية، ثم أفرج عنه يلبغا، وأقام في القدس ثم نقل إلي دمشق ومات بها عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م، انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٢٨ -١٢٩ ؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ٥٦٧ – ٥٧١.

)243(Adler, Jewish Travelers, pp. 180 , 184-185.

- الشاه البيضاء: تعني في المصادر بـ " البايندرية " و " آق قويونلو "، أما " البايندرية " فذلك لأنهم

شمس، ٢٠٠٢ م، ص ٢٧.

- أوزون حسن: هو حسن بك بن علي بك بن قرا يلوك عثمان صاحب ديار بكر وأخو جهانكير الماضي ووالد أبي المظفر يعقوب صاحب الشرق ويعرف بالطويل. انتزع مملكة الحسن من بني أيوب بقتله لزين العابدين الملقب بالصالح وأخويه بني علي بن محمود بن العادل سليمان وذلك في سنة ست وستين. ومات في جمادى أو رجب سنة اثنتين وثمانين بعد أن أخذ ملك الروم ابن عثمان جنده، واستقر بعده ابنه الكبير خليل فحاربه أخوه المشار إليه يعقوب وقتل بعد ذلك.، انظر: السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ٤، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٤ هـ، ص ٢٤ ـ ٢٥.

وقتل أكثر أهلها [٢٤٤]، ومالبث أن أرسل تيمورلنك سفارة إلي الظاهر برقوق، تحمز رسالة تهديد ووشيد، فأمر برقوق بقتل الرسل جميعا وبدأ الاستعداد للحرب [٢٤٥] وبوصول تيمورلنك إلى ذلك الوضع، أصبح الصدام وشيكاً وحتميا بين الطرفين، ثم استغل السلطان الظاهر برقوق فرصة انعغال تيمورلنك ببعض أمور الحكم في الهند، وشين أميرًا مملوكيًا بنيابة السلطنة في بغداد وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء، واستعاد برقوق بذلك سلطة المماليك شلى بغداد مرة أخرى حتى توفي شام ٨٠١ هـ - ١٣٩٩م [٢٤٦].

ثم شاد تيمورلنك شام ٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م وأشد جيعًا جديدًا قويًا، واستولي شلى شدد من المدن العامية، وتقدم ناحية دمعق وحاصرها لمدة شهر كامل، ولم يستطع السلطان الناصر فرج بن برقوق الدفاع شنها وأنزل تيمورلنك الهزيمة بجيوش المماليك، واستولى شلى مدينة دمعق بالفعل شام ٨٠٣ هـ - ١٤٠١ م وأشعل فيها النيران حتى تحولت المدينة إلى رماد واستولي شلى ما بها من أموال وذهب وفضة ومجوهرات وأخذ معه الصناع والعمال المهرة [٢٤٧] وبعد ذلك بعدة سنوات مات تيمورلنك وتمزقت دولته العظيمة بسبب النزاع شلى العرش بين الورثة.

خفت حدة العداء بين التركمان والمماليك واستمر الوضع شبه هادئ حتى شهد

---

[٢٤٤] المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٧٨٨ – ٧٨٩ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٣ - ٤٤.

- تيمورلنك: هو تيمورلنك بن طرغاي السلطان الأعظم، " اللنك " تعني الأعرج في لغتهم كان ابتداء ملكه بعد انقراض دولة جنكيز خان، فظهر في تركستان وسمرقند وتغلب علي ملكهما، وبدأ الزحف علي خوارزم وخراسان وأذربيجان، ثم تقدم إلي قلاع الأكراد وأطراف بلاد الروم، ثم أغار علي أملاك السلطان المملوكي في حلب وبغداد ودمشق، ثم اتجه ناحية بلاد الروم وحارب السلطان العثماني بايزيد، ثم اتجه إلي بلاد الخطا فمات في الطريق بسبب الثلوج وتولي حفيده خليل بن ميران شاه بن تيمور، انظر، السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٤٦ -٥٠ ؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ١١٩ -١٢٣.

[٢٤٥] المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٧٩٧.

[٢٤٦] سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ١٦٥.

[٢٤٧] المقريزي، السلوك، ج٣ ق٣، ص ١٠٣٠ -١٠٥١ ؛ Dopp , Le Egypte , p. 119.

السلطان الأشرف برسباي)٨٢٥ – ٨٤١ هـ)١٤٢٢ – ١٤٣٨ م(ولم يغفر التركمان للمماليك ما فعلوه بهم منذ أيام السلطان الملك المؤيد شيخ)٨١٥ – ٨٢٤ هـ( )١٤١٢ – ١٤٢١ م(، حيث دمروا وخربوا مدناً كثيرة في بلادهم ثم قام الأمير التركماني شثمان قرايلوك)٧٨٠ – ٨٣٩ هـ( )١٣٧٨ -١٤٣٦ م(زشيم العاه البيضاء بالتوغل في حدود الدولة المملوكية وهاجم سوريا شام ٨٣٠ هـ - ١٤٢٩ م فرد شليه برسباي بحملة شسكرية شام ٨٣٢ هـ / ١٤٣١ م أسر فيها هابيل ابن شثمان بن قرايلوك[٢٤٨]، ثم أرسل شثمان بن قرايلوك زشيم العاة البيضاء سفارة إلى السلطان الأشرف برسباي شام ٨٣٦ هـ - ١٤٣٢م تحمل هدية تعمل مرآة وخروف وخلعة، وفهم برسباي أن الهدية تعبر شن سخرية واستخفاف بالسلطان المملوكي وجيعه، فذبح برسباي الخروف أمام الرسل وألبس أحد الهزليين الخلعة ورقص بها، وحطم المرآة، ثم صرف رسل شثمان بن قرايلوك بعد إهانتهم[٢٤٩].

حدثت الحرب بين الطرفين في نفس العام، حيث خرج برسباي بجيعه إلي آمد وحاصر قلعتها، واشتد الحصار، وحدث ارتباك واضطراب في صفوف الجند المملوكي بسبب طول فترة الحصار الذي استمر مدة شهر، فضعف شزم الجند، وغضب برسباي من شدم تمكنهم من اقتحام أسوار القلعة، وانتعر الغلاء حتى خعي برسباي من وقوع الفتن بين الجند، وفي نفس الوقت أرسل شثمان بن قرايلوك سفارة لطلب الصلح، فوافق برسباي وشقد الصلح، شلي ألا يتعدى قرايلوك شلي بلاد السلطان، و لا يتعرض للحجاج في طريق الحج، وان تضرب السكة)العملة(باسم

)[٢٤٨](Dopp , Le Egypte , p. 103. - عثمان قرا يلوك: عثمان بن قطلوبك التركماني أمير التركمان بديار بكر وصاحب آمد وماردين، يعتبر المؤسس الحقيقى لقبيلة الشاه البيضاء، وساعد تيمورلنك في حروبه في بلاد الشام وحصل علي ديار بكر مكافأة له، ثم استقل بنفسه وحارب المماليك لفترة طويلة، وكذلك بعض أمراء التركمان، وتوفي بجراحه سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م، وقد بلغ التسعين من عمره، انظر، الشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ٢٨٥ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص ١٣٥ – ١٣٧.

)[٢٤٩](ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٢٠- ٢٢١.

السلطان، ويخطب باسمه في المساجد [٢٥٠] وهكذا انتهت الحرب بصلح سريع بينهما. ولكن قرايلوك لم يكن ليرضي بذلك الصلح، وانتهز فرصة هروب الأمير جانبك الصوفي من سجن الإسكندرية إلي العام شام ٨٣٨ هـ / ١٤٣٥ م، وأرسل إلي أمراء التركمان للانضمام إليهم ضد برسباي ومنهم شثمان بن قرايلوك الذي استقبله وأسرع بإبلاغ برسباي وطلب منه الإفراج شن ابنه هابيل مقابل تسليمه الأمير جانبك، فوافق الأشرف برسباي وأطلق سراح ابن شثمان ولكن الأخير رفض تسليم قاني بك، مما أغضب برسباي فأرسل حملة تأديبية[٢٥١] ثم هدأت العلاقات مرة أخرى.

شادت الخلافات مرة أخرى في شهد السلطان الأشرف قايتباي وقد شاهد الرحالة الراهب فيلكس فابري الذي زار مصر والعام شام ١٤٨٢ – ١٤٨٣ م فرقة شسكرية قرب غزة تتكون من ثمانية آلاف مملوك، وقد أقاموا الخيام في ذلك الموقع استعداد للذهاب لحرب ملك التركمان [٢٥٢]، وكانت تلك الحرب مع أوزون حسن أو حسن الطويل Uzan hassan زشيم قبيلة العاة البيضاء، ثم مع ابنه الأمير خليل والذي استطاع هزيمة المماليك، وقتل منهم شدداً كبيراً من الجنود[٢٥٣]، وكان الأمير يعبك الدوادار المملوكي شن هجوما شلى العاة البيضاء في شمال العراق والعام ولكنه قد أسر وقتل شام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م، ولما سمع الأشرف قايتباي بذلك اضطربت أحوال البلاد وغضب لما حدث وبادر بإرسال حملة شسكرية للانتقام للأمير يعبك ولكن الأمير خليل بن حسن بن أوزون بادر بالاشتذار [٢٥٤] ثم شادت العلاقات هادئة مرة أخرى بين سلطنة المماليك والتركمان حتى استولي العثمانيون شلى دولة التركمان.

([٢٥٠]) **المقريزي**، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٨٩٣- ٨٩٤ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٢٠ -٢٨ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة الشعب، ١٩٦٠ م، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

([٢٥١]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٩٤٧ – ٩٨١.

([252]) Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2 , pp.442-443.

([253]) Adler ,Jewish Travelers, pp. 184 -185.

([٢٥٤]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٥٩ ؛ ٨٠ ؛ ٨٦ ؛ ٢٣٠.

كان سقوط شكا في أيدي المسلمين شام ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م شلى يد السلطان

---

[255] (Ghistele, LeVoyage en Egypte , p. 62 .

[256] (Ibid , p. 61 , Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , p. 176 .

الأشرف خليل بن قلاوون [٢٥٧] بمثابة الضربة القاسمة للصليبيين في العرق، وللبابوية أيضا التي حاولت بكل الطرق أن تعيد الوجود الصليبي في بلاد العام مرة أخرى، ففي البداية قررت البابوية فرض حصار اقتصادي شلى الدولة المملوكية، ومنع الدول الأوربية من المتاجرة معها، لأن التجارة هي المصدر الأساسي للدخل القومي للدولة المملوكية، وبالتالي مصدر قوتها السياسية والعسكرية، ولكن تلك **الخطة** باءت بالفعل ولم يقدر لها النجاح أمام المصالح التجارية الأوربية، حيث تحايلت **الدول** الأوربية كثيرا شلى شدم تحقيق هذا التحريم بوسائل شديدة لتستطيع **الاستمرار في** التعاملات التجارية مع الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط[٢٥٨]، ولذا **نعطت** أشمال القرصنة وشمليات النهب والسلب والتخريب **للموانئ المصرية** والعامية، وخاصة بعد رحيل فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة رودس **وقبرص** [٢٥٩] واتخاذ

---

[٢٥٧] النويري، نهاية الإرب، ج ٣١، ص ١٩٥ – ١٩٨ ؛ **المقريزي، السلوك**، ج ١ق٣، ص ٧٦٢ -٧٦٥.

[٢٥٨] سليمان عطية، سياسة المماليك **في البحر الأحمر حتى** نهاية عصر برسباي، دكتوراة غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٥٩ م، ص ٧٨ - ٨٤ ؛ **عزيز** سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها علي العلاقات بين الشرق والغرب، **ترجمة فيليب صابر** سيف، ط٢، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٠ م ص ٧٩ -٨٨ ؛ هايد، تاريخ **التجارة، ج٢**، ص ٢٥٤ -٢٥٥ ؛ ٢٧٦ ؛ ٢٨٠ ؛ Deeping,)E.(,Histoirede =Commerce enter le **Levant** et Le Europe depuis des les **Craissades**, Paris,1830,p. 176.

[٢٥٩] محمود **الحويري، الأوضاع** الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢-١٣م، دار المعارف، ١٩٧٩م، ص ٦٥.

- جماوة **فرسان القديس يوحنا**)يسمون أيضا بفرسان المستشفي أو بفرسان الإسبتارية(: وهي **جماعة رهبانية عسكرية** أنشئت في بيت المقدس في القرن الثالث عشر الميلادي، علي يد شخص **يدعي جيرارد وهو مواطن** من مدينة أمالفي الإيطالية، وقد أسس مستشفي في بيت المقدس عام ٤٦٢ **هـ/ ١٠٧٠ م** من أجل إيواء الحجاج اللاتين الفقراء، ثم انضم كثير من الحجاج إليهم، واعترف البابا **بتلك الجماعة** عام ٥٠٧ هـ/ ١١١٣م، وانقسمت إلي ثلاث فئات هم: الفرسان أو الأخوة المقاتلون، ثم الأطباء، ثم القساوسة، انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٤٨٦ – ٤٨٧ ؛ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ترجمة السيد الباز العريني، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ ؛ سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩٠ م، ص ٩٩، حاشية)٢(.

القراصنة من تلك الجزيرتين قلعة لعن حملات صليبية شلى السفن الإسلامية في مياه البحر المتوسط، وتلي ذلك رد فعل قوي من السلطات المملوكية تمثل في أسر السفن الأجنبية والاستيلاء شليها، أو حبس الجاليات الأجنبية سواء كانوا من الرهبان أو الحجاج أو التجار والقناصل لحين شودة السفن المملوكية المأسورة واسترداد الأسرى والبضائع أو التعريض شنها.

كانت أقوى تلك الغارات شام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م حينما قام القبارصة **بالهجوم** على الإسكندرية ودمروا وخربوا جزءًا منها واستولوا شليها لمدة ثلاثة أيام، **ولكن قبل** الهجوم شليها أرسل الملك القبرصي بطرس الأول لوزجنان peter 1)١٣٥٩ – ١٣٦٩ م(شددًا من الجواسيس، لدراسة مواطن الضعف **والقوة في المدينة** وإشداد خريطة واضحة للمكان، ليستطيع دخول المدينة بسهولة **والاستيلاء شليها**. وكان منهم أحد القساوسة الإيطاليين، حيث طلب منه الملك **القبرصي بطرس** الأول أن يحطم المرآة الموضوشة شلى منار الإسكندرية، **والتي** كانت **ترصد وتحدد** شدد السفن القادمة في البحر، بالإضافة إلى الإضاءة في أشلى **المنار التي** تضيء البحر ليلًا، ووشده بأنه إذا فعل ذلك سوف يكافؤه بتوليه **أبرشية في قبرص،** وبالفعل سافر ذلك القسيس من روما إلى الإسكندرية، وتعلم اللغة **العربية والدين** الإسلامي، وتقرب من الناس ثم شمل واشظًا مما جعله موضع **ترحيب** ومحبة من جهة السكندريين، وشندما تمكن من الوصول إلى هدفه أرسل **إلى ملك** قبرص يطلب منه القدوم بعد تحطيم المرآة والتي أحدثت دويًا هائلاً **وصخبًا** شديدًا، فأسرع الناس إلى البرج واكتعفوا أنه جاسوس أجنبي وحاولوا **القبض شليه**، ولكنه قفز إلى البحر ومات، وفي نفس الوقت تقدمت السفن **القبرصية بقيادة** الملك نفسه إلى ميناء الإسكندرية[٢٦٠].

كما عثر شلى سقاء أشقر البعرة وأزرق العينين، فقبضوا شليه فذكر لهم أنه **قبرصي وأسلم** وتزوج من سيدة مسلمة في القاهرة، ثم أودع في السجن وتعرض

)260(Johan Schiltberger ,The bondage and Travel of Johan, schiltberger, native of Bavaria in Europe , Asia , Africa ,)1396- 1427(, trans by Karl Fredric , London , 1859 , PP. 63.

للضرب والتعذيب حتى اشترف أنه جاسوس من جملة الجواسيس المنتعرين في مصر والعام، وفي ذات الوقت وجد شدد من الجواسيس الأجانب في زى النساء وقبض شليهم[٢٦١]، أما ملك قبرص نفسه فقد نزل مدينة الإسكندرية كأحد التجار المغاربة، وتجول فيها مع كاتب الديوان شمس الدين غراب وتعرف شلى أحوال المدينة[٢٦٢]، أضف إلى ذلك ما أورده الكاتب والفارس الصليبي المعاصر جيروم دي ماشو، **حيث** ذكر أن شخصًا يدشى برسفال كولوني كان في استطاشته التجول في المدينة **بحرية** تامة، مما ساشده شلى الإحاطة بظروف المدينة ومداخلها ومخارجها وأبلغ **ذلك للملك** القبرصي[٢٦٣].

وشندما دخلت القوات القبرصية الإسكندرية استولت **شلى المدينة لمدة** ثلاثة أيام وقام الجنود القبارصة بعمليات السلب والنهب والحرق و**القتل حتى** وصلت القوات المملوكية من القاهرة فهرب الملك القبرصي وجنوده و**معهم أسرى** من السكندريين من النساء والأطفال [٢٦٤]، ثم أمر الأشرف شعبان بن **الناصر** محمد (٧٦٤ -٧٨٨ هـ) ١٣٦٣ – ١٣٧٧ م(بإنزال العقاب الجماشي **شلى كل** الأجانب المقيمين بمصر وبلاد العام من الحجاج والرهبان و**التجار**، **وحبسهم** وصادر أموالهم لافتداء أسرى المسلمين[٢٦٥]، كما قبض الأمير **جنغرا المملوكي** شلى ٥٠ تاجرًا أجنبيًا في المدينة وحبسهم في سجن دمنهور[٢٦٦]، وبعد انتهاء تلك الكارثة لاحظ الرحالة الأوربيون أن الإسكندرية بها تحصينات **جديدة** بعد غزوة القبارصة، فوجدوا بها حامية شسكرية كبيرة حوالي ٨٠٠ **مملوكي** غير العربان والأتراك للدفاع شن المدينة بالإضافة إلى

---

[٢٦١](**أحمد مختار العبادي**، تاريخ البحرية المصرية، الأسكندرية، ١٩٧٠ م، ص ٥٩٣.

[٢٦٢](**النويري السكندري**، محمد قاسم بن محمد، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور **المقضية، ج٢**، تحقيق عزيز سوريال، ايتن كومب، الهند، ١٩٦٩-١٩٧٣ م، ص ١١٠-١١١.

[٢٦٣](**لحمد مختار** العبادي،تاريخ البحرية، ص ٥٩٤.

[٢٦٤](المقريزي، السلوك، ج٣ق١، ص١٠٦-١٠٧ ؛

schiltberger , The bondage and Travel , p. 63.

[٢٦٥](المقريزي، نفس المصدر، ص ١٠٧.

[٢٦٦](النويري، السكندري، الإلمام بالإعلام، ج٢، ص ١٥٦.

الحصون وشدد من الأبراج وصل إلى ٢٢ برجاً وأقيمت أسوار شالية شند الميناء لصد أي هجوم مفاجئ[٢٦٧].

انعغلت قبرص بمعاكلها الداخلية فترة من الوقت، وشاد القراصنة القبارصة مرة أخرى شام ٧٩٠ هـ / ٣٨٨ م شندما هاجموا مراكب مصرية قادمة من العام بها أقارب السلطان برقوق أيام فترة حكمه (٧٨٤ - ٧٩١ هـ) (١٣٨٢ – ١٣٨٩ م)، **فأمر** بالقبض شلى الأجانب المقيمين وقناصلهم بمصر والعام[٢٦٨]، وتوالت **أشمال** القراصنة في البحر المتوسط بالهجوم شلى الموانئ المصرية والعامية ففي **شام** ٨٠٧ هـ / ١٤١٤ م أرسل الملك القبرصي سفنا للهجوم شلى ميناء الإسكندرية مرة **أخرى** وأسروا شددا كبيرا من المصريين في المدينة فجمع **السلطان المملوكي** القناصل الأجانب في الإسكندرية وطلب منهم مراسلة ملك قبرص **لعودة الأسرى** إلا أن ملك قبرص رفض ذلك فقام السلطان بإغلاق كنيسة القيامة **في بيت المقدس** لفترة طويلة، حتى استطاع أحد الملوك الأوربيين دفع مبلغًا **كبيرًا من المال** لافتداء الأسرى وفتح الكنيسة[٢٦٩]، وكان السلطان الملك المؤيد **شيخ** (٨٠٥ – ٨٢٤ هـ) (١٤١٢ – ١٤٢١م) قد قبض شلى جميع **التجار أيضًا والقناصل** بالإسكندرية ودمعق، وسجنهم في أحد أبراج القلعة مطبقًا بذلك مبدأ **العقاب الجماشي**[٢٧٠].

هكذا ظل الوضع **سيئًا للغاية** وما حدث بعد ذلك كان أكثر، ففي شام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م ورد الخبر بأن **القبارصة** أخذوا مركبين من مراكب للمسلمين قرب ثغر دمياط فيها بضائع **كثيرة** وشدد كبير من التجار زاد شن مائه رجل، وبأن ملك قبرص جانوس Janus (١٣٩٨ – ١٤٣٢ م) استولي شلى سفينة محملة بالهدايا كانت مرسلة من **السلطان الأشرف** برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ هـ) (١٤٢٢ –١٤٣٨ م) إلى السلطان

---

(267) Adler , Jewish Travelers , p. 158 , Frescobaldi , A Visit **to the Holy** Places , p. 39.

(٢٦٨) العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج٢، ص ٢٨٧ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص ١٨٣ ؛

(269) Dopp , Le Egypte , pp. 78-79.

(٢٧٠) العسقلاني، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢١٥ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ٣٧٠.

العثماني مراد الثاني)٨٢٤ – ٨٤٧ هـ( )١٤٢١ – ١٤٤٣ م([٢٧١]، وشندئذ ثارت ثائرة السلطان برسباي، وبدأ الاستعداد للاستيلاء شلى جزيرة قبرص التي كانت موطن ومركز القراصنة وجهز لذلك ثلاث حملات شسكرية قوية حتى استطاع في النهاية الاستيلاء شليها ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م، واسر الملك القبرصي الذي افتدى **نفسه** فيما بعد بمبلغ كبير من المال وقرر شليه كذلك جزية سنوية دليلًا شلى **الطاشة** والخضوع [٢٧٢]، واستمر الوضع هكذا حتى استولي البنادقة شلى جزيرة **قبرص ومنذ** ذلك الحين والسلطان يأخذ الجزية من الحاكم البندقي في قبرص.

كما قام القراصنة القطلان شام ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م بالهجوم **شلى سفينة** مصرية في مياه أضاليا في آسيا الصغرى، واستولوا شلى البضائع، **وأسروا** حوالي ١٥٠ تاجرًا مسلمًا وباشوهم في جزيرة ناكسوس التابعة للبندقية، **فأرسل السلطان** المملوكي إلى قنصل البندقية في الإسكندرية، وأخبره بما حدث **وطلب منه** أن يقوم بدور الوسيط لعودة الأسرى، ولكن القنصل أخبره بأن هذه **الجزيرة ليست تابعة** للبندقية، وفي شهر أكتوبر خرجت سفينة مصرية محملة بالبهار **من ميناء** الإسكندرية فهاجمهاالقراصنة واستولوا شليها، ولذلك جمع السلطان **القناصل** الأجانب مرة أخرى وطلب منهم دفع الفدية لحاكم الجزيرة واستعادة الأسرى **وإلا لن** يتم الإفراج شن تجارتهم ولا بضائعهم في الموانئ المملوكية، ووقع **الاختيار** شلى التاجر بيلوتي الكريتي للقيام بتلك المهمة التي أتمها شلى خير وجه، **وشقد** صفقة مع حاكم ناكسوس وأشاد الأسرى المسلمين إلى الإسكندرية[٢٧٣].

)[٢٧١](**ابن شاهين، زبدة** كشف الممالك، ص ١٣٨.

- **السلطان مراد الثاني**: ولد عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م وجلس علي العرش في ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م، **وكان عمره** ١٨ عاما، وانشغل بالإصلاحات الداخلية وعقد صلحا مع الدول المجاورة، ثم انشغل **بحروبه ضد أو**لاد قرمان في الأناضول، ثم مع ملك ألمانيا وعقد معه صلحا، ثم تخلي عن السلطنة عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م، انظر، إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية، ص ٨٥ – ٨٧.

)[٢٧٢](ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٣٤٣ ؛ ج١٥، ص ٣٦١ -٣٦٣ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٨ ؛ Adler, Jewish Travelers , p. 161.

)[273](Dopp,Le Egypte, pp. 95-99 , See Also,Wolff, How Many Miles to

تعرضت مواني‌ء العام لغارات القراصنة، وخاصة ميناء بيروت، فلم يكن فيه وحدات من الأسطول المملوكي، بالإضافة إلى تخريب وهدم أجزاء من أسوارها وباقي الأسوار قليلة الارتفاع، ولذا كان بإمكان أي شخص تخطيها ودخول المدينة ومعنى ذلك أن الحماية في بيروت كانت غير كافية، مما دفع بحاكم جنوة المارشال دي بوسيكو إلى مهاجمة الميناء شام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م بأسطول مكون من ٤٠ مركباً،وشند وصوله الميناء هرب الأهالي إلى الجبال بعد أن جاءهم **التحذير من** البنادقة فدخلها الجنويون وضربوها وسرقوا ما يقرب من ٥٠٠ طن من **التوابل قيمتها** ٣٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية، ثم اتجه إلى طرابلس وهاجمها، ولكنه اضطر **إلى التقهقر** بسرشة بسبب وصول نجدات من المماليك والعسكر **الطرابلسي** **فارتبك** الجنوية وتركوا وراءهم ٣٠ جندي قبض شليهم السلطان وأشدمهم[٢٧٤].

وهكذا كلما زادت غارات القراصنة شلى **الموانئ المملوكية**، كلما تعسفت السلطات المملوكية في رد فعلها تجاه الجاليات **الأوربية المقيمة** شلى أراضيها، فعندما طلب السلطان المؤيد شيخ من التجار الأجانب **دفع الأموال** تعويضا لأهالي المفقودين الذين أسرهم القراصنة القطلان **وبلشوهم شام** ٨٠٨ هـ / ١٤١٥ م، فأرسل قنصل القطلان بالإسكندرية سرا إلى رشاياه **بدمعق ونصحهم** بالهرب، لكن المؤيد شيخ شلم بالمؤامرة وقبض شليه **وأهانه وضربه** ضربا مبرحا، ظل يعالج منه لمدة ستة شهور وسجنه ثم أشاده لمنصبه[٢٧٥].

ورغم ذلك **بلغت جراءة** القراصنة مداها في شام ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م حيث رست ثلاث سفن **لهم بميناء** الإسكندرية، وأشلنت قدوم وفد من ثلاثة رسل للتفاوض في شقد **الصلح، فرحبت** السلطات بمقدمها وسمحت للتجار بالنزول إلى الميناء وإنزال

Babylon , pp 83 -84.

[٢٧٤] **المقريزي**، السلوك، ج٣ق٣، ص ١١١٤-١١١٥ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ١٧٩ ؛ Dopp , Le Egypte , pp.90-91.

[275] Dopp , Le Egypte , pp. 111-114 , See Also , Dopp , Les Relations Egypte-Catalans et les corsairs au commencement du 15 siecle , le Caire , 1949 , p. 3.

البضائع من السفن وشراء التوابل، ولكن القطلان انتهزوا الفرصة وقاموا في إحدى الليالي بتخليص قنصلهم من سجن الإسكندرية، وبعد أن تم لهم ذلك أغاروا شلى الميناء واشتبكوا مع القوات المملوكية، فقتلوا شعرين وأسروا نحوا من ستين من المسلمين من الرجال والنساء، واستولوا شلى سفن للجنوية والبنادقة وسفن **أخرى** للمسلمين ثم أبحروا إلى جزيرة رودس قبل وصول القوات المملوكية[٢٧٦].

وقد تعرض بعض الرحالة الأوربيين للإهانة بسبب غارات القراصنة **مثل** الرحالة لابروكبير الذي زار مصر والعام شام ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م، فقد حدث **أن قلم** القراصنة بأسر سفينتين تابعتين للسلطان التركماني تيمورلنك في **مياه البحر** المتوسط أمام مدينة طرابلس ولذلك أرسل السلطان المملوكي برسباي **إلى حاكم** دمعق الذي قام بدوره بإلقاء القبض شلى التجار الوافدين من القطلان **والجنوية، وكان** منهم التاجر الجنوي الذي أقام شنده الرحالة لابروكبير، كما تم **القبض شلى** الرحالة ذاته وشرض الجميع شلى أحد القضاة ثم شلى قاض آخر **الذي أرسله إلى** السجن مع التجار الأجانب، وحاول لابروكبير دفع مبلغ **من المال مقابل** الإفراج شنه واضطر للاتصال بقنصل البندقية الذي أتصل بدوره **بالحاكم ليفرج** شنه وبعد التحقق من الأمر ثبت شدم مسئوليته في الحادثة وأفرج شنه بعد **دفع مبلغ من** المال[٢٧٧].

وشندما سافر الرحالة **اليهودي** ميعولم إلى غزة شام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م وجد حراسة مسلحة في غزة بسبب **هجوم** القراصنة من ناحية البحر المتوسط شلى المدينة، وخاصة قراصنة **رودس الذين** كانوا يعنون هجمات شلى الحجاج والمسافرين، وشندما **وصل الخان في الليل** وجده خاليا، وكان سبب ذلك أنه في الليلة السابقة جاءت **أربعة مراكب صيد** من رودس وأسرت ستين رجلا كانوا في قافلة ، أما من كان في **الخان فقد** رحلوا وتركوا أمتعتهم، وكان شدد اللصوص القراصنة حوالي ٤٠٠ **فاستولوا شلى** الأمتعة[٢٧٨].

---

[276] Dopp , Le Egypte , pp. 113-115.
[277] Wright, Early travelers , p. 301 , 307.
[278] Adler, Jewish Travelers, p. 179.

الرحالة الإيطالي فريسكو بالدي تنفيذ شقوبة التعهير والتوسيط والتسمير معا مع

([٢٧٩]) ذكر برندباخ أن عدد الأسري كان ١٣ مسيحي ؛ Ghistele, Voyage en Egypte , pp. 116-117, Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard, p.68

([٢٨٠]) ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور، أحمد دراج، الرياض، ١٩٨٢، ص ١٩٨ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١١٧.، أنظر الصورة رقم (١).

([٢٨١]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٦.

([282]) Frescobaldi A Visit to the Holy Places, p.85.

([٢٨٣]) الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة العامة، ٢٠٠٢ م، ص ١١٩.

([٢٨٤]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٩.

([٢٨٥]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٦.

([286]) Adler, Jewish Travelers p. 176.

أما من يسجن وشليه ديون لأحد وشجز شن السداد، فإن قائد السجن كان يسمح له بالخروج من السجن بالنهار مكبلًا بالقيود للعمل في خدمة الناس، أو لطلب الصدقة، ثم يسلم الصدقات للسجان الذي لا يترك له إلا ما يكفيه ليحيا حياة بائسة [٢٨٧]، وقد رأي فون هارف بعض اللصوص المجرمين مقيدين بالسلاسل والقيود الحديدية أيضًا وفرض شلى كل سجين أن يدفع من ٢ إلى ٣ دوكة ذهبية يومياً وذلك شن **طريق** خروجهم للعمل طول النهار حتى المساء و كانوا يتعرضون للضرب **والإهانة** والتعذيب في حالة شدم الوفاء بذلك، وقيل إنه كان في مدينة القاهرة وحد**ها حوالي** ١٠.٠٠٠ لص مكبلين بالقيود[٢٨٨].

أما الأسرى المسيحيين الذين تم سجنهم فكانوا **يحاولون فداء أنفسهم** بالأموال، كما ذكر برندباخ الذي شاهد في القاهرة ثلاثة من الأسرى **المسيحيين و**هم شبه شراه مكبلين بالسلاسل الحديدية في شوارع القاهرة يطلبون **الصدقة وقد** اشتادت السلطات الحاكمة إرسالهم إلى العوارع والمنازل للتسول ثلاث **مرات أسبوشيًا** وتراقبهم حراسة قوية، وكل ما يحصلون شليه يُنفق في **إطعامهم، أو في** محاولة لتحريرهم[٢٨٩]، كما قرر شلى المسجون أن يدفع رسوما **معينة قدرت بمائة** درهم شلى حد قول ابن تغري بردي[٢٩٠] وحددها المقريزي **بستة دراهم فقط** سوى بعض الزيادات الأخرى[٢٩١] حتى أبطله الناصر محمد **شام** ٧٠٥ هـ -١٣١٥م. ثم شاد مرة أخرى وأصدر السلطان قايتباي قرارا بمنع حصول **السجان** وزوجته شلى أموال من المسجونين [٢٩٢]، ومما يؤكد ذلك ما ذكره **الرحالة** الراهب فيلكس فابرى الذي كان في القاهرة في نفس العام وقابل مجموشة **من المساجين** في شوارع القاهرة ويقودهم سجان يحمل في يده سيفاً وهراوة **واشتقد فابرى** بأنهم أسرى مسيحيون لأنهم يعحذون باللغة الإيطالية وهم أيضاً

---

(٢٨٧) **المقريزي**، الخطط، ج٣، ص ٣٠٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٧.

(288) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 124.

(289) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 50.

(٢٩٠) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٤٦.

(٢٩١) المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص ١٥١.

(٢٩٢) الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٣٢١.

تلك المراسيم إلى، الإذن بدخول السفراء إلى الميناء أو تخطي حدود المدن، استقبال

---

(293) Fabri ,(F.) , Le Voyage en Egypte 1483, trad. Du Latin Presente et annote par J. Masson , Le Caire , 1975 , p.441.

(٢٩٤) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٩٦-٩٧.

السفير في المدينة من قبل شخصية هامة مثل المهمندار [٢٩٥] أو والي المدينة أو الترجمان، إشداد مكان مناسب لإقامة السفير، الإذن لمقابلة السلطان، آداب مقابلة السلطان، مظاهر استضافة الرسل ثم توديعهم.

كان هؤلاء السفراء يحضرون إلى أطراف المملكة شن طريق العام أو الإسكندرية أو دمياط، و كان يجب قبل وصول السفير أن يرسل رسوله إلى نائب القنصل في الإسكندرية يخبره شن قدومه حتى يقوم هو بدوره بإبلاغ السلطات المملوكية بذلك[٢٩٦]، وكان يقابل السفير في الميناء أحد كبار المماليك، وفقاً لمكانة ذلك السفير فعلى سبيل المثال قابل والي دمياط السفير القبرصي بيرو طافور شام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م في دمياط، وشند ميناء بولاق قابله الترجمان، بعد أن أبلغه بالوصول، واختار له مكاناً للإقامة فيه[٢٩٧].

أما فريسكو بالدي وزملاؤه فقد استقبلهم الوالي في مدينة الإسكندرية في قصره ولم يذهب لاستقبالهم في الميناء، بل إنهم ذهبوا إليه في قصره بناء شلى استدشاء لهم من قبل سلطات الوالي، ووصف هنا مراحل الاستقبال وكيفية المقابلة ذاتها حيث دخلوا بوابة ضخمة ومعهم الترجمان إلى فناء واسع وقادهم أحد الحراس إلى باب آخر في نهاية الفناء حيث وجد الكثير من الحاشية والأمراء ثم صعد سلالم كبيرة وفي أشلى السلم باب يؤدي إلى صالة كبيرة وفى نهايتها الوالي يجلس شلى كرسي وحوله مماليكه[٢٩٨].

أما تينو الذي زار مصر شام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م فقد استقبله والي الإسكندرية وترجمانه وبعض المماليك شند الوصول إلى المدينة وشند ميناء بولاق استقبله أمير مملوكي موفد من السلطان وهو المهمندار ومعه شدد من المماليك ومعهم خيول وحمير وأقام تينو في فندق القطالونيين بالإسكندرية ثم في منزل قنصل قطالونيا[٢٩٩].

([٢٩٥]) **المهمندار**: انظر، ص ٨٣.

([296]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud p.180 .

([٢٩٧]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤.

([298]) Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , p. 40.

([299]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp.21-22 , 35.

كما انتقل السفير دومنيكو تريفيزاني من الإسكندرية بحرا إلى خليج أبو قير، حيث يبعد ١٨ ميلًا شرقي الإسكندرية لقضاء بضعة أيام لحين وصول ترخيص المرور إلى السفير، وشندما جاءت رسالة من نائب الإسكندرية بالترحيب به شادت المركب إلى الإسكندرية في يوم ٢٧ صفر ٨١٩ هـ / ١٦ إبريل شام ١٥١٢م، مساءً حيث أمضى ليلته شلى متن السفينة، وفي صباح يوم ٩ ربيع الأول / ٢٧ ابريل، **نزل** إلى البر حيث استقبله نائب الإسكندرية والدوادار، ومكثت السفارة في **الإسكندرية** حتى يوم ١٠ ربيع الأول / ٢٨ ابريل، وتوجهت السفارة إلى القاهرة **ووصلت بولاق** في يوم ١٨ ربيع الأول / ٦ مايو وشندما كان السفير في الإسكندرية، أقام **في قصر** أشده نائب الإسكندرية للسفارة، وأرسل له هدية شبارة شن **شعرة خراف** وثلاث سلال من الخبز والخضار والفاكهة وشعرة أزواج من الدجاج [٣٠٠].

كان يجب شلى السفير أن ينتظر في مقر **الضيافة، حتى يرسل** السلطان رسالة إلى الوالي يأذن له برحيل السفير ومن معه من **الإسكندرية إلى** القاهرة، وسمي ذلك ترخيص المرور أو الإذن بالموافقة لمقابلة **السلطان بالقاهرة،** ولا يمكن للسفير أن يتحرك من مقره بدون ذلك التصريح **وتتراوح الفترة الزمنية** للحصول شلى ذلك الإذن شدة أيام وفقًا للظروف العامة **ووفقا لمقدار** ومكانة السفارة ذاتها، ففي شام ٨٤٠ هـ /١٤٣٦ م شندما جاء بيرو طافور **إلى دمياط** رسولا وتاجرا، ورغم أنه من أصل أسباني إلا أنه حضر **كرسول من** ملك قبرص حنا الثاني)١٤٣٢ – ١٤٥٨ م(إلى السلطان برسباي وبعد **نزوله دمياط** ومقابلة والي المدينة، اخبره طافور برغبته في مقابلة السلطان **وطلب من الوالي** إشداد قارب ليحمله في النيل إلى القاهرة، فأصدر الوالي تعليماته **بإنزاله في** بيته حتى تتم إجراءات استئذان السلطان وقد مكث طافور ثمانية **أيام في دمياط** حتى جاء الإذن بالسفر وأشد له الوالي المركب الذي حمله إلى **القاهرة** [٣٠١].

أما السفير برانكاشي الفلورنسي الذي زار مصر شام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م لأغراض اقتصادية، حيث جاء ليطلب لبلاده فلورنسا نفس الحقوق التجارية التي

---

[300] Ibid, pp , 179 -180.

[٣٠١] بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٠-٦٣.

منحها السلطان للجمهوريات الإيطالية الأخرى مثل جنوة والبندقية، وقد وصل الإسكندرية يوم ١١ شوال / ١٩ أغسطس، ثم غادروا الإسكندرية يوم ١٣ شوال / ٢١ أغسطس ووصلوا القاهرة يوم ٢٥ شوال / ٣ سبتمبر، وبذلك يكون قد مكث في الإسكندرية حوالي ١٥ يومًا(٣٠٢) وهكذا كان شلى السفير أن ينتظر حتى يصل إذن من السلطان.

كما كان شلي النواب والمسئولين شند استقبال السفراء الاهتمام **بهم،** واستضافتهم وإنزالهم في دور للضيافة مناسبة، وتوفير الطعام والعراب لهم، **ووسائل** المواصلات من مراكب أو دواب أو خيل حتى يحين وقت رحيلهم إلى **القاهرة، ثم** تأتي بعد ذلك مرحلة وصول السفير إلى ميناء بولاق **ودخول القاهرة** والاستعدادات اللازمة لمقابلته، والعمل شلى راحته ومن معه إلى أن **يحين الوقت** المناسب لمقابلة السلطان، فما أن يصل خبر دخول السفير ومن معه **إلى معارف** القاهرة، حتى يأمر السلطان من يقوم بإنزاله في المكان المخصص **لضيافته، فإذا كان** الرسول شظيما وذا مكانة يأمر بخروج أكابر الأمراء لاستقباله **وإقامته في** إحدى قصور الضيافة، فعند ما وصلت سفارة فلورنسا برئاسة **السفير برانكاشي شام** ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م أقام في منزل احد الأقباط من جزيرة **كريت ويدشى** غزالة ولكنه لم يدفع أجراً باهظاً مقابل تلك الإقامة(٣٠٣).

أما بيرو طافور الذي **وصل** شام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م فقد أقام في منزل كبير التراجمة بالقاهرة **لمدة ثلاثة** أيام وأحسن إقامته وضيافته(٣٠٤) ثم كانت السفارة الفرنسية **شام** ٩٠٨ **هـ /** ١٥١٢ م وكان جان تينو شضوا فيها وقد وصف رحلته إلى **القاهرة مع السفارة** الفرنسية واهتم بوصف المنزل الذي نزلت فيه السفارة الفرنسية **بالقاهرة، إذ قال:** إنه يقع شلى ضفاف النيل ويمتاز بأبهائه الجميلة المبلطة بالرخام **والأحجار**، وجدرانه المزينة بالزخارف والرسوم ذات الألوان الزاهية، وأبواب المنزل

---

(302) Dopp, Le Caire , tome 24 , p. 123.

(303) Ibid,p. 124.

(٣٠٤) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤.

مصنوشة من العاج والأبنوس، وبالمنزل أيضا نافورات شديدة باردة وساخنة، كما وصف حدائق المنزل أنها مملوءة بأشجار الفاكهة كالموالح والموز والتفاح [٣٠٥].

وفي نفس الوقت جاءت سفارة بندقية أخرى برئاسة دومينيكو ترايفزاني ومكثت في ميناء بولاق طوال الليل شلى متن القوارب بناء شلى نصيحة الترجمان وفي يوم ١٩ ربيع الأول / ٧ مايو صباحًا انتقل السفير من المركب إلى القصر الذي يقيم فيه **في** موكب فخم، يرافقه المهمندار وشددًا كبيرًا من المماليك السلطانية والأشيان **وركب** السفير وحاشيته الجياد - وهنا كان يسمح للمماليك وكبار الموظفين **والعخصيات** الأجنبية الهامة بركوب الخيول فقط – وبالقرب من السفير كان **يتواجد** أربعة **غلمان** من خدامه، اثنان يمسكان بلجام الحصان ويرتديان رداءا **قرمزيا طويلا،** أما الاثنان الآخران فكانا يرتديان ملابس قرمزية أيضا ويمعيان شلى **جانبي السفير**،ومعه أيضا شعرون نبيلا من التجار البنادقة المتواجدين في **القاهرة والذين** كانوا قد أُشتقلوا وسجنوا من قبل، ثم توقف شند قصر شظيم **يقع في أجمل أحياء** القاهرة، وقد اندهش السفير من جمال وروشة البناء المعماري **للقصر، وقدر** تكلفته حوالي ١٠٠٠دوكة ذهبية، وكانت الحوائط مغطاة **بالرسوم المنحوته** والأسقف والحوائط من الرخام المذهب المتلألئي والأشمدة رخامية **ومزينة وكانت** الأرضية مصنوشة من الفيسفساء أما الأبواب فكانت من **الأبنوس والعاج** [٣٠٦].وقد ذكر ابن إياس شن تلك السفارة أنها جاءت في يوم الاثنين ٢٣ **صفر** ٩١٨ هـ / ١٠ مايو ١٥١٢ م، و أن السلطان الغوري)٩٠٦ – ٩٢٢ **هـ( )** ١٥٠١ – ١٥١٦ م(قد أرسل لهم خيولا ليركبوها من بولاق إلي القلعة، وكانوا **نحو** ٥٠ **فردا** وشلى رأسهم اثنان من الأشيان، وأقام لهم موكبا في فناء القلعة **وزينوا لهم باب** الزردخانة، وباب القلعة بالصناديق واللبوس وآلة السلاح وبعد **مقابلة السلطان أنزلوا** في بيت كاتب السر أبو بكر بن مزهو الذي في بركة الرملي **ونزل المهمندار** بصحبته [٣٠٧].

---

[305] Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 35.

[306] Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud,pp.180-181.

[٣٠٧] ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٥٥-٢٥٩.

وقد جرت العادة أن يهتم السلطان ومعاونوه برفاهية السفراء فقد قدم المترجم للسفير برانكاشي هدية شبارة شن خروف سمين وقفص ممتلئ بالدجاج ثم قدم له الوالي حوالي ٢٠٠ أوزة و ٥٠ دجاجة و ٢ من قوالب السكر و ٤ شلب حلوى.[٣٠٨]، أما بيرو طافور فقد أشطاه السلطان رداءً يقدمه لملك قبرص وهو شبارة شن ثوب أخضر زيتوني وأحمر قد زين بالذهب وفرو السمور وأصدر تعليماته بتوفير مسكن مريح للسفير وتقديم كل ما يلزمه من احتياجات وخدمات.[٣٠٩]، وغداة وصول دومنيكو تريفزاني وصلت إليه هدية من السلطان تحوي ٤٤ قالب من السكر قيمة الواحد أربعة دوكات و ٥ جرار من العسل الهندي، وجرتين من الزبد الطيبة، وأربعين خروفاً وخمسين زوجاً من الدجاج وشعرين أوزة، وكيسين من الأرز[٣١٠]، وشند انتهاء مهمة السفير نهائيا قدم له السلطان هدية شبارة شن رداء من المخمل القرمزي المحلي بفراء النمس الأبيض[٣١١].

يمكننا هنا وصف مراسم الدخول والآداب التي اتبعها السفراء شند مقابلة السلطان من خلال ثلاثة سفراء قابلوا السلطان في سنوات مختلفة، مثل السفير الفلورنسي برانكاشي الذي وصل إلى الديار المصرية في شام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م، ووصف المراحل التي مر بها إلى أن قابل السلطان وصفًا دقيقًا، ففي يوم ٢٧ شوال / ٥ سبتمبر ذهب هو ومن معه لمقابلة دوادار السلطان وكاتب السر وقدم لهما خطابات من حاكم فلورنسا، وقابلوه بالترحاب والحفاوة، ثم حدد له ميعاداً لمقابلة السلطان، يوم ٢٩ شوال / ٧ سبتمبر صباحا وقبل شروق العمس بساعة واحدة، وحضر إليه

- **الزردخانة: تعني بيت** السلاح أو المكان المخصص لحفظ السلاح والعتاد الحربي وقد تطلق علي **السلاح نفسه ومن معانيها** السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب وهي لفظ **فارسي مركب**، انظر: سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النهضة **المصرية**، ١٩٧٦، ص ٤٤٤ ؛ محمد احمد دهمان، معجم المصطلحات، ص ٨٦.

([308]) Dopp, Le Caire , p. 125.

([٣٠٩]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٩.

([310]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 181-182.

([311]) Ibid , p. 206 .

المترجمون مع خيولهم ليصحبوهم إلى قصر السلطان، وكان معهم أحد الأشخاص المكلف باستقبال الرسل والسفراء وهو المهمندار ووصلوا إلى باب القلعة، وشاهد فيليبس برانكاشي العديد من المماليك السلطانية والأمراء يصعدون إلى القلعة، ولكن السفير ومن معه ظلوا واقفين أمام الأبواب الأمامية حوالي ساشة، ثم صعدوا إلى القلعة بعد انتظار طويل، شن طريق سلم كبير، ووصلوا إلى بوابة أخرى ومن خلالها إلى فناء واسع، جلسوا فيه لمدة نصف ساشة أخرى وسط شدد كبير من المماليك، ثم أخذ يمر بين ممرات كثيرة وصفوف من المماليك والأمراء المسلحين، حتى وصلوا إلى بوابة ثالثة شليها حراسة، وتم تفتيعهم ذاتياً للتأكد من شدم وجود أسلحة معهم، وفي النهاية وصلوا إلى مقر السلطان أي القاشة التي يجلس في صدرها السلطان برسباي وحوله الأمراء المسلحون، وكان ينتعر في كل مكان وخاصة شند كل شمود في القاشة الموسيقيون يعزفون شلى آلاتهم الموسيقية المتنوشة مثل آلة القانون والعود، وقد اندهش برانكاشي من ذلك المنظر فقال كانت شيناي مبهورتين وأنا أشاهد كل ذلك، ثم قادنا الأمراء المماليك إلى داخل القاشة ونحن ننحني ونقبل الأرض سبع أو ثماني مرات ووقفت بعيدا شن السلطان بحوالي ٢٥ ذراشاً، وتوقفت الموسيقى أيضا، وقد نصحنا المترجم أن نختصر في الحديث وتكون الكلمة موجزة ومفيدة وخاصة في تلك المقابلة الأولي، ثم غادروا القاشة وهم يحنون ظهورهم ويقبلون الأرض)٣١٢(.

ثم قابلوا السلطان مرة أخرى وقدموا له المطالب التي جاءوا من أجلها وهى ثلاثة مطالب: ١ – السماح لبلاده)فلورنسا(بمزاولة التجارة مع بلاد السلطان. ٢ –

)312(Dopp, Le Caire, tome 24.p. 124-125, Wright, Early **travelers, p**. 147, Ghistele,Le Voyage en Egypte , p. 23.

- **كاتب السر**: هو شخص مسئول عن قراءة الكتب الواردة علي السلطان، وكتابة أجوبتها، واخذ خط **السلطان عليها** وتفسيرها، والجلوس بدار العدل لقراءة الطلبات، والتوقيع عليها، ومشاركة الوزير في بعض الأمور مع التحدث في أمور البريد، ومشاركة الدوادار في أكثر الأمور في السلطنة، وكان رئيس ديوان الإنشاء يتولى ذلك المنصب، وهو أول من يدخل علي السلطان، وآخر من يخرج من عنده، ويعبر عنه أحيانا بكاتب الأمراء أو كاتم السر، انظر: العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٢٠ ؛ أنظر أيضا، محمد دهمان، معجم المصطلحات، ص ١٢٧ -١٢٨.

يعين قنصلاً فلورنسياً في البلاد ويحصل شلى الامتيازات السابقة. ٣ – مساواة العملة الفلورنسية بالدوكة البندقية، وذكر برانكاشي أنه أضطر إلى تقبيل الخطاب الذي قدمه للسلطان، ثم وضعه شلى جبهته، وكذلك فعل من كان معه، وقد مكث برانكاشي ومن معه في الديار المصرية واحد وأربعين يومًا[٣١٣].

ذكر بيرو طافور الذي حضر إلى القاهرة في شام ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦ م واستقبله كبير التراجمة، وذهب معه إلى القلعة، وشاهد الأشداد الكبيرة من الأمراء والمماليك السلطانية داخل القلعة وخارجها، وقد مر أيضًا بكثير من الأبواب والساحات الممتلئة بالأمراء والمماليك المسلحين إلى أن وصل إلى ميدان فسيح في وسطه خيمة كبيرة مزينة، أشدت لكي يتناول فيها السلطان غداءه، وأخبره المترجم أن السلطان سيخرج ويمر شليه، ونصحه بأن يقبل الأرض قبل اقترابه من السلطان، وأن يأخذ الرسائل التي يحملها ويمس بها رأسه وفمه للتحية، ثم يرفعها للسلطان، وساله السلطان شن ملك قبرص وشمه الكاردينال وآخرين،فأجاب شليه طافور، ثم قدم مطالبه وهي: ١ – ألا يرسل السلطان مماليكه لطب الجزية السنوية لأنهم يكلفون الملك نفقات باهظة شلى أن يرسلها هو في مدى ٤ شهور. ٢ – يأخذ الجزية شلى شكل)عبك(. ٣ – يأذن للتجار القبارصة ببيع الملح في العام دون دفع ضريبة [٣١٤].

ونستطيع أيضًا أن نلمس مدى دقة وتنظيم تلك المراسيم حتى في أواخر العصر المملوكي، وذلك من خلال سفارة دومينيكو تريفيزاني شام ٩١٨ هـ/ ١٥١٢ م، الذي قابله السلطان الغوري سبع مرات، ففي المرة الأولي يوم ٢٣ صفر /١٠ مايو، ذهب السفير في الصباح ومعه المهمندار والترجمان، وساروا في موكب حافل وسط المماليك والخيالة، وأخذه إلى السلطان وسط قرع الطبول وشزف المزامير وصوت طلقات المدافع تحية لقدومه، وشندما دخل قاشة السلطان خلع شمامته وانحنى ولمس الأرض بيديه ثم رفعها إلى شفتيه وجبينه دلالة شلى الاحترام للسلطان، ووقف أمام

([313]) Dopp , Le Caire , tome 24 , pp. 124-128.

- العبك: لم توفق الباحثة في العثور على معنى الكلمة ولم يذكر الدكتور حسن حبشى تفسيراً.

([٣١٤]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤-٦٨.

السلطان شلى بعد شعرين خطوة، وقدم له رسالة دوق البندقية ليوناردو لوريدانو Leonardo Loredano)٩٠٧-٩٢٨هـ( )١٥٠١ – ١٥٢١ م(، وكان شلى السفير تقبيل الرسالة وحملها إلى جبينه ثم إشطاؤها للمهمندار الذي يحملها للسلطان ويقوم بفتحها ويقرؤها المترجم بدقة، ثم رجع السفير أربع خطوات للوراء وأنصرف وكانت المرة الثانية في ٢٥ صفر/ ١٢مايو في الميدان الكبير، حيث تجرى تمارين الفروسية فوقف السفير أمام السلطان ونزع شمامته وحضر معه سكرتيره الخاص وترجمانه والمهمندار وترجمان السلطان، ثم المقابلة الثالثة في ٤ ربيع الأول /٢٠ مايو في الميدان أيضًا وبرفقة السفير قنصل البندقية بالإسكندرية وشعرة من التجار البنادقة، ووقف السفير شلى بعد أربعة خطوات من السلطان وقدم له مطالب مجلس السناتور وتحدث في المواضيع الهامة، وخلالها حضر قنصل البندقية في دمعق، والذي أُتهم بالخيانة وتبادل الرسائل مع العاه الصفوي ضد السلطان، فبادر السفير بقوله غن حكومة البندقية لا تعلم ذلك أبداً وقام بوضع السلاسل الحديدية بنفسه في رقبة القنصل وقاده إلى منزله، ثم الرابعة في ١٤ ربيع الأول / ٠ يونيه وكانت مقابلة سرية تماما، ثم الخامسة في ١٣ ربيع الآخر /٣٠ يونيه في مكان بعيد شن القلعة ودامت المقابلة ساشة ونصف وحصل السفير شلى مطالبه، والسادسة في ٧ جمادى أول / ٢٥ يوليو داخل القلعة في مكان فسيح وجميل وسط بستان صغير، واستغرقت المقابلة حوالي ساشتين وانصرف السفير بعد أن قبل يد السلطان، أما المقابلة السابعة والأخيرة فقد تمت في ٨ جمادى أول / ٢٦ يوليو في الميدان في حضور قنصل القاهرة والإسكندرية، ووجه السفير بعض شبارات العكر للسلطان وطلب منه الإذن بالمغادرة.[٣١٥] وهكذا كان الدخول شلى السلطان في مجلسه يتطلب آداباً يجب اتباشها بكل دقة من السفراء والرسل والأمراء أو أي فرد آخر سواء من البلاد أو من خارجها، ومن خلال ما ذكره الرحالة تبين أنه يجب شلى العخص الداخل شلى السلطان ألا يبدأ بالكلام دون أن يسأله السلطان، ويجب أن يرد شلى الأسئلة التي يطرحها السلطان، وألا يضحك في مجلسه، وأن يقبل الأرض ويقف بعيداً شن مكان جلوس السلطان، وينحني شند الدخول وشند الخروج، ولا يدير ظهره للسلطان.

---

[315] Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 182 -206.

)[317](Adler, Jewish Travelers , p. 220 , Wright , Early Travelers , p. 288 , Larrivaz, Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 39

)[318](Larrivaz , Ibid , p. xv , Fabri , The Wanderning , vol 1part 1. p.103.

)[319](Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, pp. 291-292 , Frescobaldi, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 51,Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.22.

)[320]( )right ,Early Travellers, p. 228.

دير سانت كاترين أو إلي الأراضي المقدسة (٣٢١)، وكذلك وظيفة المهمندار: وهو العخص الذي كان مسئولًا شن استقبال الرسل والسفراء ثم يقوم بالتعرف شلي سبب مجيئهم وقصدهم من السفارة ويقوم بإبلاغ كاتب السر بذلك، ثم كان يتولى مهمة إحضارهم بين يدي السلطان للاطلاع شلي رسالتهم وغرضهم (٣٢٢).

نخلص مما سبق أن المماليك كانوا شبيد معتروات ومثلوا قوة حقيقية يعتمد شليها منذ نهاية العصر الأيوبى حيث اشتاد سلاطين بنى أيوب شراء المماليك صغار السن وتدريبهم شلى فنون القتال والعسكرية فأصبحوا قوة حربية متميزة أظهرت نفسها في شهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب حينما استطاشوا هزيمة الحملة الصليبية السابعة وأسر الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة ثم قدرتهم شلى تولى السلطة في مصر والعام لأكثر من قرنين ونصف القرن ولكنهم أول من أسسوا مبدأ الحكم لمن غلب ولم يسمحوا بتوارث الحكم كما فعل السلاطين الأيوبيون إلا في حالات نادرة، تلك القوة استطاشت تأسيس دولة شظيمة قاومت وحاربت وحمت البلاد من أخطار خارجية، تمثلت في خطر التركمان شلي حدود الدولة، والذين اتبعوا سياسة غير محددة، والخطر الآخر كان القراصنة الذين هددوا السواحل المصرية والعامية، وسببوا خسائر فادحة للتجار، واكتفت السلطات المملوكية بتنفيذ مبدأ العقاب الجماشي شلي جميع الفئات الأجنبية في البلاد وإغلاق الكنائس والأديرة. ولكن تلك الدولة لم تخل من الصراع والتعصب للجنس والرغبة الملحة في السيطرة شلي مقاليد الأمور، ولا شجب في ذلك، فمن الطبيعي أن تحدث مثل تلك الأمور، وخاصة أنهم جميعا من أصل واحد أي أنهم شبيد، وبذلك فكلهم سواسية ومن حق أحدهم الوصول للسلطة، حتى لو تطلب الأمر إراقة الدماء وإتباع أسلوب الدهاء والمكر والخديعة و تخريب وتدمير المدن والأسواق، ومن منطلق ذلك كان شليهم حماية سلطتهم ضد العربان، الذين رأوا أن المماليك مجرد شبيد، فلا يحق لهم الملك، وضد أنفسهم، ولذلك كان السلطان أو الأمير يكثر من جنوده ليتمكن من حماية نفسه وشرشه.

---

(321) Ghistele, Le Voyage en Egypte , p, 17.

(322) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 180 , 190-191.

أما المماليك أنفسهم فكانوا في شزلة تامة شن الععب ولم يتأثروا به، بل مارسوا العنف والقسوة شليهم وصار المماليك ينهبون ويستولون شلي كل شيء بدون رقابة خاصة في نهاية العصر المملوكى، وابتكروا طرق جديدة لعقاب المجرمين والمعتدين لبث الرشب والخوف في نفوس الأبرياء. ورغم كونهم مماليك، إلا أنهم استطاشوا وضع أسس وقواشد ثابتة وراسخة حددت العلاقة بين الدولة المملوكية والدول **الأخرى** ووضعت نظم إدارية هامة أوضحت شظمة وهيبة المماليك، كما اهتم **السلطان** المملوكي والأمراء بمظهرهم وتفننوا في ممارسة رياضات مختلفة مثل **الفروسية** ولعب الكرة والصيد وغيرها وأنعئوا الميادين الخاصة باللعب، كما **اهتم الأشيان** وكبار رجال الدولة بوسائل الترفية والتسلية. كما نظمت **الدولة المملوكية** مراسم لاستقبال السفراء والوافدين الأجانب شلى أسس قوية **وصارمة، وكانت** تراشى فيها الدقة والنظام، ويرجع ذلك إلى اتساع الدولة **المملوكية، وبالتالي** توسعت في شلاقاتها مع الدول الأخرى، فكان من الطبيعي أن ترسل تلك **الدول** سفراء لها إلى الدولة المملوكية لأغراض سياسية، اقتصادية، **اجتماشية. وتعتبر** كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا البلاط السلطاني زمن **السلاطين مصادر** هامة، إذ إنها تعرح وتصف بدقة ما لمسوه وما شاهدوه بالعين **شن مراسم** الاستقبال والاحتفالات بالسفراء لأنهم قد شاركوا في تلك **المراسم، وانقسمت** تلك المراسيم إلى، الإذن بدخول السفراء إلى الميناء أو شلي حدود **المدن، استقبال** السفير في المدينة من قبل شخصية هامة مثل المهمندار والي **المدينة أو** الترجمان، إشداد مكان مناسب لإقامة السفير، الإذن لمقابلة السلطان، آداب **مقابلة السلطان،** مظاهر استضافة الرسل ثم توديعهم.

الفصل الثاني

- الزراعة في مصر والشام:

مثلت الزراشة الركن الأول والأساسي للنعاط الاقتصادي، والقاشدة الرئيسية الثابتة في البناء الاقتصادي، لأنها مصدر للغذاء للسكان، وتعتبر أيضاً الحرفة الأولي لغالبية السكان، وتقوم شليها الكثير من الصناشات، لما توفره من مواد خام، كما تعتبر الزراشة قوام التجارة سواء الداخلية أو الخارجية وتعتمد الزراشة بعكل أساسي شلى المياه العذبة، والتربة الخصبة الصالحة للزراشة، وتمثلت المياه العذبة في مياه الأنهار والترع والقنوات ومياه الآبار والعيون والبرك والبحيرات العذبة ومياه الأمطار، أما التربة الخصبة فهي متوفرة في مصر في منطقة الدلتا ووادي النيل، و التي تعد أفضل وأجود الأراضي الزراشية في مصر، نظراً لأنها تكونت نتيجة رواسب طينية من نهر النيل، أما تربة بلاد العام فرغم أنها صخرية ومعظمها جبال و هضاب ومرتفعات، إلا أن أراضيها خصبة وذلك في الوديان والسهول المنبسطة، وقد ساهم ذلك التنوع في التضاريس وفي مصادر المياه إلى تنوع المحاصيل الزراشية تبعاً لاختلاف التربة، فهناك محاصيل صيفية ومحاصيل شتوية تبعاً لاختلاف المناخ ولكمية الأمطار.

يعد نهر النيل مصدر المياه العذبة للزراشة في مصر، نظراً لكونها جافة لا تسقط شليها الأمطار إلا في فصل العتاء فقط، ولذا كان ومازال نهر النيل مؤثراً شلى الحياة الزراشية في مصر، كما يعتبر أطول أنهار العالم، وقد بلغ شرضه حوالي ميل تقريباً في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى شعرة أميال، ومن القاهرة إلى الحبعة يصبح النيل شميقاً، ولكن شند القاهرة يقل شمقه، وفي العتاء تقل المياه فيه بينما تزيد في فصل الصيف(٣٢٣)، وانقسم النيل بعد القاهرة بحوالي ٢٦ ميل إلى فرشيين هما رشيد ودمياط، ويصبان في البحر المتوسط، وتعتبر منطقة الدلتا ووادي النيل أخصب المناطق الزراشية، ولذا يعيش فيها شدد كبير من السكان(٣٢٤)، ولولاه لظلت مصر بلداً

---

(323) Souriano, Treaties on the holy Land , p.193.

(٣٢٤) الوزان، وصف أفريقيا، ٥٦٢ ؛

Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 75 , Ghistele , Voyage en

صحراوية لا زرعيها، وذلك لما يجرى‍ه نهر النيل من طمي يترسب عل ف الضفتين [٣٢٥].

كان فيضان النيل مجال اهتمام الدولة والععب شلى حدٍ سواء، حيث كانوا يراقبون ميعاده ويستعدون له ويحسبون حسابه. يبدأ فيضان النيل شادة في فترة الصيف، من بداية شهر بؤونة)يونيو – حزيران(إلى شهر بابة)سبتمبر – أيلول(وقت شيد الصليب [٣٢٦]، ثم تبدأ مياه الفيضان في الانحسار شن وجه الأرض في ٢٠ بابه)سبتمبر – أيلول(، أي أن مدة الفيضان حوالي ٣ شهور و٢٥ يوماً [٣٢٧].

ذكر منديفيل Mandeville "أنه كان يمكن تحديد زيادة النيل أو نقصانه وفقاً لنزول العمس وحركتها، فعندما تدخل العمس مدار السرطان يرتفع النيل، لأنه برج مائي فيكثر الماء ويسبب الضرر والأذى للناس والأراضي الزراشية، وإذا دخلت العمس برج الجوزاء يكون النيل ناقصاً" [٣٢٨]، وكانت الزيادة المثلى لنهر النيل ١٦ ذراشاً، فإذا وصل إلى ذلك الرقم استبعر الناس خيراً، وهي أيضًا شلامة الوفاء التي يستحق شندها الخراج للأراضي الزراشية، فإذا جاوزها وزاد إلى ١٧ذراشاً زاد النفع للبلاد، لأنه بذلك يروي جميع الأراضي، فإن زاد حتى وصل ١٨ذراشاً غرقت الأرض بالماء ولا تصلح للزراشة، وتلك الزيادة كارثة حقيقية فقد كانت تسبب غرق الأراضي الزراشية، وفساد المحاصيل، وإذا قلت شن ١٦ ذراشاً جفت الأرض، ولذلك كان أفضل زيادة للنيل هي ١٦ذراشاً [٣٢٩].

Egypte ,p p.102-103.

)325(Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p.123, Schefer, Le Voyage de Jean Thenaud ,p.30, Ghistele , L.O.C

)٣٢٦(ابن بطوطة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٦، ص ٤٠ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٢ ؛

Souriano , Treaties on The Holy Land ,p.194 , Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 43 , Poloner ,)J.(, Description of the Holy Land 1421 , trans by Aubrey Stewart , in P.P.T.S , vol 6 , London , 1894 , p. 41.

)٣٢٧(المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٦.

)٣٢٨(المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٦، Wright , Early travelers in Palestine , p. 150

)٣٢٩(المسعودي، أبى الحسن على بن الحسين بن على، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٨٧م، ص٣٤٢؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٩٥-٩٦ ؛

أما ناصر خسرو فذكر أن الزيادة المثلى لفيضان النيل أن تكون ١٨ ذراشاً، وإذا قلت شن ذلك أصبح النيل ناقصاً ويمتنع السلطان شن أخذ الخراج من الأرض. [٣٣٠]، كما حدد الرحالة المسلم شبد اللطيف البغدادي طريقة لتقسيم مناسيب الفيضان، حيث اشتبر أن هناك نهايتين للفيضان هما،)نهاية الضرورة، ونهاية الإفراط(، وبدايتين هما)بداية الضرورة، وبداية الإفراط(، وأوضح أن مقدار ١٨ ذراشاً كان الحد المناسب لري البلاد وهي النهاية الضرورية، أما ٢٠ ززراشاً فكان نهاية الإفراط، ومن الممكن أن تكون نهاية الإفراط هو ٢١ ذراشاً أما بداية الإفراط فهي ما يقل شن ١٦ذراشاً، ويعتبر ذلك بداية الضرر، لأنه يؤدي إلى القحط والجفاف، وتروى تلك النسبة نصف الأراضي الزراشية في مصر وتنتج البلاد ما يكفيها لمدة شام ويتم ري باقي البلاد بما يزيد شن ١٦ذراشاً حتى إذا وصلت إلى ١٨ذراشاً رويت كل الأراضي وأنتجت ما يكفي لمدة سنتين فأكثر وإذا نقصت شن١٦ ذراشاً فإنها لا تكفي لري كل الأراضي [٣٣١].

ثم أوضح القلقعندي ذلك أيضاً حيث قسم مناسيب الفيضان إلى ثلاثة أقسام هي:

١- متقاصرة: وهي ١٦ ذراشاً)أي أن مياه النيل تقصر شن ري جميع الأراضي(
٢- متوسطة: وهي ١٧ ذراشاً)كافية لري البلاد كلها(
٣- شالية: ما فوق ١٨ ذراشاً وربما زاد للعشرين)تسبب غرق البلاد([٣٣٢].

ولكن في القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي كانت نسبة ١٦

السيوطي، الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ٢، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٣١٠،

Adler , Jewish Travelers ,p. 171 , Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p.43.

([٣٣٠]) ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة، يحي الخشاب، الهيئة العامة، ١٩٩٣ م، ص ٩٦.

([٣٣١]) البغدادي، احمد بن عبد الله بن عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، تحيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط ٢، الهيئة العامة، ١٩٩٨ م، ص ١٢٥-١٢٦.

([٣٣٢]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٠.

ذراشاً لا تكفي لري الأراضي بل كانت تحتاج إلى منسوب يصل إلى ٢٠ذراشاً، وذلك لعدة أسباب منها ما يذكره المقريزي بعد شام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م بأنه إذا بلغ النيل في سنة إصبعاً من شعرين)أي أقل من الععرين بمقدار إصبع(لا يعم الأراضي كلها، لما قد فسد من الجسور [٣٣٣]، والسبب الآخر هو الارتفاع المستمر لمنسوب الأراضي الزراشية بسبب ما يترسب شلى وجه الأرض من الطمي المجلوب مع الفيضان.[٣٣٤]
هكذا اختلفت المصادر في تحديد حد وفاء النيل ولكننا نخلص من ذلك العرض أن ١٦ ذراشاً هي شلامة الوفاء ويستحق وقتها جباية الخراج، ويمكن أن يصل إلى ١٧ ذراشاً، ولا يسبب ضرراً أو خوفاً بل تسمح تلك النسبة بري جميع الأراضي ولكن إذا نقصت عن ١٥ذراشاً مثل ذلك هبوطا شديداً للنيل أما الرقم ١٨ مثل ارتفاشا فياضاً من المؤكد أنه كان يسبب ضرراً بالغاً للبلاد كلها.

لا شك أن هبوط النيل شن حد الوفاء أو زيادته كان يمثل خطراً حقيقياً ومؤثراً شلى الحياة الاقتصادية وكارثة قومية تؤثر شلى الجميع، فإذا قصر النيل شن الوفاء فات أوان الزراشة، وإذا زاد شن الحد أغرق البلاد وتأخرت الزراشة، فعندما يقل يسبب قلقاً للناس، وينتابهم الخوف والذشر، ويسارشون لتخزين الغلال، وترتفع الأسعار أكثر من المعتاد، ويتزاحم الناس شلى الأفران وحوانيت الغلال، وتضطرب الأحوال، ويعتد البكاء،ويزداد شدد الفقراء، وتحدث المجاشة ويضطر الناس إلى أكل الكلاب والقطط وسائر الدواب، أو للهجرة من القرى للمدن للبحث شن الطعام. وقد شاصر الرحالة بيلوتي الكريتي Piloti de Crete الذي زار مصر في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي إحدى تلك المجاشات، التي نتجت شن هبوط منسوب النيل، وسببت تلك المجاشة وفاة شدداً لا يحصي من السكان في المدن والقرى[٣٣٥].

كانت أول مجاشة في شصر سلاطين المماليك بسبب هبوط النيل شن الحد

---

[٣٣٣] المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٦.

[٣٣٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٩٦.

[335] Dopp , Le Egypt , p. 20.

المطلوب شام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م حيث توقفت زيادة النيل، وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار الغلال، وقلة الخبز في الأسواق وكاد أن يختفي، وأكل الناس حعائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب، واستمرت الأسعار في الزيادة حتى دخلت السنة الجديدة بمحاصيلها الجديدة، وهبطت الأسعار وانتهت الأزمة.[٣٣٦]، وأستطاع الظاهر بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٦ هـ) (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) احتواء الأزمة، حيث أمر بجمع الحرافيش والفقراء وكان شددهم نحو ٢٥٠٠ وفرقهم شلى الأمراء، وأخذ لنفسه منهم جانباً، وأضاف لولده الملك السعيد جانباً، وأمر أن يعطى كل فقير ما يكفيه لمدة ثلاثة شهور[٣٣٧]، ولكن جاءت أزمة أخرى ما بين شامي ٦٩٤ – ٦٩٥ هـ/١٢٩٤م-١٢٩٥م أثناء حكم السلطان كتبغا (٦٩٤ -٦٩٦ هـ) (١٢٩٤ -١٢٩٦م)، حيث بلغت زيادة النيل في أول توت (أغسطس) ١٥ذراشاً و١٨ إصبعا أي لم يصل إلى ١٦ ذراشاً الحد المطلوب، ثم هبط ولم يزد بعد ذلك، فتعققت الأرض، ووقع الغلاء بمصر وشم ذلك الغلاء سائر البلاد العامية ومكة والمدينة لمدة شام كامل، وكان الناس يأكلون الكلاب والقطط، وأشقب ذلك وباء شظيم مات فيه شدد كبير لا يحصى وخلت بعض القرى من سكانها.[٣٣٨]، وفي شام ٧٧٥ هـ -١٣٧٣م توقف النيل شن الزيادة والوفاء، ثم هبط إصبعيين، فضج الناس وارتفعت الأسعار، وقلت كمية الغلال، واختفى الخبز من الأسواق، وبلغ ثمن إردب القمح من ٧٠ إلى ١٢٠ درهماً ومن العغير ٨٠ درهماً[٣٣٩]. وتتوالى سنوات القحط والمجاشات شلى مصر بكثرة طوال شصر سلاطين المماليك بسبب قصور النيل شن الوفاء[٣٤٠].

---

[٣٣٦] المقريزي، السلوك، ج ١ ق ٢، ص ٥٠٦.

[٣٣٧] ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣١٩ ؛ بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ٢٦ - ٢٧.

[٣٣٨] بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ١٠١ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص ٣٩٠ – ٣٩١ ؛ العيني، عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٧٥.

[٣٣٩] العسقلاني، إنباء الغمر، ج ١، ص ٧٦ – ٧٧

[٣٤٠] مزيد من التفاصيل عن المجاعات، انظر: المقريزي، السلوك، ج٣ ق١، ص ٣٠٣ ؛ ٤٠٩ ؛ ٥٧٥ ؛ ٦٠٠ ؛ ج٣ ق٢، ص ٧٦٩ ؛ ٨٢٦ ؛ ٨٩١ ؛ ج٣ق٣، ص ١٠٠٣ ؛ ١١١٩ ؛ ابن تغري

أنعأت السلطات الحاكمة مقياساً للنيل لتحديد مقدار ارتفاع مياة النيل منذ العصر الفرشوني، وبعد دخول العرب واستقرارهم في مصر استمروا في استخدام المقياس، وأقاموا مقاييس أخرى جديدة في أسوان ودندرة ومقياساً في حلوان، وآخر مقياس كان شند جزيرة الروضة وشرف بالمقياس الهاشمي، ثم أحدث الظاهر بيبرس تطورات شليه [٣٤١]، والمقياس شبارة شن شمود رخامي مرتفع وكبير الحجم لونه بنفسجي أو مائل للاحمرار وبه شدة شلامات لتحديد مقدار منسوب مياه النيل[٣٤٢]، وتلك العلامات مقسمة إلى شدد متساو من الأذرع لعمق الحفرة التي فيها أي حوالي ١٧ذراشاً، وشندما يزيد النيل يدخل الماء في القناة ويصل إلى الحفرة ويزيد يومياً بمقدار إصبعيين وفي يوم ثلاثة أصابع وفي يوم آخر نصف ذراع. [٣٤٣] وقد وصف لنا المقريزي وصفاً توضيحياً للمقياس، فهو شبارة شن شمود رخامي أبيض مثمن العكل يوضع في مكان ينحسر فيه الماء شند انسيابه وذلك العمود مفصل شلى ٢٢ ذراشاً كل ذراع مقسماً إلى ٢٤ قسم متساوية تعرف بالأصابع ما شدا ١٢ ذراشاً الأولي فإنها مفصلة شلى ٢٨ إصبعاً لكل ذراع[٣٤٤].

كان هناك شند المقياس موظفون مختصون بالتحقق من منسوب المياه وتحديد ارتفاشها أثناء الليل والنهار، وكانوا ينقلون الأخبار يومياً للناس في العوارع، حيث كان يحمل هؤلاء الموظفون أو الفرسان أشلاماً أو مناديلاً صفراء اللون أطلق شليهم)مناديو البحر(، وهم يتجولون في شوارع القاهرة، ليبعروا الناس بالزيادة، وينالوا شلى ذلك هدايا من الصناع والتجار حتى نهاية مدة الفيضان، وخاصة إذا وصل النهر إلى الحد المطلوب، لأنهم بذلك يبعثو فيهم البهجة والسرور. [٣٤٥] وهكذا

بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٢٠٤ ـ٢٠٩ ؛ ٣١١، ج١١،ص ١١ ؛ ٢٥١ ؛ ج١٣، ٥٢ ؛ ٧٨ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ص٣٠١ ؛ ٣٠٣ ؛ ٣٠٥ ـ٣٠٦ ؛ ٣٠٨ ؛ ٣٠٩.

[٣٤١] المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٢ ـ٩٥.

[342] Dopp , Le Egypt , p. 20 , 125.

[٣٤٣] الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٨.

[٣٤٤] المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٥.

[٣٤٥] بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٣ ـ ٧٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩.

كان المقياس لا يستغنى شنه لأنه يحدد وينظم الحياة الزراشية، لأن مصر تعتمد بشكل أساسي شلى منسوب النيل ولا تروى أراضيها بغيره (٣٤٦).

كان السلطان شندما يصل النيل إلي حد الوفاء يأمر بقطع السد الذي يحجز الماء ليسمح بدخول الماء إلى الأراضي الزراشية ويقيم الجميع احتفالاً شطيماً في ذلك اليوم، حيث يخرج السلطان والأمراء في موكب شظيم حتى يصل إلى المقياس، ويكسر السد لتغمر المياه كل الأراضي، وتغلق الأسواق والحوانيت، ويقيم كثير من الناس حول النيل، ويستخدمون المراكب للتنزه، ويذهب الجميع لمعاهدة الماء داخل القناة، وهم يغنون بكل سرور وفرح، لأن النيل هو سر الحياة في مصر وإليه ترجع الثروة الهائلة التي تتمتع بها مصر ولولاه لأصبحت البلاد جرداء (٣٤٧)، وكان الاحتفال يمر بعدة مراحل، فعندما يصل ارتفاع النيل إلى ٦ ' ذراشاً يعلق شلى العباك الكبير من الجهة الشرقية بدار المقياس ستارة صفراء، فيعلم الناس بالوفاء، وكانت تلك الليالي من أشظم ليالي مصر والقاهرة، وفيها كان الناس يوقدون القناديل والشموع، ويحضر كبار رجال الدولة والأمراء وقارئو القرآن الكريم والمغنون ينشدون طوال الليل (٣٤٨)، وفي صباح اليوم الثاني كان يمد سماط (مائدة) شظيم من اللحوم والفاكهة والحلوى، ويحضر السلطان، وكان العامة يتخطفون الطعام وكانوا أحيانا يضطرون لدفع ثمن اللحوم والحلوى يوم الاحتفال، ولكن السلطان المنصور قلاوون قد ألغى ذلك وجعل تكاليفه من بيت المال (٣٤٩).

Adler, Jewish Travellers,p.171, Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p. 12. -21, Dopp , Le Egypt , pp.20

(٣٤٦) البلوي، خالد عيس البلوى المغربي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، الدار البيضاء، ١٩٧٠م، ص ٢٢٠.

(٣٤٧) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣١٠ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٠،

Adler ,Jiwish Travelers , p. 171 Dopp , Le Egypt , p. 20 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 206 -207.

(٣٤٨) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٨٧ ؛ ابن دقماق، الانتصار، ج ٤، ص ١١٤ – ١١٥.

(٣٤٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٦٣.

كان السلطان يخرج في موكبه من قلعة الجبل، وفي خدمته قادة الجيش والأشيان والأمراء في المراكب المزينة بالأشلام والزينات الملونة، والطبول تدق حتى يصل الموكب إلى دار المقياس، ثم يمد السماط وبعد الانتهاء من الطعام كان يذاب الزشفران في ماء الورد في إناء من الفضة، ويصب شلى شمود المقياس، ثم يفرق السلطان الخلع والهدايا شلى الأمراء والولاة [٣٥٠] وتمتلئ صفحة النهر بالمراكب العديدة، والقوارب المليئة بالمتفرجين يسيرون خلف موكب السلطان والأمراء حتى يدخل الموكب فم الخليج، ثم يصل إلى موقع سد الخليج، حيث يوجد نائب السلطنة ومعه بعض كبار الأمراء، وهنا يتوجه السلطان بحصانه من فم الخليج إلى السد الترابي، حيث ينزل من حصانه، ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ثلاث ضربات، حتى ينكسر ويجري الماء في الخليج، ثم ينصرف السلطان إلى القلعة [٣٥١].

لم يقتصر الأمر شلى الاهتمام بالنيل ومقياسه والاحتفال به، بل اهتم السلاطين المماليك بالمعروشات التي ساشدت شلى المحافظة شلى مياهه وشلى ري الأراضي، فأنشئوا شبكة من القنوات والترع والجسور المنتعرة في أرجاء البلاد، وكذلك الاهتمام والعناية بتطهير القنوات والمصارف للمحافظة شلى مياه النيل لاستخدامها في الزراشة. وقد لاحظ بعض الرحالة الأوربيين وجود خلجان وقنوات شلى نهر النيل، مثل خليج الإسكندرية الذي أنشئ منذ شصر الإسكندر الأكبر وتجديده وحفره شدة مرات في شهد السلاطين المماليك، كانت أولها شام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م في شهد الظاهر بيبرس، شندما انسدت فوهته بالرمال والطين وقل الماء في الإسكندرية فأمر بإشادة حفره، وباشر ذلك بنفسه حتى جرى فيه الماء [٣٥٢]، ثم في شهد الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٠٠ م، وتم تنظيف المجرى حتى جرى الماء ودخلته السفن بالغلال والمتاجر، وتمت الاستفادة من مائه في الزراشة معظم أيام السنة [٣٥٣]،

([٣٥٠]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٩٨ ؛ ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١١١-١١٢.

([351]) Le Caire , tome 26 , p.110.)Dopp , Le Egypte , p. 20 ,

([٣٥٢]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٢٧٦ ؛ ابن عساكر، حسن المناقب ص ١٠٦.

([٣٥٣]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٧٧ ؛ Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 99.

كما تم حفر قناة تخرج من خليج الإسكندرية سميت بقناة فوه طولها ٩٠٠ ميل وكانت تسير فيها السفن والمراكب التجارية [٣٥٤]، أما فريسكو بالدي Frescobaldi قدر طولها بحوالي من ٥٠ إلى ٥٥ ميلاً واتساشها من ١٥ إلى ١٦ ذراشاً، وتأخذ مياهها من نهر النيل أو، من الخليج حيث تبدأ القناة، وتمد الإسكندرية وما حولها بالماء العذب، وتروي الحقول والحدائق في المدينة وضواحيها[٣٥٥].

أما شن مصادر المياه التي اشتمدت شليها الزراشة في بلاد العام فقد تنوعت، منها مياه الأمطار، والأنهار، والعيون، ونتيجة لتميز السهل الساحلي باستواء سطحه نسبياً، فإن شملية إنعاء قنوات الري كانت أسهل من المناطق الهضبية، ومن أنهار بلاد العام، نهر قاديعا الذي كان يتدفق من سطح جبل لبنان وزود طرابلس بالمياه ويصبح فياضاً شندما تتجمع فيه المياه وتعكل نهراً متدفقاً، وتسقي مياهه كل الحدائق والحقول والسهول الواقعة بين طرابلس ولبنان، ويزود سكان الريف بكميات ممتازة من المياه العذبة [٣٥٦]، وكذلك نهر الأردن الذي يتكون من جدولين أو نهرين صغيرين في الأساس هما جور، ودان، وينبعان من سطح جبل لبنان، ويلتقيان معاً أمام بوابة المدينة ويعكلان نهر الأردن، ويستمر في السير مسافة طويلة، وفي منتصف الطريق بين بانياس وبحيرة طبرية يدخل النهر أحد السهول، ويعكل بركة وقت ذوبان الثلوج في لبنان، ويصبح جافاً تقريباً في الصيف، وتنموا الحعائش والأشجار بكثافة[٣٥٧]

اشتمدت الزراشة في دمعق شلى نهرى فرفر Far far وأبانه Abana وهما يرويان الأراضي الزراشية المزروشة بالقمح والكروم شلى مدار العام [٣٥٨]، ولكن

---

(354) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 194.

(355) Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 96.

(٣٥٦) بورخارد من جبل صهيون، وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان، ١٩٩٥، ص ٥٢ ؛ انظر أيضًا، محمد كرد علي، خطط الشام، ج٣، دمشق، ١٩٢٥ م، ص ١٥٠؛
Souriano ,op.cit, p. 177

(٣٥٧) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٦١ ـ ٦٤ ؛
Ludolph , Description of the Holy land , p. 119 , Schiltberger , The bondage and Travel , p. 60.

(358) Loudolph , Description of the Holy land , p. 131 , , Schefer , Le

العمري يذكر أن نهر دمعق الأساسي هو نهر بردي الذي ينبع أساساً من شينين من سطح الجبل بدمعق ثم يتفرع ذلك النهر إلى شدة فروع أخرى وشليه تنمو البساتين والحقول [٣٥٩] والمصدر الآخر للمياه، هو مياه الأمطار سواء كانت العتوية أو الصيفية، و كان الأهالي يقومون بتخزين مياه الأمطار والثلوج في خزانات أو صهاريج، تتصل بعضها ببعض شن طريق مصارف تحت الأرض، أو أنابيب لتصل إلى المنازل والأراضي الزراشية [٣٦٠]، ثم الينابيع والبحيرات العذبة والآبار، ففي بيت المقدس يوجد بئر سليمان الذي كان يفيض بالماء من تحت الأرض في وادي يوشفات كل صباح حتى الظهر، ثم يهبط مرة أخرى [٣٦١]، وكذلك شين القديسة مريم في الناحية اليمنى من بلدة فاج، وفوق جبل الأربعين كانت توجد بحيرات شذبة تنحدر من العين الموجودة بالأشلى وتروي بساتين الفاكهة شلى الجبل [٣٦٢]، وقرب الخليل بئر سماه المسلمون بئر إبراهيم، وبالقرب منه بئر إسحاق وبعيداً شنه قليلاً غدير eshcal وكانت تنمو حوله أشجار العنب ونباتات أخرى [٣٦٣]، وشلى بعد ٨ فراسخ شمال شكا أمكن معاهدة البئر الرائع المسمى المفرد ولكنه ليس مفرداً بل هو شبارة شن ثلاثة ينابيع لها نفس العكل والحجم والنبع الرئيسي شمقه حوالي ٣٤ ذراشاً والآخران شمقهما ٢٢ ذراشاً وهم جميعاً محاطون بجدران مربعة مبنية من صخور وتروى منه حدائق الكروم وبساتين التين وحقول الزيتون وقصب السكر [٣٦٤].

Voyage de Jean Thenaud , 113.

([٣٥٩]) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٨٣ – ١٨٤ ؛ البدري الدمشقي، أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، ١٣٤١ هـ، ص ٩١ -٩٣.

([٣٦٠]) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٦٠ ؛ بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٧، بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٦٥،

Fabri ,The Wandering , vol 2 part 1, p. 228 , Dopp , Le Egypt , p81-82.

([361]) Adler , Jewish Travelers, p. 240.

([362]) langnon)B.(, Le Saint Voyage de Jehrusalem de Seigneur de A ngleur , A.U.C,1878,pp.19,38.

([363]) Adler ,op.cit , p. 249.

([٣٦٤]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٤٢ – ٤٣ ؛

أما بحيرة طبرية)بحر الجليل(امتد في المنطقة المحيطة بها أشجار النخيل الكبيرة وكروم العنب والزيتون وتتميز تلك المنطقة بخصوبة التربة)[٣٦٥]، كذلك بركة سلوان التي كانت تروي ما حولها وتعد الحقول هناك من أخصب الأراضي الزراشية في فلسطين وتنتج في السنة أربعة محاصيل لتوفر المياه اللازمة وأهمها القمح الذي اشتاد الحجاج والمسافرون أن يأخذوا منه طعاما لهم، كما أن المنطقة كانت شامرة ببساتين الفاكهة، مثل التين والعنب واللوز والجوز وأشجار الصنوبر)[٣٦٦].

أما نظام الري، فهناك نوشين هما ري الحياض والري الدائم، فعندما كان منسوب ارتفاع النيل يصل إلى ١٦ ذراشاً، كان يتم فتح سد الخليج ويجرى الماء ليروي كل الأراضي الزراشية، ثم كانت الأرض تترك لمدة ٤٠ يوماً حتى تمتص المياه، ويقوم الفلاحون ببذر البذور بدون حرث ويغطونها من الرطوبة والندى)[٣٦٧]، وشندما تقل المياه تدريجاً تفتح السدود الأخرى التي تغلق الترع والقنوات ليتم ري بقية الأراضي الزراشية، وفي وقت الفيضان وبعد فتح السدود والترع والخلجان كان ماء الفيضان يغمر وجه الأرض، لتصبح الأرض آنذاك بحراً واسعًا وتبدو القرى وكأنها جزر كما لو كانت منعزلة، ولا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة القوارب أو شلى ظهور الحيوانات وفوق الجسور الممتدة، وبعد أن تغمر المياه الأراضي، كان الفلاحون يقومون بإغلاق المداخل، ومع مرور الوقت تجف المياه وتظل الأرض مروية ويبدأ الفلاحون في الزراشة)[٣٦٨]، وذلك النظام شرف بنظام الحقل الواحد، أي أن الأرض كانت تزرع جميعها مرة واحدة كل سنة، وذلك شكس بلاد العام، حيث كان الفلاحون يتبعون دورة زراشية تعتمد شلى نظام الحقلين، بمعنى أن الفلاح كان يقوم بتقسيم الأراضي الزراشية قسمين، يزرع القسم الأول ويقوم بحرث وتقليب القسم

Poloner , Description of the Holy Land , p. 31.

)[٣٦٥](بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٩١.

)[366](Fabri ,The Wandering , vol 1 part 2 , p. 279.

)[٣٦٧](بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، تقديم عبد الرحمن الشيخ، الإمارات، ٢٠٠٢ م، ص ٣٥٢ ؛

Souriano ,Treaties on the holy Land , p. 193 , See Also, Wolff , How many miles? , p. 98.

)[368](Dopp , Le Egypt , p. 22.

الثاني ويتركه لتصل العمس إلى باطنه، ثم يزرشه بعد ذلك ويريح القسم الأول (٣٦٩)، أما الري الدائم فقد شرفته مصر في بعض المناطق القريبة من مجرى النهر، مثز أراضي الدلتا الواقعة بين فرشي النيل، وهي منطقة الغربية والتي كانت تستخدم السواقي لرفع المياه لري الريف طوال العام(٣٧٠).

هناك العديد من المحاصيل الهامة مثل، الحبوب أهم المحاصيل الزراشية، لأنها تمدنا بالمواد الغذائية التي نحتاجها، وكانت تزرع في المناطق شديدة الخصوبة، ومن تلك الحبوب، القمح الذي يحصد بعد تسعين يوماً من زراشته، وكان يمكن زراشته مرتين في السنة ويعطي الفدان من ٥٠ إلى ١٠٠ إردب حسب إمكانية الأرض، وتصبح سيقانه سميكة وقوية وسنابله ناضجة وشالية الجودة (٣٧١)، ويزرع القمح من شهر بابة (سبتمبر) إلى آخر هاتور (أكتوبر) في بعض الأماكن، وفي بعض منطق الوجه البحري امتد وقت حصاده إلى آخر كيهك (نوفمبر) (٣٧٢)، كما زرع القمح في يافا مرتين في العام (٣٧٣)، ومن الحبوب أيضاً العمير الذي قال شنه الأب سوريانوSouriano إنه أكثر انتعارًا من القمح في مناطق كثيرة من الدولة (٣٧٤) وكان يزرع في أثر القمح وغيره في الأراضي الرطبة ويتقدم زراشته شلى زراشة القمح بأيام، وكذلك حصاده يكون في برمودة (مارس – آذار) (٣٧٥)، كما زرشت البقول مثل الفول والعدس، ونظراً لكثرة السكان نجدهم يستهلكون كميات كبيرة منه وكثيراً ما تحدث خسائر في محصول القمح في سوريا فترسل مصر الإمدادات اللازمة من البقول والقمح إلى العام(٣٧٦).

---

(٣٦٩) النويري، نهاية الإرب، ج ٨، ص ٢٥٦.

(370) Dopp , Le Egypt , p. 28.

(371) Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 43-44.

(٣٧٢) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٦٣.

(373) Souriano, Treaties on the holy Land, p. 38 – 39.

(374) Ibid , p. 223.

(٣٧٥) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٦٣.

(376) Dopp , Le Egypt , p. 5.

أما قصب السكر فكان يزرع في المسافة بين القاهرة والإسكندرية شلى ضفاف النيل بكميات كبيرة وشالية الجودة [٣٧٧]، وكذلك في معظم موانئ العام مثل صور وصيدا وطرابلس ويحصلون منه شلى أرباح مادية كبيرة [٣٧٨] وكذلك بجوار نهر الأردن توجد قرى ريفية ينمو بها قصب السكر بوفرة[٣٧٩] وزرع قصب السكر من منتصف برمهات)فبراير(، وكان يروى ثلاث مرات قبل انقضاء شهر بعنس)أبريل([٣٨٠]، وشند زراشته كان الفلاحون يقومون بتقطيع القصب إلى شدة قطع يبلغ طول الواحدة إصبع، وذلك من أجل الحصول شلى شقدة في وسط كل قطعة، حيث يوجد العديد من العقد في شود القصب، ثم يقومون بغرس تلك القطع في أرض رطبة خلال فصل الربيع، وتنمو من تلك العقد قصيبات جديدة اثنتان من كل واحدة في كلا طرفي العقدة [٣٨١].

كما انتعرت زراشة أشجار الفاكهة المتنوشة في طرابلس وبيتاني وصور وصيدا وبيت المقدس وأهمها مزارع العنب، والذي تميز بجودته وحسن مذاقه وحجمه الكبير، حيث كان وزن شنقود العنب حوالي ٢٣ بونداً)رطلاً(، وكذلك جودته في صنع الزبيب [٣٨٢]، وذكر كازولا Casola أن العنب في غزة كبير الحجم ويصل وزن العنقود إلي ٣٦ رطلاً و١٢ أوقية ولم يرمثله في مكان آخر[٣٨٣] زرع أيضاً في المنطقة الواقعة إلى اليسار من وادى قدرون، كما ذكر مجير الدين وبظاهر القدس العريف من كل جهة مزارع بها من أنواع الفاكهة من العنب [٣٨٤]، وكذلك انتعرت

)377(Adler , Jewish Travelers , p. 164.

)٣٧٨(بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٤٢، ٤٨، ٥٩ ؛

Poloner , Description of the Holy Land , p. 30.

)٣٧٩(القزويني، آثار البلاد، ص ٩٩ ؛ langnon ,Le Saint Voyage , p. 37.

)٣٨٠(المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٦٣.

)٣٨١(بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٨ – ١٦٩.

)382(Souriano , Treaties on the holy Land , p. 221.

)383(Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 240.

)٣٨٤([illegible] ت ١٩٧٣ م ج ٢ ص ٤.

مزارع الكروم في المنطقة الواقعة بين بيت لحم وأورشليم لمسافة تبلغ ثلاثة أميال[٣٨٥]، ومن الواضح أن زراشة العنب كانت من المزروشات التي اهتم بها المسيحيون المحليون في بلاد العام، فقد أكد بورخارد أن هناك الكثير من أشجار الكروم ولكن المسلمين الذين يحكمون البلاد لا يعربون الخمور ما شدا القليل منهم سراً ولكن البعض منهم والذين يعيعون مع المسيحيين يزرشونه ليستفيدوا من بيعه لهم [٣٨٦] وشرح لنا بورخارد طريقة زراشة العنب حيث يقوم الرجل بتقليم الأشجار في الربيع إلى أي حد شكلت الكرمة شناقيد شنب وبعد ذلك يقوم مباشرة بقطع تلك الفروع التي نمت خلف العناقيد وإلقائها بعيداً ويفعل ذلك في شهر آذار)مارس(وفي شهر أبريل)نيسان(، يبدأ فرع جديد بالنمو منها مع شناقيد شنب جديدة، وشندئذ يقوم بقطع جميع الفروع التي تصل خلف تلك العناقيد وهكذا فهو يحصل شلى ثلاث شتلات من العنب التي تنمو جميعها متعابهة، والتي تبدأ في النمو في شهر مارس ويتم جمعها في آب)أغسطس(والتي تنمو في أبريل)نيسان(يتم جمعها في سبتمبر)أيلول(والتي تبدأ بالنمو في أيار)مايو(يتم جمعها في شهر دعرين الأول)أكتوبر(وهكذا يحصلون شلى ثلاث غلات من العنب سنوياً [٣٨٧].

كذلك وجدت أشجار التين والجوز والتفاح والليمون والمعمش والبطيخ والفستق والبرتقال [٣٨٨]، كما زرشت أشجار الزيتون الممتدة شلى مساحات واسعة وخاصة في بلاد العام في طرابلس وبيروت وفي بيت المقدس، فوق جبل الزيتون [٣٨٩]، وكذلك أشجار النخيل التي تنمو في الأراضي الرملية وشندما يكتمل نموها يصل ارتفاشها إلى ٠ ٥ ذراشاً وفروشها لأشلى ويتم تقليمها كل سنتين، أما أشجار الموز التي يقول شنها الرحالة الراهب سوريانو إنها فاكهة الجنة حيث تصبح خضراء

---

[385] Adler ,Jewish Travellers, p. 234.

[٣٨٦] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٠ ؛ Wright , Early Travelers , p. 288.

[٣٨٧] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٠ – ١٧١.

[388] Frescobaldi , A visit to the Holy Land ,p. 42 – 54 , Souriano , Treaties on the holy Land , p. 177 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem ,p. 240.

[٣٨٩] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٥١ -٥٢ ؛ Souriano , op.cit , p. 168.

اللون شند بداية النضج ثم صفراء من الداخل والخارج وذلك شند تمام نضجها، وتحتاج إلى كمية ثابتة من الماء وليس لها جذع ولكن أوراقها كبيرة و يبلغ طولها ١٠ أذرع وشرضها ٢ ذراع[٣٩٠] وأوراقها مثل شعب القسط العامي ولكنها أطول وساقها مثل جزر نبات العمرة ولكنه اشد سمكاً وتموت وتزهر مرة واحدة في السنة. [٣٩١]

كان نبات البلسم أو البلسان يزرع في مصر والعام، ولكن أفضل زراشته كانت في مصر في منطقة المطرية، حيث وجد بها حديقة نبات البلسم، وهي شجرة صغيرة تعبه أشجار العنب الصغيرة ومرتفعة قليلاً شن الأرض بمقدار نصف ذراع، وتزدهر شليها أوراق خضراء تعبه أوراق العنب العريضة، وتتفتح الزهور في شهر أغسطس، ويتم حصاده شن طريق تقليم الأوراق دون قطع العجرة الأصلية [٣٩٢]، وكان ذلك النبات يتأثر بالبرد، ولذلك كانوا في العتاء يغطونه بقماش من الكتان ويروى من ماء البئر في الحديقة. [٣٩٣]

زرشت أيضاً أشجار القطن في مناطق معينة والتي تتوفر فيها مياه الري، وكان طول العجرة يبلغ الركبة للإنسان ويزرع سنوياً وأوراقه تعبه أوراق العنب ولكنها أصغر قليلاً [٣٩٤] وقد شاهد الرحالة كازولا Casola أشجار القطن المزهرة وتم نضجه في ذلك الوقت وحان وقت حصاده [٣٩٥] ويزرع القطن في برمودة (مارس) ويحصد في توت (أغسطس) [٣٩٦].

---

[390] Ibid, p.222.

[391] Frescobaldi , op.cit ,p. 43.

- نبات القسط: هي <جذور الأوكلانديا القسط فالك " كانت فى العصور الوسطى تستخدم فى العلاج وأحيانا كبخزر فى أداء الطقوس وكانت من السلع الشرقية الهامة ومنها نوعين القسط الحلو والمر ويأتى من بلاد السند، أنظر، هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص١١٢-١١٣؛ ويسمى عند ابن البيطار باسم نبات الراسن ومعناه الجناح بلغة أهل الاندلس، أنظر، ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.

[392] Dopp ,Le Egypt ,p.29 -31 ,Ghistele,Voyage en Egypte, p. 74.

[393] Souriano, op.cit, p.195.

[٣٩٤] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٨.

[395] Souriano Treaties on the holy Land, p.223 , Casola, Pilgrimage to Jerusalem ,p.237.

[٣٩٦] المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٦٤.

• [illegible]

تعتبر الصناشة من أهم أشمدة الاقتصاد والمؤثرة شلى حركة التجارة الداخلية والخارجية، وقد انتعرت في الدولة المملوكية صناشات شديدة، مثل صناشة النسيج والأقمعة والملابس، وصناشة الورق والزجاج والطوب، والعسل والسكر والزيوت، والأسلحة والصناشات المعدنية والخعبية المطعمة بالصدف والأحجار الكريمة، والمعغولات الذهبية والفضية وغيرها من الصناشات الأخرى، وقد ساشد شلى تقدم تلك الصناشات وفرة المواد الخام سواء حيوانية أو زراشية وكذلك سهولة استيراد المواد الأخرى غير المتوفرة مثل الخعب والذهب والحديد، كما كان الاستقرار السياسي والاقتصادي شاملاً مهما في نمو الصناشة وازدهار صناشات جديدة، بالإضافة إلى اهتمام السلاطين المماليك بالصناع وبتحسين الإنتاج، وتوفير الأسواق الداخلية والخارجية لتوزيع تلك الصناشات المختلفة.

[illegible] من أهم الصناشات، حيث ازدهرت صناشة الأنسجة المختلفة في مصر والعام، سواء كانت منسوجات حريرية أو قطنية أو صوفية أو كتانية، وقد شاهد بعض الرحالة انتعار تلك الصناشة في مدن شديدة، حيث ذكر أحدهم أن في الإسكندرية والقرى المجاورة لها حرفيين وصناع يعملون النسيج والبسط الرائعة بأشكال مختلفة وأنسجة أخرى ببراشة مدهعة[٣٩٧]. اشتهرت الإسكندرية بتلك الصناشة، وأصبحت أكبر مدينة صناشية في مصر أكثر من مدينتي دمياط وتنيس بسبب تعرضهما لخسائر فادحة أيام الحروب الصليبية فكانت تلك الكارثة الكبرى التي سمحت للإسكندرية بالازدهار في صناشة النسيج ثم موقعها شلى البحر المتوسط ومركزها التجاري الممتاز وتوافر المواد الخام اللازمة للصناشة وأهمها الحرير والصوف والكتان[٣٩٨].

([٣٩٧]) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٤١ ؛ Ludolph , Description of the Holy Land , p. 46.

([٣٩٨]) أحمد محمد عدوان، الوضع الاقتصادي في مصر في عصر الدولة المملوكية الأولي، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٧٢ م، ص ٢٠٦.

رأى الرحالة بورخارد في طرابلس مصانع النسيج التي يعمل فيها نساجون يصنعون الأقمشة الحريرية والكتانية العالية الجودة [399]، وفي دمعق وجد القماش والنسيج شلى تعداد نقوشه وضروبه ورسومه وأنواشه منه، القماش الأطلسي بكل أجناسه وأنواشه، والقماش الهرمزي شلى اختلاف أشكاله وتباين أصوله، والقماش الأبيض المطرز وغيرها من أنواع الأقمعة [400]، فضلاً شن اشتهار مدينة تنيس بوجود مصانع للنسيج، وشمل معظم سكانها بحياكة الملابس، وكان يحاك بها الثياب العروب التي لا يصنع مثلها في البلاد وفيها ثوب يقال له البدنة بلغت قيمته ألف دينار وثوب الكتان بلغ ١٠٠ دينار نقداً [401]، و كانت الثياب العروب تصنع في دمياط أيضًا وبلغت قيمة الثوب الذي ليس فيه ذهب حوالي٣٠٠ دينار [402]، وهناك قرية دييق قرب دمياط، وينسب إليها الثياب الدييقي المطرزة والعمائم العروب الملونة والدييقي المذهب وكانت العمائم المذهبة يبلغ طولها ١٠٠ ذراع وتكلفت حوالي٥٠٠ دينار. [403]، ومن أنواع الأقمعة نجد المنسوجات الكتانية التي تصدر إلى أقطار البلاد، وكان مركز صناشتها في الإسكندرية وهو من النوع الأكثر جودة وتفوقت به الإسكندرية شلى غيرها من المدن شلى اختلاف أجناسه وأنواشه. [404]، أما الأقمعة الحريرية فكانت تصنع من حرير القز قبل تبيضه لئلا يتغير لونه بعد ذلك، وكان الناس يخلطون الحرير العامي مع الحرير البلدي ويبيعونه شلى أنه شامي، ويخلطون

([399]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٥١ ؛ إير لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤٨ ؛ Poloner , Description of the Holy Land ,p. 33.

([400]) البدري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، ص ٣٦٢ ؛ لابيدوس، نفسه، ص ٤٨.

([401]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٢٨٦ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٥٨ ؛ الحميري،محمد بن بعد المنعم الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص ١٣٧.

([402]) الحميري، نفسه، ص ٢٥٧ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص ١٩٣.

([403]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص٣٦٥، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٣٨.

([404]) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ٨٤-٨٥.

القز المصنوع ومنهم من يزيد الحرير بالندا أو الزيت ليزيد وزنه[405]، وقد سميت بعض الأقمشة باسم المكان الذي صنعت فيه مثل قماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط والقماش الدمعقي نسبة إلى دمعق والقماش البعلبكي نسبة إلى بعلبك.

لكن لم تكن الحالة الاقتصادية في الدولة المملوكية حسنة طوال العصر المملوكي فقد كانت الضرائب الفادحة وسياسة الاحتكار والسياسة المالية القاسية، زادت من خطورة الحالة الاقتصادية، وأثرت بعكل واضح شلى صناشة النسيج أيضاً، ففي القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي ذكر التاجر الرحالة بيلوتي الكريتي Piloti de Crete أن الإسكندرية أصبحت خراباً وكان بها ورش شديدة للصناشة ولكن في ذلك الوقت لم تعد المدينة مأهولة بالسكان كسابق شهدها والعمل أصبح محدوداً وقل شدد الصناع بها [406]، أما الرحالة بولونير الألماني Poloner الذى زار العرق شام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م فقد ذكر أن طرابلس كان بها حوالي ١٢ ألف حائك يصنعون الأنسجة الحريرية والصوفية ولكن قل شددهم الآن [407]

ازدهرت الصناشات الزجاجية أيضًا في مدن معينة، مثل الفسطاط والفيوم ودمعق والخليل، حيث وجد بها أفران شديدة لصنع الزجاج بكل أشكاله وألوانه وأنواشه المختلفة ولكنه لم يكن نقياً بل أسود اللون مختلطاً بألوان أخرى [408]، وفي مصر أيضًا اشتهرت صناشة الزجاج منذ شصور قديمة، وقد احتفظت بتفوقها في العصور الإسلامية وخاصة في العصر الفاطمي، وليس أدل شلى ذلك ما هو موجود في دور الآثار من المعكاوات الزجاجية والتحف البلورية والتي تمتاز بجمال أشكالها

---

(405) ابن الأخوة،محمد بن محمد بن احمد القرشي المعروف بابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليوي، القاهرة،ب.ت، ص ١٤١.

(406) Dopp , Le Egypt , p. 36.

(407) Poloner , Description of the Holy Land , p. 33.

(408) Fabri ,The Wandering , vol 2 part 2, p. 411, Frescobaldi ,A visit to the Holy Land , p.67, SeeAlso,Elinor,)M.(,The Ancient Churches of old Jerusalem the evidence of the Pilgrims,London,1961, p.64.

وزخرفتها وألوانها، [٤٠٩] وكانت المادة المستخدمة لصناشة الزجاج هي الرمال التي في السويس والعباسية [٤١٠] ويؤيد ناصر خسرو انتعار مصانع الزجاج في ذلك العصر بقوله: إن البقالين والعطارين كانوا يأخذون شلى شاتقهم إشطاء الزجاج والأواني الخزفية والورق ليوضع فيها ما يبيعونه [٤١١].

لقد اشتنى المماليك بالصناشات الخعبية، واشتمد الصناع شلى الأخعاب المحلية والمستوردة وقد أبدشوا في زخرفة الأخعاب بالرسوم الدقيقة، وقد استخدم الخعب في صنع الأثاث البسيط وتغطية أسقف القصور وإصلاح السفن، وفى صنع المعغولات الخعبية المطعمة بالأحجار الكريمة والصدف والذهب والفضة، وفي مصر كانت الصناشات الخعبية تعتمد شلى أشجار النخيل والدردار وأشجار الجميز وغيره، لأنه كان لا يوجد في مصر سوي تلك الأخعاب وكانت تستورد الأخعاب من أوربا [٤١٢]، أما بلاد العام فقد كانت تعتمد شلى أشجار الأرز والزيتون، وقد شرفت في بيت المقدس صناشات خعبية خفيفة، والتي ارتبطت بموسم الحج المسيحي، حيث تدفقت أشداد كبيرة من الحجاج الغربيين شلى المدينة، وهي صناشة الحفر شلى خعب الزيتون، وكان لدى أبناء القدس مهارة كبيرة في تلك الصناشة، حيث أتقنوها شلى مر الزمان فكانوا يحفرون شلى خعب الزيتون أشكالاً متنوشة بإتقان شجيب، وصنعوا منه أدوات الكتابة ولعب الأطفال وأدوات الزينة والهدايا ذات المعني الديني، والتي كانت تجذب نظر الحجاج المسيحيين الغربيين، وكانت تلقى رواجاً في العراء، ومن المرجح أنه قد تخصص في صناشتها المسيحيون المحليون من الطوائف المختلفة والمقيمة في بيت المقدس[٤١٣].

---

(٤٠٩) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٩٥ ؛ أمينة الشوربجي، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، الهيئة العامة، ١٩٩٤، ص ٢٥٥- ٢٥٩.

(٤١٠) أحمد محمد عدوان، الوضع الاقتصادي في مصر، ص ٢١٠.

(٤١١) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١٢٠.

(412) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 60.

(٤١٣) علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط ١،

تركزت صناشة السكر والعسل المستخرج من القصب في مدن شديدة في مصر والعام، ففي مصر وجدت مصانع للسكر في الإسكندرية وما حولها، وفي منطقة الدلتا وسمنود وقوص ودمياط والفسطاط، وفي العام وجدت المصانع في بيت المقدس والرملة وصور وإنطاكية وطرابلس وشكا. أما شن تصنيع السكر والعسل من نبات القصب، فكان يوجد مكان كبير المساحة يسمى مسبكاً أو معصرةً أو محجراً، وفيه يتم جمع محصول القصب الحلو المذاق من أسفل، ثم يقطع إلى قطع صغيرة طول الإصبع أو أقل، ثم يوضع في إناء حجري متسع حيث، تقوم صخرة كبيرة الحجم بطحن القصب بواسطة الثيران التي تقوم بإدارة الحجر لطحن القصب المقطع، ثم يفرغونها في غلاية كبيرة تسع تسعة أو شعرة براميل، ثم يعلون النيران أسفل الغلاية، وشندما يصل القصب المطحون إلى درجة الغليان يزيلون أشلاه، حيث يضعونه في براميل وذلك يسمى شسل السكر، وما يتبقى في أسفل الغلاية يصبونه في أنابيب يتركونه يبرد ويصنع منه سكر قوالب.[414] وأحيانا يستخدم أهل العام طواحين الماء في شصر السكر [415].

وشكلت صناشة الخمور مصدراً هاماً من مصادر الدخل للخزينة السلطانية، وقد تركزت صناشة الخمر في مصر في مدينة الإسكندرية، إذ كانت سبباً في انتعاشها اقتصاديا وكان كلّ من المصريين والأجانب يعملون بتلك الصناشة حيث استفادت الحكومة من الضرائب المفروضة شليها، والتي قدرت بحوالي ٤٠ ألف دينار لذلك فشز الأمير آل ملك في القضاء شلى تلك الصناشة في الإسكندرية، بينما نجح في القاهرة، وقيل إنه إذا منع الأجانب من حمل الخمر إلى الإسكندرية فإنه سيكون سبباً

١٩٨٦ م، ص ٩٩.

(٤١٤) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٨.

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 199 , See Also, Thompson ,Economic and Social of the Middle ages)300 – 1300(, vol 1 , London , 1959,p. 359.

(415)(Theoderich ,Guide to the Holy Land ,trans by,Aburey Stewart ,2 ed ,New york,1968, p. 64.

في فساد وتدهور الوضع الاقتصادي فيها[416]، ومن المناطق المعهورة أيضًا منية الأمراء وكان غالبية سكانها من النصارى، وشرف في ذلك الوقت بصناشة الخمر وبيعه، وفي شام ٧١٨ هـ / ١٣١٧ م زاد فيضان النيل وأتلف ما يزيد شن ١٨٠ ألف جرة من الخمور، وفي شام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م كسر الأمير يلبغا السالمي ما يزيد شن ٤٠ ألف جرة خمور[417]، يضاف إلى ذلك منطقة خزانة البنود فقد جلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون إليها الكثير من الأسرى الأرمن وكانوا يعصرون الخمور بكثرة في مساكنهم وبلغ مقدار ما يعصرونه من الخمر في كل شام حوالي ٣٢ ألف جرة ويباع في اليوم الواحد نحو ١٢ رطلًا[418].

ووجدت صناشة الخمور في بلاد العام بكثرة، وذلك لأن النبيذ دخل في العغائر الدينية، فاهتم المسيحيون بزراشة الكروم)العنب(حتى شندما استولى الصليبيون شلى بلاد العام توسعوا في زراشة الكروم فضلا شن شدة خصوبة المنطقة الساحلية العامية والتي ساهمت بعكل كبير في تحسين الإنتاج وجودته وكثرته، وخاصة في المناطق التي يزرع بها الكروم، ويعيش فيها أشدادًا كبيرة من المسيحيين

---

[416](المقريزي، السلوك، ج ٢ ق ٣، ص ٦٤٦ – ٦٤٧.
- **الأمير آل ملك**: اصله من الإبلستين فى بلاد الروم ووقع أسيراً ولى يد الظاهر بيبرس ووهبه للمنصور قلاوون وترقى فى الخدمة وكان من أهل المشورة أيام الناصر محمد بن قلاوون وتولى نيابة حماة ثم نيابة مصر وشدد على من يشرب الخمر وكان مهاباً ثم تولى نيابة دمشق ثم صفد وغزة وجهز إلى الإسكندرية فاعتقل بها وأعدم فى اواخر عام ٧٤٦هـ. أنظر، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٤٠-٢٤١.
[417](المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٢١١.
- **منية الأمراء**: تسمى منية الشيرج أو السيرج أو الامراء وهى بليدة فيها أسواق على بعد فرسخ من القاهرة في طريق الإسكندرية، أنظر، المقريزي، نفسه.
[418](المقريزي، السلوك، ج ٢ ق٣، ص ٦٤٠ – ٦٤١ ؛ الخطط، ج ٢٨٠ -٢٨١.
- خزانة البنود: بناها الخليفة الفاطمي الظافر لتخزين الرايات والأسلحة، ثم احترقت عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م، ثم أصبحت سكنًا للأمراء وكبار رجال الدولة، انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٧٨ ؛ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، ج ٢، تحقيق محمد حلمي، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ٢٨٣ ؛ القرماني، أحمد بن يوسف القرماني، أخبار البلاد وآثار الدول في التاريخ، ج٢، تحقيق، أحمد حطيط، فهمي سعد، بيروت، ١٩٩٢ م، ص ٢٧٦.

مثل الرملة الفلسطينية وبيت لحم وبيت إيل، حيث يزرشون مساحات كثيرة من الروم، ويعصرونه.. في براميل بكميات كبيرة (٤١٩).

كان الخمر يصنع كالآتي بأن يلقى العنب في حوض واسع كبير له فتحة يخرج منها العصير إلى حوض أصغر، ويقوم العمال بهرس العنب بالأيدي، وكان العصير الذي يخرج منه يسمى السلاق، و يترك العصير في جرار يغلي فإذا غلى واشتد الغليان، يوضع شليه الزبد ويرفع من شلى النار فيصبح خمراً(٤٢٠).

أما صناشة الزيوت فكانت ذات أهمية، حيث كان الزيت يستخدم بكميات كبيرة في الإضاءة والطعام في العصر الوسيط، وكانت المعاصر تزيد من إنتاجها من الزيت في المواسم والأشياد. وكانت أهم الزيوت في العصر المملوكي شلى حسب الأفضلية، هو زيت الزيتون الذي وجد في مصر في منطقة الفيوم فقط(٤٢١)، وكان زيت الزيتون ينتج بكثرة في بيت المقدس وخصص له سوقٌ سمى سوق الزيت وقد ظلت القدس سوقاً رئيسيًا لعصر زيت الزيتون طوال العصر المملوكي (٤٢٢) كذلك صنع الزيت من بذرة القطن والذرة واستخدم في الطعام، وكذلك زيت السمسم (زيت السيرج)، و زيت بذرة الكتان(٤٢٣).

كان لزيت أو دهان البلسم (البلسان) أهمية كبيرة شند النصارى، لأنه يدخل في شملية التعميد والتنصير، حيث كان لزاما شليهم وضع جزء منه في ماء المعمودية، كما يستخدم في شلاج الجروح والمرضي، ونظرا لذلك كان السلطان يحضر وقت حصاده وشصره، وتحمل العصارة إلي الخزانة السلطانية، ثم تنقل إلي قلاع العام والمارستانات لمعالجة المرضي، ولا يؤخذ منه شيءٌ إلا بعد أخذ مرسوم

---

(٤١٩) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٥٦ ؛
Ludolph , Description of the Holy Land, p. 65 , Wright , Early Travelers, p. 164 , Langnon ,Le Saint Voyage , p. 41.

(٤٢٠) النويري، نهاية الإرب، ج ٤، ص ٨٢ – ٨٧.

(٤٢١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٠٨.

(422) Lutfi ,(H.), Al Quds al Mamlukiyya , Berlin , 1985 , p. 285.

(423) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 39 , 223.

بذلك، ويهدي أيضًا إلي ملوك النصارى من الأحباش واللاتين والفرنج ويسمونه زيت الميرون)[٤٢٤](، وشندما انقطعت زراشته في مصر في أوائل القرن العاشر الهجري شام ٩٠٥ هـ - ١٤٩٩م بسبب إتلاف أشجاره نتيجة الحروب بين الطوائف المملوكية شقب وفاة السلطان قايتباي كما ذكر الرحالة فون هارف.Von Harff)[٤٢٥](، فقام السلطان الغوري بالبحث شنه فأحضروا له نبات البلسان البري من الحجاز وتمت زراشته في المطرية وروي بماء البئر المقدسة فازدهرت العجرة وشادت الحديقة كما كانت)[٤٢٦](.

كان البستاني شندما ينضج النبات يقوم بتقليم العجرة وإحداث شقوق في اللحاء، ويتم ربط تلك العقوق بالقماش، أو يوضع قطعة من القطن لتمتص الزيت، ثم يوضع في أواني خاصة فخارية أو زجاجية، ويفعلون ذلك ثلاث مرات)[٤٢٧](، ولا يكتفي البستاني بذلك، بل يقوم بأخذ الفروع وأوراق الأشجار وتغلي في الماء ويذوب كل ما بها من بلسم مثل الدهن، ويطفو شلي سطح الماء، ثم يجمع بالمعلقة، ثم يوضع في وشاء ويترك حتي يتماسك لبعض الوقت)[٤٢٨](وبذلك يمكن الاستفادة من العجرة باستغلال الأوراق والفروع واللحاء.

وقد أمكن معرفة البلسم الجيد شن طريق وضع نقطة منه في كوب ماء فتذوب بسهولة وتستقر في القاع، وإذا تم تحريك الكوب يصعد البلسم شلي السطح، أو يوضع في اليد فينساب بسهولة شند فركه)[٤٢٩](، ويمكن التأكد من نقائه وصفائه إذا كان لونه أصفر، فإذا كان أحمر اللون، وسميكاً كان غير نقي، وإذا أخذ منه قطرة ووضعت في

)[٤٢٤](المقريزي، الخطط، ج٠، ص ٣٧٢ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٢٨– ١٢٩ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٩.

)[425](Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 109.

)[٤٢٦](ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٤٩.

)[427](Ludolph , Description of the Holy land ,p. 69, Dopp ,Le Egypt , p.29 - 30 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff. 127, Frescobaldi , A visit to The Holy Land ,p. 54 , 107.

)[٤٢٨](بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٠ ؛ Ludolph,op.cit,p. 69.

)[429](Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 55.

الشمس فإذا كان جيدا ونقياً سنعغر بحرارة شديدة ولن نستطيع وضع أيدينا شليه، أو نضع قطرة منه شلي سكين ونقربها من النار فإذا احترق يكون من النوع الجيد، أو نضع قطرة منه في كوب لبن ماشز ونحرك الكوب بسرشة فلو كان نقيًا سوف يتحول اللبن إلي لبن رايب في الحال [430]، واللون الطبيعي للبلسم شند شصره هو لون النبيذ وشندما يتعرض للغلي يصبح لونه أحمر داكناً [431].

[illegible] وكانت توجد بالقاهرة حوالي ٤٠.٠٠٠ طاحونة لطحن القمح وكلها تعمل بواسطة الحيوانات التي تحرك الطواحين وكذلك في بيت المقدس[432]، التي كانت إذا فاض بئر أيوب وقت العتاء تدور شليه طواحين مائية لحطن الحبوب[433]، وكانت الطواحين في العصر المملوكي إما طواحين سلطانية أو طواحين شامة يمتلكها بعض الأفراد، وكانت الطريقة المستخدمة في طحن الغلال بسيطة، حيث تستخدم في تلك العملية قِطَعٌ من أشمدة الجرانيت وهي مدورة يحركها حصان أو ثور [434]، وذكر القلقعندي أن الطواحين كانت معلقة ومدارتها أسفل وطواحينها فوق كما في السواقي، بحيث لا يقارب الدقيق ذيل الدواب[435]، وفي المطحن يقوم الطحان بغربلة الغلة من التراب وتنقيتها من الطين وتنظيفها من الغبار قبل طحنها ثم يرش قليلاً من الماء ليجعل الدقيق أكثر بياضا[436].

أ - [illegible]قد اهتمت بها الدولة المملوكية كثيرا لأنها كانت دولة حربية شسكرية منذ نعأتها وقيامها، ذلك فضلا شن أن المماليك أنفسهم كانوا يمثلون

[430](Schiltberger ,The bondage and Travel of Johan , p. 62.
[431](Ludolph Description of the Holy land, , p. 69.
[432](Souriano, Treaties on the holy Land ,p. 191 , See Also , Graham ,)P.(, Top graphical dictionary of Palestine , or the holy land , London , 1836 , p. 392.
[٤٣٣](الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٧.
[٤٣٤](جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة ايمن فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٨٨ م، ص ٥٣.
[٤٣٥](القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٦.
[٤٣٦](ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٨٩.

حلقة شسكرية ممتازة، فتدربوا شلى الفروسية وفنون القتال والحرب، ولذلك كانت الصناشات الحربية تحتل مكاناً هاماً وبارزاً في النعاط الصناشي للدولة، كما حظيت بقسط وافر من اهتمام السلاطين المماليك. وفي مصر وُجِد سوق السلاح لبيع القسي والنعاب وكل آلات السلاح، وكما وُجِد فيما بين المدرسة الظاهرية وبين قصر الأمير بعتاك وهناك أسواق أخرى متصلة بالأسلحة مثل سوق المهامزين التي يستخدم في ركوب الخيل وسوق اللجميين لصنع اللجم والسروج[٤٣٧].

كانت الأسلحة تصنع في دمعق وتميزت بدقة الصنع، وكذلك يصنعون الآلات الحادة، مثل السكاكين حيث تصنع باستخدام قطعة من الخعب مصقولة بالحديد ويقومون بتلميع النصل صعوداً وهبوطاً لجعله حاداً قوياً[٤٣٨]، وذلك الأمر يوضح أن صناشة السيوف والأسلحة قد ظلت باقية في دمعق حتى بعد انتهاء الحروب مع تيمورلنك، كما كثرت صناشتها في الإسكندرية والثغور.

وه[illegible] شمل المخللات، حيث صنع السكان في مصر والعام أيضًا المخللات من الليمون والتفاح بكميات كبيرة[٤٣٩] في أوشية كبيرة ومعها بعض الثمار المخللة وكانوا يصنعون كل يوم ١٥٠برميلاً[٤٤٠]، وكذلك صناشة الطوب، فكان العمال يقومون بعمل لبنات من الطين المخلوط بالتبن، ويتم تجفيفه بعد ذلك في العمس ثم يستخدم في البناء[٤٤١]، و صناشة ماء الورد والتي صنع منه كميات كبيرة وصلت إلى آلاف البراميل كل شام من جميع أنواع الزهور[٤٤٢]، وكذلك صناشة الأحذية والمصنوشات الذهبية[٤٤٣]، وصناشة الفاكهة المجففة وحفظها

---

[٤٣٧] المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٧ ـ ١٥٩.

[438] Wright , Early Travelers , p. 304.

[٤٣٩] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٦٩.

[440] Dopp , Le Egypte , p.37.

[441] Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 51.

[442] Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 182.

[443] Adler , Jewish Travelers , p. 238.

بطريقة جيدة (٤٤٤)،كما صنع من مخلفات البلح طعام للحيوانات، أما أوراقه فقد صنع منها السلال، واللحاء صنع منه الحبال والخيوط، والفروع صنع منها أشياء أخرى، ومن الجذع صنعت العوارض الخعبية من أجل سقف المنازل (٤٤٥).

- التجارة)التجارة الداخلية(:

تعد التجارة سواء كانت داخلية أو خارجية مصدرا أساسيا من مصادر الاقتصاد الهامة في الدولة، فحركة البيع والعراء تمثل القوى المحركة للدولة، وكلما زاد حجم التبادل التجاري داخلياً وخارجياً ساشد ذلك شلى نمو الدولة وازدهارها، ودل ذلك شلى رخائها وتحسين أوضاع شعبها المادية والثقافية والاجتماشية، وكان السبب الرئيسي في رخاء الدولة المملوكية هو امتلاكها طرقاً برية شديدة غير الطرق البحرية، فإليها جاء التجار من ساحل الهند، وأتوا بعتى أنواع البضائع والسلع القيمة شالية الجودة وشكل هؤلاء أكبر حركة نقل وتجارة وكان لابد أن يعرضوا بضاشتهم أمام السلطان فحوالي نصف البضاشة التي جلبها التجار كانت تذهب إلى السلطان وأشوانه. (٤٤٦)

و- C# [illegible] كان الطريق الأول وهو طريق الطور- بولاق، حيث تصل السفن التجارية الهندية إلى البحر الأحمر شند ميناء شدن، ثم إلى ميناء الطور في جنوب سيناء، وتتقل فيما بعد السلع والبضائع شلى ظهور الجمال والبغال في الصحراء إلى ميناء بولاق بالقاهرة، وقد شاهد بعض الرحالة شند سفرهم إلى دير سانت كاترين القوافل التجارية، حيث سافروا معهم متجهين جميعاً إلى البحر الأحمر، وتلك القوافل كانت تسافر كل فترة إلى ميناء الطور لتحمل البضائع والتوابل الآتية من الهند. (٤٤٧)، ثم تنقل تلك السلع والبضائع إلى أسواق القاهرة، وتصعد في فرشي رشيد

---

(٤٤٤) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٧.

(445) Souriano , Treaties on the holy Land ,pp. 222 – 223.

(446) Dopp , Le Egypte , pp. 7-8.

(٤٤٧) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٨ ؛

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff ,p. 36 , Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2 , pp. 642 -643.

ودمياط إلى الموانئ الرئيسية والأسواق الهامة شلى ساحل البحر المتوسط، ومنها إلى موانئ العام وأوربا[٤٤٨]، أو تنقل إلى تنيس شن طريق خليج يخرج من فرع دمياط، ويصب في المنزلة، وقد ازدهر ذلك الطريق شلى حساب شيذاب – قوص بعد زوال الخطر الصليبي[٤٤٩].

أما الطريق الثاني، فكان يبدأ شند ميناء شيذاب شلي البحر الأحمر إلى ميناء قوص شلى النيل، و تنقل الجمال والبغال السلع والبضائع أيضاً شبر الصحراء العرقية إلى النيل، واستغرقت الرحلة ٩ أيام، ومن شيذاب إلى بولاق و القاهرة ١٥ يوماً، وفي شهر تعرين الأول)أكتوبر(كان النهر يفيض فتسير المراكب في الضفة اليمني، ثم تنقز أيضاً السلع إلى الإسكندرية. [٤٥٠]، وقد قل استخدام طريق شيذاب – قوص – بولاق – في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي، بسبب طوله وكثرة تكاليفه، وإن كانت موانيه مفتوحة طوال العام لأنه أقل خطورة من الطرق الأخرى[٤٥١].

والطريق الثالث، من البحر الأحمر ويتجه براً إلى مكة ثم إلى الطور ثم إلى بولاق أو إلى دمعق، حيث تصل السلع العرقية إلى البحر الأحمر شند ميناء شدن، ثم تنقل براً بمحاذاة الساحل إلى مكة المكرمة، حيث اجتمع الحجاج والتجار المسلمون من حلب ودمعق وسوريا والقاهرة وتركيا، فكان بعضهم يؤدي فريضة الحج، والبعض الأخر يؤدي أشمالاً تجارية بعراء التوابل والفلفل، ثم تنقل إلى ميناء الطور ومنه إلى القاهرة والإسكندرية. [٤٥٢]، وهناك طريق آخر من مكة إلى المدينة المنورة فإلى

)448(Frescobaldi , A Visit to the Holy Land , p. 64, 109 , Ludolph , Description of the Holy land p. 84 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud op.cit ,pp. 57 , 63.

)٤٤٩(إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦ م، ص ٦٠.

)٤٥٠(مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠١- ١٠٢ ؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٢٧.

)٤٥١(إبراهيم حسن، البحرية، ص ٦١.

)452(Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2 , p. 642 -643 , Dopp , Le Egypte , pp. 44 – 47 .

دمعق وحلب وحمص ويتفرع إلى الموانئ والثغور العامية مثل طرابلس وبيروت وشكا ثم إلى أوربا[٤٥٣].

قامت السلطات المملوكية بحماية الطرق الداخلية وصيانتها، وخاصة طريق البحر الأحمر، وتأمين وصول البضائع والسلع العرقية من البحر الأحمر إلى القاهرة، ثم نقلها إلى موانئ البحر الأحمر خاصة بعد تدهور الطرق التجارية البرية في وسط آسيا بسبب الغزو المغولي لآسيا، فأصبح طريق البحر الأحمر الأكثر أهمية وأماناً[٤٥٤]، ولذلك شمل السلاطين المماليك شلى حمايته، والضرب شلى أيدي العابثين والمعتدين شلى القوافل التجارية والمسافرين، وفرض السيطرة المملوكية شلى الطريق[٤٥٥]، هكذا تميز ذلك الطريق بالأمان فهو بعيد شن ميادين الحروب بآسيا، وكانت الملاحة فيه قاصرة شلى السفن الإسلامية، وكذلك تميز برخص تكاليف النقل به مما أدي إلى أن تكون أسعار السلع أرخص من مثيلاتها التي تنقل إلى بلاد العام، ولذلك حرصت السلطات المملوكية شلى حماية الطرق التجارية الداخلية من اللصوص وقطاع الطرق ومن الهجمات التي شنها بعض حكام وملوك الدول الأفريقية.

ولا يفوتنا هنا أن نتناول وسائل النقل الداخلية، والتي لم يهملها الرحالة الأوربيون في نصوصهم و اتضح مما ذكروه أن هناك وسيلتين للنقل إحداهما برية والأخرى مائية، فالبرية كانت الدواب، مثل الحمير والبغال والجمال، ففي المدن كانت توجد مواقف خاصة بحمير الأجرة وشرف أصحابها باسم المكارية، ففي القاهرة أحصى الرحالة الراهب الأب سوريانوSouriano أشداد البغال حوالي ٤٠.٠٠٠ بغز لحمل الناس والبضائع من مكان لآخر[٤٥٦].

([453]) Dopp , Le Egypte, pp. 44 – 47,Wright ,op.cit ,p. 302.

([٤٥٤]) نعيم زكي، طرق التجارة ومحطاتها الدولية، القاهرة، ١٩٧٣ م، ص ١٢٥ ؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٩٨.

([٤٥٥]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٥٠، ٦٠٨، ٦٨١ ؛ ج١ ق٣، ص ٧٠٠ ؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٨٠ ؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، ج ٧، تحقيق قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٣٦ م، ص ٤٥.

([456]) Souriano ,Treaties on the holy Land ,p. 191.

أما نيكولو Nicolo فقد أحصاهم حوالي٦٠.٠٠٠ حمار وبغل استخدموا في التنقل في شوارع المدينة والتجول فيها. (٤٥٧) وشندما كان المسافر يصل إلى مدخل المدينة، يجد جماشة من المكارية في انتظاره ومعهم شدد كبير من الحمير والبغال يؤجرونها للمسافرين مقابل ٢ دوكة ذهبية (٤٥٨)، وقد حاول الرحالة لابروكيير la broquiere شراء بغل من المكاري في غزة بمبلغ ٢ دوكة ذهبية ولكنه رفض بيعه فاضطر الرحالة لتأجير البغل بمبلغ ٥ دوكات ذهبية مقابل نقلة إلى دير سانت كاترين(٤٥٩).

وقد اهتم المكارية بتجهيز وإشداد البغال والحمير، حيث زينت بالسروج الجميلة المزخرفة الجيدة الصنع وبالبرادع القيمة وشليها زخارف، حيث رأي أحد الرحالة بردشة حمار غالية الثمن قدرت بحوالي ٢٠٠٠ دوكة ذهبية لأنها كانت مصنوشة من أجود أنواع الأقمعة والجلود ومرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة والذهب من الأمام (٤٦٠)، كذلك رأي بيرو طافور Pero tafour حميراً شديدة شندما نزل القاهرة وكانت معدة ومجهزة جيداً بالبرادع واللجم والسروج وهي سريعة جداً (٤٦١).

أما الوسيلة الأخرى فكانت القوارب والمراكب العراشية، وهي وسيلة هامة في الربط بين البلاد، وخاصة في مصر حيث كان نهر النيل يمتلئ بالقوارب الصغيرة والكبيرة لنقل الناس والأمتعة والسلع، فكان وسيلة طبيعية لا مثيل لها في الربط بين شمال مصر وجنوبها وقد شبر أحد الرحالة المسلمين شن مراكب النيل آنذاك بقوله: ليس في الدنيا نهر تجري فيه السفن أكثر من نيل مصر(٤٦٢)، ويؤيده في ذلك ابن

---

(457) Nicolo ,A voyage Beyond the seas , pp. 88 – 89.

(٤٥٨) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٢.

(459) Wright , Early Travelers, p. 279.

(460) Souriano, Treaties on the holy Land ,p. 191 , Adler , Jewish Travelers, p. 159.

(٤٦١) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٤.

(٤٦٢) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة، تحقيق مصطفي السقا، كامل المهندس، دار الكتب المصرية، ١٩٦٩ م، ١٣٦.

بطوطة الذي أحصى شدد القوارب في نهر النيل بحوالي ٦٣ ألف مركب للسلطان والرشية تمر صاشدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات [٤٦٣]، أما البلوى المغربي فقد أحصاها بحوالي ١٠٠ ألف مركب ما شدا زوارق الصيد الصغيرة وزوارق الركوب [٤٦٤].

لم يكن مجرى نهر النيل وحده هو طريق المواصلات والسفر بين أنحاء البلاد بز كانت القنوات والترع الخارجية من النيل تقوم بنفس الدور، حيث ركب الرحالة فريسكو بالدي وأصدقاؤه من الإسكندرية إلى القاهرة في مركب بثلاثة صواري شبر قناة فوه [٤٦٥]، كما أجر الرحالة اليهودي معيولم meshullom مركب للسفر من الإسكندرية إلى القاهرة، وكانت تخص أحد الأمراء المماليك ودفع أجرة المركب حوالي ٣٠ ماجوري majori، ثم طلب منه شعر دوكات أخرى، ولكن المسافرين ساوموه شلى المبلغ حتى وصل إلى ١٠ ماجوري فقط [٤٦٦].

يمكن وصف تلك المراكب النهرية من خلال ما ذكره الرحالة بيرو طافورPero tafour أنها مراكب طويلة طول الأغربة الكبيرة ومجهزة بالحجرات التي تمتد من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر حيث يستطيع المرء الإقامة، ولها صنادل منبسطة لتستطيع السير في المياه الضحلة، وتحمل الكثير من الحمولة ومجهزة بقلع طويل يبلغ طول العواني، ولكنه قلع ضيق مثلث العكل يعبه قلع الغراب، ورغم أنها تسير بالأشرشة والمجاديف، إلا أنها في بعض الأحيان وقت فيضان النهر لا تستطيع التقدم ياردة واحدة للأمام إلا إذا تجنبت التيار أو إذا وقف الرجال شلى العاطئ ليجذبوها بالحبال الطويلة، وشليها ثلاث طبول واحدة في مؤخرتها والثانية في مقدمتها والثالثة في وسطها، لإخافة التماسيح وإبعادها شن طريق المركب[٤٦٧] وهكذا كانت

([٤٦٣]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٤٠ - ٤١.

([٤٦٤]) البلوى، تاج المفرق، ص ٢١٨.

([465]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places, p. 42.

([466]) 165 , Adler ,Jewish Travelles.

- الماجورى: لم تتوصل الباحثة إلى تعريف هذه العملة.

([٤٦٧]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٣ ؛ وبذلك تشبه الذهبية التي كانت مخصصة لنقل

ضفة النيل والترع والقنوات تغطى بعرات القوارب والمراكب التي كان الناس يركبونها إما للنزهة أو معاهدة الاحتفالات في أيام الأشياد والمناسبات أو للسفر والتنقل من مكان لآخر.

- الأســـواق:

كانت الأسواق شبارة شن مجموشة من العوارع الطويلة المتوازية تقفز مداخلها بأبواب تفصلها شن بعضها، كما كانت مسقوفة بالقباب أو الأسقف الأخرى من الخعب أو الحصير أو الأقمعة، لتحمي المارة وأهل السوق من حرارة العمس والأمطار وتتخللها نوافذ أو فتحات صغيرة لينفذ منها الضوء للسوق(٤٦٨)، وشلى جانبي السوق وجدت دكاكين مليئة بالضائع والسلع التي يقبل شليها الناس، كما كانت تستخدم تلك الدكاكين في شمليات المبادلات التجارية وأشمال البيع والعراء كما أنها استخدمت كمحلات للعمل والصناشة أو ما يسمى بالورش حيث وجد بها أماكن للغزالين والدباغين والصاغة ووجد بداخل الأسواق محلات لصانعي الأحذية أو الخياطين الذين يخيطون الملابس ويبيعونها جاهزة للناس (٤٦٩).

ويمكن تصنيف الأسواق إلى شدة أصناف: أهمها أسواق المواد الغذائية والأطعمة، حيث اشتاد الناس شراء الأطعمة الجاهزة من السوق ونادراً ما صنعوا الطعام في المنزل، كما أن الحجاج والمسافرين لم يكن لديهم الإمكانيات أو الوقت اللازم لصنع الطعام، ولذلك كان يفضل شراء المطاشم من الأسواق المتخصصة،

المسافرين في النيل وليس بها طوابق بل في مؤخرتها عدة غرف تتسع لعشرة أفراد أما قلعها مثلث ويمتد بطول الصاري، انظر، إبراهيم حسن، البحرية، ص ١١٠.

- الأغربة: نوع من السفن الحربية يركب فيها المقاتلون والجدافون، انظر، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٥٨ ؛ وسميت بذلك الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التي علي شكل غراب وتسير بالقلع أو بالمجاديف التي يبلغ عددها مائة وثمانين أو أقل، انظر، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج١، ط٢، الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م، ص ١٩٢.

(468) Casola , Pilgrimage to Jerusalem ,p. 251,See Also, Prescott , Jerusalem Journey Pilgrimage to the holy land in 15 century ,London ,1954,p.164, Wolff , How Many Miles ,p. 82.

(469) Prescott , Jerusalem Journey Pilgrimage , p. 175.

حيث وجد في القاهرة أسواق شديدة للطعام وبها مطابخ كثيرة يعمل فيها ما يقرب من ١٢.٠٠٠ طاهي وغالبيتهم يطوفون في المدينة يحملون شلى رؤوسهم المواقد المعتعلة وأواني بها مياه تغلي ولحوم تعوى شلى السيخ [٤٧٠]، أما فون هارف فقد ذكر أنه كان بالقاهرة حوالي ٢٤.٠٠٠ مطبخ و٤٨.٠٠٠ مخبز والعديد من الأفران لصنع الخبز الساخن وشدد من المطاشم الأخرى [٤٧١]، أما الخبز في بيت المقدس فكان يصنع في المنازل وكذلك الفطير يصنع بدون خميرة ولذا كان يعد أفضل أنواع الخبز ولا يوجد سواه في المدينة [٤٧٢]، كذلك وجد في القدس سوق الطباخين، والذي تم تعميره شام ٨٧٨ هـ - ١٤٧٣ م ببناء القناطر المعقودة شلى الحوانيت وكان قبل ذلك تسقف الجوانب بالقواصر وتسبب الضرر في العتاء لسقوط الماء من ظهر سعف النجيل [٤٧٣]، وكان في دمعق أسواق للأطعمة الجيدة المطبوخة بعكل فاخر وقد كانوا يعتنون كثيراً بتلك الأطعمة [٤٧٤]،كما وجدت الأسواق المتعددة الأذعطة مثلما وجد في رامه حيث هناك شارشان يسميان سوق الطعام شلى أحد جوانبهما تباع كل أنواع الأطعمة المطبوخة والنيئة والجانب الأخر تباع فيه البضائع والسلع الأخرى[٤٧٥].

كان سوق الزيت من أهم أسواق المواد الغذائية أيضًا حيث كان يباع فيه زيت الزيتون وبه المصابن أيضاً التي يصنع منها الصابون، وكان سوقاً كبيرةً جداً وهامةً بسبب وجود أصحاب المصابن الذين يعترون الزيت بكميات كبيرة، أما مصدر الزيت فكان من الجبال والسهول القريبة من بيت المقدس ومن جبل نابلس [٤٧٦]، كذلك كان هناك سوق لبيع مواد غذائية أخرى، مثل البطيخ والخيار والقرع العسلي والبقول

---

[470] Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard ,p. 60 , Langnon.Le Saint Voyage , p. 60, Frescobaldi , A visit to the holy places , p. 49.

[471] Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 109.

[472] Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 251.

[٤٧٣] الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٠٤.

[474] Ludolph , Description of the Holy land , p. 130.

[475] Casola ,op.cit , p. 240.

[٤٧٦] الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٣- ٥٤، Ibid, p. 251.

(٤٧٧)، وفى مصر وجد في بولاق سوق للغلال تخصص في بيع الغلال والمحاصيل الزراشية، وتوافد شليه الكثير من السكان المحليين والأجانب (٤٧٨) لعراء الغلال ونقلها إلى أسواق المدن الأخرى حيث كانت بولاق مركزاً لتجميع البضائع والسلع والميناء الرئيسي لمدينة القاهرة. أما سوق الطيور فكان أكبر حجماً مما في بلاد أوربا ويبيع فيه التجار كل أنواع الطيور بأحجامها وأشكالها المختلفة، ويقوم الفرارجي أيضاً بذبحها وتنظيفها للمعتري (٤٧٩).

لاحظ الرحالة جستيل Ghistele قرب مدينة القاهرة شارشين مبلطين و غاية في الجمال والروشة، أطلق شليهما سوق، وكان يمر فيهما شدد كبير من الناس حتى إنه يتعذر فيه السير في بعض أوقات النهار، كما وجد أن الأبنية في ذلك العارع تعبه المقاهي الصغيرة أو محلات الغذاء، ويباع فيها الخبز واللحوم والأسماك وكل أنواع الفاكهة اللذيذة والعصائر (٤٨٠)، أما سوق السمك فوجد في المدن الساحلية مثل مدينة تنيس حيث توافرت فيه كميات كبيرة من الأسماك وأنواع شديدة وبأسعار رخيصة(٤٨١).

بالإضافة إلى أسواق تخصصت في بيع السلع العرقية الواردة من الهند وشرق آسيا لاسيما العطور والتوابل، والحرائر والأقمعة التيلية والأحجار الكريمة وخعب الصندل والقرنفل والبورسلين والحيوانات النادرة، وهي سلع غالية الثمن والقيمة ينم توزيعها في مختلف أنحاء العالم، ولذلك كان يوجد سوق واحد رئيسي في كل شاصمة كبيرة مثل القاهرة ودمعق(٤٨٢).

كذلك وجد سوق للأقمعة الكتانية والقطنية والحريرية والملابس الجاهزة، مثز

---

(477) Souriano , Description of the Holy land ,p. 191.

(٤٧٨) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٤.

(479) Frescobaldi , A visit to the holy places , p. 162.

(480) Ghistele , Voyage en Egypte ,p. 19 .

(481) Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 84.

(٤٨٢) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٩٧ ؛ Adler , Jewish Travelers , p. 129 , Frescobaldi , A visit to the holy place , p. 46 , See Also , Wolff , How Many miles?, p. 82.

الخلع والطواقي والأغطية والمفروشات والأمعاط والأواني الجلدية والسيوف الجيدة والسكاكين الحادة، وذلك السوق كان يسمى السوق الكبير)٤٨٣(، وسوق آخر رئيسي وجد به الصيارفة والصائغين وبائعي المجوهرات والحلي)٤٨٤(.

تميزت مدينة القدس شن غيرها بسوق واحدة أيضاً ذات أنعطة متعددة حيث أشار أحد الرحالة إلى وجود أسواق ثلاثة متجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل)٤٨٥(فالأول منها هو الغربي سمي سوق العطارين، وكان وقف السلطان صلاح الدين الأيوبي شلى مدرسته الصلاحية، والذي يليه هو الأوسط لبيع الخضروات و الذي يليه لجهة العرق لبيع القماش وكان وقفاً شلى مصالح المسجد الأقصى ، وذكر المسافرون أنهم لم يرو مثل تلك الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء في بلدة من البلدان)٤٨٦(.

وجدت أسواق للعبيد في العام ومصر ولكن كانت أسواق القاهرة لا تقارن، حيث وجد بها سوق للعبيد، وآخر بالإسكندرية في فندق التتار، وكان يجلب هؤلاء العبيد من أوربا أو من أفريقيا وهم صغار السن، ويتم شراؤهم من بلادهم أو أخذهم أسرى أو سرقتهم، وشندما يأتون إلى القاهرة كان يتم إشلام السلطان بذلك أولاً ليختار ما يعاء منهم ثم يعرض الباقي في السوق، و لا يمكن أن يباع شبد اشتنق الإسلام - حيث تحرم الديانة الإسلامية بيع المسلم ولا تسمح ليهودي أو مسيحي أن يعتري شبد مسلم – أما أولئك المنتمون إلى ديانات أخرى فيتم بيعهم أزواجاً أي الزوج مع زوجته والأب مع الأم وأطفالهم)٤٨٧(، ويعرض هؤلاء العبيد في السوق بصورة غير آدمية حيث يقفون شبه شراة ويتم فحصهم جسدياً للتأكد من قدرتهم شلى الكلام والسمع والإبصار من قبل المعترى، ويجعلونهم يركضون أو يمعون ويؤدون حركات

)483(Wright ,Early Travelers , p. 311.

)484(Frescobaldi ,op.cit, p. 104.

)485(Adler , Jewish Travelers , p. 236.

)٤٨٦(الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٠.

)487(Ghistele , Voyage en Egypte , pp. 19 – 20.

وتمرينات معينة كوسيلة للفحص والتأكد من قوة الجسد وتحديد السعر المناسب للعبد أو الجارية(٤٨٨).

وهناك أيضًا أسواق كثيرة ومتنوشة وبعضها متعدد الأنعطة وبعضها متخصص في سلعة معينة حيث وجد سوق للذهب، سوق للفضة، سوق للعطور، سوق للحوم، سوق للأحجار الكريمة، سوق للحرير، سوق للأقمعة، سوق للأخعاب، سوق للأشعاب الطبية، سوق للسجاد وللمفروشات، سوق للزجاج، سوق للأسلحة، سوق للخضروات، سوق للملابس، سوق للطباخين، سوق للطيور، سوق للزيت، وغيرهم(٤٨٩).

كما كانت هناك أسواق موسمية كانت تعقد لفترة معينة فى مناسبات معينة، فقد شاهد الرحالة الأجانب شند نزولهم إلى الميناء يأتي إليهم أفراد يحملون معهم الأشعاب وأغصان الأشجار، والفرش والبسط وقد أتوا من مناطق مجاورة ودخلوا نزل المسافرين لبيع تلك السلع، ومعهم سلع أخرى مثل العطور وماء الورد الدمعقي والبلسم والمسك والصابون والأحجار الكريمة(٤٩٠).

كما أتى الفلاحون من القرى المجاورة إلي فنادق ومساكن الحجاج الأجانب، ليقيموا سوقاً داخل الفندق لبيع منتجاتهم الريفية من الألبان والبيض والخبز والفاكهة والأرز وكذلك الخمور، إما شن طريق المقايضة، أو بالنقد(٤٩١)، ولم يراع التجار أيضاً حرمة الأماكن المقدسة، فقد أقاموا السوق أيضاً في ساحة كنيسة القيامة كما روى لودولفLudolph الذي زار القدس شام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م أنه في موسم

---

(488) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard ,p.75 , Ghistele , Ibid , p. 20 – 21 See Also , Wolff, How Many miles? , p. 86, Prescott , Once to Sinai , pp. 167 – 168.

(٤٨٩) البدري الدمشقي، نزهة الأنام، ص ٦٢ – ٦٣ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٠ – ٥٨١، Larrivaz ,op.cit, p. 48.

(490) Fabri , The Wanderning , vol 1, part 1 , pp.226 – 228.

(491) Fabri ,op.cit ,vol 1, part 1,p. 254 ,Casola , Pilgrimage to Jerusalem ,p.225.

الحج كان يقام سوق موسمي في ساحة الكنيسة وتمتلئ بالحوانيت ويباع فيها كل أنواع الأطعمة وتجرى فيها أيضاً شمليات البيع والعراء وشرض السلع والبضائع الأخرى(٤٩٢) وذكر لنا بيرو طافور pero tafour أيضاً الذي زار القدس شام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م أن المسيحيين المحليين وبخاصة الروم كانوا يدخلون الكنيسة ويبيعون الأطعمة للحجاج المسيحيين، وكذلك فإن كثيراً من المسلمين والمسيحيين كان يسمح لهم بدخول الساحة بعد الانتهاء من القداس لعرض بضائعهم شلى هؤلاء الحجاج حيث يعترون منهم الهدايا والتحف العرقية النادرة (٤٩٣)، كما أوضح الراهب فيلكس فابري filx fabri أنه شند دخول الحجاج كنيسة القيامة، كان التجار المسيحيون العرقيون يتجمعون حولهم وتغلق الأبواب ويبدأ بعض الحجاج في مساومة التجار لعراء بعض السلع بأسعار رخيصة وبيعها في بلادهم بأسعار مرتفعة للحصول شلى ربح مادي أكبر، كما اشترك الرهبان ورجال الدين في البيع والعراء أيضاً بحثاً شن الربح، وكذلك النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في بلادهم لأن ذلك دون مستواهم الاجتماشي، فإنهم لم يتحرجوا من المساومة هنا مع التجار العرقيين في سلع شديدة مثز، المسابح والأحجار الكريمة والأقمعة، وقد قضى الجميع شطراً من الليل إن لم يكن الليل كله في البيع والعراء والمساومة(٤٩٤).

وبذلك كانت تلك الأسواق الموسمية تظل منعقدة طوال فترة النهار حتى ساشة متأخرة من الليل لإتاحة الفرصة للجميع للبيع والعراء بحرية ورغبة في حرص التجار شلى الاستفادة من الأرباح المادية قدر الإمكان، كما تعابهت أسواق الأقاليم والعواصم إلا أن الأسواق التي وجدت في العواصم كانت شديدة وأكثر تنوشاً ولم يكن لها نظير في الأقاليم نظراً لزيادة شدد السكان في العاصمة ولتوافد العديد من الجنسيات إليها ولوجود مقر الحكم والسلطة فيها فمن الطبيعي والمنطقي أن تتميز أسواق العاصمة قليلاً شن أسواق الأقاليم.

---

(492) Ludolph , Description of the Holy land , p. 106.

(٤٩٣) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٥.

(494) Fabri ,op.cit , vol 2 part 2 p. 84.

كما كان يباع طائر السمان بوفرة، ولكن بالعدد حيث كان يباع كل شعرة بدينار مؤيدي واحد فقط وهو بذلك رخيص الثمن جداً (٤٩٦)، كما وجدت في الأسواق المصرية سلع شديدة مثل القرود الآسيوية والببغاوات والقطط البرية والحمير الوحعية والحيوانات النادرة(٤٩٧)، أما الأقمعة فكان أفضلها ما يباع في القاهرة، وأهمها القماش القطن الأبيض الناصع البياض اللامع، وذلك نظراً لجودة القطن المصري الذي يعبه الحرير في نعومته، وبلغ ثمن ذراع القماش القطني حوالي ٢ دوكة ذهبية (٤٩٨)، وكانت تصل أيضاً إلى القاهرة محاصيل شديدة من الصعيد شن طريق النيل وتستغرق الرحلة ثمانية أيام ثم توزع شلى باقي المدن المصرية(٤٩٩)، كما وجدت السلع العرقية الهامة، مثز الفلفل والتوابل والأحجار الكريمة، وكان يعتريها التجار الأجانب من فرنسا وإيطاليا وألمانيا وتركيا شابرين بها البحر المتوسط إلى أوربا (٥٠٠)، وكان يباع في الإسكندرية الليمون المخلل بكميات كبيرة ويباع بأسعار رخيصة جداً حيث بلغ سعر البرميل من ٣ – ٤ شملات ذهبية (٥٠١).

---

(495) Adler , Jewish Travelers ,p. 228.

(٤٩٦) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٢.

(497) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard p.50, Frescobaldi , A visit to the holy places , p. 47.

(498) Frescobaldi , Ibid , p. 168.

(499) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 193.

(500) Adler,op.cit , p. 224.

(501) Dopp , Le Egypte , p. 37.

كما كانت تصل سلع ومحاصيل وبضائع أخرى شن طريق العربان في المناطق المجاورة، مثل أنواع من الطيور المختلفة واللحوم والأبقار والخرفان وغيرها من الأغذية، وفي المقابل اشتري العربان المنتجات القروية والملاءات الصوفية اللازمة للكساء وبعض المنتجات الغذائية، مثل الزيت واللوز والعنب والصابون أيضاً [٥٠٢]، وفي بعض الأحيان كانت بعض السلع نادرة الوجود وسعرها مرتفعاً، مثل الخعب والزيت لأن التجار كانوا يدفعون شنها ضريبة كبيرة قدرت بحوالي ٢٤ % من ثمنها الأصلي [٥٠٣]، أما أسعار اللحوم بصفة شامة فكانت رخيصة فقد بلغ سعر اللحم البقري حوالي ٢٠ بنساً والضأن ٦ بنساً وكانت الكباش كبيرة الحجم وكل كبش يبلغ وزنه حوالي ٢٥ رطلاً، وفي رشيد وجدت كميات كبيرة من القمح مرتين في السنة وتميز بجودته العالية، وبها أيضاً السكر، وأجود أنواع الفاكهة والبلح، وكذلك الدجاج والطيور التي تمد بها القاهرة والإسكندرية [٥٠٤]، وفي بيت المقدس وجدت اللحوم بوفرة، وزيت الزيتون والسمسم بأسعار رخيصة [٥٠٥].

أما الأسماك فقد وجدت أيضاً بوفرة سواء كانت أسماك طازجة أو مملحة أو محفوظة، حيث تمتعت مصر والعام بموقعها المتميز شلى البحر المتوسط والبحر الأحمر ونهر النيل أيضًا، حيث يصطاده الصيادون من البحيرات شلى البحر المتوسط أهمها بحيرة البرلس والمنزلة، ويتم حفظه في كميات كبيرة من الملح، ويصدر إلى سوريا وقبرص ورودس وينقل إلى أسواق القاهرة [٥٠٦]، وفي بلاد العام كانت توجد البحيرات التي يصطاد منها الأسماك مثل بحيرة طبرية، وكذلك من الأنهار العديدة

---

(502) Dopp , Le Egypte, p. 20-21.
(503) Adler, Jewish Travelers , p. 160.
(504) Frescobaldi, A visit to the holy places, pp. 97,162.
(505) Adler,op.cit, p. 238.
(٥٠٦) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٣٣.
Dopp , Le Egypte , p. 27, Ludolph , Description of the Holy land,p.81 ,Ghistele, Voyage en Egypte , p. 142.

مثل نهر الأردن وكذلك في الجداول المائية مثل الجدول المحاط بجدار قرب بحيرة طبرية وسمى وريد النيل بسبب وجود أسماك الكراكين)نوع من سمك الكافيار([٥٠٧].

زادت أيضًا كميات وحجم السلع والبضائع في مدينة دمعق، حيث لم يوجد محل أو سوق إلا وبه العديد من السلع المختلفة الأسعار، وفيها أفضل الأشياء وأغلاها قيمة وثمنًا، وهناك أفضل أنواع الأقمعة الدمعقية الحريرية المتميزة بألوانها المتعددة، وأجود الأقمعة القطنية في العالم، وهناك أيضاً منتجات معدنية مثل الأباريق والطعت المصنوع من الذهب والفضة والمطعم بنقوش وزخارف رائعة، كما تباع فيها كل أنواع السلال الهندية والأقمعة المطرزة[٥٠٨].

كما كان يباع في بلاد العام الثلج، حيث كانت الثلوج تسقط بكميات كبيرة ويجمعونها في خزانات في فترة الصيف يتم بيعها في الأسواق ونقلها إلى المدن المصرية، كما يستخدم في حفظ الفواكه وصنع المعروبات[٥٠٩]، حيث جرت شادة السلاطين المماليك طلب الثلج من بلاد العام إلى قلعة الجبل وخصص لذلك شدد من المراكب اختلف شددها من وقت لأخر ففي شهد الظاهر بيبرس بلغت ثلاث مراكب سنوياً ثم بلغ شددها ما بين سبعة إلى أحد شعر مركباً[٥١٠] وكان الثلج ينقل براً شلى الهجن وبحراً في السفن من الثغور العامية خاصة بيروت وصيدا إلى ثغر دمياط وكان يتم ذلك فيما بين شهري حزيران)يونيو(وتعرين الثاني)نوفمبر(ثم ينقل من مراكب البحر المتوسط إلى مراكب أخرى شبر النيل إلى ساحل بولاق حيث تتولى الخيول والبغال الخاصة بالسلطان نقله إلى قلعة الجبل بالقاهرة ويحفظ في العربخاناه

)[٥٠٧](بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٧١ ؛ Ludolph ,op.cit , p. 127, Souriano , Treaties on the holy Land, p.181,Frescobaldi, . p. 88,140.

)[508](Baumgarten,The Travel of Martin Baumgarten. 476,Frescobaldi ,op.cit, pp.182 -183.

)[509](Souriano, Treaties on the holy Land, p.161, Frescobaldi , A visit to the holy places,p. 87, Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 78.

)[٥١٠](القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٩٦، العمرى، التعريف، ص ٢٥٧، فييت، المواصلات في مصر، ص ٥٣.

)مخزن العراب(ويخزن في صهاريج معده له حتى لا يتعرض للهواء فيعمل شلى ذوبانه بسرشة، وكان ينقل في البر واحد وسبعين نقلة وكلن يبحر مع الثلج أحد الثلاجين من ذوى الخبرة[511]، أما الخمور فقد وجدت بوفرة في بيروت وباقي مدن بلاد العام نظراً لكثرة مزارع الكروم فيها وبلغ ثمن البرميل حوالي ٢٠ صولدي soldi[512].

وفي يافا كان يباع زيت الزيتون والخيوط والصابون المعطر والأباريق الزجاجية والأقمعة المصبوغة والفاكهة المجففة[513]، وأحياناً كانت بعض المدن تضطر للاستيراد من المدن الأخرى أو التبادل معها فعلي سبيل المثال، كانت مدينة غزة ترسل دائماً الفواكه إلى رام الله لأنها قليلة الزراشة، ولذلك يجلب إليها من غزة الفواكه والمحاصيل مثل العنب والبلح وغيرها[514].

هكذا كانت التجارة الداخلية في مصر والعام تعير إلى تدفق مستمر في السلع والمنتجات، وتابعت مصر استيراد المنتجات الزراشية السورية أحياناً والحيوانية وماء الورد والتمر والأرز والمعروبات والثلوج والأقمعة البعلبكية والأقمعة الدمعقية المطرزة والأقمعة الحريرية من حماه وسوريا وبعلبك، وكان التصدير المصري الوحيد هو الحبوب في وقت الأزمات والعدة، أما دمعق فقد استمرت في الحصول شلى ما تحتاجه من سلع ومواد غذائية وملح وأقمعة من أنحاء العام مثل حلب، وبذلك استمرت التجارة الداخلية المحلية مزدهرة ومستمرة وحركة البيع والعراء سارية فسمحت للكثيرين بالتجارة والربح والعمل المتنوع.

- تربية الطيور والحيوانات:

لاحظ الرحالة الأوربيين وجود أشداد كبيرة من الحمام في العوارع والمنازل، و ينقسم الحمام إلى قسمين، أحدهما بري والآخر أهلي، وذلك النوع الأخير يتخذ لعدة

)٥١١(ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٧-١١٨؛ العمرى، التعريف، ص ٢٥٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٩٦، فييت، المواصلات في مصر، ص٥٣.

)512(Frescobaldi ,op.cit, p. 185.

)513(Adler ,Jewish Travelers , p. 139.

)514(Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 240.

ضروب فمنها ما يربى في البيوت ومنها ما يستخدم في السباق والتسلية أو في حمل الرسائل وهو متعدد الأشكال والألوان والأصناف والأفعال[515] وأول ما شاهده الرحالة الإيطالي سيجولي Sigoli هو وجود أشداد ضخمة من الحمام في كل شباك من شبابيك منازل القاهرة فليس هناك شباك إلا وتجد به شعاً لتلك الطيور، وجرت العادة شند المسلمين ألا يصيدونها لأنهم لا يأكلون لحومها وكذلك يعتقدون أن من يؤذي تلك الطيور يرتكب إثماً شظيماً لأنها لا تضر أحد ولذا فهي كثيرة العدد[516] وفسر المقريزي السبب في ذلك، هو قيام بعض سكان القاهرة بتربية الحمام كهواية فقط، وبنوا له بناء يعبه القبة فوق أسطح المنازل وقاموا بإطلاق أسراب الحمام منها والتمتع بمنظرها وهي تحوم في السماء في مجموشات كبيرة فوق المنازل، وبخاصة قبيل الغروب في أحياء القاهرة القديمة مثل الجمالية والسيدة زينب والقلعة وغيرها بل ذكر أن بعض السلاطين صار يجتمع مع مطيري الحمام ويقف معهم يراهن شلى الطير الفلاني والطيرة الفلانية[517].

أما الحمام الذي يحمل الرسائل فيسمى الحمام الزاجل، والذي بدأ استخدامه في الموصل، وأول من أشتني به من الملوك ونقله إلى الموصل هو السلطان نور الدين زنكي في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م، وحافظ شليه الفاطميون بمصر وبالغوا في الاشتناء به حتى أفردوا له ديواناً وأشدوا له سجلات خاصة تتناول أنساب الحمام وأصله[518]، وأغلب الظن أن مصر قد استخدمت ذلك النوع من الحمام في البريد في أوائل القرن السادس الهجري / الثاني شعر الميلادي بعكل منقطع النظير من حيث الدقة والسرشة ثم زاد ذعاطه بعكل ملحوظ في العصر المملوكي البحري، نتيجة

---

[515] الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ٢، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٢٣ ؛ نبيل عبد العزيز، الحمام الزاجل وأهميته في عصر المماليك، المجلة التاريخية، م ٢٢، ١٩٧٥ م، ص ٤٢.

[516] Frescobaldi, A visit to the holy places, p.170.

[517] المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ٦٩٥ ؛ ج٢ ق٣، ص ٧٣٩.

[518] العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص ١٩٦ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٩٣.

اتساع حدود المملكة وازدياد الأخطار الخارجية والداخلية التي كانت تهدد البلاد حيث كثرت الغارات المغولية والصليبية شلى الحدود العامية، نظراً لأن الحمام الزاجل أسرع في نقل الرسائل فيسمح لقائد الجيش باتخاذ الاحتياطات اللازمة لكل أمر، لذا فقد اقتصر دوره في البداية بصفة خاصة شلى نقل الأخبار وقت الحروب والمعارك[٥١٩].

كما استخدم الحمام الزاجل في إرسال المعلومات إلى الولاة في المدن الساحلية، حين وصول السفن الأجنبية والتي حملت شلى متنها أجناساً متعددة، ولذا وضعت الدولة المملوكية إجراءات دقيقة لاستقبال تلك السفن أهمها استخدام الحمام الزاجل لإرسال رسالة بها معلومات تخص السفينة وركابها وشددهم وجنسيتهم ونوع الحمولة وحجمها، حيث يرسلها أحد الموظفين في الجمرك إلى والي الثغر الذي يرسلها بدوره إلى السلطان في القاهرة[٥٢٠]، لذلك اندهش أحد الرحالة من رؤية الحمام شند كبار الحكام والتجار وبعض المواطنين الآخرين في مدينة الإسكندرية، حيث كانوا يستخدمونه لتوصيل الرسائل والأخبار وبتلك الطريقة شندما يري التجار الإشارات التي يبعث بها المراقبون إلى الثغور للتنويه شن السفن القادمة يذهبون إلى والى المدينة للحصول شلى الإذن بالذهاب لملاقاة السفن في شرض البحر، ثم يسجلون ما وجدوه شلى ظهر السفينة ويرسلونه بالحمام الزاجل في رسالة توضح في شنق الحمامة أو تحت جناحيها، ثم يأخذها الوالي ويرسلها شلى الفور إلى القاهرة أو دمياط ليخبر الجمرك والتجار بحمولة السفن ونوشيتها للاستعداد إذا كانوا في حاجة إلى بضائع تلك السفن القادمة[٥٢١].

كما أمكن استخدامها للحماية من الهجوم الخارجي فقد رأي الرحالة بيرو طافور pero tafour في دمياط حمام يحمل الرسائل في ذيله من المكان الذي تربي

)[٥١٩](أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، ج١، دار الفكر العربي، ١٩٩٠ م، ص ٨٨.

)[٥٢٠](القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٩١ ؛ أنظر، جاستون فيت، المواصلات في مصر في العصور الوسطي، ترجمة محمد وهبة، مجلة المقتطف، ١٩٣٧ م، ص ٤٠.

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 92.

)[521](Ghistele , Voyage en Egypte , pp. 122- 123.

فيه إلي أماكن أخري فإذا شلقت بها الرسائل أطلقت لتعود إلى موطنها وسرشان ما يقف الأهالي شلى أخبار جميع من يقدمون أو يسافرون بحراً أو براً، فيكونون بمنجاة من الأخذ شلى غرة ولاسيما وهم يعيعون بلا وسائل دفاع شنهم وليس لديهم أسوار أو قلاع.[٥٢٢]، وخاصة في وقت شن الغارات الأوربية شلى السواحل المصرية فقد كانت بعض السفن الأجنبية تحمل أشلام الدول المتحالفة في حين أنها سفن للقرصنة وتقوم بالهجوم والسطو شلى الموانئ المصرية والعامية.

ذكر الرحالة الألماني يوحنا شيلتبرجر Johan schiltberger أن السلاطين المماليك استخدموا الحمام الزاجل في المراسلات، ولذلك كانت بعض أقفاص ذلك النوع من الحمام تلازم السلاطين في رحلاتهم العديدة، وذكر أيضاً كيفية تدريب ذلك النوع من الحمام، وأول خطوة كان يتم اتخاذها بوضع ذكر وأنثي من نوع واحد في قفص واحد ثم إضافة السكر لإطعامهما، وبعد فترة يتم إخراج الذكر وشليه شلامة تحدد مسكنه وموطنه، ثم يوضع في قفص منعزل شن الأنثى ويمنع شنه السكر، وذلك حتى تكون لديه الرغبة القوية في العودة بأقصى سرشة للمكان الذي يعيش فيه من قبل حيث تم تدريبه[٥٢٣].

كانت البطاقة توضع شادة في أرجل الحمام، بدليل أن أحد الرحالة اليهود في العصر المملوكي شاهد والي الإسكندرية يضع البطاقة أو الرسالة في فم الحمامة أو رجلها، ثم يطلقها في الفضاء لتطير إلى القاهرة، فتهبط بأحد أبراج الحمام بقلعة الجبل حيث يكون في انتظارها من يسلمها للسلطان، وذكر ذلك الرحالة قائلاً وتلك حقيقة ليس فيها أدنى شك شلى الإطلاق[٥٢٤].

اهتم سكان القاهرة بتربية الدواجن والفراريج وهو ما يسمي بالتفريخ الصناشي، وكانت مهارتهم في ذلك الأمر حديث الرحالة ومصدر للإشجاب والدهشة،

---

[٥٢٢] بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٠.

[523] Schiltberger ,The bondage and Travel of Johan ,p. 53 , See Also, Prescott , once to Sinai , p. 150.

[524] Adler , Jewish Travelers , p. 162.

حيث إنهم كما اشتمدوا شلى التفريغ الطبيعي بوضع الطيور بالطريقة الطبيعية شلى البيض لحين خروج الكتاكيت منه، فإنهم أيضاً اشتمدوا شلى طريقة تفريخ صناشية أخرى شرفها المصريون منذ أيام الفراشنة وهي فقص البيض بوضعه في حضانات خاصة. واشتاد الناس في العرق الإسلامي بصفة شامة وفي مصر بصفة خاصة شلى تربية الدواجن وبيعها في الأسواق سواء كانوا في الريف أو المدن، و كانت طريقة تربية الدواجن تعتمد شلى فقس البيض في أفران خاصة شلى نار هادئة دافئة في بلبيس والإسكندرية والقاهرة (٥٢٥) كان الرجال والنساء يجمعون أشداد كبيرة من البيض تصل إلى المئات بل الألوف من الحقول، ويرسلونه إلى الأفران الخاصة بقفس البيض في المدن حيث لا يوجد في الريف(٥٢٦)، وتتم تلك العملية في شهور الصيف وفي شهور العتاء(٥٢٧)، وكانوا يأتون به شلى الجمال ويقفون أمام بيت صغير ويتقدم صاحب الفرن لأخذ كل البيض من كل شخص شلى حدا، كما يقوم بتسجيل اسم كل شخص أحضر البيض وشدد ما أحضره(٥٢٨)، وتلك الأفران تسمى المعامل أو التنانير وبها وقود يعطى حرارة هادئة جداً تعبه الحرارة الطبيعية للدواجن وتخرج منها فراريج صغيرة ومعظمهم دجاج(٥٢٩).

أما في دمعق فكان الأمر مختلف، حيث إن تلك المعامل مختلفة العكل والتركيب شما يوجد في القاهرة، فقد ذكر العمري أنه قد جاء شخص من مصر في الصيف وشمل بها معمل في حاضرة العقيبة ففقس البيض وخرجت الفراريج الصغيرة ولكنها لم تفقس في وقت الخريف فخسر ماله وشاد إلى مصر(٥٣٠).

---

(525) Wright ,Early travelers , p. 152 , Baumgarten ,The Travel of Martin Baumgarten , p. 465 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud, p. 211 , Wolff , op.cit , p. 101.

(526) Dopp , Le Caire , p. 119.

(527) Wright, op.cit , p. 152.

(528) R. B, Two Journey to Jerusalem, p. 18.

(٥٢٩) العمري، مسالك الإبصار، ج ٢، ص ٨٤ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٥ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٦٩.

(٥٣٠) العمري، مسالك الأبصار، ص ٩١ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ٩١.

تلك الأفران كانت شبارة شن منازل كبيرة، وضع بداخلها صفوف طويلة صممت وكأنها معالف للحيوانات، ووضع فيها التبن وقش الأرز، وتحتها وجد نوع من الأفران الصغيرة بطول حجم المعالف نفسها التي يصدر منها ناراً هادئة تساشد شلى فقص البيض بسهولة وبطريقة طبيعية(٥٣١)، وداخل تلك المعالف وضع البيض بكميات ضخمة بلغت كما ذكرها الرحالة إلى الآلاف أي حوالي من ٧ إلى ١٠ آلاف بيضة وأحياناً أخرى تصل من ٣٥ إلى ٤٠ ألف بيضة وغطى البيض بروث الحيوانات، ثم توقد النيران وهي في الحقيقة ليست ناراً بل جمراً ملتهباً يعبه الرماد وليس به دخان، ووضع الروث حيث يلمس البيض، وسبب استخدام الروث أنه يعتعز بسهولة ودافئ، أما الخعب فناره أقوى وأشد وبعدها تزداد النار قليلاً، وتستمر تلك العملية لمدة ثلاثة أسابيع أو أقل حتى تنكسر القعرة وتخرج الكتاكيت(٥٣٢)

شندئذ وفي تلك اللحظة يعلن واحداً من القائمين بذلك العمل قائلاً انتهى فقس البيض في ذلك الفرن وغداً سيتم تفريغه، ثم يتقدم كل شخص ليأخذ البيض الذي احضره منذ أسابيع مضت، ويقوم البعض ببيعه في الأسواق أو للتجار شند باب المعامل، وتباع الكتاكيت بالمكيال وليس بالعدد ويقصد به مكيال الحبوب. (٥٣٣) وذلك المكيال يسمىBushel بوشز)مكيال الحبوب = ٨ جالون(، وتباع الأفراخ بنصف بوشز(٥٣٤)، وأحياناً يقوم صاحب الفرن بإشطاء امرأة شجوز الأفراخ الصغيرة، حيث تتولى تربيتها وإطعامها والعناية بها وهناك بعض السيدات المسنات يعمن شلى تلك المهنة وليس لديهم وسائل أخرى للعيش سوى تربية الأفراخ الصغيرة(٥٣٥)، وفي

---

(٥٣١) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢ - ٥٩٣ ؛ Ghistele ,Voyage en Egypte , p. 55.

(532) R.B , Two Journey to Jerusalem , p. 19, Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p110 ,Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard, p. 61, Ghistele , Le Voyage en Egypte ,pp.55-56.

(533) Dopp , Le Egypte , p. 39.

(534) Souriano , Treaties on the holy Land, p. 192.

(535) Ludolph ,Description of the Holy land , p. 67 ,See Also, Prescott , once to Sinai , p. 147.

القاهرة كانت تلك الأفراخ الصغيرة تباع في الأسواق، حيث كان يجلس أحد الأشخاص ويضع أمامه كمية كبيرة من الكتاكيت أمامه تصل إلى ٣ أو ٤ آلاف كتكوت، ومن يعتريها يقوم بدوره ببيعها أمام منزله، وأحياناً كان يعرض صاحب الفرن شلى التاجر شراء كمية من الكتاكيت ويذهب التاجر لمعاينتها وإذا تم الاتفاق بين الطرفين كان الأول يقوم بتحميل الأفراخ في الأقفاص ويوردها للطرف الثاني وهكذا يتم البيع والعراء، وكانت العوارع تمتلئ بالناس وتزدحم ازدحاماً شديداً[536]، وبدون تلك الطريقة لم يكن من الممكن توفير كل الكميات اللازمة لسكان القاهرة وضواحيها من الدجاج والأوز وبقية الطيور، حيث تعاهد العديد من الفلاحين والرشاة بسوقون أكثر من ٦ أو ٧ آلاف دجاجة لبيعها في السوق[537].

يمكن إشطاء وصفاً أكثر تفصيلاً ودقة شن معالم التفريخ وطريقة فقس البيض شلى لسان الرحالة المسلم شبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر شام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م حيث يذكر أن حضانة الفراريج تعتمد شلى روث الحيوانات، ونادراً ما ترى بمصر فراريج صغيرة تفقس طبيعياً في حضانة الدجاج، كما أن تلك المهنة تعد صناعة ومعيعة يتاجر فيها بعض الناس ويتكسبون منها، ونجد في كل بلد من البلاد المصرية مواضع شدة تعمل ذلك ويسمى الموقع، معمل الفروج، وذلك المعمل شبارة شن ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت ما بين شعرة إلى شعرين بيتاً، ويوضع في كل بيت ألفا بيضة ويسمى بيت الترقيد، وصفته أن يتخذ بيت مربع العكل طوله ثمانية أشبار في شرض ستة في ارتفاع أربعة، وله باب سعته شبران وفوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خعبات وفوقها سدة قصب وفوقها الطين، ثم يرص بالطوب ويدهن البيت كله ظاهره وباطنه وأشلاه وأسفله بالطين حتى لا يخرج منه بخار، وذلك السقف يعبه صدر الدجاجة، ثم يفرش البيت بالتبن، ثم يرص فوقه البيض رصاً جيداً بحيث يتماس ولا يتراكم فوق بعضه لتتواصل الحرارة فيه، وذلك

---

[536] Dopp , Le Egypte , pp. 39 – 40.

[537] Ghistele,Voyage en Egypte ,p.56 , Souriano, Treaties on the holy Land p. 192, Ludolph, Description of the Holy land, p. 67.

الفعل يسمى الترقيد ثم يوقد تحته روث الحيوانات، ويترك حتى يصير رماداً ويتم تفقد البيض ساشة بعد أخرى والتأكد من حرارة الفرن، كما يتم تقليب البيض ونقله من مكانه حيث يخرج البيض الذي في الصدر إلى جهة الباب، والبيض الذي جهة الباب ينقل إلى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر فيعتدل حرارة البيض، وذلك الفعل يسمى الحضانة كما تفعل الطيور مع بيضها، ويستمر ذلك العمل حتى يوم التاسع شعر وفي يوم الععرين تنكسر القعرة، ويخرج الفروج وذلك يسمى التطريح وشند تمام اثنين وشعرين يوماً، تخرج جميع الكتاكيت وأفضل الأوقات لفقس البيض في شهور أمعير وبرهمات وبرمودة، لأن البيضيى تلك المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج والزمان معتدل صالح النشأة والتكوين وينبغي أن يكون البيض طرياً ىيى تلك الأشهر يكثر البيض أيضاً[٥٣٨].

لفت انتباه الرحالة الأوربيون أيضًا التماسيح وطريقة صيدها في نهر النيل بكثرة وأطلقوا شليها أسم السحلية ولكنها كبيرة الحجم أو يعبه التنين وبلغ طوله من ٦ إلى ٨ أذرع، وظهره خعن وشلى جلده قعور سميكة وذات فم كبير، ولا يستطيع المرء اصطياده بسهولة[٥٣٩]، وقد شاهد الرحالة الألماني فون هارف Von Harff مدى قوته وقدرته شلى اصطياد فريسته فعندما تتقدم الحيوانات نحو النيل للعرب يباغت الحيوان من الخلف ويسحبه من قدميه ثم يفترسه وذلك الحيوان ليس له دبر لخروج الفضلات بل يخرج من فمه شن طريق طائر صغير يقف شلى فمه ويأكل ما يلفظه من جوفه[٥٤٠]، وقد اشتاد المصريون شلى صيد تلك التماسيح من نهر النيل، ومن المؤكد أن كثرة التماسيح في النهر قد شجع الكثير شلى ممارسة تلك الهواية فضلاً شن استخدامها في مجالات شديدة، منها أنهم بعد اصطيادها يقومون بسلخ جلدها

)[٥٣٨](البغدادي، رحلة البغدادي، ص ٨٠ – ٨٣.

)[539](Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 43 , Souriano , Treaties on the holy Land , ,194 , Langnon , Le Saint Voyage, p. 75 , Adler , Jewish Travelers , p. 223.

)[٥٤٠](المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٠٨، السيوطي ؛ حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣١٨.
Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 98.

وتجفيفه وبيعه إلى الأجانب وقد شاهد فون هارف جلد التمساح في كنيسة مريم العذراء في روما وقيل له أنه جلد تنين ولكن شندما جاء إلى مصر شرف إنه جلد تمساح.)[541](، أما الرحالة بيرو طافور فقد شرح لنا طريقة صيدها فذكر أنه إذا أراد أحد قتلها استل حربه تنتهي بسهم ذي شوكتان تنفذ في اللحم إذا دخلته، وهي مستغرقة في النوم وقت النهار، وتمسك به ويربط طرف الحربة الآخر بحبل يبلغ طوله ما بين مائه ومائه وخمسين قامة فإذا اقترب الصائدون الحيوان ضربوه تحت ضلوشه وهي النقطة الوحيدة المكعوفة التي فيها هلاكه فيغرزون فيه الحديد ثم يعدون الحبل شليه شداً شنيفاً فلا يكاد الحيوان يحس بالإصابة حتي ينفلت إلى الماء فينهكه الحبل حتى تنحل قواه، وشندئذ يسحبونه إلى العاطئ ويحملونه ويسيرون به في المدن والقرى يلتمسون الصدقات شأنهم في ذلك شأن أهل قعتالة حين يقتلون أحد الذئاب)[542](.

شهد العديد من الرحالة العرقيين والغربيين شند وصفهم للمدن المصرية والعامية نمواً ملحوظاً في التجارة الداخلية وازدهاراً واضحاً في حركة البيع والعراء داخل المدن المصرية والعامية، وذلك كان راجعاً إلى وجود نظام سياسي قويم، كما وجدت قوة شسكرية مملوكية كانت بمثابة القوى الواقية والحامية لذلك النظام الذي أقامه المماليك في مصر والعام، فأدى ذلك إلى زيادة الثروات وكثرة الأسواق والحوانيت، كما شملت الدولة شلى تحسين الأوضاع الداخلية للتجارة، فسمحت للكثيرين للعمل بالتجارة وتحقيق أرباح شظيمة، فعلى سبيل المثال قد أشجب الرحالة بمدينة القاهرة والتي بلغت أوجه ازدهارها وذعاطها في العصر المملوكي، حيث زاد شدد السكان نتيجة لفترات الهدوء والسلام بعد أن استطاع المماليك القضاء شلى الخطر المغولي ثم الصليبي، فأصبحت مصر الوطن الأمن للكثيرين، وأصبحت تموج بالحركة والذعاط وبوجود الأجانب والعرب من جميع الجنسيات ومن جميع الطوائف وخاصة التجار، كما كثرت بها الأسواق والبضائع والسلع المختلفة.)[543](، ولذا كانت

)[541](Harff ,Ibid , p. 98.

)[542](بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦١ – ٦٢.

)[543](ابن ظهيرة،الفضائل الباهرة، ص ١٨٥ ؛

مدينة غنية ومن السهل لمن يعيش فيها أن يتاجر ويعمل ويصبح ثرياً (٥٤٤)، كما وصفها بيلوتي بأنها أكبر المدن في العالم كما تحدث شن نيلها وشعبها وحركة التجارة فيها. (٥٤٥) وشهد طافور أيضاً بقوة حركة التجارة الداخلية في القرن الخامس شعرا لميلادي، حيث كثرت الفنادق والخانات والحوانيت وكثرت السلع وازدحمت كثيراً بالسكان، فكانت لا تهدأ بها الحركة ذهاباً وإياباً من الباشة والطباخين وحاملي الأطعمة والسلع المتنوشة. (٥٤٦)، أما مدينة دمعق فقد تميزت أيضاً بوفرة الغلال واللحوم والفواكه الطيبة والأقمعة الحريرية والصوفية، كما تمتعت دمعق بالجمال والعظمة ووفرة التوابل والأحجار الكريمة وزيادة شدد السكان ومنهم الحرفيين والتجار والصناع فكانت مدينة غنية وثرية أيضاً. (٥٤٧)، وأطلق مثل ذلك الوصف شلى باقي المدن العامية أيضاً مما يدل شلى تمتعها بالثراء والغنى الداخلي واهتمام السلطات المملوكية بالتجارة الداخلية.

ورغم تلك الصورة إلا أن هؤلاء الرحالة لم يدققوا كثيراً في الوصف ولم يتعمقوا في داخل المدن حقيقة أنهم سجلوا ما شاهدوه ظاهرياً فقط، أما في الداخل فكانت الأمور أصعب وأسوء حالاً، خاصة في العصر المملوكي الثاني وبالتحديد في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع شعر الميلادي وطوال القرن التاسع الهجري/ الخامس شعر الميلادي، حيث اصطبغ ذلك العصر بصبغة خاصة من شدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماشي، وأثرت سلبياً شلى الأسواق من حيث شددها، وانعكس ذلك شلى حركة البيع والعراء في المدن المملوكية في مصر والعام.، وتحفل المصادر الإسلامية المعاصرة بالأمثلة العديدة التي تدل شلى الاضطراب السياسي

Adler ,Jewish Travellers , p. 166 , 226,Langnon , Le Saint Voyage, p. 114.

)544(Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud, p. 48.

)545(Dopp , Le Egypte , pp.3-8.

(٥٤٦) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٢ ؛ ٦٤ ؛ ٦٦ ؛ ٩٨

(٥٤٧) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٢٨ – ٢٩.

Adler , op.cit , p. 199 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , pp. 77- 78 , Wright , Early Travelers , pp.294 -295.

الداخلي وأثره شلى حركة البيع والعراء، فعلى سبيل المثال فيما بين سنة ٧٨١ هـ ١٣٩٧/ م وسنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م أثناء النزاع بين الأميرين برقوق وبركة حول العرش، ثار المماليك في العوارع بالقاهرة، فأنتعر الفزع والخوف بين العامة، وأغلقوا حوانيتهم وأغلقت أبواب القاهرة ثلاثة أيام حتى انتهت المحنة [٥٤٨]، ثم زاد معدل تلك الثورات والنزاشات في العطر الأخير من ذلك العصر وزاد معدل التدهور السياسي الداخلي بفعل النفوذ المتنامي للمماليك الجلبان وشدم قدرة السلطان والأمراء شلى ردشهم ومن ثم تكررت حوادث العغب والاضطرابات فضلاً شن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاشتداء شلى الناس في العوارع والأسواق حتى أصبحت تلك الأمور شادية واضطرب البلاد وسكانها وتتوقف حركة البيع والعراء.

ومن الجدير بالذكر هنا أن نعرض لبعض الأمثلة الدالة شلى التدهور السياسي الداخلي وأثره شلى التجارة الداخلية، ففي سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٨ م حدث صراع شديد بين السلطان الأشرف شعبان والأمير يلبغا الذي ولي سلطان آخر هو الأمير أنوك شقيق السلطان شعبان، وبذلك أصبح في الدولة اثنان شلى العرش واستمر القتال بين الطرفين لعدة أيام وطوال ذلك الوقت أغلقت أسواق القاهرة وتعطلت الأشمال والتجارة حيث يقول المقريزي ذلك وأسواق القاهرة طوال تلك الأيام مغلقة والأسباب معطلة وليس للناس شغل سوى التفرج شلى شاطئ النيل شلى المقاتلين السلطانية واليلبغاوية[٥٤٩].

أما حوادث المماليك الجلبان فهي كثيرة ومتعددة ففي شام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢م هاجم المماليك أحد كبار موظفي الدولة. [٥٥٠]، ثم استمر المماليك الجلبان اشتدائهم شلى الأمراء وكبار رجال الدولة دون قوة تمنعهم أو توقف شنفهم وثوراتهم، ففي العام

---

[٥٤٨] المقريزي، السلوك، ج ٣ ق١، ص ٣٥٢ ــ ٣٥٨.
- المماليك الجلبان: هم المماليك الصغار في السن الذين يشتريهم السلطان لنفسه وكان يدفع ثمنهم من بيت المال أو من ماله الخاص كما أطلق عليهم أجلاب أو جلبان، انظر، عبد المنعم ماجد، نظم سلاطين دولة المماليك، ص ١٣.
[٥٤٩] المقريزي السلوك، ج٣ ق١، ص ١٣٥ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٣.
[٥٥٠] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨٢.

الثاني سنة ٨٧٨ هـ/ ١٤٧٣م هاجم جماشة من الجلبان الأمير يعبك الدوادار فهرب إلى الجيزة وبقي هناك خمسة شعر يوماً وامتنع المماليك من الصعود إلى القلعة، واشتكف السلطان قايتباي في القلعة احتجاجاً شلى تصرف المماليك، ولكن المماليك الجلبان أدركوا شدم قدرة السلطان شلى ردشهم، فعاودوا للعغب مرة أخرى رغبة في قتل الأمير يعبك و قام السلطان قايتباي وأمراءه بالاستعداد والتجهيز العسكري لقتال الجليان فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة بالفوضى وأغلقت الأسواق)[٥٥١](.

لكن الفوضى والاضطراب استمرت فترات طويلة ذكرها ابن إياس في العقود الأخيرة من ذلك العصر، تلك الفوضى تسببت في تعطل الأسواق وإثارة الرشب والخوف والفزع نتيجة شما يصحبها من أشمال القتل والنهب والسرقة وسفك الدماء في العوارع.)[٥٥٢](، ورغم محاولات السلاطين المماليك لردشهم وإصدار الأوامر بعدم التعرض للتجار والباشة والناس في العوارع والأسواق إلا أنه كان أمراً شادياً جداً لا يؤثر في الوضع ولا يحرك ساكناً فذكر ابن تغري بردي أنه مع مرور الوقت تزايد شبث الجلبان بمعايش الناس وسببوا لهم الخوف والفزع مما أدى إلى ارتفاع الأسعار في سائر الأشياء في المأكول والملبوس والغلال فأثر ذلك بحال الناس قاطبة رئيسها وخسيسها)[٥٥٣](.

وفي شام ٨٤١ هـ/ ٤٣٧'م خرج المحمل للحج في القاهرة وخرج مماليك السلطان من القلعة في الليل، وأخذوا في نهب الناس وخطف النساء والصبيان، وقاتلهم شدد كبير من العبيد السود، وسرقوا الأمتعة والسلع، وقد اشتاد المماليك النزول من القلعة إلى المواضع التي يجتمع فيها العامة للنزهة ويتفننوا في العبث والفساد ونهب البضائع والسلع، ورغم محاولات السلطان لصدهم إلا إنه لم يستطيع منعهم نهائياً واستمروا شلى شاداتهم السيئة) [٥٥٤](.

حدث في سنة ٨٥٩ هـ/ ١٤٥٤م أن قل العير وارتفع سعره وشز وجوده في

)[٥٥١](ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٩٣ -٩٦.

)[٥٥٢](نفسه، ج ٣، ص ١٤٧ ؛ ج٤، ص ١٣ ؛ ٣٦٣، ج ٥، ص ٤-٨.

)[٥٥٣](ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٩٨.

) [٥٥٤](المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ١٠٢٦ – ١٠٢٧.

العونة السلطانية، فقام المماليك الجلبان ليلاً بنهب شونة الأمير بردبك فخاف الأمراء شلى أنفسهم وفتحوا شونهم وفرق كل واحد منهم العليق والعمير شلى مماليكه لئلا يحدث مثلما حدث مع بردبك، وفي اليوم الثاني نزل المماليك الجلبان في العوارع وأثاروا الفزع في نفوس الناس وسخروا من رجال الدولة والعلماء وخطفوا وسرقوا الأقمعة والسلع في وضح النهار.[٥٥٥] وفي شام ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٥م حدثت حادثة أخرى دلت شلى مدى استهتار المماليك بالمصريين والأثر السيئ الذي تركوه في نفوسهم من الفزع والرشب والخوف وأثر سيئ آخر مدمراً شلى الاستقرار الضروري لرواج الأسواق، فقد حدث أن خرج جهاز شروس محمولاً شلى رؤوس الحمالين وشلى ظهور البغال في العارع كما كانت العادة وتصادف أن مر أحد فرسان المماليك بجوار الموكب فوقعت قطعة نحاس أحدثت صوتاً مدوياً جعلت الحصان يرتجف، فغضب الفارس وضرب الحصان وساقه مسرشاً فلم تعك العامة في أن المماليك نزلوا إلى نهب الحوانيت فأغلقت الأسواق والحوانيت في الحال[٥٥٦]، وفي شام ٩٠٧ هـ ١٥٠١م تأخرت رواتب المماليك ثلاثة اشهر، فتمردوا شلى السلطان الغوري وهددوه فبدأ بالاستيلاء شلى أموال الناس وفرض الضرائب الباهظة وجمعها مقدماً لمدة شعرة شهور فحصل بذلك الضرر العامل، وتعطلت الأسواق من البيع والعراء وغلقت غالب دكاكين القاهرة ووقع الاضطراب للغني والفقير وصار الناس بين جمرتين[٥٥٧].

وفي شام ٩١٦ هـ/ ١٥١٠م شجز قنصوة الغوري شن دفع مرتبات المماليك، فنزلوا إلى شوارع القاهرة ونهبوا سوق جامع ابن طولون وسوق الصليبية وسوق تحت الربع والبسطيين، وأغلقت بقية الأسواق ونهب المماليك الجليان في ذلك اليوم حوالي خمسمائة وسبعين حانوتاً وقدرت خسائر التجار بحوالي شعرين ألف دينار وكادت مصر أن تخرب شن أخرها في ذلك اليوم[٥٥٨].

---

[٥٥٥] ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدي الأيام والشهور، ج٢، حرره وليام بيير، كاليفورنيا، ١٩٣٠م، ص٢٣٠-٢٣١.

[٥٥٦] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ٩٦-٩٧.

[٥٥٧] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٦.

[٥٥٨] نفس المصدر السابق، ص ٢١٦.

ومن بين العوامل المؤثرة في حركة الأسواق والتجارة الداخلية، هي نظام طرح البضائع، وتقوم فكرة ذلك النظام شلى أن تفرض الدولة بعض السلع والبضائع المتوفرة لديها شلى التجار بالسعر الذي تحدده وتراه بالكمية التي تريدها بغض النظر شن حاجة السوق ولا يحق للتاجر الرفض أو المساومة شلى السعر. ويبدو أن الدولة قد اتبعت ذلك النظام شندما كانت تسوء الأحوال المادية وترغب في سد نفقاتها الخاصة ومواجهة المتاشب المالية. كانت تتعطل الأسواق في ذلك الوقت نتيجة انعغال التجار بعراء ما تطرحه الدولة من بضائع ففي شام ٨٢٩ هـ/١٤٢٥م بعد الاستيلاء شلى جزيرة قبرص وأسر ملكها أمر السلطان برسباي بجمع التجار لعراء الغنائم، فتعطلت أسواق القماش شدة أيام لانعغال التجار [٥٥٩]، وفي شام ٨٧٥ هـ /١٤٧٠م ذكر الصيرفي أن مصر أصبحت في ألم شديد من شدة وجوه وهو أن الأساكفة طرح شليهم من ديوان الدولة جلود في مقابل مصنوشات جلدية بأسعار زهيدة، كما تعطل تجار الحوانيت من أول شهر رمضان إلى نصف العهر بسبب بيع تركة أحد الأمراء المماليك [٥٦٠].

تلك السياسة هدفت إلى رفع الأسعار للسلع أكثر من سعرها الأصلي وضد رغبة المعترين فضلاً شما كان يتحمله التجار والعامة من خسائر مادية فادحة من جراء تلك السياسة [٥٦١] فأدى ذلك إلى هروب بعض التجار حين كانوا يعجزون شن دفع الثمن المطلوب ففي شام ٩٠٧ هـ/١٥١١م طرح السلطان قنصوة الغوري شلى التجار في الأسواق زيتاً وشسلاً وزبيباً وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث وكانت النتيجة أن هرب التجار وأغلقت الأسواق شدة أيام [٥٦٢].

بالإضافة إلى شوامل أخرى أثرت شلى التجارة الداخلية تمثلت في قلة شدد السكان نتيجة للأوبئة والمجاشات وفرض ضرائب متنوشة وباهضة و سياسة التغيير

---

[٥٥٩] (المقريزي، السلوك، ج ٤ ق٢، ص ٧٢٨.
[٥٦٠] (الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، ص ٢٦١.
[٥٦١] (الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص.
[٥٦٢] (ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٤٢.

النقدي التي أدت إلى قلة شدد الأسواق في العام ومصر أو دمجها أو تغيير لأسمائها واختفى بعضها. فذكر المقريزي أن بمدينة القاهرة ومصر وظواهرها من الأسواق شيء كثير جداً قد باد أكثرها وكفاك دليلاً شلى كثرة شددها أن الذي خرب من الأسواق فيما بين أرض اللوق إلى باب البحر بالمقص اثنان وخمسون سوقاً أدركناها شامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتاً وتلك من جملة ظاهر القاهرة الغربي فكيف ببقية الجهات الثلاثة مع القاهرة ومصر [٥٦٣]، أما الإسكندرية المدخل الهام لمصر فقد كانت السياسة الملوكية السيئة سببا في جعلها مدينة شبه مهجورة وغير مأهولة بالسكان رغم جمالها وحسن مساكنها التي أصبحت لا تساوي شيئا) [٥٦٤].

- التـجارة الخـارجيـ :

تمتعت مصر والعام منذ بداية العصر المملوكي بعلاقات تجارية قوية مع الدول الإسلامية والدول الأجنبية، حيث استطاع السلاطين المماليك تحقيق هدوء نسبي ملحوظ في المنطقة بعد صد هجمات المغول وسقوط بعض الإمارات الصليبية في بلاد العام، ثم شقد مهادنات مع الدول الأجنبية من ناحية ومع الإمارات الصليبية الباقية في بلاد العام من جهة أخرى، فسنحت الفرصة للسلطان المملوكي شقد اتفاقات تجارية قوية ومستمرة شلى المدى الطويل، وزاد حجم التبادل التجاري مع الدول الأوربية، وكما زاد نعاط التجار الأجانب في المدن العامية الواقعة في أيدي الصليبيين وتوثقت العلاقات التجارية بين العرق الإسلامي وبين الغرب المسيحي، وكذلك زاد نعاط هؤلاء التجار الأجانب في المدن المصرية الساحلية رغم شدم السماح لهم بالتواجد والإقامة في مدة تتراوح ما بين أربعة أشهر إلى ستة أشهر وهي المدة الكافية لتحقيق أغراضهم التجارية، أما القنصل الأجنبي فقد كان مسموحاً له بالإقامة لمدة شام واحد وأحياناً تمتد المدة إلى ثلاثة أشوام فقط إلا أن بعض التجار الأجانب شاشوا متنقلين بين موانئ مصر والعام وأوربا.

هناك شوامل شديدة ساهمت في اتجاه التجار الأجانب نحو موانئ مصر والعام وساشدت في تطوير وتحسين التجارة الخارجية مثل العوامل الخارجية:

([٥٦٣]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٣.

([564]) Dopp , Le Egypte , p. 36.

كان للعوامل الخارجية أثرٌ واضحٌ في قدوم الأجانب إلى مصر من جنسيات مختلفة وأهم تلك العوامل، هو مدى استقرار الأحوال شلى طرق التجارة البرية والبحرية في آسيا وأفريقيا وأوربا فقد كان الطريق المعتاد لسلع العرق الأقصى إلى ساحل البحر المتوسط هو الطريق البحري من موانئ الصين مارا بالهند ثم الخليج العربي لتصل إلى البصرة، ثم تصعد نهر دجلة إلى بغداد فالموصل لتحملها القوافل إلى حلب أو دمعق، ومنها إلى موانئ الساحل العمالي فى طرابلس وبيروت وغيرهما من الموانئ (٥٦٥) في انتظار السفن لنقلها إلى بلدان أوربا، بينما يتجه فرع آخر شمالا إلى ديار بكر فأرمينيا ثم القسطنطينية مستودع سلع العرق والغرب والعمال والجنوب معا، ومن العاصمة البيزنطية توزع شلى جميع أنحاء أوربا، وكان هناك طريق أخر غير الخليج العربي، وهو طريق البحر الأحمر ثم الموانئ المصرية كعيذاب والقصير ومنها تنقل البضائع بالقوافل إلى قوص شلى نهر النيل لتصل القاهرة وأحيانا كانت تصل أقصى شمال خليج السويس شند القلزم ومن تلك المدينة تنقز بالقوافل إلى القاهرة ومنها شبر فرع رشيد ثم الإسكندرية أو فرع دمياط (٥٦٦)، حيث تنقلها السفن إلى أوربا وبلدان شمال أفريقيا وهناك فرع آخر يتجه شمالا إلى موانئ العام.

لكن بعد سقوط شكا آخر معاقل الصليبيين شلى ساحل العام فى أيدي المماليك)٦٩٠هـ/ ١٢٩١م(فرضت البابوية حربًا اقتصادية شلى مصر، ومنعت السفن المسيحية من الاتجاه إلى الثغور المملوكية في مصر والعام وكلفت فرسان الداوية بمراقبة تنفيذ تلك المقاطعة وأسر أي سفينة تخالف تلك الأوامر)٥٦٧(، لذلك بحث الغرب المسيحي شن طريق جديد لاتصاله بالعرق الأقصى بعيدًا شن أراضي الدولة المملوكية وحاول تنشيط الطريق البرى من أوربا إلى فارس والهند المار ببلاد الدولة البيزنطية)٥٦٨(. ولكن يبدو أن معظم التجار كانوا يفضلون الطرق البحرية.

)١(هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٣١ – ٣٣٢ ؛ عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٦٤.

)٢(عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٦٤.

Lopez and Raymond , Medieval trade in Mediterranean world,new york,1955,pp.29-32.

)3(Thompson ,)j. w.(, History of the middle ages , London ,1931, p. 29.

)4(نعيم زكى فهمى، طرق التجارة، ص ١١٧ ؛ وتنفيذا لأوامر البابوية تعاونت بعض الدول الأجنبية

ونظرًا للاضطرابات التي تعرضت لها مناطق وسط آسيا وفارس والعراق والعام وآسيا الصغرى منذ القرن الثالث شعر الميلادي – القرن السابع الهجري بسبب ظهور المغول فى آسيا، وامتداد نفوذهم في المنطقة وإقامة إمبراطورية شظيمة شلى حساب الععوب الآسيوية وقيامهم بتدمير الطرق التجارية البرية القديمة بين الصين من جهة وآسيا الصغرى من جهة أخرى فأصبحت غير آمنة وغير صالحة للسفر وشمتها الفوضى والاضطراب [٥٦٩]، وذلك ما أكده الرحالة ماركو بولو وأشار إلى شدم وجود الأمان في ذلك الطريق وتعرضه لاشتداءات اللصوص وقطاع الطرق شلى القوافل التجارية والمسافرين [٥٧٠]، ومما زاد الأمر سوءا هو تصاشد الحروب والغزوات المستمرة في آسيا في نهاية القرن الثامن الهجري - الرابع شعر الميلادي، فأدت إلى انهيار الإمبراطورية المغولية في فارس وظهور تيمورلنك الذي قاد شدة حملات مدمرة في غرب آسيا [٥٧١]، ثم الصراشات الدائرة بين الأمراء التركمان والمماليك أو تلك الحروب التي نعبت بين الصفوين والعثمانيين في العراق وآسيا الصغرى، فامتنعت السفن العرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج الفارسي وهرمز والبصرة [٥٧٢].

مع المغول لتحويل طريق التجارة إلى الخليج الفارسي وذلك بإرسال بعض السفن عبر الخليج الفارسي إلى المحيط لفرض حصار على عدن واعتراض السفن وإجبارها على الدخول في الخليج وهكذا يتم قطع الطريق المصري إلى الهند عبر البحر الأحمر ولكن ذلك الطريق لم يكن سهلًا ولم يحقق الربح المطلوب نظرًا لطول المسافة وتدخل السلطات المملوكية لحماية طرقها وجذب الأجانب إليها.

([٥٦٩]) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٢٩٩ ؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٢٩٧ ؛ جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر اسكندر، القاهرة، ب.ت، ص ٨٠.

([٥٧٠]) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ترجمة وليم مارسدن، عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة، ١٩٩٦م، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

([٥٧١]) جوزيف نسيم، دراسات فى تاريخ الشرق والغرب، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ١٤٣ ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٢٦.

([٥٧٢]) نعيم فهمى زكى، طرق التجارة، ص ١٢٤.

بالإضافة إلى شامل آخر جعل المواني المصرية والعامية أهم وأقوى المواني في منطقة البحر المتوسط، هو الاستيلاء المماليك شلى دولة أرمينية الصغرى شام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م ثم خراب وتدمير ميناء فماجوستا القبرصي والذي كان مركزاً لكافة البضائع المتوفرة من كل الأمم المسيحية، ولذلك كانت جميع القوافل تصل إلى بيروت وطرابلس من دمعق، ومن هناك يتحرك التجار بسفنهم ويتجهون إلى فماجوستا فكانت المدينة مركز تجمع السلع العرقية ثم أستولي شليها الجنوية شام ٧٧٦ هـ /٣٧٤' م واستعادها ملك قبرص، ثم شادت إلى أيدي البنادقة، وبسبب ما تعرضت له المدينة من معارك ومنافسات شليها مستمرة فقدت قوتها الاقتصادية ونتيجة لسيطرة الجنوية ثم البنادقة شلى المدينة فقد أغلقت الميناء لصالح البنادقة، مما أدى إلى اتجاه الدول الغربية إلى موانئ بيروت والإسكندرية وتركوا الموانئ الجنوية والبندقية و فماجوستا، وكان يمر بذلك الميناء سنوياً ما يتراوح من ٦٠ إلي ١٠٠سفينة مختلفة الأحجام والحمولة، وكل سفينة تنقل ما بها إلى القاهرة وسوريا بحمولة تقدر بحوالي مائه ألف ديناراً ذهباً، وهكذا اتجه التجار الأوربيين نحو الموانئ المصرية والعامية بصفة أساسية(٥٧٣).

كما أن ظهور العثمانيين في آسيا أثر بصورة كبيرة شلى تلك الطرق حيث اتجه العثمانيون إلى حرب التوسع شلى حساب جيرانهم من مسلمين ومسيحيين شلى السواء والتي استمرت حتى أوائل القرن السادس شعر الميلادي – القرن العاشر الهجري فأدى ذلك إلى سقوط القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هـ /١٤٥٣م، وما تلاه من شمليات حربية في البر والبحر أدت إلى إرباك تلك الطرق المارة بأراضي الدولة البيزنطية، ثم قيام السلطان العثماني بالقبض شلى الأجانب في المدينة، مما أدى إلى رحيلهم شن القسطنطينية، وأغلقت الأسواق وفقدوا أحيائهم ونتيجة لذلك خعى الأجانب شلى أموالهم وأرواحهم، فاضطروا إلى هجر الطرق التي هددتها الحروب وجعلتها غير آمنة، ولم يجدوا أفضل من الطريق الذى يمر بالأراضي المصرية وهو بعيد شن مسرح تلك الأحداث الدامية(٥٧٤).

---

(573) Dopp , Le Egypte , pp. 54-57.

(٥٧٤) نعيم فهمى، طرق التجارة، ص ٣٧ ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ١٦٥ – ١٧٠ ؛
Poston (T.) , The Cambridge economic history, Cambridge,1952 ,vol 2 , p.

كما أن الحروب الصليبية قد ساهمت بعكل واضح في تطوير حركة التجارة الخارجية، حيث سيطرت المدن الإيطالية شلى البحر المتوسط، وكانت الوسيط التجاري بين العرق والغرب واستفاد الغرب من تلك الحروب بحصوله شلى أسواق وأحياء تجارية قائمة في بلاد العام، وسهلت له فرصة الحصول شلى السلع والبضائع العرقية ومما لاشك فيه أنه لولا الحروب الصليبية لم تكن المدن الإيطالية تستطيع أن تقيم لها أسواق تجارية مستمرة في العرق، أو يعرف الناس في أوربا استخدام السكر والتوابل وغيرها(٥٧٥).

بالإضافة إلى العوامل الداخلية المتمثلة في أن السلطة المملوكية قد شملت شلى حماية التجار الأجانب وتحسين العلاقات معهم وسمحت لهم بالقدوم إلى مصر في كل الأوقات، وشقدت اتفاقيات تجارية هامة ووفرت لهم خدمات وتسهيلات شديدة لهم، مما شجع شلى ازدهار التجارة الخارجية حيث أشتاد السلاطين المماليك شلى إصدار المراسم لإغراء التجار للقدوم إلى الدولة والإقامة بها، مؤكدين شلى مبدأ الحرية والأمان التام لهم وشدم تعرضهم لسوء أو خطر (٥٧٦).

وتنفيذاً لتلك المبادئ حرص المماليك شلى تحذير نوابهم في الثغور من سوء معاملة الوافدين وأمروهم بحسن ومراشاة العدل في جمع الضرائب منهم وقد أورد القلقعندي رسالة صادرة من السلطان المملوكي المنصور قلاوون إلى ناظر ثغر الإسكندرية وفيها يأمره بحسن معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق .... فإنهم هدايا البحور ودوالبة الثغور ومن ألسنتهم يطلع ما تحبه الصدور وإذا ذعر لهم الإحسان ذعروا له أجنحة مواكبهم كالطيور(٥٧٧)، وفى شام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م قدمت رسل البندقية بهدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت

---

99 –102.

(575) Day (C.), History of Commerce, New York, 1940, P. 87, Painter (S.), A history of the middle ages, New York, 1954, p. 219.

(٥٧٦) ابن عساكر، الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تحقيق، عبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٩٨ م، ص ١٧٤ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤١ ؛ ٦٩.

(٥٧٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٢١.

به شاداتهم وأن يمكنوا من بيع بضائعهم شلى ما يختارونه فرسم السلطان لناظر الخاص بثغر الإسكندرية بألا يتعرض لبضائعهم ولا يأخذ منهم شيء إلا بقيمته ولا يلزمهم بعراء ما لا يختارونه وأن تأخذ منهم شلى كل مائة دينار دينارين فقط وكانوا من قبل يؤخذ منهم أربعة دنانير ونصف دينار وذلك رغبة في تعجيع حركة التجارة الخارجية [٥٧٨].

كما استطاع الأشرف قايتباي تعجيع العلاقات التجارية مع الدول الأوربية ففي شام ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م تسلم هدايا من سفير فلورنسا وتلاها في ٥ محرم ٨٩٣ هـ / ١١ نوفمبر ١٤٨٧ أرسل له السلطان زرافة جميلة وأسد وحيوانات وشطور شرقية. [٥٧٩]، وليس أدل شلى تحسين التجارة الخارجية وتوسعها في العصر المملوكي مما ذكرته المصادر والمراجع المعاصرة، حيث أوضحت بعض المراجع الأوربية أن شدد السفن الأوربية التجارية كانت كثيرة فقد كانت البندقية ترسل أسطول تجاري يتألف من ٦ إلى ١٠سفن تجارية إلى بيروت في القرن الثامن الهجري / الرابع شعر الميلادي، وما بين ٢ إلي ٤ سفن في القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي، وسبب ذلك يعود إلى الحروب العديدة والطواشين المتكررة والحالة الاقتصادية العامة والتي كانت من شأنها أن تحد من مستوى الذعاط التجاري وتقليصه [٥٨٠].

كما ذكر الرحالة أرنولد فون هارف أنه أثناء ذهابه إلى بيت المقدس شام ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م ركب سفينة تجارية وبرفقتها سفينة أخرى مسلحة لحمايتها من خطر القراصنة في البحر المتوسط وذكر أن مجلس السناتو البندقي قد حدد شدد السفن المتجهة إلى العرق بحوالي ١٤ سفينة خصصت كل اثنين للإسكندرية، بيروت، طرابلس، شمال أفريقيا، القسطنطينية، يافا والتي اشتاد الحجاج أن يبحروا كل سنة

---

(٥٧٨) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٦٧٠ ؛ Schefer , Le Voyage de Thenaud , p. 122.

(579) Wolff ,How many miles? , p. 33.

(٥٨٠) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٣٦ ؛ سمير علي الخادم، الشرق الإسلامى، ص ١٤٢. Lane , Venice Maritime Republic , p. 200 – 201.

شلى متنها للذهاب إلى القدس وكانت قيمة السلع التي تعود بها السفن البندقية بحوالي ٢٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية [٥٨١]، وفي فترة الخريف كانت المراكب المرسلة سنوياً من البندقية إلى الإسكندرية شادة قافلة مؤلفة من ٤ إلى ٦ سفن [٥٨٢].

ونتيجة لما سبق وجدت جاليات أجنبية كثيرة في دمعق من البنادقة وقطالونيا وفلورنسا وجنوة وتجار فرنسيين اهتموا بعراء العديد من السلع وخاصة التوابل التي ينقلونها إلى بيروت ثم السفر في السفن إلى ناربون[٥٨٣]، كما أوردت كتب الرحالة الأجانب معلومات تفيد بوجود شدد كبير من الأجانب في مدينتي الإسكندرية والقاهرة من جنسيات شديدة، وبأشداد مختلفة من الأرمن والأحباش واللاتين واليونانيين والمسيحيين الوافدين من جورجيا وغيرهم الذين أتوا لتحميل السلع المصرية والعرقية غالية الثمن والقيمة للحصول شلى أكبر ربح مادي. [٥٨٤]

بالإضافة إلى بعض التجار الأجانب الذين كان لهم دور فعال في العلاقات السياسية والاقتصادية بين السلطات المملوكية والدول الأجنبية مثل برتراندو ميجنانلي Bertrando de Mignanelli والذي أرتبط بعلاقة صداقة قوية مع السلطان برقوق، وكان تاجراً إيطاليا كتب سيرة السلطان الذاتية وشاش في دمعق فترة طويلة حتى أصبح رجلاً ثرياً، وكان له حظ وافر في التجارة، كما شمل لدى السلطان برقوق مترجماً، وشمل كذلك كوسيط أو سفير رسمي مرسل من قبل فيكونت ميلان إلى السلطان ليسمح له بإشادة بناء كنيسة الميلاد في بيت لحم بناء شلى طلب الراهب الفرنسيسكاني في دير جبل صهيون، وأن الدوق سيتحمل النفقة والإصلاح بعد فترة استطاع ذلك التاجر الحصول شلى الإذن بتحقيق ذلك الغرض [٥٨٥].

---

(581) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp 69 -71.

(582) Dopp , Le Egypte , p. 97.

(583) Wright, Early Travelers , pp. 293 – 295.

(584) Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 47 , Dopp , Le Egypte, p. 75 , Ghistele , Voyage en Egypte, p. 113 , Ludolph , Description of the Holy land , 46 , See Also , Atiya , the latter crusades ,p. 193.

(585) Wolff , How many miles?, p. 26.

أيضًا كان هناك بعض الأجانب الأوربيين الذين اتصلوا بالسلاطين المماليك وتوطدت بينهم صلات الصداقة والمحبة، وقاموا ببعض المهام الخاصة للسلطان مثز، التاجر الجنوي سكران الذى بلغ من الثراء والقوة الاقتصادية ما لم يبلغه كثير من التجار الأوربيين فى ذلك الوقت، مما أدى إلى اتصاله بالسلطان المملوكي وحقق نجاحا ملحوظا فى شلاقته به ولذا اشتمد شليه الناصر محمد بن قلاوون في تنفيذ مهمة جليلة، ففي سنة ٧١١هـ/١٣١١م أسر فرنج جزيرة المصطكي رسل السلطان وباشوهم فطلب منه السلطان أن يعيد هؤلاء الأسرى المسلمين وبالفعل استطاع تنفيذ المهمة بنجاح(٥٨٦)، أما التاجر بيلوتي الكريتي فهو تاجر بندقي الأصل ولد في جزيرة كريت التي كانت تابعة لجمهورية البندقية وتخضع لسيادتها، ولما بلغ سن الخامسة والعشرين اشترك في قافلة تجارية ذاهبة إلى الإسكندرية واستمر يعمل كتاجر متجول في موانئ العرق والغرب لمدة خمسة وثلاثين شامًا(٥٨٧)، وقد لعب ذلك التاجر دورا سياسيا هاما في الدولة المملوكية حيث يرجع إليه الفضل في شودة الأسرى المسلمين الذين أسرهم القراصنة في سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م في مياه أضاليا – أيام حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق - وباشوهم في جزيرة ناكسوس التابعة للبندقية وشندما طلب السلطان من

)3(محمد بن بهادر، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر،)مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧تاريخ(، ورقة ٤٨٤ ؛ ابن أبي الفضائل، المفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، ج٣، تحقيق blochet، باريس ١٩١٩م، ص ٧٠٤ – ٧٠٥.

)1(Atiya, the latter crusades. 208; Dopp , le relation Egypte – Catalonia et les corsairs au commencementduSiecleleCaire1949,p.2.

- جزيرة المصطكي: يقال أنها تسمى جزيرة خيو او خيوس فى البحر المتوسط ويجمع منها شلك المصطكى ومنها يحمل إلى البلاد المجاورة ولذلك تسمى بجزيرة المصطكى، أنظر، الأدريسي، نزهة المعتاق، ج٢،ص ٦٤١؛ والمصطكى هو شجرة شطرية يؤخذ من جذشها هذا السائل الذى يستعمل فى صنع منجزات طبية حيث يستخدم فى العلاج ويؤخذ شن طريق شقوق فى اللحاء الا ان المادة المتجمدة شلى العجرة نفسها افضل بكثير من النوع الذى يسقط شلى الارض ويصدر منه كميات كبيرة لبلاد شرق البحر المتوسط وخاصة شلى اسواق دمعق والقاهرة والاسكندرية وغيرها، انظر، هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص ١٣٨-١٣٩.

القنصل البندقي بالإسكندرية التدخل لاستعادة هؤلاء الأسرى رفض ذلك بحجة أن الجزيرة ليست تابعة للبندقية ؛ ولذا فقد تعرض التجار البنادقة في الإسكندرية كالعادة للمصادرة والطرد فاجتمعوا ودفعوا مبلغًا ضخمًا قدر بحوالي ألف بيزنطي وتولى التاجر بيلوتي الكريتي مهمة افتداء الأسرى المسلمين وشودتهم سالمين إلى القاهرة [٥٨٨]. حقيقة كان ذلك العمل التطوشي بداية نجاحه الحقيقي مما سمح له بالتجول فى القاهرة والإسكندرية، ثم اشتمد شليه الناصر فرج بن برقوق مرة أخرى في عقد الصلح بين مصر وجنوة بعد تأزم العلاقات بينهما، ونتيجة لتلك الثقة استمر بيلوتى الكريتي في التنقل ما بين القاهرة وكريت والبندقية، وظل يتمتع بالصفة السياسية و التجارية حتى نهاية شصر السلطان برسباي[٥٨٩].

كما كان له دور في شمليات القرصنة التي قام بها القراصنة الأجانب شلى العواطئ المصرية والعامية بمساندة البابوية وذلك لأنه قد ألف كتابًا شن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماشية في الدولة المملوكية في القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي وأهداه للبابا كمحاولة منه لتحريض البابا والغرب المسيحي لشن هجوم على مصر[٥٩٠]، وكذلك التاجر الفرنسي جاك كير الذى كان شلى صلة مباشرة بالسلطان جقمق واستطاع أن يعقد صلحًا بين السلطان وبين ملك رودس بعد هجوم القوات المملوكية شلى جزيرة رودس في سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م[٥٩١].

---

(2) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٣٠ ؛ Dopp , l' Egypte , p. 85 – 89 ; See Also , Hill ,)G.(, History of Cyprus, vol 2 ,)Cambridge , 1972(,. p 453 – 455.

(3) حسين النحال، الحروب الصليبية المتأخرة علي مصر وتونس، دكتوراة غير منشورة، عين شمس، ١٩٩١م، ص ٢٢٠.

(267) أحمد دراج، علاقة المماليك بالفرنج، ص ٢٠٣.

(268) محمد مصطفى زيادة، " المحاولات الحربية للاستيلاء على رودس "، ترجمة جمال الدين الشيال، مجلة الجيش ١٩٤٦م، ص٢٠٢ ؛ أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص٦٠٦.

- جاك كير: وهو من أسرة عريقة فى فرنسا ذات أصول تجارية عقد اتفاقية تجارية مع مصر لصالح فرنسا وتولى مناصب مرموقة ولكنه اتهم بقتل زوجة ملك فرنسا وسجن ثم هرب إلى صديقه البابا فى روما وتوفى عام ١٤٥٦م ؛ مزيد من التفاصيل، انظر، عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٩٠ ؛ Ziada,)M.M(The Foreign relation of Egypt in 15 century London , 1967, pp.239–241.

ونتيجة للتعاون بين الدول المملوكية وأوربا فرضت البابوية شقوبات اقتصادية شلى السفن الأجنبية لمنع تزويد السلطات المملوكية بالسلع الأساسية مثل الخعب والحديد والأسلحة والأغذية والسلع الأخرى ومن حاول مخالفة ذلك القرار تعرض لعقوبة الحرمان الكنسي، وقد حدد البابا نيقولا الرابع)٦٧٩-٦٩٢هـ( )١٢٨٠ – ١٢٩٢ م(قراراً بمنع إرسال المواد الغذائية لمدة شعر سنوات إلا أن ذلك لم يكن ذا فائدة لأن البابا بونيفاس الثامن)١٢٩٤ – ١٣٠٣ م(مد فترة إرسال المواد الغذائية شعر سنوات أخرى ثم أشلن البابا بنوا الحادي شعر)٧٠٣-٧٠٦هـ( )١٣٠٣ – ١٣٠٦ م(أنه بإمكان البنادقة تزويد السلطان المملوكي بالسلع الغير هامة، ولكن البابا كليمون الخامس)٧٠٦-٧١٤هـ( )١٣٠٦ – ١٣١٤ م(بدأ شهده بالتحضير لحملة صليبية جديدة وبدأ من خريف ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨ م بإصدار سلسلة من القرارات يمنع بموجبها إرسال كافة السلع إلى العرق وكل من يخالف ذلك يتعرض للمصادرة والحرمان الكنسي وقد تضررت البندقية من تلك القرارات واتهم البابا بعض تجارها بالفسق وحرمهم من حقوقهم العرشية والمدنية [٥٩٢].

استمرت سياسة البابوية حيال التجار الأوربيين غير ثابتة شلى مبدأ واحد فهي تارة متعددة وتارة أخرى مرنة فعند غزو قبرص للإسكندرية تعددت البابوية في قراراتها، وأحكمت الخناق شلى الأوربيين حتى اضطروا إلى الرضوخ لأوامرها، ولكن سرشان ما شادت الأمور كما كانت شليه واستطاشت الدول التجارية الحصول شلى تراخيص جديدة لاستئناف التجارة مع العرق في مقابل أموال هائلة تكدست في خزانة الكنيسة واستمر الوضع هكذا حتى تلاشى تأثير البابوية في أوربا خلال القرن الخامس شعر[٥٩٣]، في حين كانت ترى البابوية في إصدار تلك القرارات فرصة لاستعادة هيبتها بين المسيحيين الغربيين، ومع ذلك لم تسترد قوتها، كما رأت في صدور التراخيص مصدرًا هامًا للحصول شلى الأموال لإرسال حملات صليبية إلى العرق ولكنها انعغلت في الصراع الذى احتدم داخل القارة الأوربية بين بابوات روما

)[٥٩٢](مارينو، كتاب الأسرار، ص ١٠-١١.

Deeping , Histoire de Commerce , tome 2 , p 196.)270(

وبابوات أفينون، وانقلبت الصورة تمامًا فبعد أن كانت البابوية تسيطر شلى العالم المسيحي الغربي بما فيه الإمبراطورية أصبحت في أخريات العصور الوسطى أداة في يد الحكام لذلك لم تنفذ قرارتها، ولم تحترم آراؤها إلا إذا كانت فيها مصلحة للععوب، وليس أدل شلى ذلك من وثيقة جنوية مؤرخة في ٨ ذو القعدة ٧٠٣هـ / ١٤ أكتوبر سنة ١٣٠٤م – ولم تكن قد انتهت مدة الععر سنوات – ثبتت وجود قنصل جنوى مقيم بالإسكندرية بالإضافة إلى وجود فندق للجنوية مفتوحًا للوافدين الذين جاءوا سرًّا إلى مصر بدون شلم البابا(٥٩٤)، كما أكد الرحالة لودولف الذى زار الإسكندرية في ٧٣٧ – ٧٤٢ هـ / ١٣٣٦ – ١٣٤١ م وجود كثير من التجار البنادقة في المدينة وهم يمارسون نعاطهم الاقتصادي، ويتمتعون بحريتهم الدينية في الكنيسة المرقصية(٥٩٥).

أما الوثائق الخاصة بجمهورية بيزا بين شامي٥٧٠ هـ / ١٣٠٥م، ٧٢٣ هـ / ١٣٢٢م فقد زودتنا بمعلومات شن توافد جالية بيزية في الإسكندرية ووجود قنصلية بيزية أيضًا فضلًا شلى أنه كان مفروضًا شلى القنصل أن يدفع لخزينة كاتدرائية بيزا إيرادات فندق الجالية البيزية(٥٩٦)، أما أراجون فقد أصدرت قرارا يحرم شلى رشاياها التجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان المملوكي وفقا لقرارات البابوية ولكن توتر العلاقات بين البابوية وملك أراجون وقعتالة من ناحية وقيام بعض التجار الأراجونيين بصورة غير رسمية وفردية بالإبحار إلى مصر من ناحية أخرى(٥٩٧)، أضطر ملك أراجون خايم الثاني Jame ii)١٢٩١ -١٣٢٧ م(لعقد معاهدة تجارية وشسكرية مع السلطان المملوكي، ففي شام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م أرسل سفيرًا إلى الناصر محمد بن قلاوون يطلب منه أن يرد له اثنى شعر ألف بيزنطة أخذت من تجار أراجون في جمرك الإسكندرية(٥٩٨)، مما يدل شلى موافقة الملك شلى وجود رشاياه في الدولة

)271(هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص ٢٦٧ – ٢٦٨.

.Ludolph, Description of the Holy land, p. 46)272(

)273(هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٦٨.

)٥٩٧(محمد محمود النشار، علاقة مملكتى قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ٢٠٥ -٢٠٦.

)2(Atiya)A. S(, Egypt and Aragon , Leipzig , 1938 , p.20.

المملوكية كما أثبتت المصادر المعاصرة وجود قنصلية قطالونيا في الإسكندرية وفندق قطالوني يستقبل من وقت لأخر تجارًا و سفراء من برشلونة[٥٩٩]، وهكذا كانت الدول الأوربية تتحايل شلى القرارات البابوية وتستغل حاجتها إلى المال وتحصل شلى تراخيص خاصة بالإضافة إلى انعغال الغرب المسيحي والبابوية بتوحيد جهودهما في العصر الوسيط المتأخر إلى محاربة الأتراك في أوربا، وبذلك لم يعد ممكنا أمام الدول الأوربية السفر برًّا أو بحرًا إلى آسيا وأفريقيا إلا شن طريق أملاك وأراضي الدولة المملوكية.

كانت السلطات المملوكية تفرض في بعض الأحيان رسوم وضرائب باهظة شلى التجار الأجانب، سواء شلى السلع الواردة أو الصادرة وخاصة شلى البهارات والتوابل لدرجة أنها كانت تتكلفت أكثر من ثمنها الأصلي، فأحدث ذلك خسائر كثيرة تحملها سكان أوربا من الفلاندرز وألمانيا وسائر البلاد المسيحية[٦٠٠]، وكثيراً ما اشتكي التجار الأجانب من ارتفاع الأسعار وسوء معاملة المماليك والتجار المسلمين وشمال الجمرك ومن التعسفات والقرارات القاسية التي فرضتها السلطات المملوكية شلى التجار بصفة شامة سواء المسلمين أو المسيحيين الأجانب، ففي شام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م تقدم قنصل البندقية بعكوى إلى السلطان فرج بن برقوق بسبب تعسف وقسوة والي الإسكندرية وشمال الجمرك، حيث أساءوا معاملة التجار البنادقة ورغم أنهم تعرضوا للقرصنة ومخاطر السفر في البحر المتوسط إلا أنهم ظلوا يتوافدون شلى العواطئ والموانئ المملوكية بصفة دائمة ولكن نتيجة لما حدث فقد قرروا العودة ومغادرة البلاد لحين تحسن الأوضاع [٦٠١].

جاء إلى مصر السفير الفلورنسي فيليبس برانكاشي شام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢م لمقابلة السلطان برسباي ليطلب منه منح بلاده ورشاياه نفس الحقوق التي منحها للتجار البنادقة والجنوية، وخاصة أن الفلورين الذهبي وهو العملة المتداولة في فلورنسا في

)٣(هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص ٢٦٣.

)600(Dopp , Le Egypte , p. 75.

)601(Ibid , pp. 83- 84.

ذلك الوقت كان لها نفس الفائدة والقيمة للعملة البندقية في البلاد المملوكية [٦٠٢]، ثم بالغ السلطان المملوكي في تعسفه ضد الأجانب، حيث منع إقامة القبان لوزن البضائع، وامتنع الناس شن بيع التوابل للتجار الأجانب وألزمهم بعراء الفلفل السلطاني ١٢٠ ديناراً للحمل الواحد في حين كانت قيمته مع التجار ٨٠ ديناراً فقط فأخذوا جزء منه وامتنعوا شن شراء الباقي، وشادوا إلى بلادهم، وتركوا كميات كبيرة من الفلفل في ميناء الإسكندرية فعمل بذلك الضرر والخسارة لكثير من التجار المسلمين والأجانب[٦٠٣]، وازدادت تلك القسوة وأضطر قنصل الجنوية شام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م ومعه بعض التجار إلى الهرب دون دفع الديون المتبقية شليهم للديوان السلطاني، والتي قدرت بحوالي ٢٠ ألف دينار نتيجة لارتفاع الأسعار وشند رحليهم قابلوا مركبين قادمين من بلادهم فعرفوا ما حدث في ميناء الإسكندرية فاضطر الجميع إلى العودة إلى جنوة[٦٠٤]، وفي العام الثاني الزم السلطان برسباي الأجانب بعراء حمل الفلفز ١٣٠ ديناراً رغم أن سعره في القاهرة كان ٥٠ ديناراً فقط[٦٠٥]، واستمر ذلك الوضع فترة طويلة في شهد قايتباي والسلطان الغوري حتى اشتكى جميع الأجانب، وأرسل الملوك والحكام السفراء والرسل لحث السلطان المملوكي شلى حسن معاملة رشاياهم في بلاده [٦٠٦].

كما امدتنا سفارة دومينيكو تريفزاني البندقي إلى القاهرة شام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م بمعلومات هامة تدل شلى مدى الاضمحلال السريع للتجارة الأجنبية، فقد اشتكى التجار المسلمون إلى السلطان الغوري من قلة سفن البنادقة في الموانئ المصرية والعامية، حيث أنهم لم يعاهدوها إلا مرة كل شامين ولا تزيد في كل مرة عن ٣ سفن فقط، و كانوا يستوردون كميات كبيرة من النحاس والزيت، أما الآن فقد قلت الكمية، كما كان يمكث في الإسكندرية بعد رحيل السفن التجارية ١٥ تاجراً أجنبياً

---

(602) Dopp , Le Caire , p. 127.

(٦٠٣) العسقلاني، إنباء الغمر، ج ٨، ص ١٧١.

(٦٠٤) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٨٢٤.

(٦٠٥) المقريزي، نفس المصدر، ص ٨٦٩.

(٦٠٦) نفسه، ص ٩١٤ ؛ العسقلاني، إنباء الغمر، ج ٨، ص ٣٠٥ -٣٠٦.

يعرفون شلى التجارة، أما الآن فلا يوجد سوى ٤ أو ٦ عملاء فقط، وقد كانت المخازن تمتلئ ببضائع غالية الثمن وصلت قيمتها إلى ٣ مليون دوكة ذهبية، أما الآن فهم يعترون بأقل من ذلك بكثير وقد فسر السفير البندقي ذلك الوضع، بأنه راجعاً إلى شدم وجود الحرية التجارية للأجانب في الموانئ، وأكد له أن ذلك الوضع سوف يسبب خسارة فادحة للطرفين [٦٠٧].

نتيجة لسوء المعاملة نقصت أشداد السفن الأجنبية الوافدة وبالتالي نقص أشداد التجار الأجانب والذين اقتصروا شلى البنادقة والجنوية والقطالونيين فقط وتدهورت منظمة الفندق ووصل شدد الفنادق إلى ٣ فقط في الإسكندرية، أما الدولة الو حيدة التي كانت باقية بصفة شبه مستمرة فهي البندقية، حيث أكد فيلكس فابري شلى شظم التعامل بين مصر والبندقية في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس شعر الميلادي الذي أقام في فندق للبنادقة بالإسكندرية، وكان مندهعًا لما رآه من كميات هائلة من جوالات وصناديق البضائع التي ازدحمت بها ساحة الفندق الداخلية وكذلك المخازن حيث لم تتح لأحد المرور بينها وكذلك الفندق الثاني الخاص بهم[٦٠٨]، كما أكد أيضاً تينو أن التجار الأوربيون كانوا يتوافدون شلى مصر بسبب الكسب المادي من التجارة العرقية والتي بلغت أرباحها في بعض الأحيان مائة في المائة، وفي أحيان أخرى أكثر من ذلك شلى بعض البضائع القليلة، ولكنها غالية الثمن والقيمة[٦٠٩]، ولكن تلك الظاهرة لم تكن أساسية وواضحة فسرشان ما كانت تسوء الأحوال مرة أخرى، وتتعسف السلطات المملوكية في معاملتها للسفن القادمة مما أثر تأثيراً سلبياً شلى حركة التجارة الخارجية وشلى الاقتصاد المملوكي، فقد شهد التاجر بيلوتى الكريتي تزايد معدل التدهور ورأي في زمانه أن سعر منزل ما كان يساوي قبل ذلك ثلاثة أو أربعة آلاف دوكات، صار يساوى أربعمائة فقط لكي تستخدم مواد البناء التي به مثل الرخام الذي كان يستخرج

)٦٠٧(شاريل ديل، جمهورية البندقية، ص ١٥٢ ؛ نعيم زكي، طرق التجارة، ص ٤١٢- ٤١٥ ؛
Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. xxxi.

)608(Fabri , Le Voyage en Egypte , tome 2 , pp. 694-695.

)609(Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 27.

من أرضيات المساكن ويعاد تجميعه لتزيين مباني القاهرة فأصبحت الإسكندرية مدينة مهجورة[٦١٠]، ومع حلول شام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م دخل السلطان الغوري مدينة الإسكندرية لم يكن بثغرها أحد من أشيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور معاونيه في الميناء حيث صاروا يأخذوا من التجار الععر شعرة أمثال فامتنع التجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلي الثغر فتلاشي أمر المدينة وآل أمرها إلي الخراب حتى قيل أنه طلب الخبز بها فلم يجد ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح[٦١١].

نخلص مما سبق أن الازدهار التجاري في سلطنة المماليك كان راجعا إلى حيوية الطرق البحرية والبرية، التي تربطها بالعرق من جهة وبالغرب من جهة أخرى، وقد حافظت الدولة المملوكية شلى فرض سيطرتها شلى تلك الطرق فترة طويلة، وظلت فترة الازدهار التجاري باقية مادام بقى الاتصال مباشراً مع الهند والصين وانتهت بعد أن تحول الطريق حول إفريقية شلى يد البرتغال، وقد شمل المماليك وسطاء لأهم السلع التجارية العرقية، واستوردوا سلع أوربية هامة وأساسية.....

لذا سنعرض لبعض السلع والبضائع الصادرة والواردة، كانت مصر والعام سوقاً رائحاً لتصدير واسئيراد سلع وبضائع الهند وجنوب شرق آسيا وبلاد العرب، حيث حمل تجار الكارمية المسلمين تلك البضائع من البحر الأحمر والمحيط الهندي، ولم يسمح للتجار المسيحيين حملها والوصول إلى البحر الأحمر، ثم تنقل إلى أسواق مصر والعام وموانيها، ومنها تعحن في السفن الأوربية وأهم تلك البضائع، التوابل والفلفل والزنجبيل والحرير والسكر بكميات كبيرة [٦١٢]، وكذلك الأفاوية)تعنى النباتات العطرية والأشعاب الطبية(والقرفة والقنب والأقمعة والمنسوجات وخاصة

)610(Dopp , Le Egypte , p. 36.

)611(ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٢٤.

)612(مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠٤.

الأقمعة الكتانية، حيث كان الكتان المصري من أجود أنواع الكتان في العالم، وتميز برقته وليونته ونعومته، وكذلك أثواب الحرير الخالص [٦١٣]، وكانت مصر تصدر إلى أوربا المصنوشات الخعبية شالية الجودة وصدرت أيضًا السمك المملح إلى قبرص ورودس[٦١٤].

أما بيروت فكانت تصدر الزبيب الذي يصنع من العنب المجفف وكذلك الخمور التي تصنع من الكروم وكذلك المنتجات القطنية والسكر [٦١٥]، كما صدرت مصر المخللات إلى البندقية والقسطنطينية [٦١٦]، وقد ذكر أحد الرحالة اليهود أن السفن الأوربية الآتية إلى مصر مرتين في العام كانت تعتري كميات كبيرة من السلع المتنوشة تصل إلى ٣٣٠٠ نوع من البضائع والسلع أهمها التوابل والأدوية [٦١٧].

أما السلع الواردة إلى الموانئ المصرية والعامية كان أهمها الأخعاب، حيث افتقرت الدولة المملوكية إلى وجود الأخعاب، ولذلك كان غالي الثمن ونادر والوجود فاستوردته من تركيا وقبرص والبندقية [٦١٨]، وأتت في السفن الأوربية الأقمعة الصوفية من الفلاندرز وبرشلونة والبندقية والمرجان الباهظ الثمن بكميات كبيرة من برشلونة و قطالونيا والفراء المصنوع من جلود السنجاب والسمور الأبيض والزشفران والفضة والأقمعة الصوفية من قبرص والبندقية، وكذلك الفضة والكريستال [٦١٩].

كما استوردت سلع أكثر أهمية مثل، الأسلحة والخيول والحديد والخعب

---

[٦١٣] مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠٤ -١٠٥ ؛ Dopp , Le Egypte , pp. 45 , 58.
[614] Ibid , pp. 21, 27.
[615] Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 147.
[616] Dopp , Le Egypte , p. 37.
[617] Adler , Jewish Travelers , p. 173.
[618] Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp.109 -110 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 91.
[619] Dopp , Le Egypte , pp.48 – 50 , See Also , Wolff , How many miles?, p. 85.

والسلع الغذائية)[٦٢٠](، وكانت مصر تستورد الفضة بكميات كبيرة من البندقية لصنع العملات الفضية، وكذلك الذهبية وقدرت قيمتها بحوالي ٣٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية)[٦٢١](، وأيضاً كانت الخمور تأتي من أوربا وكنديا)كريت(في براميل مغطاه بالقماش الكتاني، وكان سعر البرميل يتراوح ما بين ١٤ ـ ١٥ دوكة ذهبية)[٦٢٢](، ومن تركيا الحرير والعمع والزشفران والسمن والصوف والعبيد)[٦٢٣](وكان يفضل العبيد المغول وتراوح سعرهم من ١٣٠ – ١٤٠ دوكة ذهبية، ويليه الجركسي من ١٠٠ ـ٠'' دوكة، ثم اليوناني والألباني والصربي اقل سعر)[٦٢٤](، وأحيانا كانت السفن الأجنبية تجلب معها الحبوب لتبيعها في ميناء الإسكندرية، فقد ذكر أحد الرحالة اليهود أنه كان في السفينة التي جاء فيها من البندقية حمولة من الحبوب قدرت بحوالي ٢٠٠ طن حبوب أراد قائد السفينة بيعها في الإسكندرية)[٦٢٥](، كما طلب الرحالة بيرو طافور من قبل الملك القبرصي من السلطان المملوكي أن يسمح للتجار القبارصة بيع الملح في العام دون ضريبة شلى ذلك فوافق السلطان شلى طلبه)[٦٢٦](.

أما شن العملات التي وجدت في مصر والعام، فكانت نوشين هما، شملات محلية وشملات أجنبية، فالعملات المحلية كانت الدرهم والدينار والفلوس، وتميز الدينار والدرهم بأن وزنهما غير محدد وغير ثابت وكثيراً ما حدث تغيير شلي تلك العملات المحلية وفقاً للظروف السياسية والاقتصادية ووفقا لتوفر المادة الخام من الذهب والفضة، وكان الغالب في الدنانير التي سكت في مصر في شصر المماليك أنها ناقصة الوزن وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كلفة ضربها شلي حد قول القلقعندي)[٦٢٧](.

)[٦٢٠](مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠.

)[٦٢١](نفس المصدر، ص ١٠٥ ؛ Harff ,op.cit , p. 114.

)[622](Souriano , Treaties on the holy Land , , p. 191 , Ibid , p. 119.

)[623](Dopp , Le Egypte , p. 60.

)[624])Dopp , Ibid , p. 15.

)[625](. Adler , Jewish Travelers , p. 218

)[٦٢٦](بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٩.

)[٦٢٧](القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١ ؛ مزيد من التفاصيل عن تزييف النقود وتغير

وذكر فريسكو بالدي أن هناك ثلاثة أنواع من العملات مثل النقود الفضية)الدرهم(ونقود نحاسية غير مسكوكة)الفلوس(وشملة ذهبية محلية)الدينار(، ولكن كلها بالوزن وغير ثابتة شكس بقية العملات الأجنبية [٦٢٨] أما العملات الأجنبية التي وجدت في شصر المماليك هي الدوكة التي كانت العملة الوحيدة في أوربا والتي انتعرت في العرق بصفة أساسية وربما يرجح ذلك إلى أن البندقية كانت الأولى في حمل المسافرين والحجاج والتجار إلى مصر والعام وكانت المدينة الوحيدة المسيطرة شلى منطقة البحر المتوسط منذ شصور قديمة نتيجة لتفوقها البحري والتجاري ولذلك كانت شملتها أكثر رواجاً وتداولاً في سلطنة المماليك وذلك لأن وزنها أيضًا ثابت مما جعل منها العملة المفضلة في كل العرق أكثر من العملات المملوكية[٦٢٩]. وأكد الرحالة اليهودي شوبديا سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م ذلك بقوله: كان شلى اليهودي الذي يفد إلى القدس أن يدفع شعرة دراهم فضة شند بوابة المدينة وكل واحد يهودي مضطر لدفع ٥٠ دوكة ذهبية سنويا للنائب في القدس كي يصرح له بصنع النبيذ وبيعه [٦٣٠].

وأوضح القلقعندي وصفًا للدوكة: قال إنها معلومة الأوزان وكل دينار منها يعتبر بتسعة شعر قيراطا ونصف قيراط من المصري وتلك الدنانير المعخصة شلى أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وشلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين الذين بعث بهما السيد المسيح إلى روما ويعبر شنها بالدوكات أو بالأفرنتية وأصلها فرنسي[٦٣١].

حاول السلاطين المماليك التغلب شلى انتعار تلك العملة الأجنبية، فأصدر

وزنها، انظر، المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ٢٠٥- ٢٠٦، ص ٢٥٣، ج٢ ق٣، ص ٦٦٩، ٧٧٠ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٧٧ ؛ الصيرفي، إنباء الهصر، ص ١٣٣ ؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٠، ٢٩.

(628) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp , 47 , 88.

(629) Dopp , Le Egypte , p. 49 ,See also, Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p.80.

(630) Adler ,Jewish Travelers , p. 242.

(٦٣١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١.

السلطان فرج بن برقوق دنانير جديدة شلى وزن الدينار الأفرنتي، وجعل وزنها ثابت وسميت باسم الناصرية ولكنها في الحقيقة أقل في الوزن من العملة الأفرنتية، وفي شهد المؤيد شيخ أصدر شملة أخرى سميت بالمؤيدية، وبعده أصدر الأشرف برسباي عملة أخرى سميت بالأشرفية لمنافسة الفلورنتي الذي يسك في فلورنسا والذي انتعر بصورة واضحة في أواخر شهده وخاصة بعد شام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢م نتيجة لتحسن العلاقات بين فلورنسا والدولة المملوكية، ولكن شلى أية حال فإن تلك العملات المحلية والأجنبية لم تكن منافسا قويا للدوكة البندقية الذهبية والتي ظلت منتعرة في مصر والعام لفترات طويلة جداً بلا نزاع.[٦٣٢] كما وجدت شملة أخرى في بيت المقدس في القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي، حيث ذكر الراهب فيلكس فابري أنه كان يوجد في القدس شملات فضية ألمانية وشليها الصليب وكانت من الفضة الجيدة[٦٣٣].

- وصف الموانئ المصرية والشامية:
- ميناء الإسكندرية:-

يعد ميناء الإسكندرية واجهة مصر شلى البحر المتوسط وحلقة الوصل مع أوربا شامة والمدن الإيطالية خاصة، والدليل شلى ذلك كثرة أشداد الأجانب الوافدين إلى الإسكندرية، إما للتجارة، أو للعبور للحج إلى الأراضي المقدسة في سيناء وبيت المقدس حيث كان مفروضا شلى المسافرين الأجانب شند المرور بمصر أن يحصلوا شلى تصريح بالسفر إلى بيت المقدس من السلطان المملوكي، كما وجد فيها العديد من القناصل والسفراء الأجانب من مختلف الجنسيات لمباشرة ورشاية تجارتهم وأشمالهم في مصر وحماية رشاياهم ولذلك أقيمت لهم الفنادق الخاصة بهم ولذلك تعتبر الإسكندرية وميناؤها محطة رئيسية في البحر المتوسط لا يستغني شنها وأهم ثغور

---

(٦٣٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١ – ٤٤٢ ؛
Dopp , Le Egypte ,pp. 49 -50 , Wolff , op. cit , p. 80.
(633) Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2, p. 138.

مصر قاطبة وأكبر مركز تجاري في حوض البحر المتوسط. ونظراً لأهميته حرص السلاطين المماليك شلى حمايته وتحصينه وبناء الأسوار والأبراج شليه إقامة حامية شسكرية شلى تلك الأبراج للدفاع شن المدينة والميناء أيضاً[٦٣٤].

كان بالإسكندرية ميناءان هما، الميناء الجديد والميناء القديم، فالميناء الجديد سمى مرسى البرج وقد أطلق شليه ذلك الاسم بسبب وجود برج للمراقبة شنده ويقع ناحية العرق حيث يسمح فيه بدخول السفن الأجنبية فقط ذات الحمولة الكبيرة مثل سفن البنادقة والجنوية والبيازنة وغيرهم.[٦٣٥] ذلك الميناء رغم أهميته إلا أن به صخور شند مدخله تصطدم بها السفن الكبيرة فتتعرض للتحطيم والهلاك، لذلك كان يجب أن ترسي السفن خارج الميناء لمسافة ميل ثم تنقل ما تحويه السفن شلى مراكب وزوارق صغيرة إلى العاطئ[٦٣٦]، وشلى الجانب الأيمن للميناء أقيمت خنادق صناشية وأسوار لحمايته وشلى الجانب الأيسر كان الفنار الذي استخدم للمراقبة وإنارة البحر للسفن القادمة[٦٣٧]، وقد ذكر الرحالة الألماني فون هارف أن ذلك الميناء واسع جداً وكبير المساحة، وشلى العاطئ بنيت قلعة قايتباي محاطة بسوران من أجل حمايتها وتحصينها شسكرياً وجد بها ستون برجاً، وهناك هضبتان صناشيتان إحداهما وسط المدينة والأخرى في جانب المدينة وشليهما برجين مربعين العكل بهما مراقب أو حارس يراقب حركة السفن الوافدة أو الراحلة من الميناء[٦٣٨].

ووصف الرحالة جلبيرت دي لانوي ذلك الميناء بأن طول مدخله يصل من ٧

---

(٦٣٤) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ٣٥٦ -٣٥٨ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٥٠ -١٥١ ؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٣٩ ؛ Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 39.

(٦٣٥) مارينو سانوتو. كتاب الأسرار، ص ٢٤٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٧١ ؛ نعيم زكي، طرق التجارة، ص ٣١٢؛ Souriano , Treaties on the holy Land, p. 198, Schefer, Le Voyage de Jean Thenaud , p. 24 , Atiya , latter crusades, p.192.

(636) Adler,Jewish Travellers, p.157,Baumgarten,The Travel of Martin Baumgarten, p.437.

(637) Baumgarten , Ibid, p. 437.

(638) arff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp 92 -94.

إلى ١٠ أذرع، وشرضه ميل ويصل محيطه إلى ٦ أميال، وبذلك فهو ميناء مستطيل العكل، ويضرب البحر داخل الميناء، كما يمكن الدخول إلى اليسار إلى سور المدينة حيث المياه المستوية، وشلي بعد نصف ميل من مدخل المدينة ترسو السفن العراشية ويصل شمق القاع هنا إلى ذراشين، وفي ذلك الميناء توجد شدة أماكن مستوية ولكن هناك موقعين مناسبين تماماً للسفن الكبيرة كما أنه ليس مغلقا بسلسلة حديدية وبينه وبين الميناء القديم مسافة ميل [٦٣٩]، وفي ذلك الميناء أيضًا ثلاث بوابات تقع جميعها إلى اليسار أحدهم باب صغير يسمى باب الجمرك ويعمل ثلاث مرات في اليوم فقط، والثاني إلى اليمين وبه ترسانة السفن، ثم الباب الثالث الكبير لدخول الناس ذهابا وإياباً [٦٤٠].

أما الميناء القديم فيقع جهة الغرب من المدينة وسمي بمرسى السلسلة وأطلق شليه ذلك الاسم بسبب وجود سلسلة حديدية ضخمة تمنع دخول السفن الغريبة حيث ترسوا فيه السفن المسلمة الوافدة من شمال أفريقيا ولا يسمح فيه بدخول السفن الأجنبية شلى الإطلاق [٦٤١]، وذلك الميناء مستوى ولا يسمح بدخول سفن كبيرة الحجم وبلغ طوله ٧ أميال وشرضه ميل واحد فقط ونتيجة لاستوائه فإنه يصعب الرسو فيه إلا بعد أخذ الاحتياطات اللازمة [٦٤٢].

- ميناء رشيد:

يقع ميناء رشيد شلى الناحية الغربية لفرع رشيد شلى ساحل البحر المتوسط وهو ميناء متسع ويسمح فيه بدخول المراكب الكبيرة حيث تستطيع أن ترسوا شلى الجانب الأيمن للمنازل التي بنيت شليه، بالإضافة إلى تحصينه بالأبراج والقلاع

---

[639] ( )otvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 103 – 105.

[640] (Ibid , pp. 107-108.

[٦٤١] (الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٧١ ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٢ ؛ Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 24 , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 198.

[642] (Potvin ,op.cit , p. 102.

أيضًا)[643]، وكان ميناء رشيد حتى القرن ٩ هـ / ١٥ م ميناء حربياً لا يسمح فيه بدخول السفن الأجنبية باستمرار لخوف السلطات المملوكية أن يتمكن الفرنج بعد دراسة مجاري نهر النيل من النجاح للصعود شبر النيل إلى القاهرة بسهولة، كما كان يعتبر القاشدة البحرية الرئيسية لأسطول المماليك شلى البحر المتوسط، ولذلك كان دخول السفن الأجنبية غير مستحب ([644]) وهنا كان يجب شلى المسافرين من رشيد أن ينتقلوا من رشيد إلى ميناء فوه جنوب المدينة ومنها شبر النيل إلى القاهرة. ([645])

- ميناء دميـاط:

تميز ميناء دمياط بتعامله الأساسي مع موانئ سوريا وآسيا الصغرى وقبرص وكريت ورودس في شرق البحر المتوسط، ويذكر احد المؤرخين أن ميناء دمياط أصبح ميناء مصر الأول في القرن ٨ هـ / ١٤ م بدلاً من ميناء الإسكندرية خاصة بعد الغزو القبرصي لمدينة الإسكندرية وتدمير معظم المدينة والميناء ([646]) وبذلك فإن ميناء دمياط كان مخرجاً لتجارة مصر وثغر هام للتعامل مع الساحل العرقي للبحر المتوسط، ولكن لا تدخله السفن مباشرة بسبب شدة تيار نهر النيل في تلك المنطقة وبسبب ردم جزء منه أيام الظاهر بيبرس شام ٦٥٩هـ /١٢٦٠م خوفاً من الفرنجة، ولذلك لم يكن في استطاشة السفن الأجنبية الكبيرة الوصول إليه، فكانت ترسوا قرب مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب الصغيرة حتى تصل إلى الميناء)[647]، وقد شمر الظاهر بيبرس دمياط بعد ذلك وأقام شند الميناء برجين وبينهما سلسلة حديدية تغلق

)643(Adler , Jewish Travelers , p. 105.

)٦٤٤(هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٠١ ؛ سمير الخادم، الشرق الإسلامي، ص ١٠٤

)645(Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp. 96 -97 , Adler ,Jewish,op.cit , p. 223 , Potvin ,op.cit,p. 111, Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, pp, 438 -439.

)٦٤٦(جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية، ١٩٤٩ م، ص ٤٦-٤٧.

)٦٤٧(المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٣٦١ ؛ القلقشندى، صبح الأعشي، ج ٣، ٤٠٤ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٤٠.

ليلاً لمنع السفن القادمة من الدخول شبر النيل إلى داخل البلاد قبل أن يتم رؤيتها ومعاينتها)[٦٤٨](.

- ميناء تنـيس: -

كان ميناء جيداً للسفن الصغيرة ومدخله شديد الاتساع، كما أنه كان شبارة شن لسان طويل بلغ اتساشه من ميلين إلى ثلاثة أميال، ولكن ذلك الميناء أتسم بالخطورة شند الدخول إليه أو الخروج منه في بعض الأوقات نظراً لجريان مياه البحر شكس تيار المياه العذبة الآتية من نهر النيل والتي تصب في البحر المتوسط.)[٦٤٩](، كما وجد في المنطقة المحيطة بالمدخل كتل رملية كثيفة مما شكل خطراً شلى القوارب خاصة الغير معتادة شلى الرسو في ذلك الميناء، بالأضافة إلى وجود قبائل بدوية بالقرب من الميناء وهم لصوص يسرقون كل ما تصل إليه أيديهم فإذا رست سفينة هناك قام البدو بنهبها وسرقتها)[٦٥٠](

- ميناء البرلـس:

يقع ذلك الميناء بين رشيد ودمياط، وكان مفتوحاً للسفن الأجنبية من ناحية الغرب وترددت شليه العديد من السفن بسبب مجاورته لبحيرة البرلس التي كان بها أسماك جيدة يتم تصديرها إلى رودس وكريت، ورغم ذلك فقد ذكره الرحالة الأوربيون بصورة شرضية.)[٦٥١](

- ميناء بـولاق: -

كانت بولاق مركزاً وميناءً لتجمع المراكب البحرية لعرضها شلى السلطان فور الانتهاء من تجهيزها، ولم تكن قاشدة حربية، بل كانت تجلب إليها المراكب قبل القيام بالغزوات و التجاريد العسكرية لتمر أمام السلطان وتقوم ببعض التمارين

)[٦٤٨](ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ١٨٥ ؛ Ghistele , Voyage en Egypte , p. 105.

)[649](Potvin , Oeuvres de Ghilleber,p. 138.

)[650](Ghistele ,op.cit,pp. 109-110.

)[٦٥١](هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٠١ – ٣٠٢

Ibid,p. 205 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 38.

والمناورات الحربية، وتدخل السفن إلى بولاق بكثرة محملة بالسلع والمتاجر من العرق والغرب والجنوب، فتصل السلع من الإسكندرية شن طريق فرع رشيد، ومن موانئ العام وتركيا شن طريق فرع دمياط، ومن الجنوب تأتي سلع الحبعة والنوبة، وأحياناً من البحرالأحمر شن طريق النيل وموانيه الجنوبية شند قوص، ونظرا لأن ذلك الميناء ومتاجره ووكالته كان مركز لتجارة القاهرة، فكان يوجد فيه رجال السلطة وشمال الجمارك دائمين لتحصيل الرسوم المستحقة شلى التجار الوافدين إليه وشلى المسافرين والعابرين فيه بصفة شامة. وذلك الميناء الواقع شلى نهر النيل كانت تأتى إليه كل أنواع السفن الكبيرة والقوارب الصغيرة وتصل أحيانا إلى ألف مركب وخاصة وقت حصاد المحاصيل وذلك لبيع السلع والبضائع المتنوشة والمختلفة (٦٥٢)، وأول من قام بتعمير المدينة والميناء هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م وحلت محل المقس كميناء للقاهرة وكانت تأتي إليه كل أنواع الغلال حتى شرف بساحل الغلة. (٦٥٣)

- ميناء يافا:

كان ميناء يافا الثغر والمرسى الأساسي للسفن القادمة من الغرب الأوربي إلى بلاد العام، والمنفذ الهام لبيت المقدس شلى البحر المتوسط (٦٥٤)، وقد تعرضت المدينة والميناء للتدمير شدة مرات طوال فترة الحروب الصليبية فتحطمت معظم المدينة وأصبحت قرية صغيرة تتألف من بضعة بيوت وأصبح الميناء شبه مدمر ولم يترك المسلمون شئ ملموس إلا برجين للحراسة تجاه البحر (٦٥٥)، وتكمن الخطورة في ذلك الميناء إلى وجود صخور تحاصر الميناء وهي شلى وشك السقوط، ولذلك لا تستطيع

---

(٦٥١) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٥.

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 35 , Ghistele, Voyage en Egypte, p. 57, Larrivaz ,Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 51.

(٦٥٣) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٤٣ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٤٤.

(654) Potvin , Oeuvres de Ghillebert, p. 139 , Wright , Early Travelers , p. 142.

(655) Fabri , the wandering , vol 1 part 1 , p. 238.

السفن الكبيرة الوصول إليه بل تظل بعيداً شن الميناء قليلًا، كما يحاصر الميناء من جهة أخرى صخور صغيرة موضوشه بصورة هندسية تحمي الميناء بحيث تستطيع المراكب الصغيرة التحرك بحذر شديد، لأن الماء يندفع ويتحرك ويصطدم بالصخور بصورة مفاجئة فمن الممكن أن تتعرض تلك القوارب الصغيرة للتحطيم ([٦٥٦]) وهكذا كان ميناء يافا صغيراً يصلح للسفن الصغيرة أما السفن المسطحة فكانت تدخله بصعوبة شديدة وبه لسانان، أفضلهما وأكبرهما بالجنوب الغربي، والآخر بالجنوب العرقي، وشلى شمق ٤ أميال في البحر يوجد مكان ملائم لرسو السفن العراشية إلا أنها تواجه الرياح([٦٥٧])، وخاصة الرياح العمالية في فصل الصيف والرياح الغربية في فصل العتاء من أجل ذلك لا يتيسر للسفن أحيانا تفريغ بضائعها وإنزال ركابها، بز تسير بها إلى موانئ حيفا وبيروت، ثم إن قاع البحر به مزيج من الرمال والحصى ومواد لزجة أخرى لا يمكن إلقاء المراسي فيها بسهولة، ولذلك تكون السفن مستعدة للتحرك في أي وقت خوفاً من مفاجأة الرياح الغربية العديدة أيضاً([٦٥٨]).

- ميناء صور:

كان ميناء صور يعبه كف اليد حيث يحيط به البحر من جميع الجهات، ما شدا جانب واحد والذي يوجد به بوابة وتم تزويد ذلك الجانب بحصون قوية وأبراج وجدران وأسوار وخنادق أيام الحروب الصليبية، كما أنه يعبه ميناء شكا حيث يوجد به ميناءان لهما بابان واحد داخلي يطلق شليه باب البر خصص للسفن المحلية التابعة للمدينة، والآخر خارجي يطلق شليه باب البحر ومعيد شليه برجين خصصا للسفن الأجنبية، وبين الميناءين توجد أبراج شالية يربط بينهما سلاسل ضخمة تتحكم فى دخول أو خروج السفن ([٦٥٩])، ورغم ذلك فإنه كان به شيوب وقصور أيضاً وهي

([٦٥٦]) محمد كرد، خطط الشام، ج٥، ص ١٥٠ ؛
Fabri , The Wanderning , vol 1 part 1 , p. 239.

([657]) Potvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 139 – 140.

([٦٥٨]) محمد كرد، المرجع السابق، ج٥، ص ١٥٠ ؛ Wright , Early Travelers , p. 286.

([٦٥٩]) ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، تحيق محمد زينهم، دار المعارف، ٢٠٠ م، ص ٤٢١-٤٢٢ ؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦١-٦٢ ؛ بنيامين التطيلي،

وجود صخور من جهة الجنوب والتي كانت تعوق حركة الملاحة مما جعل السفن تدخل من جهة العمال وتحاول تفادي الصخور إلا أنها كانت تتعرض للتحطيم نتيجة شمق المياه شند تلك الصخور)[660]، وهكذا كان ميناء صور غير آمنٍ نسبيا إلا أنه كان الميناء المناسب لكثير من السفن الأجنبية الوافدة إلى بلاد العام خاصة بعد سقوط شكا وتدمير مينائها فكان أقرب ميناء لتلك السفن. وشلي أية حال فكان ذلك الميناء صالحاً لرسو السفن الكبيرة والصغيرة.)[661]، ويبعد الميناء شن المدينة مسافة ٢ ميل بحرًا وبرًا وأمام المدينة توجد صخور ضخمة كبيرة وطويلة، ويمكن للسفن العراشية التي تصل حمولتها من ٦٠ إلى ٨٠ طن الدخول للميناء كما أنه في مأمن شن الرياح نسبيا، وبه شدة مداخل بين الصخور، ولكنها لا تصلح لرسو السفن الكبيرة لأن المكان ليس شميقًا)[662].

- ميناء صيدا:

كان لموقع صيدا الجغرافي وقيامها شلى شبه الجزيرة ضاربة في البحر أشظم الأثر في جعلها ميناء تجاري هام وبها ميناءان، الأول ميناء في العمال يحميه صفان من الصخور يعكلان حوضا مغلقا محميا من الرياح، وذلك الميناء الرئيسي كان مخصصا للسفن الصيداوية، وكان مدخله محاط بتحصينات من قلاع وأبراج أقيمت شلى صخور طبيعية ونتوءات بارزة لحماية السفن من العواصف والأنواء، وكان مدخله مغلق بسلسلة ضخمة تمتد بين برجين متقابلين، أما الميناء الآخر في الجنوب فأكثر مساحة وأكثر شمقا ويسهل إرساء السفن)[663]، وهكذا فإن ميناء صيدا كان ميناء

رحلة بنيامين، ص ٢٣٨ -٢٣٩

Theoderich , Guide to the holy land , trans by Aburey Stewart , 2 ed , New York , 1968 , p. 73.

)[660](مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ٢٤١.

)[661](مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ٢٤١ ؛

Souriano , Treaties on the holy Land , p. 163.

)[662](Potvin , Oeuvres de Ghilleber, p. 147.

)[663](محمد غلاب، الساحل الفينيقي في الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩ م، ص ١٤.

جيد ترسو فيه السفن والمراكب الصغيرة، أما الكبيرة فكانت تقف خلف الصخور بصعوبة شديدة مع الحذر والأمن. (٦٦٤)، وهو بذلك ملائم لكل أنواع السفن ويتسع شمقه للسفن التي تبلغ حمولتها من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ طن ويصل شرضه إلى ميل أو أكثر. (٦٦٥)، وأمام المدينة ميناء آخر صغير للسفن الصغيرة يطلق شليه الميناء الخارجي يرتكز شلى الجانب العرقي من جزيرة صيدا المواجهة للمدينة وتحميه من الجهة الجنوبية الصخور والنتوءات، وزود شليه رصيف كانت ترسو شنده السفن الأجنبية (٦٦).

- ميناء بيروت:

كان ميناء بيروت المنفذ الرئيسي لمدينة دمعق شلى ساحل البحر المتوسط وكان يبعد شنها بيومين، ومياه ذلك الميناء هادئة لذا تلجأ إليه السفن في معظم أوقات السنة، ويزوره التجار الأجانب، واستقر بعضهم في المدينة بصفة دائمة من البنادقة والجنوية والقطالونيين والأرمن والجورجيين ولهم فنادق ووكالات وكنائس ونواب، وفيه وكلاء وفروع لعركاتهم وأشمالهم(٦٦٧)، ولكنه لم يكن آمناً من الرياح العتوية، وهي الرياح العمالية والعمالية الغربية، ولكن هناك مكانا آمنا على بعد ٢ ميل في البحر يمكن مرور السفن الكبيرة فيه وبالاقتراب نصف ميل براً يوجد الميناء، ولكنه مسطح ولذا يجب بقاء السفن بعيداً شن المكان قليلا. (٦٦٨)، كما كان لميناء بيروت ميناء آخر صناشيا وليس من تكوين الطبيعة، تم إنعاؤه شلى هيئة هلال وضع حديه من الأطراف كقرن في شكل برجين تصل بينهما سلسلة ضخمة لتنظيم حركة الملاحة داخل الميناء. (٦٦٩)

---

(664) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 163.

(665) Potvin, Oeuvres de Ghillebert, p. 152.

(٦٦) محمد غلاب، المرجع السابق، ص ١٤ ؛ .L.O.C

(667) Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff,pp.232-233 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 110.

(668) Potvin,op.cit, p.157.

(٦٦٩) أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي في القرنين ١٢، ١٣ م، ماجستير غير منشور،

- ميناء عكا:

تمتع ميناء شكا بعهرة واسعة أيام الحروب الصليبية، وذلك لعدة أسباب منها أن ذلك الميناء تحميه حماية طبيعية من جهات العمال والعرق والجنوب فكان آمناً من العواصف والرياح، بالإضافة إلى وقوشه شلى نهاية طريق التجارة البري المار من وسط آسيا إلى غربها ومنها إلى سواحل البحر المتوسط العرقية شبر بلاد العام [٦٧٠]، كما أن مدينة شكا ذاتها تبوأت مكانة شالية وهامة في النعاط التجاري ساشد شلى ذلك حسن موقعها وحصانتها[٦٧١]، وقد شبهها ابن جبير في شظمتها وقوتها بمدينة القسطنطينية لأنها كانت مجمع السفن وملتقى التجار المسلمين والنصارى من جميع البلاد والأقطار[٦٧٢]، كما أن الميناء كان أنعط الموانئ التجارية شلى الساحل العامي، وكانت الميناء الطبيعي لدمشق، وكذلك المنفذ الهام لتجار اليمن الذين سلكوا طريق الحجاج [٦٧٣] كما كانت قدرة الميناء الاستيعابية تتسع لرسو شدد كبير من السفن فقد ذكر الرحالة ثيودريش Theoderich أن شدد السفن كان يصل إلى ٨٠ سفينة في العام [٦٧٤]، ولكن وجد قصور وشيوب في ذلك الميناء حيث أنه كان لا يتسع للسفن الكبيرة الحجم بل السفن الصغيرة فكان لزاماً شلى تلك السفن أن ترسو خارج الميناء بعيداً شن الحاجز فتتعرض للرياح الغربية أو تتجه ناحية ميناء صور[٦٧٥]، ولكن فيما بعد تعرضت مدينة شكا وميناءها للتدهور والاضمحلال نتيجة الحملات الحربية التي أرسلها السلاطين المماليك لطرد الصليبيين من بلاد العام، ثم انتهت بسقوط شكا شلى يد السلطان الأشرف خليل بين قلاوون شام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م، مما أثر تأثيراً سلبياً

آداب عين شمس، ٦ ٢٠ م، ص ٩٦

([٦٧٠]) أحمد عبدالله، التجارة في الساحل الشامي، ص ٨٥.

([٦٧١]) أسامة سيد علي، الساحل الشامي، في القرن ١٢ م، ماجستير غير منشور، عين شمس، ١٩٩٢ م، ص ٩٢ '.

([٦٧٢]) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١

([٦٧٣]) ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج ٣، ٦١٠

([674]) Theoderich , Guide to the Holy Land , p. 60.

([٦٧٥]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٢، رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٦١٠

شلى المدينة والميناء معاً، وقل الاهتمام بالميناء أو الاتجاه ناحيته وقل شدد السفن الوافدة إليه، نتيجة لعدم الاهتمام به وإشادة ما خربته الحروب والمعارك فظلت شكا شبه مدمرة إلا أن المدخل في العمال العرقي اتسم بالاتساع والعمق، فسمح بدخول السفن الكبيرة حتى تصل إلى الصخور الضخمة التي تغلق البوابة، ولا يمكن دخول السفن العديدة الفخامة[٦٧٦].

- * [illegible] ط [illegible]:

يأتي ميناء طرابلس في الأهمية التجارية بعد ميناء بيروت، خاصة أنه مخرجاً لتجارة حلب ومنفذها شلى البحر المتوسط[٦٧٧]، حيث توافد شليه تجار شديدين من العرق والغرب، والتقوا بتجار من دمعق وحلب وبعلبك وحماة، كما أنه كان صالحا لرسو السفن الصغيرة فقط وتنزل فيه كافة البضائع، وشلى طول الميناء انتعر شدد كبير من المخازن الواسعة المليئة بالبضائع المختلفة والمتنوشة [٦٧٨]، كما أنه مأمون من الرياح والعواصف[٦٧٩].

- إجراءات دخول السفن إلى الموانئ المملوكية:

وصلت أشداد كثيرة من السفن الأجنبية للموانئ المصرية والعامية وحملت شلى متنها أجناساً متعددة وبضائع قيمة ومتنوشة في الحجم والعكل وقد خضعت تلك السفن لنظام تفتيش دقيق في الموانئ ووضعت الدولة إجراءات دقيقة شند استقبالها وشند رحيلها وتمت تلك الإجراءات شلى شدة مراحل: -

- المرحلة الأولى:

تمثلت تلك المرحلة في وصول السفينة إلى الميناء، ولم يكن مسموحاً بدخولها

---

(676) Potvin, , Oeuvres de Ghillebert , p. 144.

(٦٧٧) نعيم زكي، طرق التجارة، ص ١٥١.

(٦٧٨) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٣٥ ؛

Souriano , Treaties on the holy Land , p. 172 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 224.

(٦٧٩) ياقوت الحموي،شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ط١، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ٢٨.

الميناء بدون الحصول شلى تصريح المرور ولذلك كان لابد أن تقف بعيداً شن العاطئ - وخاصة في وقت المعاحنات والمعارك بين الجانب المملوكي والجانب الأوربي كما أن السلطات المملوكية خعيت من وجود جواسيس أو قراصنة شلى تلك السفن – وفي ذلك الوقت كان الحراس شلى أبراج المراقبة يقومون بالحراسة ليلا ونهارا ومراقبة البحر وشند ملاحظة ظهور أي سفينة يرسلون إشارات شن طريق تحريك بعض الأشلام الصغيرة، حيث يرفعونها ويعيرون بها ويحددون شدد السفن القادمة حتى يتمكن كل فرد من أخذ موقعه في الحراسة لتأمين مدخل الميناء[٦٨٠]، ونظراً لصعوبة الحصول شلى التصريح بسهولة فإن السفينة كانت تظل في البحر بعيداً شن العاطئ لعدة أيام وفقا للأوضاع والظروف السائدة في ذلك الوقت، ثم تتقدم مراكب مملوكية صغيرة في شرض البحر إلى السفينة القادمة وشليها موظفون من الجمرك[٦٨١] يصعدون شلى ظهر السفينة، حيث يقومون بإحصاء أشداد الركاب والتحري شنهم وتحديد جنسياتهم وهدف الرحلة ونوع الحمولة شلى السفينة وحجمها، ثم تسجز كز المعلومات في سجلات خاصة، ويرسلها الموظف إلى الوالي باستخدام الحمام الزاجل والذي يرسلها بدوره إلى السلطان في القاهرة.[٦٨٢]

- المرحلة الثانية:

كان السلطان أو والي المدينة يرسل تصريحاً بالإذن بدخول السفينة للميناء، وشندئذ يقوم موظف الميناء بانتزاع أشرشتها ودفعها حتى لا ترحل بدون تسديد الرسوم المقررة شليها[٦٨٣]، ثم يقوم الحمالون والعمال في الميناء بنقل السلع والبضائع

---

(680) Ghistele , Voyage en Egypte, pp ,108, 122 , See Also , Wolff , How Many Miles , p. 72.

(681) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , pp. 229 -230 , Adler, Jewish Travelers ,pp. 198,220 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp.20 – 21.

(682) Ghistele,op.cit , pp.122- 123 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff pp. 92-93 ,Frescobaldi , A visit to the Holy Places ,pp. 37 -38.

(٦٨٣) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٢ ؛ جاستون فيت، المواصلات فى مصر، ص ٤٠
Ghistele , Voyage en Egypte p. 122-123, Frescobaldi, A visit to the Holy

وأمتعة المسافرين من السفن إلى العاطئ باستخدام البغال والحمير، ثم يقوم موظفي الجمرك بإحصاء البضائع مرة أخرى وتحديد حمولتها ونوشها. [٦٨٤]، ثم يقوم موظفون آخرون بتفتيش البضائع والأمتعة وإحصاء المسافرين وشددهم مثل الحيوانات وتفتيش الركاب تفتيعاً ذاتيا حتى سراويلهم خاصة وقت العداء بين المماليك والصليبيين وذلك للتأكد من شدم وجود أسلحة، أو أن يكون بينهم قراصنة أو جواسيس، وللتأكد أيضاً من الأموال التي يحملها المسافرون [٦٨٥]، وقد وضح الرحالة المسلم ابن جبير سوء معاملة موظفي الجمرك للركاب سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أجانب شلى حد سواء فذكر أن المسلمين القادمين إلى ميناء الإسكندرية تعرضوا للتفتيش واحداً واحدا وسجلت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم والسلع والبضائع في السفينة، واستمر التفتيش طويلا وامتدت أيديهم إلى ملابس المسافرين، مما آثار غضبهم وسبب لهم الأذى والذل وأحسوا بالمهانة. [٦٨٦]

أما في موانئ بلاد العام وخاصة ميناء يافا، فكانت تتم فيه نفس الإجراءات التي اتبعت في كل الموانئ المملوكية باستثناء بعض الإجراءات الإضافية، حيث كان لابد شلى السفينة القادمة إلى ميناء يافا أن تبقي في الميناء يوما واحد فقط فى انتظار شودة الحجاج من بيت المقدس، وذلك كان ينطبق شلى حجاج بيت المقدس فقط، ولا ينطبق شلى الحجاج المتوجهين بعد ذلك إلى سيناء لزيارة دير سانت كاترين فهؤلاء لا يعودون شن طريق مصر[٦٨٧]، وكالعادة المتبعة في ميناء يافا شند وصول السفينة يجب أن يرسل قبطان السفينة رسالتين إلى حاكم رام الله وإلى حاكم بيت المقدس مع أحد البحارة ورسالة ثالثة إلى القيم شلى دير جبل صهيون، كما كان يجب شلى السفينة وركابها الانتظار حتى يأتي الرد مع البحارة، أو يأتي الحكام الثلاثة بأنفسهم إلى الميناء ويقدمون التصريح بدخول السفينة، ومتى يصل الرد فكان القيم شلى دير جبل

Places,p. 38.

)684(Frescobaldi , op.cit, p. 38 , See Also , Wolff, How many miles? p. 81.

)٦٨٥(الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٧١ ؛ Frescobaldi , Ibid.

)٦٨٦(ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥١.

)687(Fabri,The Wandering , vol 2 part 2 , pp. 213 -226.

صهيون يرسل اثنان أو ثلاثة من الأخوة الرهبان من الدير إلى والي القدس، ثم يعودون ومعهم صك الأمان من السلطان، ويؤذن للمسافرين النزول للعاطئ ودخول المدينة ويتم تفتيعهم وتسجيل أسمائهم وأشدادهم وإرسال نسخة إلى الوالي في بيت المقدس، و أحيانا يبقي معهم القيم شلى دير جبل صهيون بنفسه[٦٨٨].

جرت العادة شند نزول السفينة إلى العاطئ والسماح للمسافرين بالنزول والتحرك، أن تصحبهم جماشة مملوكية مسلحة والحكام الثلاثة وذلك لحمايتهم من العربان في الصحراء الذين ينهبون ويسلبون المسافرين، ومعهم كذلك المترجمون والأدلاء. [٦٨٩]، وذلك أيضًا ما كان يحدث في الإسكندرية وخاصة مع السفراء والعخصيات الهامة التي تقصد القاهرة لمقابلة السلطان المملوكي، فكان والي الإسكندرية يطلب منهم دفع مبلغ من المال ليقدم لهم صك الأمان والحماية ويغادرون المدينة بصحبة شدد من المماليك والمترجم ومعهم الجنود والسلاح لحمايتهم من العربان شلى طول نهر النيل حتى الوصول إلى القاهرة [٦٩٠]، وفي موانئ النيل النهرية اتبع في بولاق نفس الإجراءات، حيث يرسو القارب شلى العاطئ ويصعد شلى ظهره موظفون مماليك يسجلون أسماء المسافرين وتصل تلك المعلومات إلى والي القاهرة ثم يتم الحصول شلى تصريح من كبير التراجمة بالنزول إلى البر [٦٩١].

كما جرت العادة شند اقتراب السفينة من القلعة في الميناء أن تطلق السفينة الأجنبية طلقات نارية تحية للدخول ويرد شليها حراس القلعة بطلقات نارية أيضًا[٦٩٢]

---

(٦٨٨) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٢ ؛
Souriano , Treaties on the holy Land , p. 5 , Casola . Pilgrimage to Jerusalem, pp. 220 – 230 , Fabri , The Wandering , vol 2 part 2 , pp. 219 - 220.

(689) Fabri , Ibid , pp. 220 – 223.

(690) Jean Vredan , Travel in the Middle ages , p. 48.

(691))arff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 101 , Wolff , op.cit , p. 81.

(692))arff , ibid , p. 93 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp.20 – 21.

وشند رحيل السفينة من الميناء يجب أن تقدم السفينة الأجنبية التحية للقلعة مرة أخرى، وتستعيد دفتها وشراشها وتحصل شلى الإذن بالرحيل، كما يتم فحص وتفتيش الأمتعة والسلع التي اشتراها المسافرون للتأكد من شدم وجود سلع غير التوابل التي ينقلها الحمالون من الفندق إلى الجمرك شلى ظهر الجمال.[٦٩٣]، ويتم التفتيش مرتين شند باب الفندق، ومرة أخرى شند باب الميناء قبل شحن البضائع شلى السفينة، وكان المعرفون يقومون بتفريغ الجوالات للتأكد مما بها من سلع وبعدها تنقل إلى المراكب الصغيرة التي تعحنها إلى السفينة الكبيرة المنتظرة بعيداً شن العاطئ.[٦٩٤]

- المرحلة الثالثة:

تتناول تلك المرحلة دفع الرسوم الجمركية المقررة شلى السفن الأجنبية، وقد تنوشت تلك الرسوم المفروضة، حيث فرض شلى التجار الأجانب أن يدفعوا ٢ دوكة، أو واحدة ذهبية فقط كضريبة رأس يأخذها السلطان المملوكي[٦٩٥]، أما الحاج فيجب أن يدفع خمس دوكات ذهبية[٦٩٦]، وكذلك ٢ دوكة شن كل ما يحمل من أموال[٦٩٧] وأحياناً يدفع البعض ١٠% شن النقود التي يحملها، ولا يمكن التهرب من تلك الضريبة حيث يقوم الموظفون بتفتيش المسافرين تفتيعاً ذاتياً سواء رجل أو امرأة، وشندما حاول الرحالة معيولم اليهودي تخبئة النقود في نعل حذائه وجدها شمال الجمرك وأخذوا منها ١٠ % فقط وأشادوا له الباقي.[٦٩٨]، أما فريسكو بالدي فقد استطاع تخبئة ٦٠٠ دوكة ذهبية ودفع الضريبة شن النقود الباقية معه حوالي ٢٠ %

---

[693]. Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , pp. 67 -78

[694] Fabri , Voyage en Egypte , tome 2 , p. 708.

[٦٩٥] عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٨٣.

Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 38, Harff The Pilgrimage of Arnold Von Harff,p.93 ,See Also, Ziada, The Foreign relation of Egypt, p. 212.

[696] Ghistele , Voyage en Egypte , p. 17, Harff, Ibid , p.93.

[697] (Adler , Jewish Travelers, p. 223 , Frescobaldi , op.cit , p. 160 , See Also , Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 73.

[698] Adler , Ibid , p. 158 ,See Also , Wolff , Ibid.

فقط.[٦٩٩]، أما السلع والبضائع فكان لابد أن يدفع شنها حوالي ١٠ % فقط من قيمة البضائع الواردة والصادرة أيضًا.[٧٠٠]، وفي بيت المقدس)شند ميناء يافا(كان يجب شلى المسافر أن يدفع ٢ دوكة نظير الإقامة والضيافة وكذلك ٧.٥ دوكة أخرى في الجمرك، ثم يسجل اسمه لدى موظف الجمرك ثم ١٢.٥ دوكة ذهبية ضريبة رأس.[٧٠١] ونهاية القول أن قيمة الرسوم الجمركية قد اختلفت،ىكان يؤخذ من التجار الأجانب العشر[٧٠٢] وأحيانا تصل إ % من قيمة البضائع أو تقل إلي ٢٠ %[٧٠٣].

وهكذا كانت تصل إلى العواطئ المصرية والعامية العديد من السفن الأجنبية المتنوشة والتي كانت المصدر الأساسي للدخل القومي ومصدراً هاماً لزيادة الأموال في الخزانة السلطانية، وذلك من خلال الرسوم والضرائب التي يدفعها الحجاج والتجار والمسافرون من كل أقطار العالم، وكان الدخل الأكبر ناتج شن الرسوم التي يدفعها التجار شن السلع والبضائع التي يصدرونها لمصر أو يستوردونها بأسعار مرتفعة وخاصة التوابل والسلع العرقية.[٧٠٤] وقد بلغت جباية الضرائب من الجمرك ٣/١ من كافة الواردات التي تغذي الخزانة، كما كانت الرسوم في زيادة متنوشة فكان الذهب الذي يصل إلى الإسكندرية من أوربا لصنع العملات المملوكية تصل رسومه إلي ٦, ٣/٢ %، ومن تجارة الفضة تستوفي حوالي ٤.٥ % ثم وصلت إلى ٣.٥ %، وشن كل الفضة الواصلة إلى القاهرة يتقاضى السلطان المملوكي الععر، أما النحاس فرسومه في الإسكندرية وغيرها من المراكز ما يقارب الربع، أما الأخعاب والحديد والقار فكان السلطان يأخذ شنها ضريبة تقدر بحوالي الربع أيضاً، وشن كل مركب

---

[699] Frescobaldi ,op.cit, p. 39.

[٧٠٠] ابن مماتي، الأسعد بن مماتي، قوانين الدواوين، القاهرة، ١٩٤٣ م، ص ٣٢٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشي، ج ٣، ص ٤٦٣

Schefer ,Le Voyage de Jean Thenaud , p. 24,Harff ,op.cit , p. 93.

[701] Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 213

[٧٠٢] ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٣٣٦.

[٧٠٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٤.

[٧٠٤] مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٤٨ – ١٤٩.

صغير أو كبير يبحر في البحر يحصل السلطان شلى ثلاثة دوكة ذهبية إلى ما يساوي ٣.٥ فلورنتي ذهب[٧٠٥]، وفي نهاية العصر المملوكي بلغ حصيلة الجمرك سنوياً إلى السلطان المملوكي حوالي ٢٥٠ ألف شملة ذهبية[٧٠٦]، كما كان للسلطان المملوكي رغبة في زيادة الدخل ورغبة في التسلط والتعسف بفرض رسوم وضرائب جمركية مرتفعة شلى التجار الأجانب وخاصة شلى البهارات والتوابل حيث تكلفت تلك السلع أكثر من نصف ثمنها الأصلي فكانت تحدث خسائر كثيرة يتحملها سكان الفلاندرز وألمانيا وإيطاليا وسائر البلاد الأوربية[٧٠٧].

- المنشـآت التجـاريـة:
- الفنـادق والخـانـات:

سبق وأوضحنا الدوافع والأسباب التي جذبت الأجانب للقدوم إلى مصر والعام والتواجد بالدولة المملوكية وهي دوافع متعددة ومتنوشة، ولذلك زاد شدد الرحالة والوافدين إلى البلاد المصرية والعامية، فأصبح بها جاليات أجنبية كبيرة العدد ومتعددة الجنسيات، حيث أوردت كتب الرحالة الأجانب معلومات تفيد بوجود شدد كبير من الأجانب في المدن الرئيسية في مصر والعام مثل الإسكندرية، دمياط، القاهرة، دمعق، بيروت، بيت المقدس من الأرمن والأحباش واللاتينيين واليونانيين مسيحيين ويهود. [٧٠٨]

وقد اهتمت السلطات المملوكية بإقامة هؤلاء الأجانب، وذلك ببناء الفنادق

)٧٠٥(مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠٦ ؛ ١٠٧..

)706(Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 27

)707(Dopp , Le Egypte , p. 75

)708( )rescobaldi , A visit to the Holy Land , p. 47 , Wright , Early Travelers , pp. 294 – 295 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 85 ,See Also, Wolff , How many miles? , p. 119.

- هنا يجب أن نوضح أن الأجانب كان لهم مساكن اقاموا فيها سميت الفنادق فى مصر وفى الشام أقاموا فى أحياء خاصة بهم أما الخانات فقد خصصت للتجار المسلمين ولكن هناك بعض الخانات على طرق السفر سمح فيها بأقامة المسافرين سواء أجانب أو عرب.)الباحثة(.

والخانات ليقيموا فيها فترة تواجدهم في الديار المملوكية، لكن لم تسمح لهم السلطات أبدا بالتواجد الدائم في القاهرة العاصمة، ولم يكن لهم فندق أو كنيسة لاتينية حتى أن البيازنة حينما حاولوا الحصول شلى تصريح من السلطان الأيوبي صلاح الدين الأيوبي ببناء فندق لهم في القاهرة لم يجب شليهم بالقبول أو بالرفض[٧٠٩]، وذلك الوضع استمر في العصر المملوكي، حيث كان السلاطين المماليك يحرمون شلى الأجانب شراء السلع العرقية القادمة من الهند من أسواق القاهرة ولذلك لم يكن هناك سببٌ لتواجدهم في القاهرة لفترة طويلة تستدشي بناء فندق يقيمون فيه، وبالتالي لم تكن القاهرة مدينة جذب بالنسبة للأوربيين بالإضافة إلى التعليمات التي فرضها السلطات المملوكية شليهم ومنعتهم من التجول داخل البلاد والمدن بحرية فاقتصرت إقامتهم في الثغور والموانئ، وإذا انتقلوا إلى القاهرة فلم يكن ذلك إلا للضرورة القصوى، كعرض شكوى أمام السلطان أو تقديم التماس لطلب العدالة وحل بعض المعكلات القائمة بين الأجانب والمصريين، لذا لم يوجد في القاهرة سوى شدد محدود من الأوربيين، ولم يكن هناك داشياً لبناء فندق لهم ولكنهم أقاموا في أماكن للضيافة، سواء كانوا تجاراً أو حجاج أو قناصل لان إقامتهم كانت مؤقتة[٧١٠].

ودليلنا شلى ذلك أنه في شام ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م زار الراهب نيكولو بيجيبونسي Nicolo of Poggibosi القاهرة، ولم يجد مكاناً يقيم فيه أثناء زيارته للكنائس والأماكن المقدسة في مصر سوى منزل أحد المسيحيين اليونانيين قرب حي النصارى.[٧١١] وشندما قدم الرحالة فريسكو بالدي Frescobaldi وأصدقائه سيجولي Sigoli وجيوشي Gucci شام ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٤ م أقام الجميع في منزل معد للحجاج مقابل أجر معين ولكنه ليس فندقاً للأجانب[٧١٢]، وكذلك السفير الفلورنسي فيلبيس برانكاشي Fielice brancacci الذي زار مصر شام ٨٢٦ هـ /١٤٢٢ م أقام في

---

(٧٠٩) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٧١٠) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٨-٣٠٩ ؛ أحمد دراج، العلاقات بين المماليك والفرنج، ص ٣٧.

(711) Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 87.

(712))rescobaldi , A visit to the Holy Land , p. 99.

منزل أحد الأقباط من جزيرة كريت وكان يدشى غزالة مقابز مبلغ من المال.[٧١٣]، أما الرحالة بيرو طافور الذي كان سفيراً لملك قبرص إلى السلطان المملوكي شام ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥ م قابل كبير مترجمي السلطان في القاهرة وسمح له بالإقامة في منزله لمدة يومين لحين مقابلة السلطان، وبعد ذلك أمر السلطان المترجم أن يوفر للضيف مسكناً مريحاً له ويقدم له ما يحتاجه.[٧١٤] أما الرحالة اليهودي ميعولم بن مناحم فأقام شند الناجيد)رئيس اليهود(في القاهرة في منزله شدة أيام، ثم جهز له وكيل الناجيد منزلاً مجهزاً بكل شيء ليقيم فيه وكان ذلك شام ١٤٨١ م[٧١٥]، كما أقام الرحالة الألماني فون هارف والذي زار القاهرة شام ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦ م أقام في منزل كبير التراجمة في ذلك الوقت نظراً لعدم وجود فندق للأجانب بها وأقام رفاقه معه كل اثنين في غرفة، ووصف تلك الغرف في المسكن بأنها حجرات ضيقة وليس بها شيء سوى أرض شادية فاضطر للنوم شلى الأرض[٧١٦].

أما الرحالة جان تينو Jean Thenaud والذي وفد إلى مصر شام ٩١٨ هـ/ ١٥١٢ م فقد أقام في مبنى أو خان قرب أحد المساجد، حيث لم يجد مكاناً للضيافة في القاهرة سوى ذلك الخان الذي كان مكاناً مرتباً ومنظماً وفيه نزل الغرباء إلى داخل المدينة لعراء لوازمهم واحتياجاتهم، وكان الأقباط اللاتين يقيمون شند الترجمان ويدفعون له أربعة دوكات في العهر مقابل الإقامة.[٧١٧]، في حين يذكر الرحالة فون برندباخ Bernhard von breydenbah أنه شندما كان في القاهرة شام ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣ م قابل قنصل البنادقة في المدينة ويبدوا أنه اشتقد أن القنصل يقيم فيها بصفة دائمة وأن التجار يقيمون معه.[٧١٨] ولكن ذلك الرأي غير صحيح فقد جاء ذلك القنصل والتجار إلى القاهرة ليقدموا شكواهم إلى السلطان فقط وليس لديهم مكان ثابت

)713(Dopp , Le Caire , tome 24 , p. 124.

)٧١٤(بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٥ ؛ ٦٩.

)715(Adler , Jewish Travelers , p. 173.

)716(Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp. 101 – 102.

)717(83.. Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p

)718(Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 60.

يقيمون فيه، وذلك مؤكد لدى الرحالة فيلكس فابري حيث وضح أنه لم يكن الفضول هو السبب الوحيد للسفر إلى القاهرة، فقد كانوا يذهبون إليها التماسا للعدالة إذا كلفت المعاهدات الدولة الأجنبية الحق للجوء إلى السلطان مباشرة للتظلم ودفع العكاوى من الموظفين، أو من حكم أصدرته السلطات المحلية في قضية ما، وكان قنصل الإسكندرية في القاهرة يعرض شكاوى مواطنيه شلى السلطان لحلها أو يقدم مطالب حكومته وفي ذلك الوقت كان القنصل بالقاهرة ليعتكي للسلطان سوء معاملة التجار في الإسكندرية وإجبارهم شلى شراء التوابل وما فيها من شوائب دون غربلة كما هو متفق شليه في المعاهدات التجارية[٧١٩].

شلى أية حال فقد أقام الأوربيون في مباني خاصة حتى يتسنى لهم إتمام أشمالهم شلى أكمل وجه في الثغور والموانئ وقد سمي ذلك المبني باسم الفندق ويرجع ذلك النوع من المباني إلى بداية العصور الوسطى، حيث انتعرت في منطقة البحر المتوسط، وذلك تسهيلا للتجار الوافدين والعمل شلى راحتهم أثناء تواجدهم في الدولة وذلك يعني أن الفندق في بدايته كان مخصصا للتجار فقط، ثم أقام فيه جميع المسافرين فيما بعد فكان مقراً لإقامة الأجانب الغرباء شن الدولة من جميع الجنسيات والطوائف المختلفة ومسكناً مريحا لهم تتوفر فيه الخدمات اللازمة للمسافرين[٧٢٠]، وكان أول فندق أنعئ في الإمبراطورية البيزنطية وأطلق شليه Byzantime mita ولم يكن مسموحاً للتجار الأجانب أن يقضوا فيه أكثر من ثلاثة شهور وهي المدة التي حددتها الإمبراطورية البيزنطية لإنهاء الأشمال التجارية.[٧٢١] ويجدر بنا الإشارة إلى أن مصطلح الفندق أو Fundaco قد شاع استخدامه في القرن الرابع شعر الميلادي وهو لفظ معتق من الكلمة اليونانية Pandokeion أو اللاتينية Xenodochim ومعناها المسكن أو المأوى الذي يقيم فيه الغرباء ويقابلها في الإيطالية Fondaco[٧٢٢].

---

[719] (Fabri , Le Voyage en Egypte , vol 3 , p. 33.

[720] (The New Encyclopedia Britain , London , 1974 , vol 8 , p. 1117.

[721] (Lopez , Medieval trade in Mediterranean world , pp. 84 – 85.

[٧٢٢] (آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ، ج٢، ترجمة محمد عبد الهادي، الألف كتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٨٤ ؛ عمر كمال توفيق، مجتمع الأسكندرية في العصور الوسطي،

وقد كثر شدد الفنادق في الدولة المملوكية وخاصة في المدن الساحلية، وحمل كل فندق اسم الجالية التي تقيم فيه ولا تزاحمها جالية أخرى فقد وجد في الإسكندرية فندقان للبنادقة[٧٢٣]، كما خصص فندق للجنوية وفندق لأهالي نابولي وفندق لأهالي كريت وفندقاً لأهالي برشلونة وآخر لأراجون وقطالونيا وفندق آخر للبيازنة وغيرهم من الجنسيات الأخرى[٧٢٤]، وهناك فندق آخر لأهالي مارسليا والذي أقام فيه الرحالة فريسكو بالدي وزملاؤه، حيث استأجروا أربعة غرف فوق الساحة[٧٢٥].

كان يوجد في دمعق خان للمسافرين الوافدين ينعمون فيه بالراحة والأمان ولهم الحق في حفظ وتخزين البضائع والسلع وكان يسمى خان Berkot خان بركوت)خان برقوق(، وذكر لابروكيير la broquiere أن الفندق قد بناه شخص فرنسي وذلك بسبب وجود شعار)رنك(زهرة الزنبق منقوشاً شلى أحد جدران الخان، ويبدو أنه كان رجلا شهماً وشجاشاً وذو سمعة طيبة بين سكان العام ويتميز بالقوة العسكرية والحربية ولذلك لم تستطع جيوش تيمورلنك أن تدخل دمعق في شهده ويقرر أهل العام أنه لو مد في شمره لما تمكن تيمورلنك من دخول بلادهم[٧٢٦].

الأسكندرية، ١٩٧٢ م، ص ٢٩٧ ؛ Dopp , Le Egypte , p. 76.

)[723](Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 93 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 436 , Souriano , Treaties on the holy Land , p. 199.

)[724](Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 22.

)[725](Wolff , How many miles? ,p. 82.

)[٧٢٦](Wright , Early Travelers , pp. 294 -295.

- الرنك: هي كلمة فارسية تنطق رنج بمعني لون وقد جرت العادة عن تأمير المملوك أن يعطي رنكا أو شعارا يشير إلي وظيفته، ويرجع الأصل في استخدام الرنوك إلي السلطان الصالح نجم الدين أيوب، انظر: إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤٨٥،٤٩٢ ؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، المجلة التاريخية، م١١، ١٩٧٤، ص ٤٥.

- هنا يتضح لنا أن الخان كان يسمى خان برقوق نسبة إلى الظاهر برقوق، وما ذكره عن قوته وشجاعته وتصديه لتيمور لنك ينطبق تماما على السلطان المملوكي الظاهر برقوق أما شعار الزهرة فرغم أنه استعمل في الملكية الفرنسية فهو قبل كل شيء كان أحد رنوك أمراء المسلمين في العصور

لم يقتصر الأمر شلى ذلك فحسب بل حرصت السلطات المملوكية شلى توفير شنصر الأمان والراحة للمسافرين والتجار والرحالة، فأنعأت الخانات المتعددة بطول البلاد وشرضها، وكانت مجهزة بالمؤن والعراب وغرف النوم للراحة وتلك الخانات تعبه محطات الترانزيت لراحة المسافرين والحصول شلى الأمان والتموين لاستكمال الرحلة، ففي مدينة بلبيس استطاع الرحالة ميعولم أن يقيم في خان به غرفة مجهزة وبها منضدة وكرسي وشموع بالقرب من المعبد وكان يملكه أحد اليهود الأغنياء العرفاء[٧٢٧]، وفي أريحا وجد خان لسكن الأجانب فيه حدائق البلح والتفاح ويستطيع المسافر هناك شراء ما يلزمه من الطعام[٧٢٨]، وفي الأردن كانت توجد دار للضيافة أشدها السلطان خصيصاً للرحالة قرب الجبل الذي كان يطلق شليه البرج الأحمر وكان بداخل الخان كنيسة صغيرة جميلة يقيم فيها قساوسة يونانيون وشلى بعد ميلين آخرين توجد دار ضيافة أخرى ينزل فيها الرحالة والمارة حيث يضعون أمتعتهم ودوابهم[٧٢٩]، وفي يافا أيضًا وجد خان للحجاج قد أقامه الدوق جود فري عندما استولي شلى القبر المقدس وهو مجهز أحسن تجهيز وبه شدد كبير من الغرف بعضها مخصص للرجال والبعض الآخر مخصص للنساء[٧٣٠].

كان يوجد في مدينة الخليل خاناً متسع وبه حظيرة واسعة للحيوانات وغرف للنوم والراحة في الأشلى و في الأسفل ساحة واسعة مغلقة ببوابة شظيمة، وتلك البناية كانت تعبه الدير الحصين ولا يعيش فيها إلا الغرباء فقط[٧٣١]، وفي مدينة بيت المقدس أنعأ الظاهر بيبرس شام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م خان خارج بوابة المدينة سمي باسمه وفوض أمر بنائه للأمير جمال الدين محمد بن بهادر ولما أتم الخان أوقف شليه خراج

الوسطى.)الباحثة(.

)727(Adler , Jewish Travelers, p. 175.

)728(Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 76.

)729(Potvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 35 , 37.

)٧٣٠(بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٢.

)731(Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 410.

أرض مجاورة له وبنى له طاحوناً وفرناً وجعله لخدمة المسافرين والمعاة[٧٣٢]، وكان هناك أيضًا مستعفى فرسان القديس يوحنا بجوار كنيسة الضريح المقدس، والذي كان مستعفى لعلاج المرضى وبعد أن تركه الفرسان وطردوا من بلاد العام، أصبح مأوى للحجاج والمسافرين الأجانب والفقراء أيضًا وذلك المستعفى كان يعيش فيه أكثر من ألف شخص ويحصل شلى مبلغ صغير من المال يدفعه المسافرون للقيم شلى جبل صهيون[٧٣٣]، وذلك المستعفى كان لسكنى الحجاج والمسافرين الرجال، أما النساء فكن يقمن في منزل صغير قرب دير جبل صهيون[٧٣٤]، ويبدو أن رجال الدين الإيطاليين كانوا أكثر حرية في الإقامة في بيت المقدس حيث سمح لرجال الدين بالإقامة في مستعفى القديس يوحنا، أما العلمانيون فكانوا يقيمون في منزل في منتصف الطريق بين الضريح المقدس وجبل صهيون، أما قبطان السفينة كان يقيم في دير جبل صهيون ومعه أثنان من الحجاج ويتمتع فيه بالراحة والخدمة الجيدة من قبل الأخوة الرهبان [٧٣٥]، وكان المكان قديما يسع ألف حاج، لكن جزءاً كبيراً منه محطم والجزء الباقي يسع فقط لأربعمائة حاج فقط[٧٣٦] وفي بيت المقدس أيضًا يوجد خان آخر بجوار القبر المقدس يديره الرهبان اليونانيون ويقيمون فيه بطهي شتى أنواع الطعام بطرق شديدة ويبيعونه للنصارى[٧٣٧].

وجد في رام الله خان لإقامة المسافرين، حيث دخل الحجاج الأوربيون منزل له باب قصير وضيق وقام الموظفون شلى الباب بإحصاء الداخل والخارج، وفيه وجد فناء واسع جميل به غرف متسعة ونبع ماء نقي، وذلك النزل قد اشتراه الدوق فيليب

)٧٣٢(ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٢١ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٤٩١ ؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٨٧

)733(Frescobaldi , , A Visit to the Holy Places , , p. 127 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p.244 , Ludolph , Description of the Holy land , p. 107.

)734(Souriano ,Treaties on the holy Land ,p. 5 , Fabri , the wandering , vol 1 part 2 , p. 395.

)735(Vredan , Travel in the Middle ages , p. 109.

)736(Fabri , the wandering , vol 1 part 2 p. 395.

)٧٣٧(بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٣.

دق برجنديا لسكني الحجاج وجعل الأخوة الرهبان في دير جبل صهيون مسئولون شنه لذلك كان يسمى نزل الحجاج، ويحصل المنزل شلى أموال من خلال ما يدفعه الحجاج مقابل الإقامة به رغم شدم وجود فراش ولا كراسي في الغرف فيضطر المسافر إلى شراء فراش للنوم شليه.(٧٣٨)، ولكن كان هناك بعض الخانات الأكثر سوء وقذارة وتعبه الكهوف في الجبال كما وجدت في يافا ونابلس حيث يذكر الرحالة الراهب فيلكس فابري وغيره أنه شندما نزل الحجاج ميناء يافا أقاموا في خانات تعبه الكهوف أو القبر وكانت مليئة بالقاذورات والأوساخ ولم يكن هناك مكان آخر يقضون فيه الليل ولذلك أضطر هو وزملاءه إلى تنظيف المكان ليناموا فيه فهو خان صغير وحقير وقذر ولا يصلح للضيافة والسكن مما جعل الحجاج يعورون بالضيق والاشمئزاز(٧٣٩).

لقد ترك لنا زوار مدينة الإسكندرية وصفا شاما للفنادق، حيث كانت ذات تصميم معماري واحد تقريبًا شلى مر العصور وكان الفندق مبنياً مملوكياً خالص ويخضع للسلطات المحلية وليس ملكا للجالية المقيمة فيه بل هو هبه من الدولة للأجانب، والفندق شبارة شن مبنى مربع العكل، كبير الحجم يعبه الحصن أو الصرح ويتكون من شدة طوابق فالطابق الأول الأرضي به حوانيت ومخازن لحفظ البضائع والسلع وتتم فيه شملية البيع والعراء، و خصص لكل تاجر مخزن يضع فيه بضاشته ويغلق شليها وفيه أيضًا تعقد الصفقات التجارية، أما الطوابق العلوية فهي مخصصة لمبيت الأجانب وبها غرف للنوم معدة لراحة النزلاء.(٧٤٠)، وتطل الغرف شلى فناء داخلي واسع قد خصص لتفريغ البضائع والسلع وتصنيفها والاستعداد لعملية التخزين

)738(Casola , A voyage Beyond the seas, p.237,Fabri ,The Waderning , vol 1 part 1, p. 247.

)739(Casola , Ibid,pp. 232,234 -235 , Fabri , Ibid , p. 224 , See Also , Davis , Breydenbah and his Journey to the Holy Land , p. xiv.

)740(Ghistele Voyage en Egypt, pp.113 -114, See Also, Wolff ,How Many miles? ,p.74 ,Vredan , Travel in the Middle ages , p. 116.

في المخازن[741]، وفي الجزء الآخر من الفناء توجد حديقة زرشت بها أشجار غريبة مجلوبة من جهات شديدة وبها أنواع متنوشة من النباتات والزهور التي توجد في أوطان هؤلاء الأجانب لتذكرهم ببلادهم وتعطي الإحساس بالراحة كما تربى فيه بعض الحيوانات المستأنسة.[742]، ولما كانت تلك الفنادق قد أقيمت خصيصا لراحة النزلاء والغرباء الأجانب فلا يعرون بالضيق أو الغربة، لذا أقيمت في كل فندق حمام وفرن لصنع الخبز وبها كنيسة صغيرة لأداء الطقوس الدينية فضلًا شن السماح لهم بوجود النبيذ مما يسمح لهم العيش بحرية تامة داخل الفندق[743].

أتبعت السلطات المملوكية نظاماً خاصاً بإدارة تلك الفنادق شامة، فهي التي تملكها وحدها ولا سلطان لأي جالية شليها وتلك الأنظمة التي وضعتها السلطات المحلية كانت إجراءات أمنية لحماية الأجانب والحفاظ شلى أرواحهم وأموالهم، حيث تحكمت السلطات المحلية في إغلاق الفندق ليلا من الخارج من غروب العمس حتى صباح اليوم الثاني، ويقوم بذلك العمل حارس مملوكي تعينه السلطات المحلية، وذلك خوفاً من شمليات السطو شلى الفندق وحماية النزلاء ليلًا[744]، كما كانت تغلق أبواب الفنادق وقت صلاة الجمعة ولمدة ساشتين أو أكثر إلى حين الانتهاء من الصلاة، كما منعت النزلاء من شرب الخمر خارج الفندق منعاً للتصادم مع المسلمين وشدم إيذاء معاشرهم الدينية[745]، وقد شهد كل من رأى تلك الفنادق بالروشة والجمال، وأنها

)741(Ghistele ,Ibid ,p. 113-114 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 38.

)٧٤٢(بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ١١ ؛ انظر أيضا، شاريل ديل، جمهورية البندقية، ص ١٤٢ ؛ Wolff , op.cit , p. 74

)٧٤٣(صبحي لبيب، "الفندق ظاهرة سياسية و اقتصادية وقانونية، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط"، دار الفكر، ١٩٨٥ م، ص٤٩٢ ؛ نعيم زكي، طرق التجارة، ص ٢٩١ ؛ Wolff, How Many miles? op.cit,p.74.

)٧٤٤(ابن عساكر، الفضل المأثور، ص ٢٢ ؛ Wright ,Early Travelers , p. 295 , Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p. 109 , Schiltberger , The bondage and Travel , p. 62.

)745(Frescobaldi , op.cit , p. 41 , Potvin , op.cit , Ibid.

أجمل مبان شيدت في ذلك العصر[٧٤٦]، ونتيجة لعناية الدولة بإذعاء تلك الفنادق تمتعت بعضها بعهرة فائقة ومكانة مرموقة لدرجة أن بعض الجمهوريات الإيطالية أذعئت فنادق في بلادها شلى غرار الطراز المعماري المصري للتجار الألمان في أواخر العصور الوسطى[٧٤٧].

نخلص مما سبق أن الرحالة الأوروبيون قد أمدونا بمعلومات شن مصادر المياه وأهميتها والمعاريع التي قامت شليها لحمايتها من الضياع، وكذلك ذكر طرق زراشة بعض المحاصيل وزراشتها، ولكنهم أغفلوا ذكر مساحة الأراضي الزراشية وتقسيمها وأنواشها ونظام الملكية الزراشية، ولم يلاحظوا أيضاً مدي التغيير الذي طرأ على الأراضي الزراشية من تدهور واضمحلال، كما كثرت الأسواق في الدولة المملوكية نتيجة لاهتمام السلطات المملوكية بالتجارة الداخلية والخارجية ونعر الاستقرار السياسي لفترة طويلة و شهدت المدن نمواً سكانياً ملحوظاً منذ بداية الحكم المملوكي فساهم ذلك في زيادة النعاط الاقتصادي وازدهار الحياة الاقتصادية، وكثرة الأسواق وتنوشها في المدن التي كانت تموج بالحركة والنعاط وتكتظ بأصناف البضائع والسلع المحلية والمستورة، ذلك وقد تعددت وتنوشت الأسواق تعدداً ظاهراً من حيث طبيعة تلك الأسواق والهدف منها، فهناك أسواق دائمة، وموسمية وهناك أسواق متخصصة في بيع نوع معين ومحدد من السلع وأسواق أخرى كان يباع فيها أنواع مختلفة من السلع بدون تصنيف. ولكن ذلك النمو صاحبه تدهور شام بسبب الفتن والثورات والاضطرابات، إما رغبة في الوصول للسلطة أو للحصول شلى زيادة مالية للأمراء والمماليك أو للسلطان ذاته بالإضافة إلى تولي السلطة بعض السلاطين الضعفاء صغار السن وحينما كان السلطان المملوكي يعجز شن سد حاجة المماليك والجند يصب جام غضبه شلى الععب وذلك بفرض الضرائب الباهظة، أو بالمصادرات بدون أسباب من أجل سداد العجز المادي في خزانة الدولة وتلي ذلك سياسة الطرح ويقصد بها طرح السلع شلى التجار بالأسعار التي يحددها السلطان

)[746](Atiya , the latter crusades , p. 182.

)[٧٤٧](صبحي لبيب، الفندق ظاهرة، ص ٢٩٢.

بنفسه كما يحدد أنواع معينة من السلع والمنتجات، ثم سياسة الاحتكار الاقتصادي التي مارسها السلاطين المماليك فأصبحوا تجاراً جعءين وأصبح الاحتكار التجاري نظاماً سار شليه السلاطين فيما بعد، حدث ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي، حيث ظهرت ملامح التدهور والاضمحلال الاقتصادي والسياسي في تلك الفترة، فأصبحت الحكومة غير مستقرة واصطبغ العصر بصبغة خاصة من شدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماشي وفي تلك الفترة أيضًا اتجه السلاطين المماليك إلى الاشتغال بالتجارة والنزول إلى الميدان التجاري بهدف زيادة موارد الدولة والخروج من الأزمات المالية المتكررة مما أدي في نهاية الأمر إلى سيطرة السلطان المملوكي شلى الموارد الاقتصادية بصفة شامة واحتكر معظم السلع والمنتجات الهامة مثل الغلال والتوابل والبهارات والسكر والتي كانت تدر أرباحاً طائلة وفرضها شلى جميع التجار بأسعار يحددها بنفسه وأثار غضب وسخط الجميع.

كما شهد الرحالة بحسن معاملة السلطات المملوكية للوافدين الأجانب في فترات الهدوء ولكنهم تعسفوا في إجراءات دخول السفن إلي الموانى المصرية والعامية وفرضوا قواشد صارمة شلي الجميع، في حين قامت تلك السلطات بتوفير الفنادق و الخانات وهما من المنءآت التجارية والاجتماشية مخصصان لإقامة الغرباء، فالأجانب كانوا يقيمون في الفنادق، والعرب والعجم كانوا يقيمون في الخانات والقياصرة، باستثناء بعض الخانات أو النزل التي انتعرت شلى الحدود حيث يستريح فيها المسافرين للاستعداد لاستكمال الرحلة، كما كانت تلك الفنادق تعتبر مصرفا ماليا يودع فيه التجار بضائعهم وأموالهم ومأوى مناسب وآمن للأوربيين بصفة خاصة كما يتضح أن السلطات قد اهتمت كثيراً براحة المسافرين ووفرت لهم سبل الراحة والأمان في البلاد.

الفصل الثالث

• النمو السكاني في مصر والشام:

أشار أحد الباحثين المعاصرين أن شدد السكان قد زاد في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع شعر الميلادي وخاصة في "مدينة القاهرة بمقدار ٦٠٠.٠٠٠ نسمة"، وازداد سكان العام أيضاً لظهور ضواحي سكنية جديدة، وفى أواسط القرن الثامن الهجري / الرابع شعر الميلادي افترض أنه يوجد في مصر حوالي ٣ ملايين نسمة وحوالي ٩٠٠.٠٠٠ نسمة في العام[٧٤٨]. وفى دمعق كان شدد السكان حوالي ١٠٠٠ نسمة في شام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م شلى حد قول الرحالة لابروكير la broquiere بسبب الخراب العديد[٧٤٩].

بدأ التناقص السكاني في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع شعر الميلادي نتيجة للطاشون شام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٧ م والذي أطلق شليه الموت الأسود أو الفناء الكبير - ويعد ذلك الطاشون هو البداية الحقيقة للتدهور السكاني في ذلك الوقت - وقد بدأ ذلك الطاشون في وسط آسيا وأنتقل إلى منطقة البحر الأسود شام ١٣٣٦ م بسرشة رهيبة، وانتعر في صفوف الجنود المغول، فأمر الخان المغولي بقطع رؤوس الجنود المصابين بالمرض، ثم انتقل إلى كافا)ميناء شلى البحر الأسود(شن طريق التجار الجنوية، وكذلك انتعر شن طريق قوافل التجارة في طريق الحرير من الصين، بغداد، أرمينية إلى المدن الإيطالية فوصل إليها ونقلت العدوى، وزاد الأمر وتقدم الفناء وحاول البعض الفرار إلى الإسكندرية وبلاد العام، ومن هنا انتعر الوباء في مصر ثم بلاد العام[٧٥٠]، وضاع شدد كبير من سكان مصر فيذكر ابن إياس

---

(٧٤٨) آشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٣٧٩-٣٨٠.

(٧٤٩) اير لابيدوس، المدن الإسلامية، ص ٦٣ ؛ Wright , Early Travelers , p. 294.

(750) Wolff , How many miles? , p. 114.

أنه في كل يوم كانت تخرج من القاهرة نحو شعرون ألف جنازة وشدد الذين ماتوا في شهر شعبان ورمضان وصل إلى حوالي ٩٠٠.٠٠٠ نسمة[٧٥١]. وكان يموت في حلب في اليوم ٥٠٠ إنسان وفى غزة أكثر من ٢٢ ألف حتى أغلقت الأسواق، وشمل الموت أهل الضياع والقرى[٧٥٢]، واستمر ذلك الوباء لمدة شامين ثم انحسر تدريجياً، ولكن أثره كان شميقاً جداً حيث مات أكثر من ثلثي السكان[٧٥٣].

وشندما زار الرحالة فريسكو بالدي frescobaldiوأصدقاؤه مصر شام ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤م وجد أن الإسكندرية بها حوالي ٦٠ ألف نسمة من اليهود والمسيحيين والمسلمين، وفى القاهرة شاهد أشداداً كبيرة من الناس في العوارع ينامون في العراء وصل شدده‍م إلى أكثر من ١٠٠ ألف شخص ويعملون أشمالاً متنوشة ويتقاضون في اليوم حوالي درهما واحداً[٧٥٤]، أما سيجولى sigoli وجيوشي Gucci رفقاؤه في الرحلة فقد رأوا أن شدد سكان القاهرة)مصر(كان حوالي ٣ ملايين نسمة. [٧٥٥]، وهم أيضاً لاحظوا أن شدد السكان في مصر كان قليلاً مقارنة بالسنوات السابقة وأكدوا أن سبب ذلك هو الطاشون الذي حدث شام ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣ م حيث مات في القاهرة شدد كبير من السكان ففي ثلاثة أيام توفى أكثر من ٤آلاف شخص، وفى أيام أخرى وصل شدد المتوفين إلى ١٠ آلاف أو إلى ٢٠ ألف، فلنتخيل شدد المتوفين إذا استمر ذلك الطاشون لمدة ثمانية شهور أخرى.[٧٥٦]، ويبدو أن ذلك الطاشون الذي حدث ٧٦٤ هـ - ١٣٦٢م وبدأ في القاهرة والوجه البحري، ثم تزايد بالقاهرة وامتد إلى دمعق وحلب

)[٧٥١](ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٢٨ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ١٩٥ـ ٢٠٧.

)[٧٥٢](ابن تغري بردي، نفسه، ص ١٩٨.

)[٧٥٣](الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص ١١١ ؛ مزيد من التفاصيل انظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٧ ـ٢٩٨ ؛ ابن ايبك الدوادر، كنز الدرر، ج٩، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٤١.

)[754](Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 39 , 49 .

)[755](Ibid ,pp.100,172.

)[756](Frescobaldi , A visit to the Holy Places ,pp.100,172.

وغزة، وهلك مالا يحصى من الناس وبلغ شدد الموتى في اليوم ٢٠٠٠ شخص(٧٥٧).

وشندما زار الرحالة الفرنسي أوجيه لإنجلير seigneur de angleurشام٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م القاهرة وجد أنها مليئة بالسكان ومزدحمة بصورة لا يصدقها أحد (٧٥٨)، وفى الحقيقة فإنه خلال الفترة من شام ٧٨٦هـ ١٣٨٤ م إلى شام٧٩٨هـ/ ١٣٩٥ م حدثت شدة مجاشات وأوبئة بعضها استمر لعدة شهور وبعضها لعدة أيام، وأثر ذلك بعكل كبير شلى سكان القاهرة، ولكن يبدو أن معظم الرحالة لم يحصوا شدد السكان بدقة، وذلك نظراً لضيق العوارع في القاهرة وتلاصق المنازل والمحلات، ولذا فإن أي شدد ولو كان صغيراً في العارع يظهر شلى أنه شدد كبير جداً مقارنة بعدد السكان في الدول الأوربية في ذاك الوقت.

يلاحظ أيضًا أنه منذ منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي كان شدد السكان بصفة عامة في مصر والعام كان آخذاً في التناقص وتلك حقيقة لفتت انتباه الرحالة الأوربيين من المسيحيين واليهود شلى حد سواء حيث لاحظ الراهب فيلكس فابري Felix Fabri والذي زار بيت المقدس شام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م وأقام فيها فترة أن بالمدينة أكثر من ٥٠٠ يهودي وأكثر من ١٠٠٠ مسيحي فقط ولكنه لم يذكر أشداد المسلمين في المدينة، كما لاحظ أن معظم سكانها قد غادروها بسبب خرابها وتدمير أجزاء منها لدرجة أنها كانت تستخدم لرمي الجثث الحيوانات الميتة وأن هناك مناطق زراشية خصبة لم تجد من يزرشها ويسكنها ويعتني بها (٧٥٩)، وأوضح الأب سوريانو souriano أن السبب في قلة شدد السكان في بيت القدس هو انتعار الطاشون الذي كان يتكرر كل شعرسنوات تقريباً(٧٦٠)، وفى نفس العام ذكر ميعولم بن مناحم meshullam Ben menahem اليهودي أن شدد المسلمين كان حوالي شعرة آلاف و٢٠٠ عائلة يهودية(٧٦١).

---

(٧٥٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٩٢ ؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص ٢٥٩.

(758) langnon , le saint voyage , p. 58.

(759) Fabri , The Wandering , vol 2 p1 , p. 229.

(760) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 10.

(761) Adler , Jewish Travelers , p. 189.

لاحظ الرحالة فان دي جوز جستيل joss van Ghistele الذي زار القاهرة شام٨٨٨هـ/ ١٤٨٣ أن بها حوالي ٨ آلاف مسيحي من الهنود والأرمن ومسيحي الحزام والجورجيين والنوبيين وغيرهم من الطوائف الأخرى، وحوالي ٥ آلاف يهودي فقط بينما أنه منذ سنوات مضت كان شدد سكان القاهرة حوالي ٧ ملايين، وكان فيها ١٨ مدينة جميلة وكان فيها العديد من الحرفيين والعلماء أما الآن فقد اختلف الوضع [٧٦٢]، وشلى الرغم من مبالغة الرحالة جستيز في تقدير شدد سكان القاهرة فإن كلامه شن قلة السكان شن السنوات الماضية يبدو صحيحاً بدرجة كبيرة، في حين رأي برنارد فون برنباخ Bernard von breydenbach الذي زار القاهرة في نفس العام أنه يوجد بها حوالي ١٥ ألف يهودي، ورغم اختلاف العدد عما ذكره جستيل إلا أنه رأى أن القاهرة مدينة مزدحمة جداً وشدد سكانها يفوق سكان إيطاليا كله[٧٦٣].

ذكر شوبديا برتينورو الإيطاليObadiah de Bertrinoro أن شدد اليهود في بيت المقدس شام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧ م نقص كثيراً واختفت ٣٠٠ أسرة يهودية، وذلك بسبب الضرائب الباهظة التي كانت تفرض شليهم والتي وصلت إلى ٧٥ دوكة ذهبية شلى كل يهودي في القاهرة وفي بيت المقدس شلى المسيحيين والمسلمين شلى حد سواء ولم يبق في المدينة سوى النساء والفقراء، وكان يوجد في الخليل حوالي ٢٠ شائلة يهودية فقط. ثم نقص شددهم بسبب المجاشات، ففي نفس العام رأى شوبديا عدداً كبيراً من اليهود في بيت المقدس ظلوا لعدة أيام يبحثون شن الطعام والخبز ولم يجدوا شيئاً يأكلوه وماتوا في منازلهم والكثير منهم شاش شلى الحعائش، وهكذا بقي في بيت المقدس حوالي ٤٠٠٠ أسرة من المسلمين والمسيحيين أما شدد اليهود فبلغ حوالي ٧٠ أسرة فقط من العيوخ والأرامل.[٧٦٤] كذلك ذكر الرحالة كازولا pietro casola الذي زار المدينة شام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م أن المدينة بها شدد قليل من المنازل وأن

---

[762](Ghistele , Voyage en Egypte , p. 20 , 193-140.

[763](Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 56.

[764](Adler, Jewish Travelers , pp. 229 -230, 234,237,234-235 .

سكانها ليسوا كثيرين [٧٦٥] وفي يافا كان شدد سكانها حوالي ٢٠٠٠ نسمة في الماضي ولكنها الآن مدمرة بعكل واضح ولا يعيش فيها أحد[٧٦٦].

[illegible]

[illegible] وفقًا لما رآه الرحالة الأوربيون، حيث رأى الرحالة جلبيرت دي لانوي Gilhebert de lanoy شام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١ م أن مدينة القاهرة كانت مكتظة بالسكان والتجار من كل أنحاء العالم وتبدوا أسوار المدينة لمن يمر بها غير مرئية بسبب كثرة الزحام في الضواحي وكثرة تلاحق المنازل المتجاورة للأسوار[٧٦٧]، نلك بالآضافة إلى ما رواه الرحالة اليهودي ميعولم meshullam Ben menahem سنة٨٨٦هـ/ ١٤٨١ م من أنه لو أمكن وضع كل من مدن روما وميلان وبادو وفلورنسا بالإضافة إلى أربع مدن أخرى إليها فإنها لن تستوشب معاً شدد سكان القاهرة[٧٦٨]، كذلك ما رواه الرحالة الفرنسي جستيزjoss van ghistele من أنه وجد في القاهرة أشداد كثيرة من السكان بحيث يعيش كل ٣ أو ٤ أسر في منزل واحد ولا يمكن أن تستوشب المدينة ذلك العد الضخم من السكان ولذا كان يعيش الكثيرين منهم حول المدينة [٧٦٩]،أما الأب سوريانوSouriano ذلك الراهب الفرنسيسكاني الذي كان في بيت المقدس وزار القاهرة شام ١٤٨٩ م فقد ذكر أن المدينة بها شدد ضخم من السكان يصل إلى حوالي مليون ونصف وليس أقل من ذلك[٧٧٠].

وبعد مرور سبع سنوات زار القاهرة الرحالة الألماني فون هارف von harff شام٩٠٢هـ/ ١٤٩٦ م وشبر النيل من رشيد إلى فوه ووجد أن هناك ٨ مدن شلى ضفتي النيل وبها شدد كبير من السكان يتراوح شددهم من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠

---

[765] Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 251.

[766] Ibid , p. 235.

[767] Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p. 114.

[768] Adler , op.cit , pp. 151 – 156.

[769] Ghistele ,Voyage en Egypte , p. 20 .

[770] Souriano , Treaties on the holy Land , pp. 191 -193 .

نسمة والمنازل لا تحصى[٧٧١]، كما شاهد في القاهرة أناس كثيرون بحيث يعيش في المنزل الواحد ١٠ أو ٢٠ شائلة وبها حوالي ٣٠.٠٠٠ مسيحي من جميع الطوائف والمذاهب بالإضافة إلى ١٠ آلاف يهودي، ورغم شدم وجود إحصاء محدد لسكان القاهرة إلا إنها مزدحمة وتعدادها فاق سكان كولونيا، ووجد بها حوالي ٢٤.٠٠٠ طباخ و ٤٨.٠٠٠ خباز و ٣٠.٠٠٠ من السقائين الذين يجلبون الماء، وكل ذلك غير المماليك وزوجاتهم والخدم والجواري والذين يمثلون ١٠٠.٠٠٠ نسمة[٧٧٢].

وشندما زار الرحالة دومينيكو تريفزاني في شام ٩١٨هـ/ ١٥١٢ م القاهرة كسفيرا للبندقية لاحظ أن شدد سكانها قليل وأنها من قبل كان بها حوالي مليون ونصف أما في وقت زيارته فلا يوجد بها نصف ذلك العدد ومعظمهم من الرشاع والعامة[٧٧٣]، ولا غرابة في ذلك فقد تعرضت مصر للعديد من حوادث المجاشات والأوبئة والطواشين خاصة مع بداية القرن الخامس شعر الميلادي حيث انتعر الوباء من شام٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م واستمر حتى شام٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م باستثناء فترات متقطعة ثم شاد أكثر حدة في شام٨٣٣هـ/ ١٤٢٩ م وكذلك الطاشون القوي والأكثر حدة من شام٩٠٢هـ/ ١٤٩٦ م حتى شام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ثم اختفى ليعود مرة أخرى شام٩١٨هـ/ ١٥١٢ إلى شام٩١٩هـ/ ١٥١٣ م وفتك بالعديد من السكان، ورغم ذلك كان الرحالة يرون أن سكان القاهرة يزدادون، ولكن لا أشتقد أن الطواشين والأوبئة المذكورة سابقاً شلى سبيل المثال لا الحصر أنها لم تكن مؤثرة في شدد السكان بز أثرت بعكل واضح بدليل وفاة أكثر من ١٠٠ شخص أو ٣٠٠ شخص في اليوم الواحد فلو استمر الطاشون لعدة شهور فسوف يقضي شلى شدد كبير جداً من السكان كما أوضحنا سابقا، بالإضافة إلى تدهور الحالة الصحية في أواخر العصر المملوكي، وشدم اهتمام السلاطين المماليك بالعب وهروبهم من المناطق الموبوءة إلى مناطق أخرى أكثر أماناً وأكثر نظافة تاركين شامة الناس لمصيرهم في مواجهة الجوع والموت[٧٧٤].

---

[771](Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 99.

[772](Ibid , pp. 112 -113 , 124 -125.

[773](Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 208.

[٧٧٤](المقريزي، السلوك، ج٢ق٣، ص ٧٧٠ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٢٠٤.

وهكذا شهدت مصر والعام في بداية العصر المملوكي نمواً سكانياً ملحوظاً نتيجة لفترة السلام التي بدأها الظاهر بيبرس منذ توليه السلطة، حيث قام بعقد مهادنات مع الملوك الصليبيين، وذلك للتفرغ لصد الهجمات المغولية التي غزت معظم بلدان العرق الإسلامي، وتعرضت تلك البلدان إلى شمليات الذبح الجماشية والفزع والرشب فاستطاع المماليك صدهم قبل أن يصلوا إلى حدود مصر، وجلبت تلك الحكومة القوية لكل من مصر وبلاد العام قرناً كاملاً من الازدهار العظيم، وهكذا كان من الطبيعي تزايد السكان بالإضافة إلى هجرة الكثير من سكان العراق والبلدان الأخرى إلى بلاد العام ومصر، فعندما تقدمت جيوش المغول في العراق وبعدها في سوريه تملك الرشب والخوف نفوس الكثير من الناس فغادروا المدن والقرى وهربوا إلى بلاد العام ومصر، وحتى بعد انحسار الغزو المغولي استمرت الهجرة إلى مصر وبلاد العام وذهب إليها الفقهاء والعلماء ورجال الدين بأشداد كبيرة، كما أصبحت مصر مقراً للخلافة العباسية ومركزاً للحضارة الإسلامية فكانت شامل جذب للناس للعيش فيها، بالإضافة إلى هجرة أشداد كبيرة من المغول إلى مصر خاصة شند الصراشات بين الإيلخانات المغولية في العراق فخافوا من الانتقام الدائم فهربوا من بلادهم، وهكذا شهد النصف الثاني من القرن الثالث شعر الميلادي تدفقاً من الهجرات العربية والمغولية إلى مصر وبلاد العام.

إن ازدياد السكان في بلاد العام كان أبطأ من ازديادهم في مصر لأن بلاد العام قد تعرضت لغزوات المغول المتكررة ودمرت بعض المدن الساحلية في لبنان وحلب وفلسطين، كما تعرضت المدن في بلاد العام إلى الخراب والتدمير بعد سقوط عكا، حيث قام المماليك بتدمير الحصون والقلاع خوفاً من شودة الصليبيين إليها مرة أخرى، وبذلك فقدت بلاد العام الكثير من سكانها في تلك الفترة، كما اضطر الكثيرون من الناس إلى الهرب من بلادهم وديارهم.

أضف إلى ذلك الاستقرار السياسي الاستقرار الاقتصادي وتحسين الأوضاع المالية في مصر والعام وازدهار حركة التجارة الداخلية والخارجية مما ساشد شلى توفر سبل العيش والإقامة بأمان وحرية، كما شمل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون

والناصر محمد بن قلاوون شلى تحسين العلاقات التجارية مع الدول الأجنبية فساهم ذلك في تحسين النقد والوضع الاقتصادي، كما ألغوا بعض الضرائب والمكوس التي كانت مفروضة شلى السكان وهكذا كان استقرار النظام بكل جوانبه داشياً لزيادة السكان في مصر والعام وساشد ذلك شلى زيادة الهجرات الخارجية الأخرى.

وشلى أية حال فإن الأوبئة والطواشين قد استطاشت أن توقف النمو السكاني الذي شهدته البلاد مع بداية ذلك العصر ثم تسببت في التناقص المستمر في أشداد السكان حتى وصلت إلى الثلث تقريباً كما أنه يلاحظ أن تناقص السكان في بلاد العام كان أكثر وضوحاً من تناقصه في مصر وهكذا حدث هبوط في شدد السكان مع بداية القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي أثناء فترة حكم المماليك الجراكسة، وذلك نتيجة شدة شوامل متعابكة تمثلت في شدم الاستقرار السياسي داخلياً وخارجياً والتدهور الاقتصادي الملحوظ، وشدم الاستتباب الأمني الداخلي بالإضافة إلى تغير النقد بصورة مستمرة وابتكار أنواع جديدة من الضرائب الباهظة، وانتعار الأوبئة والمجاشات شلى فترات متقاربة، وكذلك تدهورالحضارة الإسلامية في العرق، وبذلك يمكن القول إن هناك فجوة واسعة بين شهد المماليك البحرية وشهد المماليك الجراكسة، وإن هناك منحنى متدهوراً للنمو السكاني كان واضحاً جداً في شصر الجراكسة.

- [illegible]

اختلف المؤرخون في تقسيم المجتمع في العصر المملوكي حيث قسمه البعض إلى سبعة أقسام، أو إلى قسمين فقط، ولكن الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر والعام في ذلك العصر قسموا المجتمع إلى ثلاثة أقسام، الأول هم المماليك العبيد الذين تولوا مناصب شليا في الدولة وشاشوا منفصلين شن سائر السكان وأصبحوا طبقة ممتازة، والثاني هم الععب بكل طوائفه الخاضعة لحكومة السلطان سياسياً ولنفوذ الخليفة دينياً وهؤلاء كان شددهم كبيراً جداً وينقسمون إلى مسلمين ومسيحيين ويهود، والثالث هم الأشراب الذين كانوا يسكنون الصحراء أو الأشراب المستفلحين الذين شاشوا في المناطق الريفية، ولذا سوف نعرض الملامح الأساسية لحياة تلك

الطبقات من خلال ما أورده الرحالة الأوربيين، و كما سبق القول فإن طبقة المماليك شاشت منفصلة شن الععب ولذلك يمكن إلقاء الضوء فقط شلى الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع وهما السكان الوطنيون والأشراب.

• [illegible]

كان شدد المسلمين في العصر المملوكي كبيراً جداً وشكلوا غالبية السكان بصفة عامة، وقد احتفل المسلمون بأشياد شديدة معظمها دينية وذات مغزى معنوي وروحي في نفوسهم، مثز، + [illegible] الذي يلي نهاية صيام شهر رمضان، ففي مصر استمر العيد لمدة ثلاثة أيام متتالية، وفي صباح اليوم الأول يذهب جميع المسلمين إلى المسجد لصلاة العيد، وفي ذلك اليوم كان العامة يجتمعون أمام منزل الإمام الذي سيصلي بهم صلاة العيد في المسجد، وهم يهللون ويكبرون حتى الوصول إلى المسجد ويلقي خطبة تعتمل شلي الدشاء والعكر لله، ثم يخرج من المسجد وحوله العامة والمذعدون حتى يصل إلى منزله، وجرت العادة في هذا العيد أن يسهر الناس ليلة العيد لتجهيز ملابسهم الجديدة حتى الصباح وشراء الحلوى والخروج لزيارة القبور ويجتمع النساء والرجال معاً يغنون ويمزحون ويتوجهون إلى شاطئ النيل ويستأجرون القوارب للتنزه والتمتع بكل أنواع الترفيه[٧٧٥] ثم الاحتفال بعيد الأضحى تكريماً وتعريفاً للنبي إبراهيم وابنه إسماشيل شليهما السلام، وذلك لأن سيدنا إبراهيم قد أطاع الله شندما أمره بذبح ابنه شلى الجبل، لكن الله فداه بأضحية، ولذلك يقوم المسلمون في ذلك اليوم بذبح الأضاحي ويوزشونها شلى الفقراء والمحتاجين[٧٧٦].

أ [illegible] فكان له طابع خاص، لأنه أول الأشياد الإسلامية وقد حرص سلاطين المماليك وشامة الععب شلى الاحتفال به احتفالاً يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة، وكان الاحتفال يبدأ من بداية شهر

([٧٧٥]) ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، دار الحديث، بيروت، ١٩٨١ م، ج ١، ص ٢٨٨-٢٨٩ ؛ Schiltberger , The bondage and Travel, p. 70.

([776]) Schiltberger ,Ibid , p. 71 .Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 68 ,

ربيع الأول ويستمر حتى الثاني شعر من نفس العهر، وكان السلطان يقيم خيمة في الحوش السلطاني بالقلعة سميت بخيمة المولد، وأول من أقامها هو السلطان قايتباي وكلفها ٣٠ ألف دينار، وكان الاحتفال الرسمي يبدأ ظهراً ويستمر حتى ساشة متأخرة من الليل ويبدأ بقراءة القرآن ويجلس مع السلطان شيخ الإسلام والقضاة الأربعة وشيوخ العلم، وبعد صلاة المغرب تمد أسمطة الطعام المنوع وبعدها ينعد المنعدون ويمدحون في الرسول شليه الصلاة والسلام(٧٧٧)، وفي بيوت العامة كانوا يحضرون القراء يتلون آيات القرآن الكريم، ثم يأتي المنعدون ومعهم الآلات الموسيقية و يقيمون حلقات الذكر. (٧٧٨)، ومن مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي أنه شند غروب العمس كان الناس يجتمعون هنا وهناك ويغنون بصوت مرتفع، وتنطلق المقذوفات النارية من القلعة كما يقوم العامة بإشعال نار شديدة، ويقصد بها المصابيح المعتعلة ولكنها كبيرة الحجم، وذكر لابروكيير La broquiere أن تلك النار أو المصابيح الضخمة أكبر وأقوى من الفوانيس وأحياناً يستفيدون منها في إشعال الحريق في أشرشة سفن العدو(٧٧٩).

كما احتفل المسلمون ☐☐☐ ☐* G ☐احتفالا كبيراً، و كان يبدأ مع رؤية هلال رمضان، حيث يخرج الناس للعوارع وشند التأكد من الهلال يعدون أنفسهم للاحتفال بالعهر الجديد كما يستعد السلطان المملوكي(٧٨٠)، ويظل المسلمون طوال شهر رمضان يرقصون ويعربون ويأكلون في الأسواق والعوارع طوال الليل حتى قبل أذان الفجر فيمتنع الجميع شن الطعام والعراب ويذهبون للصلاة في المساجد(٧٨١).

---

(٧٧٧) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة المصرية، ١٩٦٢ م، ص ٧٨ - ٨٠.

(٧٧٨) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ١، ص ١١- ١٤.

(779) Wright , Early Travelers , p. 256 .

- المقذوفات النارية: وربما يقصد لابروكيير هنا البارود الذي يستخدمه المماليك في الرد علي غارات القراصنة الأوربيين علي السواحل (الباحثة)

(780) Dopp , Le Caire , tome 24 , p. 139.

(781) Frescobaldi , op.cit, pp. 50 , 68 , Fabri , The Wandering , vol 2part 2, p. 636 , Schiltberger , , The bondage and Travel , p. 70.

وقد شهد الرحالة برندباخ breydenbach الاحتفال بليالي رمضان في القاهرة، حيث كان الناس يضيئون العديد من المصابيح شلى مآذن المساجد وفي العوارع طوال الليل فيتحول إلى نهار وينعمون بالملذات والولائم والبذخ المبالغ فيه ويستخدمون الطبول طوال الليل ويستمرون في الغناء والصخب العديد لدرجة أنه تعذر شليه النوم. [٧٨٢]، أما صديقه فيلكس فابري filx fabri فقد اندهش شندما دخل القاهرة لكثرة الأنوار والمعاشل في الطرقات والأسواق وهي جميلة الأشكال والألوان وبهرت الناظرين و كان يحملها الصغار في العوارع وهم يغنون ويلعبون، وشندما سأل شن سبب تلك الضوضاء والزحمة والأنوار قيل له إن ذلك وقت شهر رمضان وفيه يحتفل المسلمون هكذا كل ليلة حتى نهاية العهر[٧٨٣]، كما شاهد الرحالة الراهب الأب سوريانو Souriano طريقة التسحير بعد منتصف الليل حيث يقوم شخص بالضرب شلى الطبلة ودق الأبواب في العوارع وهو يغني أناشيد وأغاني جميلة ليستيقظ الناس ويستمر هكذا حتى الصباح[٧٨٤]، وذكر ابن الحاج أنه في وقت التسحير في القاهرة يقوم المؤذن بالوقوف شلي المئذنة وينادي تسحروا وكلوا واشربوا وما أشبه بذلك أو ينعدون القصائد ويسحرون بالطبلة ويطوفون بها شلى أصحاب الأرباع وغيرهم شلي البيوت ويضربون شليها، أما أهل الإسكندرية فيسحرون بدق الأبواب شلي أصحابها وينادون شليهم، وكان أهل العام يقومون بدق الطار وضرب العبابة والغناء والرقص واللهو [٧٨٥].

---

[782] Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 47.

[783] Prescott , once to Sinai , p. 124 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. xxiii

[784] Souriano , Treaties on the holy Land , p. 206 , Fabri ,The Wandering , vol 2 part 2, p. 637.

– مزيد من التفاصيل عن دوران المحمل، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٥٧-٥٨، ٥٨٧، ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص١٩٩-٢٠٠، السيوطي، حسن المحاضرة،ج١، ص٨٨، ج٢، ص٨٨، ١١٩، ٩٨، ٢١٠.

[٧٨٥] ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج٢، ص ٢٥٥.

- آلة العبابة: وهى من فصيلة الناى وهي عبارة عن قصبة جوفاء في جوانبها ثقوب ينفخ فيها

كان الاحتفال بدوران المحمل من أجمل الاحتفالات التي ينتظرها الناس في القاهرة، وحرصوا شلى المعاركة في ذلك الاحتفال فينادى قبل موشده بثلاثة أيام ويقوم الناس بتزيين الحوانيت والمنازل وكانت المرة الأولى لدوران المحمل في نصف رجب، أما المرة الثانية فكانت في شوال، وفي ذلك الوقت يقوم أصحاب الحوانيت بتزيينها وتجميل العوارع وتبيت النساء والأطفال في الأسواق حتى يتسنى لهم معاهدة الموكب في اليوم التالي، ويوضع فوق الجمل الذي يحمل المحمل كسوة الكعبة ويطوف به في القاهرة والفسطاط، كذلك يركب جماشة من المماليك السلطانية بملابس الحرب وبأيديهم الرماح ويظل الموكب يتحرك ببطء حتى يصل إلى القلعة، ثم ينصرف المحمل إلى الفسطاط [786]،كما كان موكب المحمل يتضمن جماعة من التجار ومعهم حوالي ١٠٠ أو ١٢٠ ألف جمل تحمز البضائع والسلع و كان يقودها أحد الأمراء الكبار وهو أمير الحج ومعه ٢٠٠ مملوك، ومعهم كميات كبيرة من البضائع والأدوية والعطور والأحجار الكريمة. [787]، وهكذا كانت قافلة الحج ترحل إلى مكة في الأوقات المعتادة مع احتفالات الناس ومعهم جماشة من راكبي الجمال أو الخيول أو مترجمين وتظل ثلاثين يوماً حتى تصل إلى مكة، وتبقى حتى ينتهي سوق التجار وينتهي الحجاج من أداء مناسكهم فترحل مرة أخرى إلى القاهرة. [788]، وبذلك كانت رحلة الحج مرتبطة برحلة التجارة وبالتالي كانت قافلة الحجاج تضم على الحجاج لأداء الفريضة والتجار لأداء مهام تجارية.

وشند شودة قافلة الحج من مكة يخرج حاكم المدينة والنبلاء والأمراء وبعض الأشيان لمقابلة القافلة وهم يحملون القرآن وقد زينوا الجمال والخيول بالحرير وشلى ظهور الخيول سروج جميلة مطرزة بالذهب والفضة، ومعهم الموسيقيون والمنشدون

وبعض ثقوبها مفتوحة والأخرى مسدودة، انظر، الموسوعة العربية الالكترونية، مادة الناي.

(786) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٨١ -١٨٣.

(787) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 37.

(788) Dopp , Le Egypte , p. 45.

الذين يضربون شلى الدفوف ويسيرون أمام الجمال، ويغنون بصوت شالٍ وحول القافلة شدد من الأمراء المماليك المسلحون بالسيوف بالإضافة إلى أشداد كبيرة من الجنود والعساكر من مختلف الأجناس(٧٨٩).

شاهد الرحالة الأجانب حفل زواج امرأة مسلمة وقد اندهعوا كثيراً وأشجبوا بما شاهدوه في ذلك الحفل، وبداية يجب أن نوضح أن الزواج كان يتم شلى شدة مراحل، المرحلة الأولى هي الخطوبة، والثانية هي شقد الزواج، والثالثة إشداد مستلزمات واحتياجات العروس، ثم ليلة الزفاف وفى تلك الليلة تقام وليمة كبيرة للرجال ووليمة أخرى للنساء، ويجتمع الأقارب والجيران في منزل العروس ويقومون بإلباسها وتمعيطها وتزيينها بالوشم برسومات شديدة ورائعة الجمال، ثم ترتدي ملابسها وتتصدر العروس ذلك الحفل بجمالها وزينتها ويستمر الجميع يرقصون ويغنون وشندما تصل إلى بيت زوجها تقبل يده،كما جرت العادة ان تقدم لزوجها سيفاً فاخراً تمسكه من طرفه ويتناوله هو من مقبضه، وتقدم النساء الهدايا من الذهب والفضة، وكانت إحدى النساء تضع شلى رأسها تلك الهدايا وتستمر في الرقص أمام العروس حتى نهاية الحفل (٧٩٠)، أما مستلزمات العروس فكانت ملابس كتانية وقطنية ناشمة وطعت وأباريق دمشقية وسجاجيد وسرير وغيرها (٧٩١) ، ومن الاحتفالات العائلية التي لفتت أنظار الرحالة أيضاً هو [illegible] فقد ذكر بوم جارتن Baumgartne أنه شاهد بعض السكان وهم يحتفلون ويرقصون، وكان هناك حعد وجمع غفير من الناس وهم واقفين فيما شدا واحد فقط كان جالساً شلى حصان في وسطهم، وشندما سأل شن ذلك الاحتفال شلم أن ذلك العخص قد تم ختانه ذلك اليوم وأن الناس يحتفلون به، كما وضح أن المسلمين يجب أن يختنوا أولادهم قبل أن يصل إلى الثالثة شعر وفقاً للعريعة الإسلامية(٧٩٢).

---

(789) Wright , Early Travelers , p. 301 .

(790) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp. 167 -68 , Dopp , Le Caire , tome , 24 , pp. 139-140 .

(791) Frescobaldi , Ibid.

(792) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 441 .

• [illegible]

كان معظم الرحالة الذين زاروا مصر والشام في العصر المملوكي من المسيحيين ولذا فإنهم اهتموا بالحياة الاجتماعية للمسيحيين في الدولة المملوكية، وتقسيمهم إلى شدة طوائف، وتناولوا أيضاً وصف بعض الأشياد المسيحية التي شاهدوها مثل، + [illegible] ويقصد به شيد السعانين أو شيد الزيتونة، وتفسيره في اللغة العربية التسبيح ويوافق الأحد السابع من صومهم وهو يوم ركوب المسيح البغلة ودخوله القدس والناس من حوله يحملون سعف النخيل.[٧٩٣]، وفي ذلك اليوم كان احتفال المسيحيين يبدأ في بيت المقدس في شعية يوم السبت، حيث يتجه رجال الدين إلى بيتاني ويبقون وقت المساء في كنيسة القديس إلعاذر، ومع الفجر كانوا يتجهون إلى بيت فاج، حيث يركبون البغال إلى بيت المقدس، ويصعدون جبل الزيتون، ثم ينزلون منه ويقابلهم العامة بغصون النخيل والزيتون، وشندما يصلون إلى البوابة الذهبية يقوم شاب صغير بالغناء وتفتح البوابة ويدخل القس الجديد إلى كنيسة الضريح المقدس، وشندما استرد المسلمون بيت المقدس ودفنوا موتاهم شند البوابة الذهبية أصبح المسيحيون يحتفلون بذلك العيد بالمسير إلى بلدة بيتاني مع ترديد الأناشيد والآيات ثم إلى بيت فاج وينصبون قديساً جديداً ويصعدون جبل الزيتون ثم إلى وادى قدرون)وادى النار(، حيث تنتهي تلك المسيرة ولا يجرءون شلى المسير أكثر من ذلك خوفاً من المسلمين لأنهم بذلك سوف يمرون شلى مقابر المسلمين في ذلك المكان.[٧٩٤] وفى مصر كان المسيحيون يحتفلون بذلك العيد بالخروج إلى

)[٧٩٣](القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤١٥ ؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٤.

)[794](Ludolph ,Description of the Holy land , p. 100,Fabri ,The Wandering , vol 1 part 2 , p. 460. –

بيتـاني: هي قرية العيزرية الواقعة في حدود بيت المقدس، وأقيمت علي إحدى الروابي الواقعة جنوب شرق المدينة المقدسة، وتبعد حوالي ٢ ميل عن بيت المقدس وفيها كانت تسكن مارثا ومريم مع أخوها إلعاذر الذي أيقظه السيد المسيح من الموت وهي مشهورة بزراعة التين وفى زمن الحكم الصليبي انشأت الملكة ميلسندا ابنة الملك بلدوين الثاني ديراً في القرية عرف باسم دير بيتاني، وقد اتسعت وتطورت واطلق عليها بلدة، انظر، بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٢٤ ؛ وانظر أيضًا، سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٢٣٣، حاشية)١(، مصطفى مراد الدباغ، بلادنا

المتنزهات والحدائق والحقول ولا سيما ضاحية المطرية حيث كان يوجد بئر البلسم أو البلسان الذي يعتقد المسيحيون أن السيدة مريم العذراء غسلت فيه ثياب السيد المسيح)[٧٩٥](.

أما + [illegible] و + [illegible] وهو اليوم الذي قبل شيد الفصح مباشرة ويعتقدون أنه في ذلك اليوم قد هبط النور أو هبطت النار من السماء شلى مقبرة السيد المسيح، ولذا فإنهم كانوا يوقدون المصابيح والمعاشل في كنيسة القيامة)كنيسة الضريح المقدس( )[٧٩٦](، و كانوا يحتفلون به في مصر وبلاد العام وأرمينية واليونان رجالاً ونساءً واستمر لمدة ثلاثة أيام، حيث كانت تغلق شليهم الكنيسة أيام الجمعة والسبت والأحد ويقام القداس شند جبل الصلب يوم الجمعة الطيبة، ثم قداس آخر شند الضريح يوم أحد الفصح)[٧٩٧](، وفى مصر كان النصارى يجمعون في شعية ذلك العيد أوراق العجر من الريحان وغيره ويبيتونه في إناء مملوء بالماء ويغتسلون به في اليوم التالي، كما كانوا يكتحلون فيه بالكحل الأسود الذي اشتقدوا أنه يزيد قوة الإبصار، وكانوا يذهبون فيه إلى شاطئ النهر خارج القاهرة، حيث كانت النسوة والرجال يتعرون تماماً ويدهنون أجسادهم بالكبريت ويتعرضون للعمس شدة ساشات في النهار وشند الغروب يستحمون في النهر ظناً منهم أن شرب الدواء في ذلك اليوم أكثر فائدة منه شن أي يوم آخر)[٧٩٨(.

ثم + [illegible] وهو اليوم الذي ولد فيه السيد المسيح في بيت لحم ويوافق اليوم التاسع والعرين من شهر كيهك)نوفمبر(، فيجعلون شعية الأحد هي ليلة الميلاد

فلسطين، ج٢ ق٢، بيروت ١٩٧٤م، ص ١٤٢-١٤٧. ؛ Peter Graham , Top graphical dictionary of Palestine , p. 31.

)[٧٩٥](ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، ج ٢، ص ٥٩.

)[٧٩٦](القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤١٧.

)[797](Souriano , Treaties on the holy Land , p. 40 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 23 .

)[٧٩٨](ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ٢، ص ٥٦.

ويوقدون فيه المصابيح ويزينون الكنائس[٧٩٩]، وكل طائفة من الطوائف المسيحية تقيم احتفالها بعيد الميلاد بطريقة مختلفة وفقاً لتقاليدها وأحكامها، وذلك باستخدام الألحان والأغاني والرقص باستخدام الآلات الموسيقية وتقبيل المواقع المقدسة ولمسها بأيديهم، وكذلك تقوم النساء بالرقص والتصفيق والتجول في كنيسة الميلاد[٨٠٠]، وكان النصارى يلعبون بالمعاشل، وذكر المقريزي أنه شاهد احتفال شيد الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر أقاليم مصر وكان موسماً جليلاً تباع فيه العموع المزينة والمصبوغة بالألوان الرائعة، وتباع كذلك التماثيل البديعة ويعتريها الناس من مختلف الطبقات، وشرفت تلك العموع باسم الفوانيس وكانوا يعلقونها في الأسواق بالحوانيت بكثرة ويتنافس الناس في المغالاة في الزينة وفى أثمان الفوانيس[٨٠١].

أما شن ملابس النصارى فقد تعابهت مع ملابس اليهود والمسلمين في طريقة التفصيل وحياكة الملابس ولكنها اختلفت في اللون حيث ارتدى النصارى شمامة باللون الأزرق وشد الزنار حول أوساطهم[٨٠٢]، وهذا ما سنوضحه في الصفحات التالية في هذا الفصل.

• [illegible]

شاش اليهود في الدولة المملوكية وفقاً لقواشد وشرط العهد العمرى الذي وضعه أمير المؤمنين شمر بن الخطاب منذ الفتح الإسلامي لمصر، وأهم تلك القواشد [illegible] حيث فرض شلى أهل الذمة من اليهود والنصارى دفع الجزية سنوياً للسلطان[٨٠٣]، وكانت تعرف باسم ضريبة الجوالي،وقد جاء في كتب الحسبة المملوكية أن الجزية كانت تؤخذ من أهل الذمة شلى قدر طبقاتهم وحددتها بدينار على الفقير ودينارين شلى المتوسط وأربعة دنانير شلى الغني[٨٠٤]، وكان لزاماً شلى

)[٧٩٩](القلقشندي، صبح الأوشى، ج٢، ص ٤١٦ ؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٥.

)[800](Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, p. 469 .

)[٨٠١](المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٦.

)[802](Wright , Early Travelers , p. 183 , Langnon , Le Saint Voyage , p. 43.

)[803](Wright , Ibid, 183.

)[٨٠٤](ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٤٥.

اليهودي أن يأخذ معه إيصال دفع الجزية لأي مكان يذهب إليه حتى لا يدفعها مرة أخرى [٨٠٥]، ولذلك ذكر الرحالة ميعولم اليهودي الذي زار مصر شام ٨٨٦ هـ ١٤٨١م أنه كان شلى اليهودي أن يحصل شلى تصريح الخروج من البلد من السلطان إذا أراد الخروج[٨٠٦] وذلك طبعاً بعد التأكد من تسديد الجزية السنوية والحصول شلى الإيصال بذلك.

[illegible]

[illegible] تعرضوا للاضطهاد والتعذيب أيام الحروب الصليبية، فقد قام الصليبيون شند دخول بيت المقدس بوضع اليهود في معبدهم وأحرقوه فمات شدد كبير منهم وأسر من فر من النار وتم بيعهم في سوق العبيد حيث روي أن حوالي ثلاثين يهودياً تم بيعهم بدينار واحد فقط، وبرر الصليبيون قتلهم الجماشي لليهود بتلك الصورة البعة بأن اليهود كانوا السبب في قتز المسيح ومساعدتهم الحاكم الروماني للقبض شلي السيد المسيح وبذلك قد شانوا من التعذيب والاضطهاد والقهر في كل المدن والإمارات الصليبية، وأدى ذلك إلى هروبهم من بعض المدن لدرجة أنه كادت بعض مدن فلسطينية تخلو تماماً من اليهود.[٨٠٧]، وأكد ذلك الرحالة بنيامين التطيلي الذي زار بيت المقدس شام٥٦٩هـ / ١١٧٣ م حيث رأى مدناً فلسطينية تكاد تكون خالية من اليهود فمثلا، لم يكن في مدينة نابلس سوى مائة من اليهود السامرة وحوالي مائتين في بيت المقدس يسكنون في أحد أركان المدينة تحت برج داود، أما أغلب سكانها فقد كانوا بين المسيحيين والفرنجة، وفى الخليل لم يذكر وجود أي يهودي بها، وحوالي ثلاثة يهود فقط في بيت جبرين، وكذلك في الرملة، أما في يافا فقد وجد يهودي واحد فقط وبالنسبة باقي المدن فلم يعاهد فيها يهودياً واحداً[٨٠٨].

---

[٨٠٥] النويري، نهاية الإرب، ج٨، ص ٢٤.

[806] Adler , Jewish Travelers, p. 163.

[807] Wright , Early Travelers, pp. 85 -92.

[٨٠٨] بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ٣٧٥ ؛ Wright , Ibid , pp. 81-87.

ثم تحسنت أوضاشهم وخاصة بعد اتباع المماليك سياسة التسامح الديني مع اليهود وشاشوا حياة طيبة ففي شام٧٢٥هـ/ ١٣٢٤ م زار الرحالة اليهودي إسحق بن شلو Isaac Ben chelo بيت المقدس ووجد بها طائفة يهودية مكونة من آباء عائلات جاءوا من بلاد شديدة وخاصة فرنسا ومنهم زشماء طوائف وحاخامات وهم يعيعون في سعادة وهناء وطمأنينة كل حسب وضعه وموارده لأن الحكومة شادلة وتراشى حقوق اليهود. [٨٠٩] مما أدى إلى زيادة شددهم شما كانوا شليه من قبل. ولكن المسلمين كانوا يعاملون اليهود معاملة سيئة، فذكر ميعولم meshullam أن اليهودي سواء كان من السكان المحليين أو الأجانب لا يستطيع أن يعير بإصبعه إلى مسلم و إلا قطعت يده[٨١٠]، وقد شاهد سوريانو suriano سوء معاملة المسلمين لليهود أيضاً حيث شاشوا في ذل وخضوع وتعتت ودائماً ما تعرضوا للعقاب والتعذيب ورأى أنهم منقسمون شلى أنفسهم ويكرهون بعضهم البعض ولا يمكن أن يلمس المسلم اليهودي وشندما يحدث شجار بين الطرفين يخلع المسلم حذاءه ويضرب اليهودي شلى فمه [٨١١] كما اشتاد اليهود في كل مكان أن يظهروا أنفسهم شلى أنهم فقراء وخاصة في البلاد العربية ويتحولوا إلى شحاذين ويذلون أنفسهم أمام المسلمين[٨١٢].

)3(Adler , op.cit , p. 133 .

)[810](Ibid , p. 173.

)[811](Souriano , Treaties on the holy Land , pp. 101- 102.

- يجب أن نوضح هنا أن الإسلام عامل أهل الذمة معاملة حسنة ولم يتعرض لهم بالأذى إلا في حالات خاصة وفردية فأحيانا يتعدى أهل الذمة على المسلمين أو على الممتلكات الإسلامية فيقوم العامة بالفوضى وإحداث القلق وممارسة أعمال السلب والنهب ومهاجمة اليهود أو تقوم السلطات المملوكية بالقبض عليهم في بعض الأوقات وبذلك فإن ما ذكره سوريانو ليس صحيحاً بدليل أن أهل الذمة لم يحرموا من حقوقهم الشرعية الأساسية في بلدهم وسمح لهم بتولي مناصب هامة وحققوا نجاحاً واضحا في مجالات عديدة وإذا حدث ما يعكر صفو ذلك الجو فإنما يعود إلى التعصب الديني في تلك الفترة وأيضاً إلى سوء تربية المماليك الجلبان الذين أشاعوا الفساد والاضطراب في حياة الناس والاعتداء على ممتلكات أهل الذمة ومهاجمة بيوت النصارى واليهود في أواخر العصر المملوكي وخاصة القرن الخامس عشر الميلادى وهو نفس الفترة التى زار فيها سوريانو مصر والشام.)الباحثة(

)[812](Adler,op.cit, p. 228 .

أقام اليهود في حي خاص بهم يسمى باسمهم [illegible] و [illegible]
بيت المقدس وإليها ينسب أحد أبواب القدس المسمى باب حارة اليهود و تقع الحارة
بجوار حارة الصلتين من جهة الغرب وضمتها حارة الريعة وحارة صهيون الجوانية.
[٨١٣]، وذلك العارع أو الحارة كان به منازل اليهود وهم لا يستطيعون بيع المنازل ولا
إشادة بنائها من جديد لأن القانون يلزمهم الحصول شلى الإذن والتصريح بإشادة
البناء، وأن الحصول شلى التصريح يتكلف أموالاً كثيرة أكثر من بناء المنزل، وقد
تعرضت تلك المنازل للهدم والدمار وقل شددها شما كانت شليه في الماضي، كما
شاش بعض اليهود في جبل صهيون. [٨١٤]، وكان لزاماً شلى اليهود والنصارى أيضاً
أن يمكثوا في بيوتهم في المساء حيث كانت تغلق العوارع في المساء حتي الصباح
وكذلك يوم الجمعة وقت صلاة المسلمين منذ الظهر حتى المساء ومن يخرج شن تلك
القاشدة ويخرج للعارع يتعرض للعقاب[٨١٥].

أ* [illegible] كر الأب سورياتو suriano أن اليهود
كانوا ينقسمون إلى ثلاثة طوائف هم، الربانيون، و القراءون، والسامرة، وتلك الطائفة
الأخيرة لم يكن في استطاشتها العيش في بيت المقدس بسبب معتقداتها الدينية وإذا
حدث وجاءوا إلى البيت المقدس لقضاء بعض المهام والأشمال ولم يستطيعوا إتمام
أشمالهم وأتى الليل فكان لزاماً شليهم مغادرة المدينة وينامون خارجها طوال الليل.
[٨١٦]،كما كان لدى اليهود نظام قضائي منظم وشلى رأسه الناجيد وهو رئيس الطوائف
اليهودية كلها ويقيم في القاهرة وهو مسئول شن جميع الطوائف اليهودية وله الحق في
تعيين رؤساء لطوائف القرائين والسامرة، أما الناجيد فكان يتم اختياره من الربانيين
ويتم تعيينه من قبل السلطان وتحت إمرته أربعة قضاة مساشدين، ومن مهامه توجيه
العقاب للآثمين من اليهود والحكم في القضايا الجنائية والمدنية والزج بأي إنسان في
السجن إذا خالف قراراته[٨١٧].

---

[٨٠٣] الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٢.

[814] Adler, Jewish Travelers , p. 236 .

[815] Ibid , p. 223 .

[816] Souriano ,op.cit , pp. 101 -102 .

[817] Adler , Jewish Travelers , p. 172 , 229 .

أ [illegible] كانت معظمها متصلة بالتجارة والربح المادي أو بالصناشات المميزة التي يعتمد شليها السكان والتي تباع بأسعار مرتفعة لتحقيق أشلى دخل مادي لليهودي، ولذلك كانوا يعيعون ضمن الطبقة الوسطي وهي الطبقة التي كانت تضم صغار التجار والحرفيين، لذا فإنهم شملوا في كل فروع التجارة والحرف المتنوشة. وكان اليهود السامرة أغنى طوائف اليهود في القاهرة وتولوا مناصب شليا في الدولة ووكلاء تجاريين أو شملوا في البلاط المملوكي وامتلك أحدهم حوالي ٢٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية أما القرائين فهم أغنى من الربانيين أيضًا، وكثير من اليهود شملوا بالتجارة ولهم حوانيت أنيقة، وبعضهم اهتم بالعلوم والطب والفلك والرياضيات، و منهم من عمز بدراسة العرع المقدس، وهناك من قام بنسخ الكتب المقدسة للمسافرين الأجانب الذين يعترونها بسعر مرتفع، كما عمز اليهود بالطب مثل الرابي صموئيل Samuel وابنه يعقوب واشتهرا في تلك المهنة وتقربا لدى السلطان المملوكي[٨١٨]، وقد قابل الرحالة بيترو كازولا pietro casola أحد الأطباء اليهود من أصل إيطالي في مدينة القدس[٨١٩]، وعندما أصيب الرحالة لابروكبير la broquiere بالحمى أثناء سفره إلى بيت المقدس أحضر له الأشراب طبيباً يهودياً من صقلية أشطاه الدواء لتخفيف آلامه وخفض درجة حرارته وشلاج الحمى[٨٢٠]، ونفهم من المصادر المملوكية المعاصرة أن شدد الأطباء اليهود كان كبيراً، بالنسبة إلى المسلمين إذا يروى أن أكثر ما تعيش به اليهود والنصارى هو جباية الخراج والطب [٨٢١]،كما أشار ابن الأخوة إلى أن المسلمين لا يعملون في مجال الطب ولكن يعمل بتلك الحرفة أهل الذمة من اليهود والنصارى وتكاد تخلو بعض الأماكن من الأطباء المسلمين. [٨٢٢]، كما شمل اليهود بعصر الخمور وتاجروا

---

(818) Adler,op.cit, pp. 227,133-134,173.

(819) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 271 .

(820) Wright , Early Travelers , p. 291 .

(٢١) علي بن سعيد المغربي، النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٧٠ م، ص ٢٨.

(٢٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٦٦.

فيها[٨٢٣]، وفى مدينة رام الله وجدت ثلاث شائلات يهودية تعمز بوظائف شديدة ذات ثروة وقوة مادية ووضع اجتماشي مرموق منها تجارة القطن، وفى صرفند شملوا بحرفة دباغة الجلود[٨٢٤] والتي برشوا فيها في دور العرق وظلت مصدراً اقتصاديا مهماً لهم لقرون طويلة.

بالإضافة إلى تلك الوظائف والحرف فقد شمل اليهود مرشدين وأدلاء أو تراجمة للحجاج والرحالة الوافدين إلى مصر والعام لزيارة الأماكن المقدسة، وخير دليل شلى ذلك ما ذكره فيلكس فابري filx fabri من أن اليهود كانوا يعتغلون بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب وكان منهم التراجمة والأدلاء في الطرق الصحراوية[٨٢٥] كما روى بوم جارتن أن المترجم الذي استعان به كان يهودياً ليرشده في الطريق لزيارة الأماكن والمزارات المقدسة[٨٢٦].

$ ض [illegible] التمييز هم شن المسلمين والنصارى، وقد تمثلت تلك القيود في إلزامهم بالغيار وهو الملبس المغاير لما يرتديه المسلمون لتميزهم. حيث فرض شلى اليهود)الربانيين والقرائين(ارتداء شمامة صفراء وتحدد اللون الأبيض المغطى بوشاح وردى اللون للسامرة)ويقصد به شمامة حمراء([٨٢٧] ولكن تلك القيود لم تكن ملزمة وصارمة في كل الأوقات بل فرضت شلى فترات متقطعة ولم يلتزم اليهود سواء النساء أو الرجال بتلك الحدود والقيود في الملبس كثيراً، فذكر أحد الرحالة اليهود أن اليهود في الإسكندرية شام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١ م كانوا يرتدون ملابس مثل المسلمين ولا يرتدون حذاء ويجلسون شلى الأرض ويدخلون

)823(Adler, op.cit, p. 149 , 180 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harf , p. 119 .

)824(Adler , Ibid , p. 138 .

)825)Fabri , the wandering , vol 2 part 1 , p. 105 .

)826(Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 458 .

)827(Langnon , Le Saint Voyage , p. 43 , Adler , op.cit , p. 162 , Wright , op.cit , p. 183 .

المعبد بدون سراويل. [٨٢٨]، وذكرت المصادر الإسلامية المعاصرة أن تلك القيود لم تفرض بعدة إلا في شام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م شندما زار الوزير المغربي مصر في طريقه للحج وغضب غضباً شديداً لما شاهده حيث تمتع أهل الذمة المصريون بكل مظاهر الحرية السياسة والاجتماشية وتقلدهم وظائف شليا وتسلطهم شلى المصريين وأصبح لهم نفوذ وقوة مادية وسياسية فاقت نفوذ المسلمين، ومن ثم أخذ الوزير المغربي يعن حملة غاضبة ضد أهل الذمة جعلت الناصر محمد بن قلاوون يصدر مرسوماً يلزم فيه اليهود بلبس العامة الصفراء ويلزم النصارى بلبس العمامة الزرقاء، وكذلك شدم ركوبهم الخيول وإلزامهم بركوب الحمير. [٨٢٩]، إلا أن ذلك المرسوم لم ينفذ بدقة فسرشان ما شادت الأمور إلى نصابها بدليل ما أمدنا به الرحالة فون هارف الذي زار مصر شام ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م حيث ذكر أن ملابس المسلمين والمسيحيين واليهود ليست مختلفة في الشكل أو التصميم وقد رسم ثلاثة رجال يرتدون ملابس معينة أحدهم مسلم والآخر يهودي والثالث نصراني ويتضح من الرسم أن القفطان الذي يرتديه الثلاثة لا يختلف شن بعضهم البعض فهو يبدو شلى هيئة شباءة طويلة واسعة وذات أكمام واسعة وكل منهم يرتدي شمامة شلى رأسه مختلفة في اللون [٨٣٠]، كذلك ما أورده القلقشندى في القرن التاسع الهجرى/ الخامس شعر الميلادي من أن كز ما كان يميز أهل الذمة شن المسلمين في ذلك الوقت هو لون العمامة وكونهم يركبون الحمير شلى البرادع ويثني أحدهم رجله قدامه ولا مميز يعتادونه الآن سوى ما قد مناه [٨٣١]، وهكذا كان الاختلاف الوحيد بين أهل الذمة والمسلمين هو لون العمامة فقط، ولم يكن ذلك إهانة لمعاشر أهل الذمة بل كان مجرد إجراء للتمييز الديني بين السكان، ولم يقلل ذلك من شأن أهل الذمة أو أثر شلى العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة من ناحية أو بين أهل الذمة والسلطان من ناحية أخرى، كما لم

---

(828) Adler,op.cit, p. 161 .

(٨٢٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٤٠٨، العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ١٤٠ ـ ١٤١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٣٣.

(830) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 113 .

(٨٣١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٦٣.

تذكر المصادر المعاصرة استياء أهل الذمة من تلك الفروض حتى النساء اليهوديات اللائي ارتدين ملابس تعبه ملابس النساء المسلمات وتحركن وتجولن بحرية وسمح لهن بدخول الحمامات مثلهن.

[illegible] في شصر سلاطين المماليك وشاركهم فيها المسلمون في بعض تلك الأشياد وهى كانت تتخذ طابعاً معيناً حيث أن بعضها ذات سمة اجتماشية والبعض الآخر ذات سمة قومية. وقد قسمت أشياد اليهود إلي قسمين، الأشياد العرشية وشددها خمسة مثل شيد رأس السنة، وشيد الكبور أو شيد الغفران أو صوما ريا، وشيد المظلة، و شيد الفصح أو الفطير، وشيد العنصرة أو الأسابيع أو الخطاب و أشياد أخرى غير شرشية مثل يوم السبت وشيد الحنكة أو الحانوكة، وشيد الفوز البور يم[٨٣٢]، وسوف نتناول تلك الأشياد كما ذكرها الرحالة الأوربيون وأهمهم الرحالة اليهود الثلاثة، إسحق بن شيلو، ميعولم بن مناحم، شوبديا جارية.

كان اليهود يحتفلون [illegible] الذي اعتبر العيد الأسبوشي لهم، وهم يقدسونه لاشتقادهم بأن الرب استراح فيه بعد أن خلق العالم كما نص في الوصايا الععر المنسوبة إلى موسى في التوراة، ولكن في سفر التثنية يبدو أن الحكمة في تقديس يوم السبت ترجع إلى الرغبة في حصول الإنسان والحيوان شلى الراحة بعد أسبوع من العناء والعقاء ويرتبط ذلك بالتحرر من السخرة والعبودية شندما كان قوم موسى لا يزالون في مصر شبيداً لفرشون يعملون بأمره ولا يحق لهم الراحة يوماً واحداً في الأسبوع ولذلك كانت تلك الرواية تسمح لليهود بالراحة[٨٣٣].

كان الاحتفال بعيد يوم السبت يختلف قليلاً في مصر شن بلاد العام. ففي القاهرة جرت العادة أن يجلس اليهود شلى شكل دائرة شلى سجاده أو فراش، ويقف

---

[٨٣٢]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٢٦ – ٤٢٩ ؛ النويري، نهاية الإرب، ج ٨، ص ١٨٧-١٨٩ ؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٦٣ – ٣٦٥ ؛ ٣٧٣.

[٨٣٣]) محاسن الوقاد، اليهود في مصر المملوكية، الهيئة العامة، تاريخ المصريين، العدد ١٣٥، ١٩٩٩م، ص ٣٨٦.

أحدهم ساقياً بالقرب منهم ومعه قطعة من القماش يفرشها فوق السجادة، ثم يحضر كل أنواع الفاكهة في ذلك الوقت ويضعها شلى المفرش، ويبدأ الضيوف بأخذ كئوس الخمر مع تلاوة الصلوات والقداس حتى يفرغوا من العراب تماماً، ثم يقوم كل ضيف بأخذ ثمرتين أو ثلاث من الفاكهة، ويقوم الساقي بجمع الكئوس الفارغة ويعيد ملئها بالخمر مرة أخرى، أما الباقون فكانوا يرددون شبارات الدشاء بالصحة والعافية، وبعدها يتوجهون بملابسهم الجديدة إلى المعبد حيث يقومون بترديد الأغاني والأناشيد، ثم بأداء صلاة المغرب وتستمر الصلاة إلى ساشتين من الليل، ثم يعودون بعد ذلك إلى منازلهم ويقيمون القداس، ثم يأكلون خبزاً في حجم الزيتونة ويؤدون طقس بركة الطعام وبسبب كل تلك الطقوس كان اليهود لا يؤدون صلاة العصر جماشة في يوم السبت، كما كان يجب شلى كل فرد أن يعرب شدة كئوس من الخمر تصل إلى ستة أو سبعة كئوس، وبعد الانتهاء من العرب يقدم للجميع طبق لحم كبير الحجم يتناولونه جميعاً)[٨٣٤(].

كان اليهودي في بيت المقدس يستيقظ ساشة أو ساشتين قبل الفجر ليلة السبت ويتلو ترنيمات مقدسة وأناشيد أخرى حتى يطلع الفجر، ثم يتلو ويردد القداس بعد أن يقوم اثنان من القراء بشرح الغرض والهدف من الأنعودة المباركة، كما يتلو الجميع فصل الأضحيات ويستمرون في التلاوة والغناء شن إسرائيل حتى ظهور أشعة العمس، كما فرض شليهم ترديد الأذكار والأناشيد كل يوم طوال الأسبوع، ومن شادة اليهود يوم السبت شدم مغادرة المنزل إلا إذا كان ذاهباً إلى المعبد أو لتلقي دروس العلم، كما أنه لا يجب شليهم إشعال النار أو إنارة الأضواء. اشتاد اليهود كذلك الاحتفال [illegible])شيد الحصاد- شيد المظلة(حيث يحتفلون به يوم الأحد وفيه كانوا يجلسون في وسط المعبد تحت ظلال سعف النخيل الأخضر وأغصان الأشجار والنباتات الدائمة الخضرة، وفى بيت المقدس أيضاً كان اليهود يحتفلون بيوم

)834(Adler , Jewish Travelers , pp. 220 – 221.

التاسع من شهر آب)أغسطس(حيث يقوم قضاة اليهود الكبار والأشيان كل شام بالذهاب إلى جبل صهيون للصلاة والبكاء ثم يصعدون إلى وادي يوشفات ثم إلى جبل الزيتون[835].

أ * [illegible] لديه القدرة المادية والجسدية شلى السفر إلى بيت المقدس لأداء الحج ثلاث مرات في السنة هي أيام شيد الفصح، وشيد الأسابيع، وشيد المظلة[836]، وكان معظم الحجاج اليهود يقومون بزيارة مدينة الخليل وذلك للحج شند مغارة المكفلية -المغارة المزدوجة)قبر إبراهيم(والتي كانت محظورة شلى اليهود والمسيحيين في ذلك الوقت، ولذلك كان اليهود يقومون بأداء الصلاة أمام أحد النوافذ الواقعة في السور الذي يحيط بالمغارة وكانت معظم الحقول والبساتين في الخليل وقفاً شلى اليهود ويتم تقديم الخبز وكافة المأكولات يومياً للحجاج من ريع تلك الحقول والبساتين. وبالقرب من بيت المقدس كان يقع قبر النبي صموئيل وأبيه وأمه وولديه ويذهب اليهود إلى القبر كل شام في يوم الثامن والعشرين من شهر أيار)مايو(وهو يوم وفاة النبي صموئيل، ويأتي الحجاج من حلب ودمعق وحمص وغزة، ويصل شدد الحجاج والأجانب إلي حوالى ألف حاج كل شام حيث يقومون بالصلاة والبكاء، ويقوم كل يهودي بعراء الزيت ليضيئوا المعبد. أما السامرة فإنهم كانوا يحجون إلى جبل جرزيم وليس جبل صهيون أو أورشليم حيث يصعدون ثلاث مرات في السنة شلى الجبل حاملين معهم حمامة ذهبية ليقدموها قرباناً على المذبح أشلى الجبل ولا يحجون إلى القدس لأنهم يعتقدون في قدسية ذلك الجبل[837].

---

[835](Ibid , op.cit , p. 236, 222,226,196.

[836](Ibid ,op.cit , p. 205.

[837](Adler, Jewish Travelers p. 199,193,171.

- <u>النبي صموئيل:</u>)شَمْويل(بالإنجليزية: Samuel تقسيم الإسم: شَم يو ئيل ومعناه "سَمِعَ الله" و شمويل عند أهل الكتاب هو)صموئيل(وكان قاضياً ونبيّاً وهو الذي مَسَح داوود مَلِكاً على إسرائيل في وقت طالوت، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: }أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ

• ا□□ و

عاش البدو في الصحراء بأشداد لا تحصى حيث بلغ شددهم الآلاف ولم يكن لهم مأوى أو سكن محدد بل تنقلوا وتجولوا في الصحراء بصفة مستمرة وسكنوا في خيام مصنوشة من اللباد أو جلود الحيوانات[٨٣٨]، وكانت تصنع أحياناً من الصوف حيث يقوم الرجال والنساء بقص صوف الحيوانات وينسجونه بدون نول للنسيج، بز باستخدام أطواق خعبية يضعونها شلى الأرض في نصف دائرة[٨٣٩]، كما عاش بعضهم في الكهوف الجبلية أو الأكواخ الخعبية المصنوشة من الحطب[٨٤٠] ووصفهم الرحالة وصفاً دقيقاً بأنهم ذووا وجوه سوداء باهتة مرشبة ورقبتهم سوداء طويلة وهم شبه شراة يرتدون جلباباً بدون قميص ويضعون فوق رؤوسهم شمامة تحميهم من حرارة شمس الصحراء الحارقة[٨٤١].

كان البدو يجتمعون حول الآبار ومصادر المياه القليلة في الصحراء، وقد اشتمدوا شليها في العرب وتربية الحيوانات. [٨٤٢] و لم يقوموا بأي شمل أو حرفة معينة يقتاتون منها بل اشتمدوا فقط شلى تربية الماشية والحيوانات ولا يأكلون الخبز إلا إذا نزلوا إحدى المدن أو صادفوا إحدى القوافل المسافرة في الصحراء ويعوون لحوم الحيوانات والأسماك شلى الصخور الساخنة من أشعة العمس الحارقة. [٨٤٣]، وأحياناً كان البدو يجمعون الزهور والورود البرية لبيعها إلى الحجاج الأوربيين مقابل

مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ {)٢٤٦(سورة البقرة.)الباحثة(

)[٨٣٨](بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٤ ؛

Luodolph , Description of the Holy land , p. 90 .

)[839](Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 58.

)[840](Ibid , p. 65 , Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , pp. 477 -483 .

)[٨٤١](بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٤ ؛

Luodolph , op.cit , p. 91 , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 206.

)[842](Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 136 , Wright , Early Travelers , p. 160 , Fabri , the wandering , vol 2 part 2, pp. 477 -483.

)[843](Wright , Ibid , p.160.

الخبز [٨٤٤]، وهم أيضاً شجعان وأقوياء ومولعون بالحرب ولذا كانوا يتسلحون ببعض الأسلحة مثل الرماح والسيوف ويستخدمونها أحياناً للدفاع شن أنفسهم أو للهجوم شلى القوافل المارة في الصحراء[٨٤٥]، وهم أيضاً من ناحية أخرى لم يخافوا من السلطان وقاموا بالإغارة شلى المدن والقرى وشلى المسافرين في الصحراء بدون خوف من قوة السلطان المملوكي، ولذا فإنه أحيانًا اضطر إلى مساومة البدو وتقديم الهدايا والعطايا لهم لإخماد اضطراباتهم المستمرة والتي كانت تسبب اضطراباً في الأمن الداخلي[٨٤٦].

كان هؤلاء البدو شندما يرون المسافرين قادمين في الطريق يركبون الخيول ومعهم السلاح، وتخرج النساء والأطفال لمساشدتهم في شمليات السرقة ويقابلون المسافرين ويهددونهم بالقوة، أما الأطفال فيضربون المسافرين بالحجارة ولا يسمحون لأحد بالمرور إلا بعد دفع مبلغ من المال وشندما لا يجدون أحداً لسرقته يهاجمون المدن والقرى في الليل ويحطمون الأبواب ويسرقون ما يجدونه ثم يرحلون ولا يقتلون أحداً إلا إذا كانت حادثة بالصدفة غير مقصودة[٨٤٧]، وهؤلاء البدو كانوا دائماً مصدراً للقلق والاضطراب ومتاشب للحكام والععب شلى حد سواء، فارتبط تاريخهم في شصر المماليك بالفتن والثورات وحوادث النهب والسلب والاشتداء شلى الآمنين، وكان سبب ذلك الاضطراب هو رغبة البدو في تولى السلطة وشدم رضاهم شلى حكم المماليك العبيد، ولذلك فإنهم كانوا ينتهزون فرصة حدوث صراع بين الأمراء المماليك لتولى العرش خلفاً للسلطان السابق ويثيرون الفتنة والتوتر في البلاد ويعلنون الثورة شلى الحاكم الجديد[٨٤٨]، أو بسبب سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة لارتفاع

---

(844) Luodolph , op.cit , p. 91.

(٨٤٥) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٤

Souriano,op.cit, p. 206 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 136.

(846) Wright , Early Travelers , p. 160.

(847) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , pp. 479 -484 .

(٨٤٨) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٤٧١ ؛ ج١ ق٣، ص ٧٥٤ ؛ ص ٩٢١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٤ ؛ ج٨، ص ١٥٣ ؛ النويري، نهاية الإرب، ج ٣٠، ص ٢٠.

الأسعار وشدة الغلاء وشدم القدرة شلى سداد الخراج السنوي فيضطر البدو إلى شن الغارات شلى المدن والقرى كوسيلة للرزق([٨٤٩]).

هناك بعض البدو الذين شاشوا في الريف واستقروا في القرى وأصبحوا سادة شلى المناطق الريفية وتعلموا الزراشة وتربية الحيوانات كالأبقار والماشز والماشية، وكانوا يمتطون الخيول والإبل، وكانوا يدفعون ضريبة أو خراجا سنويا للسلطان المملوكي، وأحياناً كانوا يرفضون الدفع ويعلون الثورات ويعلنون التمرد،كما كانوا يمدون المدن الكبرى بالطيور والحيوانات والجياد بكثرة وبكميات أخرى من الحنطة والقمح، كما مدوا الإسكندرية والقاهرة بالسلع والمنتجات العديدة، وبذلك كان هؤلاء البدو يعتغلون بالزراشة والتجارة([٨٥٠]) وهؤلاء الأشراب يمكن أن نطلق شليهم اسم العربان المستفلحين وهم العربان الذين سكنوا القرى واتخذوا الفلاحة معاشاً لهم وزرشوا الأرض ودفعوا الخراج مخالفين بذلك شادات وطبائع البدو فاندمجوا في القرى مع الفلاحين وأصبح منهم معايخ قرى وبالتدريج بدأ هؤلاء البدو المستفلحون ينسون أصلهم وبداوتهم حتى صاروا من جملة فلاحي مصر.

- [illegible]

وجدت في شوارع القاهرة طبقة من العامة المعدمة وهم المجاذيب أو الدراويش والعحاذون والمتسولون، وكان الناس يحترمون المجاذيب وهم يتجولون في العوارع بحرية ويأخذون ما يريدونه من الحوانيت ولا يجرؤ أحد شلى طردهم لأن لهم مكانة خاصة في نفوسهم([٨٥١])، كما وجدت طبقة أخرى من المعدمين بلا مأوى ينامون في العوارع ويجلسون في الطرقات وشددهم كبير جداً يصل إلى مائة ألف شخص في حين يعيش المماليك والأشيان حياة مرفهة وغنية، وهؤلاء البؤساء والمعدمون لا حياة لهم([٨٥٢])، ولذلك لجئوا إلى مهنة التسول والغش والزيف للحصول

([٨٤٩]) المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص ١٢٩ ؛ ٣٣٥ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٥٠.

([850]) Dopp , Le Egypte , p. 11.

([851]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 213.

([852]) Dopp ,Le Caire , tome24 ,p. 135 , Baumgarten , The Travel of Martin

شلى المال من شابري السبيل في العوارع [٨٥٣]، أو الحصول شلى الهبات والصدقات من المساجد والزوايا[٨٥٤]، وشندما كان السلطان أو أحد الأمراء يقيم وليمة في القلعة أو في أحد الميادين وبعد الانتهاء من الطعام يتركون الطعام للفقراء والمعدمين ومعهم الغرابيل ينخلون به الرمال للحصول شلى الفتات من الخبز والطعام[٨٥٥].

وهناك مجموشة من المجاذيب الدراويش اشتقد الناس في قوتهم الروحية، وهؤلاء كانوا يحلقون رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم وشاشوا حياة تعبه المجانين زاشمين أنهم يفعلون ذلك تطهيراً لأنفسهم وأرواحهم وهم بذلك كانوا يهربون من مباهج الدنيا ومفاتنها في سبيل رضاء الله شنهم، ولذلك كانوا يحلقون كل شئ شلى أجسادهم، ويمعي بعضهم وهم يرتدون القرون، وآخرون لطخوا أنفسهم بعسل النحل ووضعوا الريش شلى رؤوسهم، والبعض الإخر حمل أشمدة يتدلى منها مصابيح مشتعلة،وآخرون حملوا السهام والقسي وقالوا إنهم معذبو النصارى وحاولوا إيذاءهم في كل وقت [٨٥٦] وكانت تلك الطائفة من الصوفية المجاذيب تسمى الطائفة القلندرية أو القرندرية والذين شاهد ابن بطوطة لهم زاوية في دمياط وقال أنهم يحلقون لحاهم وحواجبهم. [٨٥٧]، كذلك كانت لهم زاوية في القاهرة خارج باب النصر والتي أنعأها العيخ القلندري الجوالقي أحد فقراء العجم القلندرية ويقول شنهم المقريزى إنها طائفة تنتمي إلى الصوفية وتسمي نفسها أحياناً ملامتية، وحقيقة القلندرية أنهم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلت أشمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من الملذات المباحة واقتصروا شلى رشاية الرخصة، ولم يطالبوا حقائق العزيمة والتزموا أن لا يدخروا شيئاً، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا، ولم

Baumgarten, p. 442 ,Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard . p. 65.

(853) Dopp , Le Caire , tome 23 , p. 123 , See Also , Wolff , How Many Miles ? , p. 119.

(٨٥٤) ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، ج١، ص ١٤٧ ؛ Wolff , Ibid.

(٨٥٥) طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٧٠.

(٨٥٦) نفس المصدر، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(٨٥٧) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٣٣ – ٣٤.

يتقعفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزشموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى واقتصروا شلى ذلك وليس شندهم تطلع إلى طلب المزيد سوى ما هم شليه من طيب القلوب، أما الملامتية فكانوا يعملون شلي كتم العبادات والتمسك بكل أبواب البر والخير[858].

تعابهت العادات والتقاليد بين السكان في مصر والعام في العصر المملوكي سواء كانوا مسلمين أو أهل ذمة ولذلك سنوضح أهم تلك العادات والتقاليد المتعابهة سواء في الملبس أو المأكل أو في حالات الوفاة والنوم إلا أن هناك بعض الاختلافات البسيطة في تلك التقاليد التي سنعرض لها ونوضحها بالعرح والتحليل.

[illegible] فقد حرصوا شلى ارتداء أفضل وأرقى أنواع الملابس من حيث الخامات والتصميم والزينة وخاصة المرأة التي اهتمت كثيراً بتطوير ملابسها وزينتها وابتكار أشكال جديدة من الملابس وألوان حديثة للزينة للسعي وراء الأناقة وجمال المظهر الخارجي، وقد أجمع الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر شلى تعابه ملابس جميع النساء من حيث شكلها العام ويمكننا تصوير الملابس التي اشتاىت المرأة في ذلك العصر على ارتدائها، ونبدأ بالعباءة المصنوشة من الصوف أو الكتان أو القطن الأبيض الناصع البياض مثل الثلج وتلف بها الجسد كله فهي كانت تسمى أحيانا قميصاً واسعاً طويلاً تصل أطرافه إلى الأرض وله أكمام واسعة[859]، وهنا انتقد ابن الحاج ملابس المرأة في ذلك العصر لأن الأكمام الطويلة الواسعة كانت تكعف يدها كما كن لا يلبسن السراويل في البيت ويقفن شلى باب الدور أو شلى السطوح في ملابس قصيرة مما يكعف شوراتهن[860]، وتلك

([858]) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٠١-٣٠٢.

([859]) فارتيما، رحلة فارتيما ص ٣١ ؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٢ م٩، ص ٢٦٧، أحداث عام ٧٩٣ هـ ؛

Souriano, Treaties on the holy Land , p. 203 ,See Also, Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 13.

([860]) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج١، ص ٢٤٣ -٢٤٤.

كانت ملابس فوقية، أما التحتية فكانت تصنع من الحرير أو الكتان السكندري الفاخر وبعضهن يرتدين ملابس قطنية تصل إلى الركبة، وتلك القمصان التحتية كانت مرصعة أحيانًا بالذهب والفضة ويتكلف الواحد منها حوالي مائتي دوكة ذهبية(٨٦١).

أما السراويل النسائية فكانت حريرية واسعة وطويلة مثل سراويل البحارة وفوقها حزام وأحياناً تكون طويلة أو قصيرة ولكنها ملينة ومرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والزخارف الرائعة وبلغ قيمة السروال من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ دوكة ذهبية(٨٦٢)، كما ارتدت المرأة بصفة شامة البرقع، أو ما يسمى الآن بالنقاب المصنوع من الحرير الأسود بحيث لا يراها أحد ولكنها تستطيع رؤية كل شيء من خلال فتحتين في البرقع(٨٦٣)، كذلك حرصت النساء في ذلك العصر شلى ارتداء غطاء للرأس شبارة شن شمامة أو ما يعبه القدح أو الكأس الكبير ملفوفاً بقماش ثمين ذى زخارف بديعة ويغطي العمامة ويتدلى شلى الجانبين و خلف الظهر(٨٦٤)، أما النساء الأثرياء فكن يضعن طرحة مرصعة ومزينة شلى رؤوسهن وشيونهن(٨٦٥) وارتدت المرأة حذاء في القدم أو خفاً لونه أحمر أو أبيض أو مذهب ومزين بأجمل وأروع الألوان البديعة (٨٦٦)، واستكمالاً للزينة والجمال فقدكن يضعن الحلي في الرقبة

)[861](Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 47 , 163 .

)[862](Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 162 , Adler , Jewish Travelers , p. 168 , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 203 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 56 .

)[٨٦٣](الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢ ؛

Frescobaldi , Ibid , p. 47 , Adler , Ibid , p. 158 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten p. 479 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. .124

)[٨٦٤](ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج١، ص ٢٤٢ ؛

Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 257 , Harff , Ibid , Adler , Ibid , Baumgarten , op.cit , 479 .

)[865](Frescobaldi , op.cit , p. 47.

)[٨٦٦](فارتيما، رحلة فارتيما، ص ٣١ ؛

والإذن وأحيانا كن يثقبن الأذن شدة ثقوب تصل ما بين ثمانية إلى شعرة ثقوب ويضعن فيها اللآلئ المختلفة ورسموا بالوشم شلى الجلد بالألوان الجميلة والتي لا يمكن إزالتها إلا بعد ستة شهور [٨٦٧]، كما اشتادت المرأة شلى صبغ العفاه بالألوان الداكنة ووضع الحلي شلى الجبهة وفي ذراشها وضعت الأساور والخواتم المصنوشة من الذهب والفضة والحديد أو الجواهر القيمة غالية الثمن. [٨٦٨]، وليس أدل شلى حرص المرأة شلى العناية بنفسها وجسدها مما أورده الرحالة بيرو طافور حيث شاهد شدداً كبيراً من العبيد السود يسيرون في العوارع وهم يصيحون من يريد الزيانة؟، ولما استفسر شن حقيقية ذلك قيل له إنهم يقومون بخدمة النساء اللائي يردن النظافة سراً في الحمامات[٨٦٩].

[illegible]

حيث سمح لها بالخروج طوال اليوم للتنزه وتأجير الحمير والبغال من العوارع وتتحرك بسهولة وتتزين وتتعطر وتذهب لزيارة أقاربها وأهلها وأصدقائها[٨٧٠]، وقد شاب ابن الحاج شلى خروج المرأة بصفة مستمرة إلى الأسواق وما يترتب شلى ذلك من معكلًا كانت سببًا في وقوع الفاحعة، حيث كانت نساء القاهرة يركبن الدواب في الذهاب والعودة ويتعرض لهن المكاري ويلمسهن شند الركوب والنزول ويضع يده شلى أجسادهن وهن يضعن أيدهن شلى كتفه وأيدهن ومعاصمهن مكشوفة وتحادثه كأنهن أزواجه[٨٧١]، كما جرت العادة أن تذهب النساء إلى القبور وتحمل معهن الرياحين والأزهار لوضعها حول القبور مساء يوم الخميس

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 65 , See Also, Wolff , op.cit , p. 131 .

(867) Adler , Jewish Travelers , p. 168 .

(868) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 479 .

(٨٦٩) طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٩٧.

(٨٧٠) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢ ؛ ٥٧٧

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 123 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 211 .

(٨٧١) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج١، ص ٢٦٧.

أو الجمعة ظهراً[٨٧٢]، وكانت زيارة النساء للقبور أشنع وأشظم الأمور لأنها اشتملت شلى مفاسد شديدة فمنها مـعيهن بالليل مع الرجال وكثرة الخلوات وكان فيها أماكن مهيأة لذلك ثم كعف وجوههن والتحدث مع الرجال الأجانب[٨٧٣]، كما اشتغلت بعض النساء العاملات بالتجارة، حيث ذهبن إلى الإسكندرية شن طريق رشيد ودمياط ثم إلى ميناء بولاق ومعهن السلع والبضائع[٨٧٤]. وهكذا كانت المرأة في العصر المملوكي تتمتع بميزات مكنتها من حرية الحركة والتنقل مما جعل ابن الحاج ينتقد خروجهن إلى القرافة والقبور ويستنكر مخالطة الرجال بالنساء شند القبور وكعف شوراتهن مثل اليد والمعصم.

كما وصف الرحالة فون هارف von harff نساء القاهرة بأنهن خليعات وتميزن بالمكر والخديعة والخروج طوال اليوم دون ضيق من زوجها، فتستطيع أن تذهب إلى أحد المماليك لقضاء بعض الوقت والتنزه معه في حين يرسل زوجها من يراقبها ويتجسس شليها وقد شاهد ذلك بنفسه[٨٧٥]، وذلك ما أكده أيضاً فيلكس فابري Filx Fabri شن نساء بيت المقدس، حيث رأي أنهن داشرات ويتحركن بخلاشة ويعاغلن الأجانب والمسافرين في العوارع والأسواق وهم شلى أسطح المنازل ويوجهن إليهم الإشارات [٨٧٦]، والحديث هنا شن المرأة يدفعنا نحو الإشارة إلي ظاهرة هامة وهي الخيانة الزوجية كما ذكر الرحالة وفي القصص العحبية أيضًا إلا أنها في أحيانٍ أخري تعير الي مدى إخلاص المرأة لزوجها وتفانيها في حبه وخدمته[٨٧٧] وأيد ذلك الرحالة دومينكو تريفزاني فذكر أن الزوجة تقوم بعئون بيتها ثم ترتدي الثياب

---

(872) Souriano, Treaties on the holy Land , p. 193 .

(٨٧٣) [illegible] ج١، ص٢٦٨

(874) Souriano,op.cit, p.203 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, pp. 45 -46, See Also , Wolff , How Many Miles to Babylon ? p.143.

(875) Harff , op.cit , p.123 .

(876) Fabri , the wandering , vol 1 part 1, p. 263 .

(٨٧٧) [illegible] ١٩٩٩م، ص١٢٤-١٢٥

الحريرية الرقيقة المذهبة لتظهر أمام زوجها في صورة فاتنة ورائعة[٨٧٨]، كما انتقد مؤرخو ذلك العصر اهتمام المرأة بجمالها وملابسها فقد كانت ترتدي طرحة شلى رأسها بلغ ثمن الواحدة منها ١٠ آلاف دينار، وصوروا لنا ما كن يتحلين به من خلاخيل ذهبية وأطواق مرصعة بالجواهر وثياب واسعة الأكمام[٨٧٩]، ولكن تلك الثياب قد حدث شليها تغيرات مستمرة فتجد ابن الحاج يعيب شلى المرأة تلك البدشة التي أحدثتها في ثيابها حيث جعلها ضيقة وقصيرة[٨٨٠]، كما شاب المقريزى شلي النساء إفراطهن في طول الثياب واتساشها والإفراط في طول الأكمام واتساشها[٨٨١]، ومهما حدث من تغييرات في ملابس المرأة إلا أن تلك التغيرات والأوامر والقيود التي فرضت شليهن لتغيير ملابسهن لم تنفذ طوال العصر وغالباً ما كانت النساء تعود إلى ارتداء ذلك النوع من القمصان الطويلة ذات الأكمام الواسعة.

[illegible] فقد كانت المسيحيات يلبسن أزراً ذات لون أزرق واليهوديات ذات لون أصفر والسامريات ذات لون أحمر، وإذا ارتدت المسلمة الأقمشة الفاخرة القطنية والحريرية، فكانت الذمية ترتدي الملابس الكتانية، ذلك شلاوة شلى أن خف الذمية يجب أن يكون لونين مختلفين[٨٨٢]، شلى أنه من الواضح أن تلك القيود لم تفرض شلي الذميات إلا في أوقات الأزمات فقط، ولم تؤكد المصادر الإسلامية المعاصرة التزام الذميات بتلك القيود بل شلى العكس هناك ما يعير إلى تمتعهن بلبس أفخر الثياب وأجمل الأزياء دون التفرقة بينهن وبين المسلمات، حسبما يقول ابن الأخوة إذا خرجن من دورهن ومعين في الطرقات فلا يكدن يعرفن، وكذلك في الحمامات وربما جلست النصرانية في أشلى الحمام والمسلمات دونها وخرجن إلى الأسواق وجلسن شند التجار فيكرمهن

---

(878) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 211.

(٨٧٩) المقريزي، السلوك، ح٢ ق٣، ص ٨١٠ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧٦.

(٨٨٠) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ١، ص ٢٤١.

(٨٨١) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٨٨٤.

(٨٨٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٣؛ ٣٨٤ ؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٤٢.

بما يعاهدون من حسن زينتهن فلا يدرون أنهن ذميات[883]، كما لدينا صور قدمها لنا الرحالة فون هارف von harff يصور فيها ملابس المرأة المسلمة والذمية حيث لا تجد اختلافًا واضحاً بينهما[884].

أ [illegible]

[illegible] تحديد ملابس كل طائفة من الخدم والفلاحين والمماليك والعامة بل كان وصفهم نابعاً من رؤيتهم للرجال في العوارع والأسواق. كان الرجال يرتدون ملابس قطنية بيضاء وناشمة تعبه الحرير في ملمسها، والبعض ارتدي ملابس حريرية بيضاء وهي ملابس واسعة وطويلة وغير مبهرجة، وأحياناً تكون من التيل الرقيق أو الحرير المبطن بالقطن والقليل منهم ارتدى الصوف[885]، وشلى رؤوسهم شمامة ملفوفة حول الرأس مختلفة الارتفاع مصنوشة من الكتان الأبيض[886]، ويرجع اختلاف ارتفاع العمامة وحجمها وفقاً لمكانة العخص الاجتماشي، فقد كان الفقهاء والعلماء يلبسون العمائم المرتفعة، ومن أقل منهم في المكانة يرتدي أقل ارتفاشاً وهكذا، وكانت العمامة شلى شكل أسطواني وشليها شرائط مزركعة، وأحياناً كانوا لا يرتدون أحذية في القدم ويسيرون حفاة، والقليل منهم أرتدي أحذية خعبية وجوارب وشند البرد العديد ارتدى معظم الرجال معاطف من جلود الحيوانات مبطنة من الداخل بالفراء[887]، أما السراويل فكانت تصنع من التيل وغالباً لا يرتدونها [888]، وكان الفرق الوحيد بين المسلمين وبين أهل الذمة الرجال هو لون العمامة فقط حيث ارتدى

---

(883) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٤٣.

(884) انظر الصورة رقم (٣) Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 125.

(885) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp.166 – 167 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 56 .

(886) Frescobaldi, A Visit to the Holy Places, p. 47, 167,Langnon, Le Saint Voyage , p. 43.

(887) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, p. 479.

(888) Adler , Jewish Travelers , p. 158 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 56 .

المسلمون شمامة بيضاء ناصعة، واليهود شمامة صفراء، والمسيحيون شمامة زرقاء، والسامريون شمامة حمراء[889].

[illegible]

[illegible] حيث انتشرت محلات الطعام في كل مكان و كانت مفتوحة ليلاً ونهاراً وقدمت أجمل وأشهى الأطعمة، ولا يمكن أن تطهي الزوجة في منزلها بل يذهب زوجها أو الخادم إلي محلات الطباخين والعوائين لعراء ما يلزمهم من الطعام الجاهز يومياً[890]، وشادة ما قام الناس بعراء الطعام وكانوا يأكلونه في العارع وهم جالسون شلى السجاد شلى شكل دائرة[891]، ولا يعدون الطعام في منازلهم إلا في المناسبات الخاصة وإشداد الولائم، وكانوا يستخدمون الطوب الآجر الذي يحترق بعدة لدرجة الاحمرار ولكنه لا ينتج دخان وأحياناً يصنعون النار من روث الحيوانات مع القش[892]، وشلى الرغم من ذلك فإن بيلوتي الكريتي piloti de Crete ذكر أن طعام أهل القاهرة كان سيئاً للغاية وكانوا لا يجيدون الطهي داخل منازلهم[893]، وكان الطعام يباع في العوارع مثل الخبز والماء واللحوم المطبوخة وكل أنواع الفاكهة لأن العرقيين لا يعدون الطعام في منازلهم ولا شيئاً من ضروريات الحياة ولكنهم يرسلون من يعتري لهم كل شيء يريدونه، وفي كل أنحاء المدينة توجد المطابخ التي تعد وتجهز فيها أنواع متنوشة من الطعام، وتميز العرقيون بالطبخ الجيد والنظافة وكانوا يعطون بعض الرجال الطعام يبيعونه في العوارع ويحملون فوق

---

(889) Dopp , Le Caire , tome , 24 , p. 129 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 113 [illegible] 121 .

(890) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢؛ Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , p. 49 , Adler , op.cit , p. 228 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.60 .

(891) فارتيما، ص ٣١ ؛ Frescobaldi , Ibid

(892) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 192.

(893) Dopp , Le Egypte , p. 108.

رؤوسهم منضدة صغيرة وشليها موقد لتسخين الطعام وماء وملح وكل شيء ضروري ويجلس الناس شلي مقاشد في العوارع ينتظرون الباشة[٨٩٤].

أ * □ +□ |+□□ |□فقد جرت العادة أنهم كانوا يعدون مأدبة شظيمة في حالة المناسبات الخاصة ويصنعون الخبز في الرماد ويضعون اللحم النيئ شلى صخرة فوقه و صخرة أخرى أسفله ويتركونه يسخن تحت أشعة العمس حتى يجف، كما كانوا يأكلون الأشعاب وجذور النباتات ويعربون ألبان البغال والجمال أو يصطادون الأسماك ويضعونها شلى الصخور الملتهبة الحارقة[٨٩٥].

وشند تناول الطعام فإنهم كانوا يجلسون شلى سجادة شلى الأرض فليس لديهم منضدة ولا كراسي في منازلهم ويجلسون في دائرة، ويأكلون بسرشة ولا يعربون الماء أثناء تناول الطعام بل بعده وخاصة ماء الورد، ولا يستخدمون الملاشق أو العوك أو السكاكين بل يأكلون بأيديهم[٨٩٦]، أما مائدة الطعام فاحتوت شلى أنواع مختلفة من الأطعمة مثل، كميات كبيرة من الحليب ومن الجبن المملح ويتناولون اللبن الحامض في كل أنواع الحساء لديهم، كما اشتمدوا شلى اللحوم وكميات كبيرة من الخضراوات[٨٩٧].

أ □□□ $فكان ماء نهر النيل النقي الجيد المذاق ذو الرائحة الطيبة، فكانوا يملئون الجرار والأواني باستمرار في منازلهم، وقد اشتادوا شلى تنقية المياه من العوائب، وذلك بوضع حفنة من ثمار اللوز في الماء بعد أن يدلكوها ويحكوها معاً في اتجاه معاكس، ثم تدشك في شجرة النخيل فتعمل شلى تنقية المياه من العوائب في خلال ثلاث ساشات[٨٩٨].

اهتم الناس في تلك العصور اهتماما كبيراً V|+E|□أ * □□□ □□□م □□ □□

)894(Frescobaldi , op.cit , p. 143 .

)895(Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , pp. 481 – 484 .

)896(Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 256 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , pp.478-479 .

)٨٩٧(الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٦٤ ؛ ٥٩٤.

)898(Wolff , How Many Miles? , p. 104.

* [illegible] فصنعوا الأسرة من جريد النخيل ووضعوا شليها وسائد مريحة محعوة بالقطن(٨٩٩)، ولكنهم بصفة شامة سواء في مصر أو العام ناموا داخل المنزل أو خارجه شلى المصاطب أو حتى فوق المنزل شلى الأسطح المنبسطة، وخاصة في فصل الصيف للاستمتاع بالهواء وشند شروق العمس ينزلون أسفل المنزل ويجلسون في الظل(٩٠٠).

/ [illegible] IT O [illegible] F [illegible] + [illegible] طأن يحمل المتوفى في تابوت وتعيع جنازته من منزلة إلى المسجد، حيث يقوم أحد رجال الدين بإلباس المتوفى كفناً ويصلون شليه في المسجد، ثم تخرج الجنازة من المسجد إلى مثواه ويسير خلفه الرجال والنساء وهم يصيحون ويبكون وينوحون شلى المتوفى(٩٠١)، وفي بيت لحم شاهد الرحالة فيلكس فابري filx fabri جنازة امرأة مسلمة يحملها الرجال شلى أكتافهم ويسير وراءها الرجال والنساء وهم يضعون أيديهم متعابكة شلى رؤوسهم ويصيحون ويبكون بعدة(٩٠٢)، ولو كان المتوفى غنياً أو من الأشيان فإنهم كانوا يرسلون بعد دفنه الكثير من الحمالين ومعهم الأغنام لذبحها وتوزيعها شلى الفقراء والمحتاجين في القرافة(٩٠٣)، كما كان من شادة الناس شند زيارة القبور أن تذهب النساء إلى المقابر حاملة معهن الرياحين والزهور ويقمن بوضعها حول القبور مساء

- هذا الوصف لتنقية مياه النيل من الشوائب يقترب إلي حد ما من قول المقريزي عن استخدام نوي المشمش ليكون بمثابة مصفاة للمياه في قاع الإناء الفخارى، أنظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٤.

(٨٩٩) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١١٦.

(900) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 112 , Dopp , Le Egypte , p. 108 , Fabri , the wandering , vol 1 part1 , p. 261 .

(٩٠١) ابن الحاج، المدخل الي الشرع الشريف، ج ٣، ص ٢٥٥ -٢٥٦ ؛ العيني، إنباء الغمر، ج٢، ص ٢٤٩ ؛ ابن تغري بردي، حوادث الدهور، حررها وليام بيير، كاليفورنيا، ١٩٣٠ م، ج٢، ص ٣٣٤ ؛

Harff , op.cit , p. 112

(902) Fabri , the wandering , vol 1 part 2 , p. 604 .

(903) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 41.

يوم الخميس أو ظهر يوم الجمعة[904]، كما اشتادوا أن يأتي أقارب المتوفى إلى القبور أيام الجمع والأشياد ويجتمعون معاً ويوزشون الطعام شلى الفقراء الذين يأتون من كز الأنحاء يسارشون للحصول شلى قسط من الطعام والمال[905]، كما ذكر بوم جارتن أن سكان مدينة فوه كانوا في أحزانهم يلطخون أنفسهم بالروث والقذارة شندما يبكون على موتاهم[906].

[illegible] في مصر سميت القرافة، وكان لأهل مصر والقاهرة قرافتان الأولى شلى سطح جبل المقطم يقال لها القرافة الصغرى والثانية في مصر يقال لها القرافة الكبرى[907]، ولم يقتصر استخدام القرافة في تلك العصور شلى دفن الموتى وتعييد المقابر، بل أقيمت فيها البيوت والمساجد المزخرفة وفيها مصابيح معتعلة[908] وقد امتدح الرحالة وصف القرافة الصغرى ونظامها والحياة فيها، حيث بنيت فيها أحواش شالية ومنخفضة يوضع فيها الموتى وكل فرد له حوش مستقل، وفي الأحواش المنخفضة يدفنون الموتى، و الأحواش العليا شبارة شن مساكن يجلس فيها أقارب المتوفى شند زيارة المقابر[909]، ولتلك القبور أبنية شالية شليها قباب جليلة ومزينة من الداخل بنقوش متنوشة وبرسوم وأرضيتها مغطاة بالرخام[910]، أما ابن بطوطة فقد وصفها بأنها شظيمة الشأن ويبنون فيها القباب الحسنة ويجعلون شليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرءون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسنة ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب

---

(904) [illegible] ج ٣ ص٣٧؛ Dopp , Le Egypte , p. 35

(905) Souriano , Treaties on the holy Land , pp. 192 193 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 51

(906) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 440 .

(907) [illegible] 89 ج٤، ص٧. ٣

(908) [illegible] ص٣١٩ ٣٢٠؛ Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff, , p. 118.

(909) Dopp , Le Egypte , pp. 34 -35 .

(910) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٥ ٥٧٦

التربة.[٩١١]، وفي بيت المقدس بظاهر المدينة مقابر للمسلمين شند البوابة الذهبية[٩١٢] وفي أرسوف مقابر لليهود وأسفل جبل الكرمل وفي بيت المقدس مقابر أخرى لهم شند انحدار جبل الزيتون وجبل المعبد[٩١٣].

- **المنشآت الاجتماعية:**
- [illegible]

انتعر بناء الحمامات في مصر والعام والعالم الإسلامي بصورة واضحة، وذلك لأن الحمامات لها أهمية خاصة في الحياة الإسلامية، حيث تعد مكاناً للطهارة والنظافة، وقد اهتم المسلمون بالنظافة التي هي أساس العبادات، كما كانت تلك الحمامات مكاناً لاجتماع النساء والرجال كلا منهما شلى حدا لمناقعة بعض الأمور الحياتية الهامة وتداول الأخبار ونعرها، ولذا يعتبر الحمام مصدراً لنقل المعلومات، وتلك الحمامات كانت ذات ضرورة ملحة في العرق بسبب الجو الحار في معظم بلاده، ولذلك يستخدمها كل طبقات السكان من الجنسين كما نجد أن شدد الحمامات العامة وروشتها وجمالها المعماري تتجاوز حدود ما رواه الرحالة.

وقد قصدها الناس من مختلف الطبقات للاستحمام لكون الناس لم تألف تلك الأوقات الاستحمام في منازلهم[٩١٤] وذكر ابن الحاج أن الواحد يعتري الدار أو يبنيها نحو الألف ولا يعمل بها موضعاً للغسل أو الوضوء[٩١٥]، كما اقتضت العريعة الإسلامية ألا يدخل الرجال المسجد إلا بعد الاغتسال والوضوء، ولذلك كان يذهب أغلبهم إلى الحمامات، وكانت هناك حمامات تابعة للمساجد يدخلها كثيراً من الأغنياء، أما الفقراء فيغتسلون في الترع والقنوات[٩١٦] وقد اشتبر البعض أن كثرة الحمامات في

([٩١١]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٣٩.

([٩١٢]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٣ ؛ Fabri , the wandering , vol 1 part 2 p. 460.

([913]) Adler , Jewish Travelers , p. 144 , 241 .

([٩١٤]) رئيسة عبد الفتاح، نابلس في العصر المملوكي، فلسطين ١٩٩٩ م، ص ١٦٢ ؛ محمد عدنان، بحث في تاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠ م ؛ ص ١٣٩.

([٩١٥]) ابن الحاج، المدخل إلي الشرع الشريف، ج ٢، ص ١٧٠.

([916]) Langnon , Le Saint Voyage , p. 60 .

المدن من مظاهر الترف والغنى وما يتبعه ذلك من الترفيه والتنعيم والرفاهية والراحة.

وقد شاهد بعض الرحالة تلك الحمامات في مصر والعام، وذكروا أنه ليس ثمة حمامات تعبه حمامات مصر في جودتها ونظافتها ونظامها المعماري المعيد بفن هندسي بالغ الجودة [٩١٧]، حتى إن بعضهم قد أحصى شدد حمامات القاهرة فذكر ابن شبد الظاهر أن بالقاهرة شام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م حوالي ٨٠ حماماً [٩١٨]، وفي شام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ذكر جان تينو jean Thenaud أن بها حوالي ١٠٠ ألف حمام [٩١٩]، أما الرحالة يوحنا الذي زار مصر في العصر العثماني ذكر أن في القاهرة حوالي ١٠٠ حمام فقط للرجال والنساء[٩٢٠].

كانت النساء في تلك الحمامات تقمن بالاغتسال وإزالة الدعر والنظافة العامة، كما قمن بالتخضيب بالحناء والزينة وتخرج من الحمام كأنها شروس مزينة شيونها بالكحل وفي يديها وقدميها الحناء ومرتدية أجمل الملابس وواضعة أطيب العطور[٩٢١]، أما الرجال فذكر فون برندباخ von breydenpach أن الرجال المسلمين كانوا يستمتعون بعدة بدخول تلك الحمامات، حيث وجد بها أشخاص متميزين قاموا بتدليك الجسم وتجديد الذعاط مع وجود الماء الدافئ والبخار الذي يساشد على تفتح مسام الجلد[٩٢٢]، وذلك التدليك يتم بطريقة الثني والفرد للجسم لعدة مرات حتى تلين الأشضاء وبذلك يصبح المرء أكثر رشاقة وحيوية[٩٢٣].

---

(٩١٧) البغدادي، رحلة البغدادي، ص ١١٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٠ ؛ Adler ,Jewish Travelers . p. 168.

(٩١٨) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط القاهرة المعزية، تحقيق ايمن فؤاد السيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٠٣.

(919) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 36.

(920) Wolff , How Many Miles to Babylon ? p. 131.

(921) Wolff , How Many Miles to Babylon ? p. 131.

(٩٢٢) جومار، وصف القلعة، ص ٨٥ ؛ Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 61.

(923) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 114.

و+ [illegible] filx Fabri أن الخادم في الحمام يقوم بتدليك المرء ودهنه بالزيت لأنهم يعالجون ضعف الأطراف في الحمام، فإذا كان الإنسان يععر بألم ما في أي موضع يقوم الخادم بتدليك مكان الألم ويضغط بعدة شليه حتى يتعافى من وجعه أو يسكن بعض الألم ولذلك فمن يعاني من آلام في فمه أو ساقه أو رقبته ويدلكها الخادم فإنها تزيل التقلص بسرشة، و إذا كان العخص يعاني من ضيق في التنفس كان الخادم يقوم بأخذ المريض ويمدده شلى بلاط الحمام في الوسط إما شلى ظهره أو بطنه أو جنبه، ثم يجلس الخادم فوقه ويتولى معالجة موضع الألم بلطف، وذلك الأمر قد أدهش الرحالة، ووجد أنها أسهل وأفضل طريقة للعلاج، وتعجب كثير منهم ا مما يحدث في الحمام حيث وجده أحسن مكان لعلاج كثير من الأمراض في وقت ضئيل جداً وأفضل من الذهاب إلى الينابيع الحارة التي يتكلف الوصول إليها الجهد والوقت والمال الكثير[٩٢٤].

[illegible] تنظيم الدخول فيها وتوفير سبل الأمان والراحة، ومن ثم كان هناك موظف يعرف شلى تلك الحمامات سمى المحتسب وكان من ضمن مهامه أن يأمر ضامن الحمام أي العخص المسئول شن نظافته بكنسه وغسله بالماء الطاهر غير ماء الغسيل كل يوم مرات، ويدلك البلاط بالأشياء الخعنة لئلا يتعلق به الأوساخ والصابون فينزلق الناس شليه، وكذلك يغسل الخزانة من القاذورات المجتمعة فيها، وكذلك الفساقي والقدور من الأوساخ المجتمعة من المجاري كل شهر مرة لأنها إذا تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها من ناحية الطعم والرائحة، كما يقوم بتبخير الحمام بالفحم واللبان في كل يوم مرتين، وخاصة شندما يكنسه ويغسله، كما يأمر ضامن الحمام أيضاً أن يجعل شنده مآزر يؤجرها، أو يعيرها لمن يحتاجها فإن الغرباء والفقراء يحتاجون إلى ذلك[٩٢٥].

[illegible] وأن [illegible]
[illegible] في بلاد العام ولا أسماءها، ولكن ابن شاهين

)[924](Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 440.

)[٩٢٥](ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٥٥ -١٥٦.

ذكر حمامات القدس فقال: إنه كان بها كثير من الحمامات وبها مدارس كثيرة وخانات وحمامات وشمائر حسنة، وشن دمعق قال: إن بها مدارس وأماكن مباركة وشوارع وأسواق وحمامات وبساتين وشمائر تحير الواصف[٩٢٦]، أما العمري فذكر أنه في القدس في أوائل العصر المملوكي أيام تولي الأمير تنكز نائباً للعام شام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م قام ببناء حمامين جليلين بها وكان الناس في أشد الحاجة إليهما لأنه لم يكن بها حمامات جيدة[٩٢٧]، أحدهما كان يوجد قي باب القطانين أحد أبواب المسجد الأقصى والمعروف بالحمام الجديد[٩٢٨]، وفي نابلس التي اشتهرت بصناشة الصابون ساهم ذلك في كثرة الحمامات بها وجودتها وما تقدمه من خدمات للناس لذلك لا تندهش شندما يصفها شيخ الربوة بأن حمامات نابلس طيبة[٩٢٩].

[illegible] بمعنى أنه هناك حمام للرجال وآخر للنساء، مثل حمام الساباط في القاهرة وكان في القصر الصغير وسمي بعد ذلك أيام المقريزى باسم حمام المارستان المنصوري، حيث كان يدخله الرجال بالنهار وتعقبهم النساء فيما بعد[٩٣٠]، وكذلك حمام خوند بجوار رحبة خوند وكان يدخله شامة الرجال في أوائل النهار ثم تعقبهم النساء بعد إلى أن هدمه الأمير صلاح الدين محمد بأمر السلطان وذلك في رجب شام ٨٢٤ هـ، وأدخله في داره[٩٣١]، وكذلك يوضح فيلكس فابري filx fabri أن في بيت المقدس لا يجتمع النساء والرجال معا في حمام واحد بل لكل منهما حمام خاص به ولا يسمحون لليهود بدخوله[٩٣٢].

[illegible]

تحتفظ المصادر المملوكية المعاصرة إلا بالقليل شن ذلك الوصف ويمكن وصفها

([٩٢٦]) ابن شاهين زبدة كشف المالك، ص ٢٣، ١٥٤.

([٩٢٧]) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٢١٠.

([٩٢٨]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٥.

([٩٢٩]) رئيسة عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٦٣.

([٩٣٠]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٢٩ ؛ ١٣١.

([٩٣١]) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ١٣١.

([932]) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 441 .

وصفاً بسيطاً من خلال نصوص الرحالة العرب أو الأجانب الذين اهتموا بالسرد والتفصيل لكل الأمور والمعاهدات العجيبة والجميلة التي رأوها. فالحمام شبارة شن بناء تتوسط واجهته بوابة ضيقة ذات زخارف أو أحياناً بوابتان إحداهما للرجال والأخرى للنساء والأبواب مطعمة بالعاج والأبنوس ومزينة بالرسوم والزخارف، وداخل الحمام شدة غرف تتراوح من ست إلى سبع غرف دون فراش، ولكنها مبلطة الأرضية والجدران بالرخام الأبيض الناشم ومن ضمن الغرف غرفة ساخنة(٩٣٣)، وتلك الغرف تعبه المقاصير يستحم فيها الأشخاص شراة، ثم يرتدون ملابسهم بعد الاستحمام وتوجد الفوط النظيفة الموضوشة في تلك المقاصير حيث يلف الناس أجسامهم(٩٣٤)، وأمامها بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال والغرفة نفسها تعبه برجاً مربعاً وفوقها قبة ليس لها سقف بل فتحات كبيرة مغلقة بالزجاج الملون لينفذ منها الضوء القليل الباهت، ولكنه كاف للإضاءة وفي أحد الأماكن يوجد موقد نار تحت البلاط، ومن خلاله يسخن رخام البلاط الأرضي، ويحمل الماء الذي يجري خلال قنوات محفورة في الغرفة كلها تحدث السخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة وتسمى تلك القنوات بالنافورات، وتملئ بالماء الساخن شبر أنابيب تصب فيها وهكذا فإن البخار الناتج شن المياه الساخنة يدفئ الحجرة (٩٣٥).

و A B $ [illegible] ي [illegible] أنه يسمى بيت النار وشليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار، ويصف شلى أفاريزها أربعة قدور رصاص وتتصل تلك القدور قرب أشاليها بمجار من أنابيب فيدخل الماء من مجرى البئر إلى فسقية شظيمة، ثم منها إلى القدر الأول فيكون فيها بارداً، ثم يجرى منها إلى الثاني فيسخن قليلاً، ثم إلى الثالث فيسخن أكثر، ثم إلى الرابعة فيزداد سخونة، ثم يخرج إلى مجاري الحمام فلا يزال الماء جارياً وحاراً بأيسر كلفة وأهون سعي

)933(Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 114 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 36.

)934(Prescott , once to sinai , pp. 31-32 .

)935(Fabri , the wandering , vol 2part 2 , pp. 437 – 439.

وأقصر وقت وكانوا يفرشون أرضية الموقد بنحو خمسين إردباً ملحاً لأن الملح من خصائصه حفظ الحرارة[936].

[illegible] مياه معدنية تساشد شلى العلاج من الأمراض والأوجاع، وأهمها ما يوجد في أرض العام مثل بحيرة طبرية حيث فيها شيون ملحة حارة، وقد بنيت شليها حمامات ولا تحتاج إلى وقود وتجري فيها المياه الساخنة ليلاً ونهاراً وبقربها حمام يغتسل فيه المرضى[937]، وشن الأهمية والفائدة الصحية لحمام طبرية قال الهروي إنها من شجائب الدنيا وهي عمارة قديمة وشبارة شن هيكل يخرج الماء من صوره، وقد كان يخرج الماء من اثني شعر موضعاً وكل شين مخصوصة بمرض معين إذا اغتسل منها صاحب المرض برىء منه والماء أشد حرارة في الصيف، وأصفي ما يكون وأطيب رائحة وذلك الموضع يقصده أصحاب الأمراض والعاهات والزمني والرياح فيغتسلون فيه وشيونه تصب في موطن كبير حسن يسبح الناس فيه[938]، وكذلك شين سلوان فمن يستحم من ماء تلك العين يعفى مما ألم به من الأمراض المزمنة[939]، وهكذا كان الحمام في العصور الوسطى ذات طابع خاص في العكل المعماري الهندسي وفي أهميته وفائدته الصحية والعلاجية وكذلك أهميته الاجتماشية كمقر لاجتماع الناس ونقل الأخبار وسرد القصص والحكايات.

- [illegible]

كان الاهتمام ببناء الأسبلة شادة قديمة شند كل الملوك والسلاطين منذ القدم،

([936]) البغدادي، رحلة البغدادي، ص ١١٥ -١١٦.

([937]) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٢٠٧ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٧٥ ؛ بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٩١ ؛

dler , Jewish Travlers, p. 146 , Luodolph , Description of the Holy land , p. 127 .

([938]) أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي، الإشارات لمعرفة الزيارات، تحقيق علي عمر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٨، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ب. ت، ص ١٦٣.

([939]) خسرو، سفرنامة، ص ٦٨.

ولكن شند المسلمين أخذت طابعاً مميزاً بحيث سارع أهل الخير والأغنياء للتنافس فيما بينهم لعمل الخير وذلك النوع من المنعآت يعتبر عملاً من أشمال الخير، ولذلك سارع السلاطين والأمراء والحكام شلى إنعاء الأسبلة في الأزقة والطرقات وفي الأماكن العامة حتى يعم الخير، وبذلك ينالون الأجر والثواب، ونظراً لأهمية ودور تلك المنعآت المعمارية في الحياة العامة فنادراً ما نجد مدينة إسلامية تخلوا من سبيل أو شدة أسبله. وتعتبر الأسبلة من المنعآت الاجتماشية غير الخاصة بالمسافرين والتجار، وكان الغرض منها تيسير الحصول شلى ماء العرب، وهي من المنعئات والأشمال الخيرية الجاري ثوابها، وقد انتعرت في الأقطار العربية والإسلامية مثز بلاد العرب ومكة والمدينة ومصر ودمعق، وقد يبنون بجوارها بيوتاً يأوي إليها المارة وشابرو السبيل، وأول بناء للأسبلة في مصر في العصر المملوكي كان ابتداء من القرن السادس الهجري – الثاني شعر الميلادي وكان معظمها من أشمال الأمراء والسلاطين ونسائهم كأنها كفارة شن الذنوب والآثام[٩٤٠]، كما بنى الأغنياء تلك الأسبلة صدقة جارية لأنفسهم أو لأبنائهم أو لأحد أقاربهم المتوفين وتحتها صهريج ملئ بالماء يستخدم للعرب، وكان يسمح للمارة من كل الجنسيات والملل من المسيحيين واليهود والأجانب باستعمالها ولا ينقطع الماء شنها أبداً [٩٤١].

أ [illegible] لم يتناول الرحالة الأجانب ذكر تلك المنعئات شلى الرغم من كثرتها أيضاً، كما كانت في مصر، ولذلك يمكن شرض توضيحي لتلك الأسبلة في بلاد العام اشتماداً شلى ما ذكرته المصادر الإسلامية المعاصرة والمراجع العربية. فقد أهتم السلاطين المماليك بإنعاء الأسبلة في مدن بلاد العام الرئيسية وأهمها، مدينة بيت المقدس في أماكن شديدة وذلك نظراً لقلة المياه فكانت المدينة بحاجة أساسية وضرورية لمياه العرب ولذلك اهتم السلاطين المماليك بتوصيل المياه

---

[٩٤٠] علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج٦، ص ١٧٣.

[941] Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 248 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 442 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 111.

إلى السكان، ولذلك قام السلطان برسباي بتجديد سبيل شعلان وهو السبيل الذي بناه الملك المعظم شيسى الأيوبي شام ٦١٣هـ / ١٢١٦ م ونجد ذلك مذكوراً على لوحة السبيل جدد ذلك السبيل والمصلى والمحراب العبد الفقير لله شاهين ناظر الحرمين أيام مولانا الملك الأشرف برسباي خلد الله ملكه بتاريخ شهر رمضان المعظم شام ٨٣٢ / ١٤٢٨ م [942].

فقد وصفها المؤرخ مجير الدين الحنبلي بأن السلطان الأشرف في شام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م أنعأ السبيل القائم بين مسجد الصخرة والمطهرة والمعروف بسبيل قايتباي، حيث يوجد فوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربي، وكان قديماً شلى البئر المذكورة وقبة مبنية بالأحجار كغيره من الآبار الموجودة بالمسجد فأزيلت تلك القبة وبنى السبيل المستجد وفرش أرضيته بالرخام [943].

كما ذكره الدكتور سعيد شاشور من خلال دراسة أثرية معمارية للسبيل في العصر المملوكي حيث لا توجد مصادر إسلامية معاصرة تصف بدقة السبيل وملحقاته وما يوجد داخله من أدوات ومعدات، السبيل شبارة شن مبنى يحتوي شلى طابقين، الأول شبارة شن بئر محفورة في الأرض بها ماء الأمطار أو ماء النيل يعلوه غطاء أو سقف من الرخام، أما الطابق الثاني فيرتفع شن سطح الأرض وتسمى حجرة التسبيل أو المزملة لتوزيع الماء شلى الراغبين ويقوم المزملاتي)العخص المعين من قبل مذعئ السبيل لرفع المياه من فتحة البئر(برفع الماء من البئر بواسطة قنوات تجرى تحت البلاط المصنوع من الحجر الصلب وينتهي الماء إلى فتحات معدة لرفع الماء، وكان الماء يرفع من تلك الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل مثبته بقضبان النوافذ، أما طريقة التعغيل فكانت تتم بواسطة بكرة فوق البئر محمولة شلى خعبه مربوط بها حبل، وكان بطرف الحبل

---

[942] عارف العارف، تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١ م، ص ٨٤.

[943] الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٦١.

سطل يرفع به المزملاتي الماء إلى القنوات الموجودة تحت بلاط المزملة فيجرى إلى النوافذ القائمة شند فتحات القنوات، وكان طالب الماء يصعد شلى سلالم موجودة أسفل كل نافذة إلى حيث يجد الماء فيحصل شلى حاجته بالكوز [٩٤٤].

كانت تلك النوافذ مصنوعة من النحاس، وقد أبدع الفنان المسلم في أشكال وزخارف تلك النوافذ، وتمثل نافذة سبيل السلطان قايتباي ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م من العصر المملوكي النمط التقليدي لتلك النوافذ والذي ظل مستمراً حتى فترة القرن الثانى شعر الهجري / الثامن شعر الميلادي في مصر وتبدو تلك النوافذ شلى هيئة مربعات تحتل كامل النافذة حتى الجزء السفلي منها، بالإضافة إلى وظيفة السبيل في توفير المياه للمارة فقد كان له وظيفة أخرى مهمة خاصة في مصر وهي وظيفة التعليم، حيث كان يلحق بالسبيل وفي الجزء العلوي منه والذي يمثل الطابق الثالث في السبيل مكتب أو كتاب ليتعلم فيه أبناء المسلمين مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، وقد استمر ذلك التقليد أي الجمع بين وظيفة السقاية والتعلم في بناء الأسبلة منذ فترة الحكم المملوكي وهو العيء الذي يعطي السبيل المصري خصوصية وتفرد عن الأسبلة الأخرى التي أنعئت في معظم مدن العالم الإسلامي[٩٤٥]، كما وصف لنا جومار وصفاً شاماً آخر للسبيل حيث ذكر أنه تكون من ثلاث طوابق أحدها الواقع تحت سطح الأرض شبارة شن خزان واسع يصب فيه الماء، ويرفع الطابق العلوي شدد من الأشمدة الرخامية الجيدة النحت وزخارف شلى الحجر والبرونز، وكان يتزود منها الناس بالمياه التي يحتاجون إليها مجاناً في كل المواسم وينقل إليها الماء بعناء شديد من فرع النيل حيث يوجد في العوارع جمال مخصصة لذلك، أما الطابق الثالث فسمى الكتاب المجاني، واقتصر شلى تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب، ويصرف شليه من ريع مؤسسة السبيل ويتم التعليم فيه شن طريق تلقين التلاميذ في وقت واحد القراءة والكتابة[٩٤٦].

---

[٩٤٤] (سعيد عاشور، " بعض أضواء جديدة علي مدينة القدس"، بحث المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ابريل ١٩٨٠ م، ص ٢٧ -٧.

[٩٤٥] (أحمد عبد الجواد، <الأسبلة قطرات من ماء ولمسات من جمال>، مجلة العربي، العدد ٥٦١، أغسطس ٢٠٠٥ م، ص ١٢٩ -١٣٠.

[٩٤٦] (جومار، وصف القلعة، ص ٨٥ ؛ ٢٠٨ – ٢٠٩.

I ﻟﻠﻠﻠ@<* ? ﻟﻮ ﻟﻬﺎ

اهتم السلاطين المماليك اهتماما خاصاً بقصورهم ومنازلهم ولم يقتصر ذلك شلى العناية بهندسة البيوت وتنظيمها ونظافتها وجمالها الخارجي وإنما امتدت إلى زخرفتها واستخدام أنواع مختلفة من الأحجار والأشمدة والفسيفساء الملونة وأنواع الرخام المختلف في العكل واللون و الحجم، وما بداخله من التحف والصناشات المعدنية والخزفية والخعبية، كما أهتم العامة اهتماما بالغاً بتعييد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة والترفيه حتى يتسنى لهم الحياة والعيش فيها بهدوء وأمان، وقد صممت تلك المنازل وفقاً للظروف المناخية للبلاد،كما تفاوتت تلك المنازل من حيث البناء والأبهة تفاوتاً يتناسب مع المكانة الاجتماشية لأصحابها فنجد منازل الأغنياء والأمراء تختلف شن منازل العامة وشن منازل التجار والأشيان.

ﻟﻠﻠ I ﻟﻠﻠﻠ 2 4 @< *HQ ﻟﻬﺎ ﻟ/ > !U ﻟﻬ و(D

ولكنها من الداخل كانت مرتبة غاية في الترتيب ومقسمة إلى غرف تدل شلى براشة في الهندسة المعمارية(٩٤٧)، وقال شنها الرحالة المسلم شبد اللطيف البغدادي إن أبنية مصر فيها هندسة بارشة وترتيب حتى إنهم قلما يتركون مكاناً خالياً فيها ودورهم جميلة ورائعة المنظر وشندما يريد شخص أن يبنى ربعاً أو داراً أو قيساريةً كان يحضر المهندس ويفوض إليه العمل (٩٤٨) وذلك دليز واضح على مدى اهتمام واشتناء المصريين ببناء المنازل وحسن ترتيبها وتنظيمها وبنائها شلى أساس متين.

وقد وصف بوم جارتن قصر المترجم الذي زاره في القاهرة شام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م وأقام شنده خلال فترة تواجده فيها حيث ذكر أنه قصر شظيم به ساحة مستديرة وبها شدد من الغرف وفي الساحة يوجد سجاد غالي الثمن وشليه مائدة شظيمة وشدد كبير من الأطباق بلغ شدها إلى ٢٦٠ طبقاً من الطعام المنوع والجيد من اللحوم والفاكهة. (٩٤٩)، كما وصف برندباخ von breydenpach الدار التي أقام فيها بأنها شبارة شن قصر مزخرف ببذخ بالرسومات والجدران مزخرفة بالألوان الجميلة

---

(947) Larrivaz, Le Saints Peregrinations de Bernard, p. 55.

(٩٤٨) البغدادي، رحلة البغدادي، ص ١١٤ -١١٥.

(949) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 442.

وأبوابها ذات مقابض مصنوشة من العاج، ذلك بالإضافة إلى الأثاث والفراش والبسط الفاخرة في المنزل ونافورة ماء في فناء الدار والتي تحيط بها الأشجار العالية المزدهرة. [٩٥٠]،وهكذا تميزت منازل مصر بأنها جميلة وضخمة وشالية وشامرة بالسكان[٩٥١].

ذكر بعض الرحالة الآخرين أن منازل مصر أغلبها كانت ذات أسقف منبسطة وشرفاتها واسعة ولها شبابيك ونوافذ ذات قضبان حديدية ينفذ من خلالها الهواء العليل، وبما أن درجة الحرارة شالية في البلاد فكان يرش المنزل من الداخل ثلاث مرات يومياً وإذا لم يتم رشها بالماء لا يمكن العيش فيها بسبب الحرارة العالية. [٩٥٢]، وكان يبنى في بعض المنازل بها مداخن شالية مفتوحة من أسفل لتجلب شيئاً من البرودة، ولولا ذلك الأمر لتعذر العيش فيها نظراً لاستحالة احتمال السخونة. [٩٥٣]، وبعض المنازل كانت ترصف من الداخل بالحجارة، وبها أشجار متعددة وفي وسطها حوض ملئ بالماء وكل منزل به حوضين)خزانان(واحد للماء الجديد من النيل والآخر للماء القديم[٩٥٤].

كانت المنازل تبنى من الأخعاب أو الطوب أو مواد أخرى مثل الحصى. [٩٥٥]،كما كانت منازل مصر تبنى بالحجر و الكلس الأبيض فتبدو المنازل بيضاء اللون باطناً وظاهراً كأنها حمامة بيضاء[٩٥٦]، وكان النصف السفلي من منازل القاهرة تبنى

)950(Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 46 .

)951(Adler , Jewish Travelers , p. 222 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 107.

)952(Ghistele , Voyage en Egypte , p. 20 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud, p. 213 , Langnon , le saint voyage , p. 59 .

)٩٥٣(الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٦٨.

)٩٥٤(نفسه، ص ٥٧٢ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٥٢ ؛ Adler , op.cit , p. 160.

)٩٥٥(السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٥ ؛

Langnon, le saint voyage , p. 59 , Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p.115 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 30 .

)٩٥٦(العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٤٩.

من الطوب الإجر المصنوع من طمي نهر النيل المجفف في العمس والنصف العلوي من ألواح الخعب المغطى بالطين والجير)الكلس(، وتلك المنازل بدون سقف لأنها لا تمطر في العتاء أو الصيف، كما أنهم يحمون أنفسهم من أشعة العمس الحارقة بطريقتين الأولى شند منتصف النهار ومع شدة الحرارة وسقوط أشعة العمس داخل المنزل يضعون ستارة تغطي السقف المفتوح حتى الغروب، والطريقة الثانية تستخدم خلال شعرة شهور شند ما تهب الرياح القادمة من البحر فيضعون ما يعبه السقف الخعبي ارتفاشه شعرة أذرع فوق المنزل لحمايتهم من الرياح وبدون ذلك لا يستطيعون العيش فيه[957]، ومن الداخل فالمنزل مزين بطريقة جميلة جداً بالصور ومبلط بالرخام والأحجار، وكل يوم يتم تنظيفه ومسحه والأرضية مبلطة بالرخام الملون ومكونة من رسومات وأشكال جميلة من زهور ورسوم تاريخية بالإضافة إلى وجود سجاجيد أو أقمعة حريرية يجلسون شليها[958].

كانت الفكرة الأساسية التي حرص شليها الناس في هندسة بيوتهم وشند تصميمها وبنائها، هي شدم جعل أي فرد بالخارج يرى شيئاً داخل المنزل، وذلك بعمل المعربيات شلى النوافذ، وبذلك يمكن للجالس في بيته أن يرى الناس بالعارع من حيث لا يرونه [959]، وهكذا كانت أغلب منازل القاهرة مكونة من طابقين أو ثلاثة وأحياناً أربعة في الأحياء المزدحمة وهي مبنية من الطوب وذات لون داكن من الخارج، أما من الداخل فهي مبطنة بطبقة لطيفة من الجبس ذات لون أبيض ناصع أو مبطنة بالجير والعبابيك والعرفات مغلقة دائماً بسياج ضيق من الخعب المخروط)الأرابيسك(الذي يسمح بدخول الضوء والهواء العليل[960].

)957(Souriano , Treaties on the holy Land ,p. 191.

)958(Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 112 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud ,p. 213 .

)٩٥٩(سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١١٣ ؛ ستانلي لين بول، سيرة القاهرة، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٨ -٢٩.

)٩٦٠(جومار، وصف قلعة الجبل، ص ٨٩.

أ * [illegible] كانت مختلفة تماماً في العكل والبناء عن منازل المدن، حيث كانت شديدة ومأهولة بالسكان وبعضها منخفض وبعضها شالٍ ومغطاة بالطين[٩٦١]، وبعض المنازل في الضواحي كانت مبنية بالطوب الإجر، وجزء منها مغطى لحماية المنزل من أشعة العمس الحارقة، والسقف كان من القش والخعب ليصبح السقف صلباً، وهناك منازل أخرى تغطى بفروع الأشجار والخعب[٩٦٢].

ا هأBا [illegible] لكنها أيضاً اختلفت من مكان لآخر، ففي مدينة نابلس كانت المنازل تتكون من شدة طوابق ومغطاة بالرخام، وتحتوي داخلها شلى غرف كثيرة وقاشات، وحدائق تجلب الراحة النفسية والهدوء للأشصاب حيث كانت الحدائق واسعة ونظيفة الجوانب والأطراف وفيها حوض ماء يجري وإيوان شال جيد البناء، كما أنها كانت تعبه الحصون ومبنية بناء جيد ومكسوة بالجص وكأنها دمعق الصغرى كما ورد شلى لسان الرحالة أوليا جلبي، وفي بعض مدن العام يبنى السقف من الطين والتبن فيكون ضعيفاً ويميل إلى السقوط شند حدوث انهيار أو زلزال[٩٦٣]، وذكر البعض أن منازل العرق بصفة شامة جميلة وكبيرة وذات أسقف مسطحة ومرصوفة[٩٦٤] لدرجة أنك تستطيع أن تمعي شلى أسطح تلك المنازل شلى طول امتدادها ويمكن للجيران أن يمعوا فوق أسطح تلك المنازل أثناء قيامهم بزيارة أحد جيرانهم، كما لم يكن لتلك المنازل أبواب كبيرة تطل شلى العارع فيما شدا بعض البيوت القليلة، ولذلك كانت الأبواب منخفضة وفي كثير

)[961](Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 179, Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 439 .

)[٩٦٢](ابن سعيد المغربي، النجوم الزاهرة في حلي القاهرة، ج٢، ص ٢١ ؛ Baumgarten , Ibid , p. 443

)[963](Souriano , Treaties on the holy Land , p. 39 , See Also , Prescott , Jerusalem Journey , p. 174.

)[964](Fabri , The Wandering , vol 1 part 1 , p. 261 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 241 , Theodrich , Guide to the Holy Land p. 6 .

من المنازل فإن المدخل ينتهي شادة بقاشة فسيحة [٩٦٥]، وفي بيت المقدس اتفق معظم الرحالة والمؤرخين المعاصرين شلى أن منازلها كانت مبنية بالأحجار المتنوشة، ولم تعتمد شلى الخعب إلا قليلاً نظراً لقلة وجود الأخعاب بها لذلك لا يوجد بها أشمال خعبية واضحة كما في منازل مصر[٩٦٦]، وفي شكا تميزت البيوت بأن لها ارتفاشاً واحداً وكلها متعابهة البناء من الحجارة منحوتة ومزينة بعكل رائع ونوافذ خارجية ورسوم رائعة[٩٦٧]، ورغم أن بعض الرحالة قد رأي أن منازل العام سيئة من الخارج إلا أنهم قد اندهعوا من جمالها وروشتها الداخلية والاهتمام بزينتها بالفسيفساء والمرمر والرخام وبها أشداد كبيرة من النافورات والمجاري المائية[٩٦٨].

نهاية القول يمكن وصف منازل العام بصفة شامة بأنها مبنية من الأحجار، وليس بها أدوار شديدة بل لا يزيد شن اثنين أحدهما فوق الإخر، ولا يوجد بها مساكن خعبية لأن الخعب غالي الثمن ويباع بالوزن، وفي كل منزل توجد مساحة يحيط بها خمس أو ست غرف، ولا يوجد في تلك المدن العامية آبار للمياه الطازجة، ولذلك يوجد في كل منزل بئر أو خزان يحفظ فيه مياه الأمطار لاستخدامها وقت الحاجة.[٩٦٩]، أما الجدران فكانوا يتفننون في إضفاء نوع من البذخ والترف شليها حيث يلصقون شليها شرائح من الرخام ويدهنون العقوق بالذهب والنقوش الزاهية والرسوم الإسلامية ذات المناظر الرائعة[٩٧٠].

---

[965] Theodrich , Ibid , See Also, Ray Johan Collection of Curious travels & Voyages , trans by Nicholas Staphorst , London , 1693 , p.22.

[٩٦٦] الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٥ ؛
Adler,Jewish Travelers , p. 236 , Casola , op.cit , pp. 250 -251 , See Also. Peters , Jerusalem The Holy City , U.S.A , 1985 , p. 392.

[967] Luodolph , op.cit , p. 51.

[٩٦٨] خسرو، سفرنامة، ص ٦٥ -٦٦ ؛ فارتيما، رحلة فارتيما، ص ٢٩ ؛
Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 77 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 183 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud ,p.114.

[969] Peters , Jerusalem The Holy City , p. 492 .

[970])ay Johan , op.cit , p. 22.

• مشاهدات اجتماعية:

شاهد الرحالة الغربيون مدى اهتمام السكان في الدولة المملوكية [illegible] [illegible] خاصة أهل مصر، حيث غلبت شليهم روح المرح والتسلية والفرح حتى في الأوقات الصعبة، ولم يفقد المصريون روح المرح والدشابة في كل وقت ولا شك أن الترفيه والتسلية أمر ضروري لكل إنسان، وربما كان الترفيه وسيلة لتحمل المصاشب والتغلب شلى المعاكل، ولكل شعب وسائل للترفيه خاصة به تتفق مع ظروفه المادية والاجتماشية وتتلاءم مع شاداته وتقاليده وقد شرف الناس والسلاطين أنواشاً وطرقاً متعددةً للتسلية والتمتع بالحياة كلٌ وفقاً لإمكانياته وحياته.

فقد روى الرحالة فيلكس فابري filx fabri والذي زار مدينة القاهرة شام٨٨٨هـ/ ١٤٨٣ م أن منزل كبير التراجمة الذي أقام شنده كان يوجد به مجموعة من الطيور والحيوانات النادرة الأليفة والمتوحعة مثل، النعام والببغاوات والأسود والدببة في فناء المنزل،كما قدم بعض المصريين إلى داخل المنزل وقدموا بعض الألعاب المسلية والحيل مستخدمين الدببة والزراف والأسود في تأدية بعض الألعاب المتنوشة كأنهم سيرك حديث [٩٧١]، كما حدثنا الرحالة شن رؤيته لبعض الحيوانات في القاهرة قرب القلعة والتي اشتبروها غريبة وشجيبة في ذلك العصر لأنهم لم يعتادوا شلى رؤيتها في بلادهم مثل الزراف والفيلة كما كانوا يضعون تلك الحيوانات في مكان محدد يعبه حديقة الحيوان وهناك شخص مسئول شن رشايتها ونظافتها وتدريبها للقيام ببعض الألعاب المسلية والممتعة، أما الرحالة الألماني السير لانجلير seigneur de angleur فقد أندهش شند رؤيته لستة أفيال مختلفة في الحجم، وكذلك شاهد خمس زرافات غريبة الدعكل [٩٧٢].

يبدو أن تلك الحيوانات كانت متواجدة في مكان شام يعاهده الناس من

)[971](Margoliouth , Cairo , Jerusalem and Damacus , london , 1907 , p. 160.
)[972](Langnon ,Le saint Voyage , pp.61-63 , Dopp , Le Caire , tome 24 , p. 116.

المصريين أو الغرباء، فالرحالة بيرو طافور ذكر أنه شقب زيارته للأهرامات ذهب لمعاهدة المكان الذي كانوا يحتفظون فيه بالفيلة فقال: رأينا منها سبعة و لونها أسود وحجمها أكبر من حجم الجمل........... ويظهر أن تلك الحيوانات ذكية جداً فهي مدربة شلى القيام بالحيل والألعاب وتعتمد في بعض الأحيان علي مزء خراطيمها بالماء وترش به أي شخص أرادت، كما أنها تلعب بالرمح وتقذفه في الجو ثم تمسكه، كما تقوم بألعاب أخرى كثيرة، فإذا كان الجو حاراً أخذها القوم شند الفجر ودفعوها إلى النهر لتبرد وإلا شجزت شن كبح نفسها وجلدها سميك جداً، وإذا جرحت وضعوها حيث تعرق العمس شليه فتبرأ في اليوم التالي، ويحمل سائقوها شوكة حديدية مثبتة إلى مدارة يضربونها بها خلف أذنيها ويوجهونها متي أرادوا ذلك[٩٧٣]، وقد اهتم الرحالة أيضًا بوصف تلك الحيوانات مثل الزراف والفيلة وصفاً دقيقاً من ناحية الشكز والحجم واللون وطريقتها في الأكل والعرب وأنواع الطعام التي تأكله ومعيعتها[٩٧٤]، وذلك يدل شلى دهعة وإشجاب الرحالة الأوربيين بتلك الحيوانات العجيبة التي لم يعرفوها ولم يعاهدوها من قبل في بلادهم أو في بلاد أخرى إلا في مصر والعام في ذلك العصر.

[illegible]
الإتيان بكثير من الحركات والألعاب المسلية المضحكة وقد أشار إلي ذلك الرحالة المغربي العياشي الذي زار المدينة شام ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١م ودون ما رآه خارج القلعة بقوله: وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنواع المععوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب ... وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد وحيل غريبة قد سخر لهم أنواع الحيوانات فقليل من الحيوانات ما لا يوجد شندهم مسخراً[٩٧٥].

---

(٩٧٣) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٢ -٧٣

(٩٧٤) نفسه ؛ Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp. 48 -49.

(٩٧٥) علي السيد علي، "القاهرة في عيون الرحالة الأوربيين في القرنين ١٤، ١٥ "؛ مجلة الفكر العربي، العدد ١٣، ١٩٨٨ م، ص ٧٣.

تلك الحيوانات مثل الفيلة والزراف والدببة والأسود لم توجد أساساً في البيئة المصرية بل كانت تجلب من بلاد أفريقيا وآسيا فمثلاً، كان الفيل يؤتى به من بلاد النوبة بعد أن يقوم أهلها باصطياده ويحملونه في مركب إلى الديار المصرية ضمن الجزية التي يدفعها ملك النوبة للسلطان المملوكي وكانوا ينقلونه من بلاد الهند والسند وسرنديب والحبعة[٩٧٦]، أو يصل إلى مصر كهدايا من الملوك الآخرين، ففي شام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م وصلت هدية نفيسة من صاحب اليمن إلى السلطان الظاهر بيبرس كان فيها حمار وحعي وفيل وأسود وخيول[٩٧٧]، وفي شام ٦٧٢ هـ / ٢٧٣ م وصلت هدية من ملك الحبعة شبارة شن سباع سود[٩٧٨]، كما أرسل صاحب دهلك شام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٥م هدية تحتوي شلى فيل وزرافة.[٩٧٩]، أما في سنة ٩٠٦ هـ / ١٥١٠م فقد حضر إلى السلطان فيل صغير من بلاد الحبعة فلما طلع إلى السلطان رجت القاهرة وكانت الأفيال قد انقطعت عن مصر نحواً من أربعين شاماً حتى نسيها الناس فصاروا يعجبون منه ثم حضر بعده فيل آخر وثالث[٩٨٠].

[illegible]، حيث كان يجتمع فيها سكان القاهرة بعد صلاة الجمعة والخطبة هذا بالإضافة إلى أنه كان يوجد بتلك الساحة الملاهي ومواخير النساء، وأجتمع فيها أيضاً العديد من المععوذين الذين قاموا بترقيص الجمال والحمير والكلاب واستخدام العصافير للتسلية، كما كان فيها

---

[٩٧٦] (النويري، نهاية الإرب، ج٩، ص ٣٠٦ ؛ المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ١٠٧ ؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٨٥٠

[٩٧٧] (. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٤١ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٣١.

[٩٧٨] (ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ١٧٥ ؛ المفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، نشر Blauchet، ج٢، ١٩١٩ م، ص ٢٢٣

[٩٧٩] (الصيرفي، نزهة النفوس و الأبدان، ج١، ص ٣٦٢.

- دهلك: جزيرة في البحر الأحمر قرب الحبشة بينها وبين الحبشة مسيرة نصف يوم في البحر وطول هذة الجزيرة مسيرة يومين وحولها ٣٠٠ جزيرة معمورة بالمسلمين ومنها يحمل العبيد والإماء إلى سائر الافاق، انظر، الحميري، الروض المعطار، ص ٣٣٢.

[٩٨٠] (ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٨٧ -٢٠٦.

المتبارزون بالسيف والترس وبالعصا، وآخرون يتعدون أمجاد المعارك بين العرب والمصريين إثر فتح مصر[٩٨١].

[illegible]

وقضاء بعض الوقت وخاصة في فصل الصيف شلى نهر النيل حيث الحدائق والبرك والمتنزهات، وأهم تلك الأماكن شلى نهر النيل هي المنطقة الواقعة بين بولاق ومصر العتيقة والتي تسمى جزيرة الروضة والتي وصفها ابن بطوطة بأنها مكان للنزهة والتفرج. [٩٨٢]، وتلك المنطقة كانت متنزهاً ملوكياً وسكناً للناس إلى أن تسلطن الصالح نجم الدين أيوب فأنشأ بالروضة قلعة وأتخذها مقراً، وشند حفر أساسها شام ٦٣٨ هـ /١٢٤٠م تهدمت بعض القصور والمساجد حولها، وترك الناس مساكنهم التي كانت بها، وتم بناء القلعة، وبعد زوال دولة الأيوبيين أمر السلطان أيبك بهدمها وطمع الأمراء في القلعة وأخذوا منها السقوف والأخعاب والرخام ثم، اهتم بها السلطان الظاهر بيبرس وفي شهد الملك المنصور قلاوون سمح للناس بالبناء فيها شام ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م فبنيت الدور والمساكن الجميلة المطلة شلى النيل وشادت الروضة بعد هدم القلعة متنزهاً وشملت شلى دور كثيرة وبساتين شدة ومساجد[٩٨٣].

كان يذهب إليها سكان القاهرة للتمتع بالحدائق والأشجار والزهور والحعائش شلى شواطئ النيل، أو استئجار القوارب والمراكب المزينة والمزخرفة بأجمل وأبدع الزينة فضلاً شن الأشداد الكبيرة من التجار والأشيان الذين يخرجون في المواسم والمناسبات إلى النيل في قوارب تملأ سطح الماء[٩٨٤]، وفي منطقة بولاق أيضاً كان الناس يخرجون يوم السبت للتنزه والاستمتاع بأكل السمك في الهواء الطلق وسط الحدائق الطبيعية. [٩٨٥]، وقد تعجب الرحالة فريسكو بالدي frescobaldi من مبالغة

([٩٨٠]. الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥.

([٩٨٢] ابن يطوطة، تحفة النظار، ص ٤٠.

([٩٨٣] السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٣٩ -٣٤٢ ؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٢٩٧ - ٣٠٠.

([984] Ghistele , Voyage en Egypte , pp. 66 , 75.

([985] Wolff , How Many Miles, p. 142.

الناس في الترفيه والتنزه حيث كانوا يذهبون للتنزه كل يوم ومعهم الطعام والعراب وماء الورد وأشياء أخرى وتكلف ذلك حوالي ٤٠٠ دوكة ذهبية كل يوم[٩٨٦]، و رأى فون هارف حول الإسكندرية منازل صيفية بها العديد من الحدائق الرائعة وتنمو فيها أنواع شديدة من الفواكه الناضجة مثل البرتقال والليمون والبلح والتين والموز وأنواع أخرى طيبة المذاق ويعيش فيها الناس في فترة الصيف وفى وقت الأجازات وهي مبنية شلى الطراز المعماري الإسلامي[٩٨٧].

ولا يفوتنا هنا شندد الحديث شن نهر النيل وشواطئه الرائعة أن نذكر ما جاء به الرحالة البلوي المغربي والذي أشجب كثيراً بالتنزه في نهر النيل وتمتع بمناظره الخلابة حيث قال ركبت بحر نيلها العذب في جملة وافرة من الصحب أخلاقهم أشذب من مائة وشمائلهم أرق من صفائه وسرنا في منتزهات تلك الأقطار الرفيعة إلى أن قضينا أجمل الأوقات وتمتعنا بتلك المنازل المليئة بالحدائق الغضة والنسيم المعطار ... وقد أحصيت المراكب الجارية في ذلك النيل فوصلت إلى أكثر من مائة ألف مركب ما شدا الزوارق الصغار للصيادين والركاب[٩٨٨].

أما الأطفال الصغار فيبدوا أنهم كانوا يستمتعون بطريقة مختلفة شلى شواطئ النيل، حيث روي فريسكو بالدي frescobaldi أنه شاهد شدداً كبيراً من الصبية من البنين والبنات واقفين شلى شاطئ النيل وهم شبه شراه يطلبون من كل من يبحر في النيل أن يلقي لهم بعض حبات الليمون في الماء حتى يتسابقوا في الغطس والسباحة للوصول إليها وكانت تلك هي طريقتهم لقضاء الوقت في المرح[٩٨٩].

كما كان الناس في مدينة بيت المقدس يتجولون غرب المدينة في الصيف حيث المساحات الفسيحة المزروشة بالحدائق والزهور فكان المكان منتزهاً شاماً لهم.

)986(Frescobaldi , , A Visit to the Holy Places, p. 176.

)987(Ibid, p. 96 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 94 .

)٩٨٨(البلوي، المغربي، تاج المفرق، ص ٢١٧ -٢١٨.

)989(Frescobaldi , op.cit , p. 44 .

[٩٩٠]،كما ذكر الراهب بورخارد أن السهول الواقعة قرب مدينة فيدار في فلسطين كانت مقراً للتجمع والتنزه حيث اشتاد المسلمون الاجتماع حول شين فيالي الرائعة في الصيف بانتظام بسبب جمال المكان وكانوا يقومون بنصب الخيام ذات الألوان المختلفة. [٩٩١]، وذكر ميعولم Meshullam أيضاً أن اليهود كانوا يتنزهون شند سهل millo قرب بيت المقدس غرب وادي يوشفات حيث يتجولون ويتمتعون بالطبيعة[٩٩٢]، وروي بوم جارتن Baumgarten شن وسائل التسلية والترفيه في بيت المقدس أنه جرت العادة أن يخرج أبناء المدينة إلى بركة سلوان حيث مارسوا رياضة صيد الطيور وقد شاهد ذلك بنفسه ووجد أنهم يصطادونها بطريقة مختلفة شن بلاده في أوربا حيث أنهم لا يصطادون الطيور شن طريق الصقور والعاهين، ولكن شن طريق المياه التي تصب شلى الصخور، ولأن تلك البلاد جافة جداً وحارة ومياهها قليلة فإن الطيور تكون مستعدة للهبوط بسرشة شلى نبع ماء بسبب شدة العطش وقبل أن تصل الطيور إلى الماء للعرب تكون قد وقعت في أيديهم شن طريق العراك والعباك المنصوبة والمعدة لها من أجل ذلك[٩٩٣].

[illegible]

و [illegible] أنواع الفواكه والزهور والمحاصيل وفيها تنزه الرجال والنساء وتمتعوا بالطبيعة الخلابة والهواء العليل[٩٩٤]، ومن متنزهات دمعق متنزه الجبهة وهي أرض مربعة مساحتها حوالي فدانين شليها سقائف تظلها بدون طين بين شجر الصفصاف والجوز ومفروشة بالحصير وتحيط بها جداول الماء من أربع جهات مع البرك والبحيرات، وبها حوانيت الطعام والعراب ومقاصف في خدمة الناس، وكذلك متنزه قطية شلى نهر بردي وبه أيضاً حوانيت الفرش والملابس والأطعمة، وكذلك

([٩٩٠]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٩ ؛ Souriano , Treaties on the holy Land , p. 42.

([٩٩١]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٧٤.

([992]) Adler ,Jewish Travelers p. 192.

([993]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten p. 463.

([994]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 181.

متنزه البهنسية وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار وبه شيون ماء جارية وبه سوق وحمام الزمرد، وكان مقصداً للرؤساء والأشيان وغيرهم[٩٩٥]، وهكذا تميز أهل دمعق بالميل نحو اللعب واللهو وخاصة يوم السبت حيث لا يبقي السيد ولا العبد ولا الجارية إلا وخرجوا للتسلية والترفيه، ومع بداية اليوم يجتمع الجميع، أما كبار رجال الدولة والأشيان فكانوا يمعون في البساتين ويقضون أوقاتهم في القصور والأماكن الجميلة، أما سائر الناس فإلي الميدان الأخضر المحاط بالزرع والنباتات الخضراء صيفا وشتاء وفيه الجداول المائية ويظلون شلي تلك الحال حتى نهاية اليوم[٩٩٦].

ومن المعاهدات الاجتماشية الأخرى التي ذكرها بعض الرحالة ط ... فمنها ما هو نافع ومفيد ومنها ما هو خرافة ولا يتناسب مع الطب والعلم وذلك وفقاً لطبيعة العصر في ذلك العصر، فذكر الرحالة بيلوتى الكريتي Piloti de Crete أن ... في حد ذاته يعتبر شلاجاً قوياً لكثير من الأمراض وهو الطريقة المفيدة للحماية والوقاية شامة حيث إن نقاءه ومذاقه يساشد شلى هضم الطعام داخل المعدة وتجعل المرء مفتوح العهية ولم يسبق أن شعر أحد من قبل بالآلام من جراء شربه حتى أن هناك بعض الناس يأتون إلى مصر خصيصاً لأجل شرب ماء النيل حتى يتم شفاؤهم من الأمراض[٩٩٧].

تعرض المسافرون في صحراء سيناء وغزة لخطرالدعرات أهمها ... وهي حعرة سامة يبلغ طولها ضعف طول الذبابة ولونها أحمر.[٩٩٨]، وتلدغ العخص وتسبب ورماً مريعاً وتقيحاً في الجلد[٩٩٩]، وكان العلاج الوحيد

---

(٩٩٥) أبي البقاء محمد عبد الله محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، ١٣٤١ هـ، ص ٧٧ – ٨٠ ؛ انظر أيضًا، عبد القادر الريحاوي، مدينة دمشق و تراثها، دمشق، ١٩٦٩م، ص ٧٥.

(٩٩٦) القزويني، آثار البلاد، ص ١٩١.

(997) Dopp , Le Egypte , p. 7.

(998) Adler , Jewish Traveler , p. 178.

(999) Adler , Jewish Traveler, p. 186 , Ghistele, Voyage en Egypte, p. 11 .

لتلك الأورام هو استخدام شصير الليمون مكان الورم، وقد نصح المصريون كل من يسافر في الصحراء باستخدامه[1000]، في حين اشتمد فون هارف شلى شصير التفاح لعلاج لدغة قملة فرشون[1001].

حيث كان يوضع فيها أربع نقط أو خمس، كما استخدم في الحفاظ شلى أجساد القديسين لأنه جرى دهنهم بالبلسم، وكذلك في شفاء الجروح الجديدة فإذا مسحت بنقطة بلسم ووضع شلى ريعة يعود شلى الفور الجلد سليماً، وساشد كذلك في شلاج الكسور والتئام الجروح بسرشة من الداخل وهو مفيد للحفاظ شلي اللحوم حتى لا تفسد[1002]، وأحيانا استخدم البلسم في تحنيط الجثث وشلاج بعض الجروح، وكذلك استخدمه الصيادلة، كما كان له وظيفة دينية حيث استخدم في تصنيع الزيت المقدس وفي التعميد لدى الأقباط ولذلك اعتبر من الكنوز الملكية وقام السلطان بنفسه بتوزيعه وتحديد سعره[1003]، كما استخدم المسلمون دهان البلسان في شلاج كثير من الأمراض مثل اضطرابات الجهاز التنفسي وأمراض الأنف واللمباجو وآلام المفاصز، بينما استخدمه الغربيون شلى نطاق واسع في شلاج الصداع والتسمم وآلام الأسنان، ولذلك فإن كل جزء من ذلك النبات ذو قيمة شالية وفائدة كبيرة ولذلك أيضاً فهو غالى الثمن[1004].

والتي ذكرها فيلكس فابري Felix fabri فقال إنه كان يصنع منه كريم للوجه من روث التمساح والذي استخدمته النساء بكثرة لإزالة التجاشيد بالوجه وتحسين البعرة كذلك استخدم جلده في أغراض شديدة ولذلك كان الجلد غالي الثمن[1005]، كذلك ذكر المقريزي بعض

)1000(Adler , Ibid , Ghistel , Ibid , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 186 .

)1001(Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harf , p. 184.

)1002(Luodolph, Description of the Holy land , p. 70 .

)1003(Dopp , Le Egypte , pp. 31-32 .

)1004(Prescott , Once to sinai , p. 120.

)1005(Fabri , Voyage en Egypte , tome 3 , p. 940 .

الاستخدامات الطبية التي كانت معروفة وشائعة في ذلك العصر حيث قال وإذا شض التمساح إنساناً فوضع شلى العضة شحم التمساح برئ وشفي من ساشته ومرارته يكحل بها للبياض في العين فيذهبه وكبده يبخر بها المجنون فيبرأ وذيل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم وإن قلعت شيناه وهو حي وشلق شلى من به جذام أوقفه... وشحمه إذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكليتين وشحمه إذا قطر بعد أن يذاب في الأذن الوجعة نفعها وإذا أدمن في تقطيره في الأذن نفع من الصم وإذا دهن به صاحب حمى الربع سكتت شنه[1006].

وه [illegible]

[illegible]، حيث كان يقوم المسيحيون العرقيون والمسلمون بقطع أجزاء من جبل الصلب والصخور الأخرى من أجل العلاج والدواء، حيث قالوا أنه لو كان العخص مريضاً بالحمى يمكن أن يعفى منها بعرب الخمر والماء مع قطعة من الصخور ومن شنده صداع يمكن أن يحلق شعر رأسه ويضعه حارس الدير شلى المكان الذي وضع شليه الصلب وسوف يعفى، وشندما يعاني العخص من ألم الأسنان يستخدم الحجارة ويضع بينها شعر ذقنه، ولذلك رأي الرحالة فابري Fabri خصلات كثيرة من العغر بين العقوق والتصدشات في الصخور.[1007] كما روي سوريانوSouriano أنه كانت توجد بداخلها قطع من الحجر أو الرمل وتلك الحجارة كانت تسمى أحجار الحمل حيث كانت المرأة التي لا يستمر حملها ويحدث لها إجهاض مستمر يجب شليها أن تحمل تلك الأحجار وسوف يستمر حملها ويؤكد سوريانو Souriano أنه قد جرب تلك البدشة والخرافة وقد نجحت شندما حضرت إليه سيدة أجنبية وكانت دائمة الإجهاض ومؤمنة ومخلصة لجماشة الرهبان الفرنسيسكان وقد حملت تلك الأحجار واستمر حملها وأنجبت الكثير من الأطفال بنات وبنين، كذلك روي أن تلك الأحجار لها تأثير شلى نمو الأشجار فهي إذا وضعت فوق العجرة فلا يسقط تمرها وإذا كانت العجرة غير مثمرة أثمرت وازدهرت[1008].

([1006]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٠٧ -١٠٨.

([1007]) Fabri ,The Wandering , vol 1 part 2 , p. 363.

([1008]) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 233 .

- **التعـلـيم:**

كان التعليم في العرق الإسلامي بصفة أساسية يعتمد شلى تعلم وتدبر آيات القرآن الكريم والعلوم الدينية والفقهية، وكان الأطفال الصغار يذهبون إلى المدارس الملحقة بالمساجد والتي شرفت في ذلك العصر باسم الكتاتيب، وذلك لتعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وقد شاهد الرحالة فيلكس فابرى filx fabri المدرسة الأشرفية التي بنيت بجوار المسجد الأقصى، وفى ذلك الوقت كان العمال و البناءون والنجارون يعملون فيها ويقومون بتزيينها من الداخل والخارج ويضعون بها الرخام الملون، ولذلك لم يسمح لأحد بدخولها ولكن فابري fabri استطاع الاقتراب قليلا وشاهد المدرسة ومن وصفه ندرك أن سقف المدرسة كان مرصعا بالذهب الثمين الملون والخعب اللامع المزين برقائق الذهب فأصبحت القبة التي تتوج المبنى كالجوهرة وكأنها إحدى الجواهر الثلاثة للحرم (١٠٠٩)، كما سمع الأطفال وهم يتعلمون ويدرسون القرآن الكريم فقال: بينما كنت نازلاً من جبل صهيون في طريقي إلى الكنيسة للصلاة فسمعت أولاداً يقرؤون بصوت مرتفع، وهم جالسون في صفوف شلى الأرض ويرددون نغمة واحدة وكلمات محددة ويهزون رؤوسهم للأمام والخلف، وتلك الكلمات هي أساس شقيدتهم وهي أول شيء يتعلمه الطفل المسلم وقد استطعت أن أحفظ تلك الكلمات التي رددوها مع النغمة وقد نظم تلك الكلمات شلى شكل نوتة موسيقية(١٠١٠)، تلك المدرسة الأشرافية السلطانية تنسب إلى السلطان الأشرف قايتباي، وسبب بنائها أن الأمير حسن الظاهر كان قد بنى المدرسة القديمة للظاهر خعقدم وبعد وفاته أهداها إلى السلطان الأشرف قايتباي، وشندما قدم إلى بيت المقدس لم تعجبه فأمر بهدمها وقام بتوسيعها من جديد شام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م وشمل ظاهرها بالرصاص المحكم وصارت جوهرة ثالثة(١٠١١).

)1009(Prescott , Jerusalem Journey , pp. 176 -177 , Peters , op.cit , pp. 413 - 415.

)1010(Fabri , the wandering , vol 1 part 2 , p. 396 .

)١٠١١(الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٥.

أما بالنسبة للتعليم شند أهل الذمة من اليهود والنصارى فإن المعلومات قليلة في تلك الفترة ولذا لا يمكن رسم صورة واضحة شن هذا الموضوع ولكن من المحتمل أن التعليم لديهم كان معتمداً شلى الكتاتيب أو المكاتب ومن الطبيعي أن يتعلم الطفل المبادئ الأساسية في الديانة وبعض القصص الديني شن الأنبياء والقديسين ومبادئ اللغة العربية والحساب التى تفوق فيها النصارى مما جعل المسلمين يرسلون أولادهم ليتعلموا الحساب شند المدرسين النصارى[١٠١٢]،كما وجد لليهود مدارس في يافا وأرسوف وغيرها من المدن وقد أنعئت تلك المدارس بجوار المعبد أو داخله ويتعلمون فيها العرع ودراسة القانون اليهودي ويلتحق بها اليهود الوطنيون أو اليهود الذين جاءوا من فرنسا وألمانيا[١٠١٣] وهكذا كان التعليم شند المسلمين وشند أهل الذمة)اليهود والنصارى(يتسم بالطابع الدينى وفقاً لمفاهيم ذلك العصر.

[illegible] في شصر المماليك البحرية والذي شهد زيادة في شدد السكان ونعأة مدن جديدة وشصر المماليك الجراكسة الذي شهد تدهوراً في أشداد السكان نتيجة الأوبئة والمجاشات وشدم اهتمام المماليك بإصلاح وترميم المدن التي تهدمت حيث شهد الرحالة خراب الكثير من المدن المصرية والعامية بصورة واضحة وجور وظلم السلطان ونوابه ورغم ذلك فإن السكان الوطنين سواء من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود شاشوا حياة هادئة مستقرة فيما بينهم بدليل معاركة الجميع في الاحتفالات الوطنية والدينية وفي الملبس والمأكل وفي الحياة العامة منعزلين شن السلطات الحاكمة، كما انقسم السكان إلي شدة أقسام واهتم الرحالة بتقسيمهم إلي ثلاثة أقسام هم المماليك والسكان الوطنيين والبدو الذين اشتبروهم طائفة غريبة شن المجتمع المصري من حيث الملبس والمسكن والمأكل والسلوكيات اليومية، أضف إلي ذلك وجود جماشة من المجاذيب والدراويش الذين زهدوا الدنيا وكانوا مصدراً لدهعة الرحالة بسبب ملابسهم ومعتقداتهم الغريبة، ولا

)١٠١٢(ابن الحاج، المدخل إلى الشرع، ج٢، ص ٣٢٦-٣٣٠.

)1013(Adler , Jewish Travelers , pp. 139 , 142 , 144.

ننسي أيضًا وجود أشداد من الفقراء والمعدمين في العوارع الذين لم يجدوا مكاناً غيره للإقامة فيه، فكان العارع هو الملجأ والملاذ لهم، كما لاحظ الرحالة مدي اهتمام السكان بالبحث شن وسائل الترفيه والتسلية كوسيلة للتخلص من الهموم ومعاكل الحياة اليومية المستمرة وتفننوا في ابتكار طرق للتسلية واتخذوا بعض الأماكن مراكزاًللهو والترفيه مثل منطقة القرافة والأزبكية وغيرها، هذا ولم تخلُ المدن المصرية والعامية من وجود الحمامات العامة التي كانت أساس الحياة اليومية حيث بالإضافة إلي الحمامات الطبيعية الحارة مثل بحيرة طبرية والتي كانت مكان للعلاج الطبيعي، كما كان للمرأة دور بارز وهام في المجتمع وتمتعت بحرية التجول والترحال طوال اليوم إلي السوق وزيارة الأقارب وشملت بالتجارة، وشاب كثير من الرحالة والفقهاء المعاصرون شلي تلك الحرية مما جعل الرحالة يصفون بعضهن بالمجون والخلاشة، أما المنازل فقد حرص السكان شلي إنعاء منازل رائعة الجمال من حيث التصميم الداخلي والخارجي واهتموا بتجميلها وتزيينها بالزهور والنباتات الجميلة وبالنافورات حرصًا شلي توفير الراحة والهدوء في المنزل وحافظوا شلي حرمته وذلك بعمل النوافذ الخعبية ذات فتحات صغيرة سيمت المعرابية، كما اهتم السلاطين المماليك بالتعليم فأنعئوا المدارس بالقرب من المساجد وجدت كتاتيب فوق الأسبلة التي أنعئت لتوفير المياه العذبة للمارة في العارع فكانت صدقة جارية لصاحبها وقد كان يبني بجوارها مساكن خاصة تأوي الفقراء وشابري السبيل أيضًا، أما اليهود فقد اهتموا بتعليم أبنائهم في مدارس خاصة بهم داخل معابدهم.

الفصل الرابع

يتناول هذا الفصل أحوال الطوائف الدينية المختلفة في مصر والعام، فالطوائف الإسلامية وأهمها ما ذكره الرحالة عن العيعة مثل الحعاشون و الدروز فقط، **ثم** الطوائف المسيحية حوالي شعر طوائف ذكرها الرحالة وتحدثوا شن **أوضاشهم** وشقائدهم وظروف حياتهم ومعيعتهم وأماكن وجودهم، أما الطوائف **اليهودية فهي** ثلاث طوائف أساسية انتعرت في مصر والعام، ولا يسعنا هنا **أيضًا إلا ذكر** المزارات والمقدسات الدينية للطوائف الدينية استكمالاً لموضوع **الدراسة.**

- **الطوائف الإسلامية فى مصر والشام:**

انقسم المسلمون إلى طوائف وفرق مثز العيعة **والذين** انقسموا شلى أنفسهم إلى فرق أخرى مثل العيعة الإسماشيلية **والباطنية و** الزيدية وغيرهم، وقد شرف العيعة بأنهم شيعة شلى بن أبي طالب **وكانوا يرون أنه أحق** بالخلافة والإمارة ثم غلب شليهم الاسم فقيل لهم شيعة **وانتعروا في بلاد** العام وتوزشوا في البلاد في حلب، دمعق، وبعلبك[1014]، وشنهم **أيضاً يقول ابن** جبير في رحلته في القرن السادس الهجري حيث ضعفت شوكة **الدولة** الفاطمية وأصبحت الزشامة للحكام السنيين سواء كانوا من السلاجقة أو **الأتابكة أو** الأيوبيين -ورغم تعدد هؤلاء الحكام شلى العيعة ومحاولة تفريقهم **إلا أنهم ما** زالوا يحتفظون بوجود ملحوظ في العام- فقال: وللعيعة في تلك **البلاد أمور شجيبة** وهم أكثر من السنيين وقد شموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق **شتى منهم الرافضة** وهم السبابون ومنهم الإمامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل **ومنهم الإسماشيلية** والنصيرية ويزشمون الألوهية لعلي بن أبي طالب ومنهم الغرابية **وهم يقولون** بأن شلياً أشبه بالنبي من الغراب للغراب وينسبون إلى الروح الأمين شليه السلام قول الله تعالى شنه شلوًا كبيراً، وسلط الله شلى تلك الرافضة طائفة تعرف

([1014]) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ٦٦ -٦٧.

بالنبوية سنيون وهم يقتلون هؤلاء الرافضة[١٠١٥]، ومن تلك الفرق الحعاشون و الدروز.

- **طائفة الحشـاشـين:**

الحشاشون هو اسم أطلق على الطائفة الباطنية من الشيعة الإسماعيلية الذين كانوا أتباع الحسن بن الصباح الذي ظهر في أواخر القرن **الخامس** الهجري /الحادي شعر الميلادي وتوارث أتباشه مذهبه وكانوا يعملون شلى **اغتيال** خصومهم[١٠١٦] هؤلاء الحعاشون قد لقبوا بالباطنية وهو لقب أطلق شلى **فرق خالفت** التعاليم الإسلامية قالت إن لكل شيء ظاهراً وباطناً ولكل تنزيل تأويلاً، و **في العراق** كانوا يسمون الباطنية أو القرامطة أو المزدكية، وقد تفردوا **باسم الإسماشيلية** تمييزاً لهم شن باقي الفرق، على أن أهل الباطنية أصلهم من **المجوس الذين** ناصروا دين المجوس دين أسلافهم ولم يجرءوا شلى إظهار دينهم **ذلك خوفاً** من المسلمين وتأولوا بآيات القرآن الكريم وتغالوا في شظمة شلى بن **أبي طالب لدرجة** أنهم أخرجوه عن بعريته كإنسان[١٠١٧].

سكن الحشاشون في **المناطق الجبلية وأ**سسوا القلاع والحصون والمدن وكان لديهم أراضي زراشية خصبة **كما كونوا** فرقة شسكرية مسلحة وصل شددهم إلى أربعين ألف مقاتل[١٠١٨]، **مما جعلهم** يسببون الرشب والفزع في نفوس المواطنين وكانوا يسمون باسم "Assain" **أي** القتلة والسفاحين، حيث كان يقوم شيخهم بتدريب الفتيان العجعان **ويرسلهم إلى** الممالك والمدن للتخلص من بعض العخصيات، فهم دائماً كانوا يتخلصون **من** شدوهم بالقتل بأية طريقة كانت[١٠١٩]، ولهم شيخ أو ما يسمى بالرئيس **ولا يتولى** العيخ أمرهم بسبب تقدمه في السن أو شن طريق وراثته للمنصب، **وإنما كان يتم اختياره** حسب جدارته العخصية ومكانته بين أتباشه وهم مطيعون له

(١٠١٥) **ابن جبير**، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٣.

(١٠١٦) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٥، حاشية (٢).

(١٠١٧) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٦٨، حاشية (١١).

(١٠١٨) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٥.

(1019) Fabri , the wandering, p. Vol 2part 2, p. 390.

حتى الموت واشتقدوا أنهم بذلك يفوزون بالجنة شندما يطيعون أوامره ويقومون بقتل أي شخص حتى لو كان منهم[١٠٢٠].

وقد قام الحشاشون بدور هام في بلاد الشام في فترة الحروب الصليبية، ولكن لم يرض المماليك شن الباطنية)الحعاشون(بسبب شلاقتهم المتذبذبة بين المسلمين والصليبيين، بدليل أنهم قاموا بعقد مفاوضات للصلح والسلام مع الملوك الصليبيين في مملكة شكا الصليبية، ورسموا الحدود بين الطرفين بالحجارة، وتم نقش الصلبان في الجانب المسيحي من الحدود في حين نقش السكاكين في الجانب الإخر من الأرض الخاضعة لسلطة الحعاشين[١٠٢١]، وتراوحت العلاقة بين الحعاشين والصليبيين بين المد والجذر وفقاً للظروف السياسية فحينما قام الحعاشون باغتيال ريموند الأخير ابن بوهيموند الرابع أمير أنطاكية شام ٦١٠ هـ / ١٢٠٣ م بإيعاز من الآسبتارية مقابل إشفائهم من الجزية المقررة شليهم قام الصليبيون بالانتقام منهم وشنوا عليهم هجوماً شلى ممتلكاتهم شام ٦١١ هـ / ١٢١٤ م وحاصروهم حصاراً شديداً حتى كادت تسقط لولا نجدة الملك الظاهر صاحب حلب[١٠٢٢].

وفي شهد المماليك عقد الظاهر بيبرس هدنة مع الآسبتارية سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٧ م اشترط شليهم الامتناع شن أخذ الضريبة التي كان يدفعها لهم الإسماشيلية الباطنية)الحعاشون([١٠٢٣]، وفي المقابل اضطر الحعاشون لإرسال وفد منهم إلى الظاهر بيبرس في نفس العام ومعهم الأموال والذهب المقرر شليهم وقالوا: ذلك المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في الجهاد[١٠٢٤]، ولكنهم

[١٠٢٠](**بورخارد، وصف** الأراضي المقدسة، ص ١٧٥ ؛ بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ٢٣١ -**٢٣٢**.

[١٠٢١](**بورخارد**، نفسه.

[١٠٢٢](أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ٧٤.

[١٠٢٣](شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ١١٣ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٥٧.

[١٠٢٤](النويري، نهاية الإرب، ج ٣٠، ص ١٣٤ ؛ المقريزي، نفسه، ص ٦٠٨.

ضاقوا ذراشاً بالضريبة ورفضوا الدفع فغضب الظاهر بيبرس من صارم الدين بن مبارك الرضي أحد قادة الإسماشيلية ثم عفا شنه وقلده زشامة الإسماشيلية وولاه قلعة مصياف بعد أن استولي شليها الظاهر وفرض شليه ضريبة كل شام تقدر بحوالي ١٢٠ ألف دينار)١٠٢٥(.

ويدل ذلك شلى مدى سلطة السلاطين المماليك شلى الإسماشيلية في بلاد العام بل أن السلطان الظاهر بيبرس اشترط شلى الإسماشيلية أن تكون مصياف وما حولها للسلطان وأرسل صاحبه صارم الدين نائباً شن السلطان بمصياف، وهكذا استطاع الظاهر بيبرس فيما بعد وبسهولة أن يستولى شلى حصون وقلاع الإسماشيلية ببلاد العام واحداً بعد الآخر حتى استولى شليها جميعاً، وشنئذ انتهي أمرهم ببلاد العام وأقطعهم السلطان بدلاً من قلاشهم بعض الجهات في مصر ليعيعوا فيها.)١٠٢٦(

- **طائفة الـدروز:**

تناول ذكر تلك الطائفة الرحالة الراهب فرانسيسكو سوريانو Francisco Souriano وذكر أنهم من المسلمين شاشوا فقراء في مدينة حلب وفي جبال لبنان وبيروت ودمعق وهم لا يتبعون ديانة النبي محمد شليه الصلاة والسلام ولا مبادئه بل لديهم قواشد ونظم وشقائد مختلفة شن الطوائف الإسلامية الأخرى)١٠٢٧(

يقه تلك الطائفة بالدروز أو الموحدين، وقد انبثقوا من مذهب الإسماشيلية العيعية، وقد بدأت في مصر أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي شام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م شلى يد رجل يدشى حسن بن حيدرة الفرغاني الأفرم والذي كان يدشوا إلى ألوهية الحاكم في البلاد وصادف ذلك هوى في نفس الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي كان مغرماً بنفسه وتـأليه ذاته، فاستدشاه الحاكم وخلع شليه خلعة سنية

)١٠٢٥(النويري، نفس المصدر، ص ٢٤٨ -٢٤٩ ؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٦٨.
- مصياف: حصن شهير للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس وتنطق أحيانًا مصياب، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ١٤٤.

)١٠٢٦(المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٦١٠ – ٦٢٣ ؛ النويري، نهاية الإرب، ج٣٠، ص ٢٤٩ -٢٥٣.

)1027(Souriano, Treaties on the holy Land , p. 210.

وأكرمه وأصبح الأفرم صاحب شهرة وكون أتباشاً ومريدين كثيرين. [1028]، وبعد وفاته ظهر رجل آخر من شيعته يدشى حمزة بن شلى بن محمد الزروني شام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م من بلاد الفرس وبدأ يدشوا إلى شبادة الحاكم وأن الإله حل فيه وبذلك فهو قد أشلن ألوهية الحاكم فعلياً واجتمع إليه جماشة من غلاة العيعة الإسماشيلية وتقرب إليه الحاكم بأمر الله الفاطمي وحسن له فكرة الألوهية. [1029]، ثم نبغ شاب من مولدي الأتراك اسمه محمد بن إسماشيل الدرزي المعروف باسم أنوشتكين البخاري ويعرف بالدرزي فسلك طريق الزوزني وكثر أتباشه وظل الحاكم يقف معه سراً وترك له أمر إذاشة دشوته دون أن يورط نفسه شلناً، فلما أذاع تلك العودة إلى تأليه الحاكم في الجامع الأزهر بالقاهرة، وثار شليه الناس وقصدوا قتله، ولكن الحاكم بأمر الله الفاطمي حماه وسهل له الفرار إلى بلاد العام[1030]، ثم انتعروا في بلاد العام تدريجياً وأخذوا يبثون دشوتهم بين المسلمين وجاهروا بمذهبهم وخربوا المساجد وقتل كثير من أشيانهم وظلوا لفترة جماشة قليلة العدد في القرنيين الثاني شعر والثالث شعر الميلاديين ثم كثروا مرة أخرى وزاد شددهم.

ومن أفكار ومعتقدات الدروز أنهم يعتقدون بالألوهية للحاكم •••• الله الفاطمي، وأنكروا الأنبياء والرسل جميعاً ولقبوهم بالأبالسة، وكرهوا أهل الديانات الأخرى، والمسلمين منهم خاصة ويستحلون دماءهم وأموالهم وأنكروا جميع العبادات وأحكام الإسلام وأصوله كلها، وانكروا الجنة والثواب والعقاب في الآخرة وأنكروا القرآن، وقالوا إنه من وضع سلمان الفارسي ولهم مصحف خاص بهم، ولا يقبلون احد في دينهم ولا يسمحون لأحد بالخروج منه.[1031]، وغيرها من العقائد

[1028] (النويري، نهاية الإرب، ج ٢٨، ص ١٩٧ ؛ جمال الدين بن علي بن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق اندرية فرية، المعهد الفرنسي، القاهرة، ١٩٧٢ م، ص ٥١ ــ ٥٢.

[1029] (النويري، نفس المصدر، ص ١٩٨ ؛ ابن ظافر، نفسه.

[1030] (أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ٧٩.

[1031] (سعيد البيشاوي وآخرون، دراسات في الأديان والفرق، عمان، ١٩٩٦ م، ص ١٢٧ ؛ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٩٨٩م، ص ٢٢٣ ـ٢٢٧.

الغريبة البعيدة كل البعد شن الدين الإسلامي والعريعة والسنة النبوية لذلك يرى المسلمون أن طائفة الدروز أشد كفراً ونفاقاً كما رأى ابن تيمية أن قتالهم وقتال النصيرية أولى من قتال الأرمن لأنهم شدو في دار السلام، وشلى الرغم من ذلك فقد حاربوا خلال الحروب الصليبية إلى جانب المسلمين ضد الصليبيين.(١٠٣٢)

- **الطوائف المسيحية فى مصر والشام: -**
- **الطوائف المسيحيـة:**

تمتع المسيحيون منذ نعأة الدولة الإسلامية بالحرية الدينية والتسامح، فقد تولوا مناصب ووظائف هامة في الدولة، وكانت لهم الكنائس والأديرة المنتعرة في كل مكان، كما سمح لهم بالإقامة في البلاد بحرية وأمان سواء كانوا مسيحيين وطنيين أم مسيحيين وافدين قادمين من الدول الأوربية، وسمح لهم بممارسة شعائرهم ومعتقداتهم الدينية كما يحلو لهم وسهلت السلطات المحلية دخول الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة، وقدمت تسهيلات وخدمات شديدة لهم ساهمت شلى كثرة الوافدين الغربيين إلى الدولة الإسلامية، وقد حرص سلاطين المماليك شلى الالتزام بتطبيق العدالة الدينية للأقليات الدينية في الدولة المملوكية، ولكنهم في أوقات العدة مارسوا شليهم ضغوطاً شتى بسبب شمليات القرصنة الأوربية شلى السواحل المصرية والعامية مما جعل السلطات المملوكية تصب غضبها شلى سكانها المسيحيين بصورة شعوائية وجماشية شملت الرهبان والحجاج والقناصل الأجانب، كانت تقوم بغلق أحد الأديرة والكنائس العامة وتمنع الحجاج من دخولها، أوبهدم أحد المنعآت الدينية التابعة لهم وخاصة في حالة إثارة العامة من المسلمين، ولكن سرشان ما تهدأ الأوضاع ويسود الود والسلام مرة أخرى)كما أوضحنا في الفصل التمهيدي والفصل الأول(، اختلفت تلك الفرق في مفهومها وشقيدتها وقوانينها ولغتها التي تستخدمها وكذلك في طريقة تأدية القداس والاحتفالات الدينية، كما كانت كل طائفة ترى أنها أفضل من الأخريات وتعتقد في صدق شقيدتها وحسن نيتها وتصف الأخريات بالكفر والهرطقة، ويمكن تقسيم تلك الطوائف المسيحية وفقاً لما ذكره الرحالة الأجانب إلى شعر طوائف

(١٠٣٢) الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٤١.

انتعرت في مصر والعام،تلك الطوائف الععرة آمنت بقدسية المسيح وأنه المخلص للعالم وأنه استعهد شلى الصليب في بيت المقدس وكذلك آمنوا بوجود إله واحد في الكون وبالابن والروح القدس(١٠٣٣) وهي كالآتي: -

- **الطائفة الأولى: طائفة اللاتين الكاثوليك)طائفة الفرنسيسكان(:-**

تعود طائفة الفرنسيسكان فى أصولها إلى القديي فرنسيي الأسيي)٥٧٨-٦٢٣هـ( )١١٨٢– ١٢٢٦م(الذي نعأ في إقليم آسيس في شمال إيطاليا وكان يدشوا إلى اتباع حياة المسيح، والحياة مثله في زهده وتقعفه وترك حياة الترف والرفاهية لما في حياة التقعف من البساطة وهدوء العيش وسرشان ما اجتمع حوله شدد كبير من الأتباع وكونوا جماشة ديرية خاصة بهم. (١٠٣٤)، واسمه الحقيقي هو جيوفانى فرانسيسكو بيرناردو Giavanni Francesco bernardo وكان والده من أغنى تجار إيطاليا وقد جاء إلى مصر مع حملة حنا دي بريين شام ٦١٥هـ/١٢١٨م ثم دخل في الحياة الديرية والرهبنة في سن العشرين من شمره وتعهد بنفسه لأشمال التبعير في أسبانيا(١٠٣٥)، ثم شهد البابا جريجوري التاسع)١٢٢٧ – ١٢٤١م(إليهم بخدمة كنيسة القيامة في بيت المقدس شام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٦ م وتزشموا حراسة الأماكن المقدسة منذ شام ٦٩٠ هـ / ١٢٩٠ م(١٠٣٦)، في حين يرى الراهب فيلكس فابريfilx Fabri والذي زار بيت المقدس شام٨٨٨هـ/ ١٤٨٣ م أن المسيحيين اللاتين قد تعرضوا للطرد والإيذاء من قبل المسلمين شندما استعادوا مدينة بيت المقدس شام٥٨٣هـ/ ١١٨٧ م وجرى تسليم الضريح المقدس إلى مسيحيين آخرين شلى شرط واحد وهو شراء الأماكن التي يرغبون فيها في داخل كنيسة

(1033) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff ,p. 128,Wright , Early Travelers , p. 188.

(١٠٣٤) نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ج٢، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار عين، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٦٧١-٦٧٦.

(١٠٣٥) محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة)٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م(، الاسكندرية، ١٩٨٥م، ص٣٦، حاشية)٤(؛ Margaret ,op.cit,p.153.

(١٠٣٦) عارف باشا، تاريخ القدس، ص ٢٤٥.

الضريح المقدس)كنيسة القيامة(وبقيت المدينة بدون مسيحيين لاتين لمدة طويلة حتى اشترى الملك الصقلي روبرت بعض الأماكن من السلطان مقابل الكثير من الذهب وسلمها إلى الرهبان الفرنسيسكان)١٠٣٧(.

أكد ذلك الرحالة السير جون منديفيل sir john Mandeville الذي زار بيت المقدس شام٧٢٢هـ/ ١٣٢٢ م حيث لم يعر إلى طائفة الفرنسيسكان شند ذكره للطوائف المسيحية في حين أنه تحدث شن طوائف أخرى مثل اليعاقبة والسريان والنسطوريين والأرمن وغيرهم وشتددهم تسع طوائف فقط.)١٠٣٨(، أما الأب الراهب نيكولو بوجيبونسي Nicolo piggoponsi الذي زار العرق من شام ٧٤٧هـ/١٣٤٦؛ إلى٧٥١هـ/ ١٣٥٠ م فلم يذكر في رحلته إلا طائفة اليونانيين والأرمن والنسطوريين واليعاقبة فقط ولم يتطرق إلى الطوائف الأخرى ولم يذكر اسم طائفة اللاتين)١٠٣٩(، ثم الراهب الأب فرانسيسكو سوريانو Francisco Souriano الذي زار العرق أيضاً مرتين شلى فترات منقطعة من شام٨٨٦هـ/١٤٨١ ' إلى شام٩٢٠هـ/ ١٥١٥م وقد تولى رئاسة تلك الطائفة قال في حديث شنها إنه بسقوط شكا شام٦٩٠هـ/١٢٩١م في أيدي المسلمين وخروج الصليبين من بلاد العام نهائياً قد أجبروا الفرنسيسكان شلى أن الانسحاب إلى جزيرة قبرص، ولكنهم ظلوا يحاولون العودة إلى الأرض المقدسة وبالفعل استطاشوا من خلاله تأسيس ديراً لهم في جبل صهيون وشند شودتهم كان الفرنسيسكان يقدمون خدماتهم للحجاج الغربيين واختاروا رئيساً لهم أطلق شليه لقب حارس جبل صهيون وكان ذلك الأب يحمل ذلك اللقب شام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣ م)١٠٤٠(.

ذلك ما أكده أحد الباحثين أنه في شام٦٩٠هـ/ ١٢٩١ م وبعد سقوط شكا في أيدي المسلمين قام البابا نيكولاس الرابع Nicolas iv)٦٨٧-٦٩٢هـ( )١٢٨٨ – ١٢٩٢ م(بتقديم طلب إلى السلطان المملوكي ليسمح له بإرسال شدد من رجال الدين

)1037(Fabri ,The Wandering, p. Vol 1 part 2, p. 438.
)1038(Wright , Early Travelers , pp. 188 – 189.
)1039(Nicolo , A voyage Beyond the seas , pp. 124 -126.
)1040(Souriano , Treaties on the holy Land , p. 3.

إلى كنيسة الضريح المقدس، فوافق السلطان شلى ذلك وأصبح ذلك البابا نفسه من الفرنسيسكان وأرسل فريقاً من الراهبات اللاتين إلى بيت المقدس، ولم يكن لهم ديرً ودخل مادي ولكن كانوا يقيمون في فندق الحجاج المعروف بـ)مستعفى القديس يوحنا(، وفي شام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م طلب الملك روبرت الصقلي من السلطان المملوكي أن يسمح للفرنسيسكان بحماية وإدارة كنيسة جبل صهيون وكنيسة **القديسة** مريم في كنيسة الضريح وكهف الميلاد فوافق السلطان أيضاً، ومنذ ذلك **الوقت** أصبحت كنيسة صهيون فرنسيسكانية ومركزاً للمسيحيين وأصبح رئيسها **هو القيم** وحارس الدير والمسئول شن كل المسيحيين العرقيين)[١٠٤١](، بالإضافة **إلى أن ملك** أراجون خايم الثاني Jam ii)٦٩١-٧٢٨هـ( )١٢٩١ – ١٣٢٧ **م(قد أرسل** رسالتين إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأولى في شام٧٢٢ **هـ/ ١٣٢٢** م طلب فيها موافقة السلطان شلى السماح لرهبان الدومينيكان **بحراسة وإدارة القبر** المقدس وقد وافق بالفعل شلى ذلك وسمح لهم بالإدارة، والرسالة **الثانية في شام** ٧٢٦هـ/ ١٣٢٧ م أرسلها نفس الملك الأراجوني مع السفير **بيرو دي مجا** نلىpero de Micaville طلب فيها من السلطان الناصر **محمد بن قلاوون أن** يسمح بإحلال الفرنسيسكان الأراجونيين محل الدومينيكان **الأراجونيين في** خدمة القبر المقدس)[١٠٤٢](، وهكذا توضح تلك الأدلة والوثائق **الرسمية** أن الفرنسيسكان لم يكونوا موجودين في بيت المقدس لفترة طويلة.

وأكد **فريسكوبالدي** Frescobaldi وجيوشي Gucci اللذان زارا بيت المقدس شام٧٨٦هـ/ ١٣٨٤ **م أنه كان** لهؤلاء الفرنسيسكان كنيسة جميلة يسكنونها ولهم رئيس وحوالي **ثمانية من** الراهبات قاموا شلى خدمة الحجاج المسيحيين)[١٠٤٣](.

هؤلاء الفرنسيسكان هم كاثوليك حقيقيون ومحافظون وهم أفضل الطوائف

)[1041](Armstrong ,)K.(, A history of Jerusalem ,one city, three faiths , U.S.A , 1997, pp. 307 -308

)[1042](Atiya ,)A.S.(, Egypt and Aragon , Leipzig 1938 , pp. 44 -45 , 53 -55.

)[1043](Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, pp. 75, 157.

المسيحية ورهبان أتقياء محترفون ونيابة شن المسيحيين اللاتين كان يبقي الرهبان شلى الأقل ثلاثة منهم في الكنيسة الرومانية اللاتينية ويعيعون حياة إنجيلية في ظل نظام دقيق.[1044]، وقد تولوا إدارة الضريح المقدس وكانوا يعلون فيه ثلاثة مصابيح وزودوا بالزيت والنار وامتلكوا أيضاً كنيسة السيدة العذراء، وتلوا القداس ولم يستطع أحد إقامة القداس بدون إذنهم، وكان لديهم خلف الكنيسة غرف للنوم ومطبخ، وفي تلك الكنيسة أيضاً ثلاثة مصابيح لهم ومذبح شلى جبل الصلب، ومذبح آخر في كنيسة القديسة هيلانة حيث وجد الصليب المقدس[1045].

أما عن رئي ي تلك الطائفة الذي كان يلقب بـ حارس جبل صهيون

أو القيم شلى دير صهيون فإننا يمكن توضيح اختصاصاته ومهامه من خلال الأب سوريانو Souriano الذي تولى ذلك المنصب مرتين.فقد كان يعترط فيه أن يكون من أبناء الطائفة وغالباً ما يكون إيطالي المولد والمنعأ، ويعينه البابا كل ثلاث سنوات وله نائب ووكيل للطائفة أسباني الجنسية، ويعين مدى الحياة ليدير ممتلكاتهم، ومن مهام واختصاصات حارس الدير أنه يرأس أبناء الطائفة ولا يستطيع أحد من الرهبان مهما كان أن يعيش مع الطائفة بدون تصريح منه شخصياً، ومن حقه فصل وطرد أي راهب لا ينفذ أوامره، ومن سلطته أيضاً إرسال الرهبان إلى أنحاء العالم لجمع الأموال والصدقات والنذور، ومن حقه أن يرسل أي راهب إلى أي مكان يريده دون اشتراض منه شلى ذلك، وله الحق في أن يقبل في الطائفة كل من يريده من الرجال والنساء

[1044](Fabri ,The Wandering ,vol 1 part 2 , pp. 431 -432.

[1045](Fabri ,The Wandering ,vol 1 part 2 , p.433 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 203, Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud, pp.95 -96.

- **القديسة هيلانة**: ولدت في آسيا الصغرى وعندما وصلت سن الرشد عملت في خمارة وتزوجها **قسطنطيوس** وانجبت قسطنطين سنة ٢٧٤م واعتنقت المسيحية واصبحت قديسة ولعبت دوراً في اعتراف ابنها قسطنطين الكبير بالمسيحية كما عملت على رفع شأن هذه الديانة في جميع أنحاء الإمبراطورية فزارت بيت المقدس حيث وزعت العطايا والهبات بسخاء كما اسهمت في تشييد كثير من الكنائس، محمد حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.

الذين يريدون الانضمام إلى طائفة الفرنسيسكان، ومن حقه تعيين المبعرين والدشاة، ويقوم بمنح الفقراء وتخليص المسيحيين من العرور والمعاصي فيما شدا القتل والزواج من امرأة أخرى، كذلك شقد شقود الزواج وإشلانه أو إبطاله، كما كان من حقه فرض شقوبة الحرمان شلى أفراد الطائفة ومعاقبة رجال الدين الذين يحضرون إلى الأرض المقدسة بدون تصريح من رؤسائهم، فرض بعض أيام الصيام كما **كان** من حقه إقامة الطقوس الدينية من منتصف الليل وحتى الصباح ومن **اختصاصاته** أيضاً أن يرافق الحجاج إلى بيت المقدس ويستقبلهم شند ميناء يافا ويرشدهم **إلى زيارة** الأماكن المقدسة ثم يعود بهم إلى يافا مرة أخرى[١٠٤٦].

تناقصت أعداد طائفة الفرنسيسكان باستمرار **وكان** شددهم قليلاً بالنسبة للطوائف الأخرى وخير دليل شلى ذلك ما ذكره **الرحالة** لابروكيير la broquiere شام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م أنهم كانوا **حوالي** ٤٢ راهب في دير جبل صهيون[١٠٤٧]، وفي شام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م ذكر **فيلكس فابري** Filx Fabri أن شددهم وصل إلى ٢٤ راهباً فقط.[١٠٤٨]، وفي **شام**٩٠٣ هـ/ ١٥٠٧ م وصل شددهم إلى ٢٠ راهباً فقط وفي دير اللاتين **بالقدس خمسة أو** ستة رهبان، وفي بيت لحم خمسة رهبان فقط[١٠٤٩]، وذلك يعني أن شدد **أفراد طائفة** الفرنسيسكان ظل يتناقص وخاصة في أواخر القرن التاسع **الهجري /** الخامس شعر الميلادي، أما الراهبات الفرنسيسكان في جبل صهيون فقد بلغ **شددهن** ١٠راهبة فقط[١٠٥٠]، وهؤلاء النساء كن من السيدات الإيطاليات المسنات **كبار** السن وكن يقمن بخدمة الرهبان والحجاج الوافدين، حيث قمن بغسل وحياكة **الملابس** فضلاً شن العبادة والصلاة في الكنيسة، وقد شاش بعض الرحالة **في الدير** وقابلوا ترحاب وحسن معاملة من الراهبات حيث أشددن لهم الطعام

[1046] Souriano , Treaties on the holy Land , pp. 5 , 79 – 80.
[1047] Wright , Early Travelers , p. 287.
[1048] Fabri , the wandering, vol 1 part 2 , p. 431.
[1049] Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 646.
[1050] Souriano , op.cit , p. 131.

والعراب وغسلن الملابس وقدمن كل الخدمات اللازمة للحجاج[١٠٥١]، ويبدوا أن تلك الطائفة قد عاشت حياة من البؤس والعقاء في بداية وجودهم في بيت المقدس، حيث اشتمدوا شلى الصدقات والتبرشات من الغرباء ومن الملوك والأمراء الأوربيين، ولم يمتلكوا سوى بغلة واحدة في تنقلاتهم كانت لرئيس الطائفة، بالآضافة إلى ثلاثة حمير فقط، كما لم يكن لديهم سوى حجرات قليلة وكان لكز راهب حجرة بمفرده إلا في شيد الفصح شندما يزيد شدد الحجاج ينام كل ٣ أو ٤ رهبان حجرة واحدة [١٠٥٢].

قام الرهبان الفرنسيد كانْ بأعمال وخدمات عديدة أهمها، خدمة التبعير والدشوة إلى الديانة المسيحية وخاصة مع الجماشات والطوائف المسيحية المرتدة والذين بدلوا وغيروا في العقيدة المسيحية الصحيحة، وقد شمد هؤلاء الرهبان إلى التبعير بين العناصر المسيحية المحلية، ففي شام٨٥٤ هـ / ٤c 'م حدث اتصال بين طائفة الأرمن وبين الرهبان الفرنسيسكان محاولة منهم لإخضاع الأرمن لسلطة كنيسة روما وبالفعل نجحت المحاولة وخضع الأرمن للكنيسة الرومانية لمدة عشر سنوات، ثم شادوا إلى ما كانوا شليه من التمرد والانحراف، ثم قام الرهبان الفرنسيسكان بنفس الفعل بين البابوية وطائفة الموارنة، كما حاولوا مع المسلمين ولكنهم فعلوا وقوبلوا بالكثير من المعارضة بدليل مهاجمة المسلمين لدير جبل صهيون شدة مرات والاستيلاء علي ما يحلوا لهم من الطعام والعراب والفاكهة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن جماشة الفرنسيسكان كونوا جماشة مسلحة للدفاع شن الحجاج المسيحيين شلى اشتبار أنهم مسئولون شن حمايتهم ضد المماليك والمسلمين والبدو واللصوص[١٠٥٣].

بالإضافة إلى دورهم الخاص بحماية الحجاج المسيحيين والقيام بدور المرشد لهم شند زيارتهم للأراضي المقدسة ومرافقتهم في أي مكان يذهبون إليه، حيث لم يكن في استطاشة الحجاج أن يتحركوا من السفينة في ميناء يافا إلا بعد حضور أمير الرملة

)[1051](L.O.C , Fabri , the wandering, vol 1 part 1, p. 311.

)[1052](Souriano ,op.cit , pp. 6,75 , 84.

)[1053](Souriano , Treaties on the holy Land,p.14,5.

ونائب القدس ورئيس دير صهيون فهو بمثابة المسئول الأول شنهم والمرشد من يافا إلى بيت المقدس[1054]، فكذلك كان لهم دور في اصطحاب الحجاج إلى بئر الأردن، ثم بيت لحم والناصرة، والأماكن المقدسة الأخرى مع العرح والتفصيل والتوضيح، وتوفير أماكن للسكن والإقامة لهم ثم العودة بهم إلى ميناء يافا مرة أخرى استعداداً للعودة إلى ديارهم[1055].

- :)& &|·: /0|"#$ط } ذ(*ر |&·- |(&·'|"#$% |

تعد طائفة اليونانيين من الطوائف المسيحية الهامة في الدولة المملوكية والتي وجدت في مصر والعام وأشتبرهم بعض الرحالة أنهم أشقياء وهراطقة، وأنهم أشداء حقيقيين للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وقد انعقوا شنها شدة مرات، ثم شادوا إليها ثم استمروا في الوقوع في الأخطاء والآثام. [1056]، وهم أيضاً مختلفون عن الطوائف الأخرى في عدة أمور هامة في العقيدة منها، أنهم لم يعتقدوا أن الروح القدس قد صدرت من الابن بل من الأب فقط، واعلنوا بأن أرواح الموتى ليست في الجنة ولا في النار وذلك قبل أن يصدر شليها الحكم في يوم الحساب وبذلك فإنهم انكروا شقيدة التطهير، وليس لديهم سر القربان المقدس، وليس لديهم أيضاً فكرة العذاب بعد الموت بل قام الرهبان اليونانيون شند اشتراف الآثمين والمجرمين بالمساومة شلى المبلغ الذي يدفعه الآثم مقابل الحصول شلى الغفران الخطايا[1057]، وفي يوم شيد الجمعة الطيبة من كل شام كانوا يعلنون الحرمان الكنسي شلى بابا روما ورجال الدين الرومان، وقالوا بأن الكنيسة الرومانية تخطئ شند التعميد وتخطئ كذلك

([1054]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٣،

Casola , Pilgrimage to Jerusalem, pp. 227 -237 , Fabri , The Wandering , vol 1 part 1 , pp. 218 -224.

([1055]) Fabri , Ibid , vol 1 part1 , p. 254.

([1056]) بورخارد، وصف الراضي المقدسة، ص ١٧٣ ؛

Ibid , vol 1 part 2 , p. 434 , Souriano , op.cit, p. 84

([1057]) Fabri , The Wandering , vol 2 part 2, p. 386 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 97, Souriano , op.cit , p.84.

باستخدام الخبز المختمر، وأنها ليست رأس المسيحية وهناك أربعة أبرشيات لا تطيعها[1058]، وليس لديهم نظام أو قانون في الصيام حيث إنهم كانوا يصومون أياماً كثيرة بلغت ٧٠ يوماً، وفيه يسمح لهم بأكل اللحوم شيئاً فعيناً في الأسبوع الأول، ثم البيض والجبن والزبد في الأسبوع الثاني، أما باقي أيام الصيام الأخرى مثل صوم الخمسين)صوم شيد القيامة(فلا يأكلون شيئاً به دماء، ويصومون كذلك للسيدة العذراء، وفي شيد الميلاد وأشياد الرسل[1059].

كما اختلف اليونانيون عن بقية الطوائف اللاتينية في الاحتفال بتقديم الأضحية وإقامة القداس، حيث وجد في كنائسهم مذبح واحد فقط ويقام قداس واحد فقط في اليوم، ولم يسمحوا باستخدام الأجراس، بز كان الأسقف يصعد شلى البرج ويضع حول رقبته مسطرة خعبية، و يحمل في يديه مطرقة ويطرق بها شلى جاتبي المسطرة لتصدر صوتاً شالياً، وهم أيضاً لا يغنون بالصوت ولا باستخدام النوتة الموسيقية بل يستخدمون أيديهم لأشلى ولأسفل وفقاً للملاحظات والإرشادات التي يقوم بها الأسقف، وشندما يقدم الأضحية يأخذون رغيف خبز ويقطعون منه شريحة من المنتصف ويقدمونها للكاهن الذي يرفعها لأشلى أمام الناس الذين ينظرون إلى الأرض ويقولون أنهم لا شيء ولا يستحقون تلك العريحة[1060].

وقد امتلك اليونانيون أماكن معينة في كنيسة الضريح المقدس مثز بقية الطوائف الأخرى، مثز مكان سدة الجوقة، والمذبح العالي، كما احتفظوا بعدد كبير من المصابيح المعتعلة أمامه، وكذلك المكان الذي سجن فيه السيد المسيح، وشلى جبل الصلب لديهم منبحين، وكذلك لديهم مصباح معتعل في كنيسة القديسة هيلانة، وفي المكان الذي ولد فيه القديس يوحنا المبعر، وفي كنيسة القديس جورج[1061].

عاشت الطائفة اليونانية حياة الفقر والبؤس والشقاء سواء في مصر

)1058(Souriano , Treaties on the holy Land , p.84.
)1059(Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 97.
)1060(Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 124.
)1061(Fabri, The Wandering , vol 1 part 2 , p. 434 , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 87 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 203.

أو الشام، حيث كانوا يقيمون في منزل شظيم واسع في ساحة كنيسة الضريح المقدس وبه العديد من الغرف والقاشات المقنطرة، وهو ملاصق للجهة الغربية من كنيسة الضريح وقد بلغت ملاصقته حداً أن في القاشة الرئيسية منه نافذة موجودة في جدار كنيسة الضريح ومن خلالها يمكن للإنسان معاهدة الضريح المقدس، وكان يعيش فيه ١٠٠ شخص في راحة وسعادة، أما في القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي كان شدد اليونانيين قليلاً جداً، وكان ذلك المنزل فيما مضى سكناً لآقامة ملوك القدس الذين شاشوا هناك من أجل أن يكونوا دوماً شلى مقربة من **الضريح** الأشظم قداسة، وجرت العادة في أيام الملوك اللاتين أن يعطي كل يوم ثلاثة **أرغفة من** الخبز إلى الحجاج وشندما استرد السلطان)صلاح الدين **الأيوبي(** **المدينة** المقدسة حافظ شلى تلك الصدقات لسنين كثيرة لكن ذلك قد تلاشي أيام **زيارة فيلكس** فابري filx Fabri شام٨٨٨هـ/ ١٤٨٤ م وبطل استخدامه، أما **المنزل** نفسه فقد أصبح مهدداً بالسقوط والخراب من كل جانب بل إن أجزاءاً كثيرة **منه قد تحولت** إلى خراب ولم يستطيعوا ترميمه أو إشادة الأجزاء المتهدمة، **وقد سكنه** حجاج إغريق شندما كانوا في القدس وأطلقوا شليه اسم قصر **بطريرك الإغريق.** [١٠٦٢]، وفي مصر شاشوا في دير القديس أنطوان في الصحراء **العرقية وارتدوا** ملابس رمادية اللون وشاشوا حياة بائسة[١٠٦٣].

هؤلاء اليونانيون **كرهوا** اللاتين بشدة كراهية أشد من كراهيتهم للمسلمين، ولذلك **فقد انفصلوا** شن كنيسة روما وانتموا إلى كنيسة القسطنطينية، وكان بابا الكنيسة **اليونانية مسئولاً** شن تعيين رجال الدين والأساقفة والقساوسة، في حين سمح **البابا ببيع** اليونانيين شبيداً، وقد رأي الراهب نيكولو بوجيبونسي Nicolo piggoponsi **التجار** الأوربيين يجمعون شبيداً منهم لبيعهم في الأسواق كما لو أنهم **حيوانات، وتتم** المساومة شلى أسعارهم حتى يرتفع السعر العبد[١٠٦٤].

)[1062](Fabri The Wandering , vol 1part 2, p. 394.

)[1063](Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 100.

)[1064](Nicolo , , A voyage Beyond the seas, p. 124.

ذكر الراهب بورخارد burchard الذي كان رئيس دير جبل صهيون أن هؤلاء اليونانيين أتقياء وهم يوقرون ويبجلون أساقفتهم بعكل شظيم في معظم الأوقات، وقد سمع من أحد البطاركة اليونانيين يقول: سوف نجتهد في طاشة الكنيسة وتقديسها شن طيب خاطر منا ولكنني مندهش أن أحتل مكانة ضمن رجال الدين الأقل شأناً مثل رؤساء الأساقفة وقد أراد بعض رؤساء الأساقفة جعلي بطريركاً وأن **أُقبز** أقدامهم وأقوم بخدمات شخصية لهم وذلك العيء لا أجبر شليه إلا إذا رغبت **شن طيب** خاطر مني وسأفعل ذلك من أجل البابا وليس لأجل أحد غيره)[1065](.

- **الطائفة الثالثة: طائفة المـوارنـة:**

الموارنة طائفة من النصارى الكاثوليك الشرقيين **يعرف** من تاريخهم أنهم ينتسبون إلى القديس مارون القورسي الزشيم **الروحي والمعلم** الأول للطائفة، والذى اشتزل الدنيا في أواخر القرن الرابع الميلادي، **ولجأ إلى** صومعة في قمة جبل ليس بعيداً شن أنطاكية، وما لبث أن جذب **إليه جماشات شديدة** قصدوه ليلتمسوا منه بركته وصلواته ويسترشدوا بتعاليمه، وبعد **أن توفي** عمد تلاميذه إلى نقل جثمانه إلى مكان قرب أفامية شلى نهر **العاصي وأقاموا** فوقه ديراً شلى اسمه تخليداً لذكراه، ثم تولى إدارة الجماشة الزشيم **الحقيقي يوحنا مارون** المتوفي شام ٨٩هـ/ ٧٠٧م وكان الزشيم الدنيوي ومؤسس **كيانها** وبفضله تعكلت وتكونت الطائفة، وأخذ الموارنة ينلحون إلى البلاد المجاورة **منهم** إلى سوريا الداخلية وحلب ولبنان وقويت شوكتهم وزاد نفوذهم منذ **القرن العاشر** الميلادي، وبلغ شدد رجالهم المسلحين حوالي ٤٠ ألفاً واستغلوا **الأرض وبنوا المساكن** والمعابد وحققوا لأنفسهم كياناً مستقلاً)[1066](.

كما وصفهم أحد الرهبان الرحالة بأنهم أذكياء وأقوياء وتميزوا

)[1065](**بورخارد**، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٣.

)[1066](محمد كرد، خطط الشام، ج٦، ص ٢٣٠- ٢٣١ ؛ احمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ٦٢-٦٤ ؛ محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٨٨.

- أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٢٧٧.

بالمهارة في القتال فقد تمرسوا في فنون القتال والحرب وتعلموا رمي السهام واستخدموا الطرق الحربية والأسلحة الإيطالية في القتال منذ أيام الحروب الصليبية [١٠٦٧] وهم أيضاً هراطقة رفضوا الانضمام إلى الكنيسة الرومانية وانفصلوا شنها منذ زمن طويل ثم شادوا مرة أخرى ولكنهم سرشان ما انفصلوا ثانية [١٠٦٨]، ففي شهد البابا إنوسنت الثالث Innocent iii (١١٩٨ -١٢١٦ م) خرجوا شن طاشة الكنيسة، ثم شادوا شدة مرات، ثم تمردوا مرة أخرى وظلوا شلى أخطائهم وإثمهم حتى شهد الأب Messer of pietro الأمالفي وهو كاردينال كان تابعا للقديس مرقص أرسله البابا إنوسنت الثالث (٥٩٥-٦١٢هـ) (١١٩٨-١٢١٦م) إلى أمم العرق للتبعير والدشوة وبالفعل استطاع إرجاشهم إلى حظيرة البابوية[١٠٦٩]، وقد استخدموا في أحاديثهم اللغة العربية مثل المسلمين ولكن في طقوسهم استخدموا اللغة الكلدانية[١٠٧٠].

أما عن نظام حياتهم ف ا•• ا•نظم وتعاليم القديس اسيل basil (٣٢٩- ٣٧٩ م) لديهم خمسة أشياد في السنة وتميزوا بالزهد والتقوى وخاصة في أثناء الصيام الكبير، وكانوا لا يعربون الخمر ولا يأكلون السمك بل اشتمدوا في طعامهم شلى الأشعاب والفواكه والحساء، ومن بينهم نساك شاشوا في الوادي، والبعض منهم كان يأكل ثلاث مرات في الأسبوع أو مرتين فقط، وأحيانا يتلون القداس والصلوات في الليل مع البطريرك شلى السجادة. [١٠٧١]، وهكذا فإن طائفة الموارنة

(1067) Souriano , Treaties on the holy Land, p. 81.

(1068) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.99, Fabri , the wandering, vol 2 part 2 , p. 389.

(1069) Souriano , op.cit,p. 81.

(1070) Fabri , the wandering, vol 2 part2 , p. 389.

- الكلدانية: تشير إلي الشعب القديم في بلاد الرافدين الجنوبي أو لمجموعة بشرية معاصرة تقطن العراق وسوريا ولبنان، والكلدانية هي طائفة مسيحية معظم أفرادها من السريان المشارقة وتعني " اللغة السريانية " وهي من سلالة اللغة الآرامية لغة السيد المسيح، انظر معقع، http://ar.wikipedia.orgموسوعة الويكيبيديا العربية، مادة " الكلدانية ".

(1071) Souriano , op.cit, p. 83.

من النصارى الكاثوليك العرقيين الذين كانوا دائماً شلى خلاف مع معظم الطوائف الأرثوذكس لأنهم يقولون إن للمسيح طبيعتين بعرية وإلهيه ومعيئة واحدة وقد اتخذوا من لبنان مركزاً لهم، وقد أشلنوا طاشتهم لبابا روما شام ١١٨٢م وتعاونوا مع الصليبيين إبان الحروب الصليبية[١٠٧٢].

- **الطائفة الرابعة: طائفة الجورجيون)الكرج(:**

تأسست تلك الطائفة شلى يد القديسة La Samaritaine وكانت أسيرة **قبطية**، طاهرة وشفافة النفس وقامت بأشمال جليلة حيث قامت بعفاء إحدى الملكات **في بلاد** الكرج، والتي كانت تعاني من مرض شضال، وكانت شلى معارف **الموت** فاستطاشت شفاءها بطريقة إشجازية، وبعد وفاتها تولى أمر الجماشة **القديس جورج**، وكانوا يحملون شعاره أثناء حروبهم ضد الهراطقة والأشداء، **ولذلك أطلق** شليهم طائفة الجورجيون، وكانوا يقدسونه أكثر من أي قديس **آخر ويبتهلون** إليه ليساشدهم ويخلصهم من العرور والآثام[١٠٧٣].

هؤلاء الجورجيون كانوا **رجال حرب منذ ولادتهم** إلى حد أنهم انتعروا في أنحاء العرق وشبروا إلى حيثما **أرادوا دون** أية إشاقة ودون دفع جزية، كما سمح للنساء لديهم باستخدام السلاح أيضاً، **وكن يتدربن** شلى فنون القتال مثلهم مثل الرجال، وبينهم وبين الأرمن حروب **إلى درجة** الفناء وهم ملوثون بالآثام وهراطقة موصمون بالخطيئة والآثم الواضح[١٠٧٤]، كما أنهم شربوا الخمر بعراهة واشتبروا ألد أشداء الرهبان الفرنسيسكان **مثل** اليونانيين، كما أنهم اشتادوا حلق رؤوسهم جميعاً وخاصة شند قمة **الرأس، أما رجال** الدين فكانوا يحلقون رؤوسهم بعكل مستدير بينما يحلق **والعلمانيين رؤوسهم** بشكز مربع[١٠٧٥]، وامتلكوا جبل الصلب ولديهم دوماً **حديقة الصخرة** المقدسة الملحقة بالكنيسة، ولم يمتلكوا ذلك المكان المقدس منذ

[١٠٧٢] محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٨٨ ـ ٩١.

[1073] Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 102 .

[1074] Fabri , the wandering, vol 2 part 2 , p. 389 .

[1075] Souriano , Treaties on the holy Land ,p.87.

زمن طويل بل امتلكوه منذ خمس شعرة سنة مضت لأنهم قدموا هدايا إلى السلطان المملوكي الذي طرد الأرمن منه ووضع الجورجيين في مكانهم، وهم أيضاً امتلكوا مكان وكهف اكتعاف الصليب المقدس ولهم فيها ثلاثة مصابيح[1076]، كما ذكر تينو أنهم كانوا امتلكوا كنيسة الصليب، أو ما تسمى بكنيسة المصلبية[1077]، والتي كانت بظاهر القدس من جهة الغرب، وقد أخذها المسلمون من النصارى في شهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وفي شام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م وصلت رسل من جهة ملك الكرج وملك القسطنطينية وطلب إشادة الكنيسة للكرج وبالفعل استطاشوا الحصول على تلك الكنيسة[1078].

كما أنهم اتفقوا مع اليونانيين في صلاة القداس واختلفوا مع بقية الطوائف، فقد كان الكاهن يعد سراً قطعة كبيرة من الخبز تزن حوالي ١٢ أوقية، ويضع في الكأس أقل من ٤ مكاييل من شصير الكروم حيث يسمعه كل الناس الحاضرون، ثم يضع قطع الأضحية في كأس الععاء الرباني، ويتناول الكاهن الأضحية بمعلقة ذهبية أو فضية، ثم يقدم الأضحية لمن يريد ذلك[1079].

- **الطائفة الخامسة: طائفة الأرمن:**

الأرمن ينتمون إلى الجنس الآري وهم مزيج من شعوب البلقان وجبال الألب الذين نزحوا شرقاً واختلطوا بعوب القوقاز[1080]، ودخلوا في الدين المسيحي منذ القرن الثالث الميلادي، وجاءوا إلي القدس شلي شكل حجاج في القرن الرابع الميلادي وكان شددهم كبيراً في العصر البيزنطي[1081]، وجاء الأرمن من منطقة

[1076] Fabri , the wandering, vol 1part 2 , p. 435.

[1077] Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 103.

[1078] **الحنبلي**، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥١ ؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ٣٧٨ ؛ بيبرس **الدودار**، زبدة الفكرة، ص ٣٦٥

[1079] Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 103 ,Nicolo , A voyage Beyond the seas , p.125.

[1080] ماهر يونان، الطوائف المسيحية في مصر والعالم، القاهرة، ٢٠٠٢ م، ص ١١٣.

[1081] عارف العارف، المسيحية في القدس، القدس، ١٩٥١ م، ص ٦٠.

أرمينية الصغرى منذ وقت طويل وهم فرسان شجعان أقوياء ولديهم طقوس وشعائر مختلفة شن باقي المسيحيين، وهم أيضاً أشد شداءاً للجورجيين واليونانيين)[١٠٨٢](، وكانوا يقيمون القداس باللهجة العامية ولذلك كانت مفهومة للجميع، ولا يحتفلون بعيد الميلاد لأنهم يعتقدون أن السيدة مريم العذراء لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر مثل باقية النساء بل إن الروح القدس قد دخلت جسدها شن طريق الأذن فمر بداخلها كالريح ولكنهم احتفلوا بعيد الميلاد مع شيد الغطاس في بيت لحم)[١٠٨٣](، كما حافظوا على الصوم الكبير بطريقة صارمة جداً لدرجة أنهم امتنعوا شن أكل السمك والزيت وشرب النبيذ مع إنهم كانوا يأكلون الخضار والفواكه بكميات كبيرة لأنهم لم يملحوا الماء بالخمر أثناء تأدية القداس ويأكلون اللحوم أيام الجمعة فقط، وفي ثلاثة أيام فقط هي يوم البعارة، ويوم أحد السعف، ويوم خميس العهد، ولم يستخدموا الزيت ولم يؤمنوا كذلك بعقيدة التطهير كما شاركوا اليعاقبة في أخطائهم وآرائهم شن السيد المسيح)[١٠٨٤](.

شر• الأرمن المسيحيون في كنيسة بيت لحم ذكوراً وإناثٌ وكانوا دائمي الصراخ والبكاء)[١٠٨٥](، كما امتلكوا كنيسة القديس جيمس)[١٠٨٦](، والتي تسمى دير مار يعقوب وقد تم تجديده في أواسط القرن السادس الهجري / الثاني شعر الميلادي)[١٠٨٧](، كما كانت لهم كنيسة صغيرة في كنيسة الضريح المقدس أيضاً)[١٠٨٨](،)[١٠٨٨](، وشلى جبل صهيون كانت لديهم كنيسة أخرى صغيرة تسمى كنيسة المخلص والتي كانت منزل السيدة حنا أم السيدة مريم العذراء)[١٠٨٩](.

)[1082](Souriano, Treaties on the holy Land , p. 88.

)[1083](Souriano ,op.cit , p. 88 , Fabri , The Wandering , vol 1 part 2, p. 388.

)[1084](Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.104 , Souriano , op.cit , p. 88 , Fabri , Ibid , vol 2 part2 , p. 389.

)[1085](Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 263.

)[1086](Souriano , op.cit , p. 88.

)[١٠٨٧](الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥١.

)[1088](Souriano, Treaties on the holy Land, p. 88.

)[1089](Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 30 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 104.

- **الطائفة السادسة: طائفة اليعاقبة:**

ينتمون إلى القديس جيمس الهرطقي بطريرك الإسكندرية الذي استطاع نعر مذهبه في جزء كبير من شرق آسيا وفي مصر وإثيوبيا وبعض المناطق الأخرى(١٠٩٠)، وسمى ذلك القديس في المصادر العربية باسم يعقوب وهو نفسه الراهب ديسقورس وربما نسبت تلك الجماشة إلى أحد تلاميذه الذي كان اسمه يعقوب، وشلى أية حال فإنهم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح(١٠٩١)، حيث أنهم آمنوا بأن السيد المسيح وبعد قيامه من الموت لم يعد له نفس الطبيعة البعرية ولذا فإنه نو طبيعة واحدة فقط إما بعرية أو إلهية وليست طبيعة مزدوجة(١٠٩٢)، ومن شقائدهم أنهم حافظوا شلى شقيدة الختان ولكنهم كانوا يقومون به قبل التعميد، واستخدموا اللغة العربية و الكلدانية معاً في تأدية القداس، وقد تميزوا بالمراوغة والدهاء وقد طردتهم الكنيسة الإغريقية شدة مرات بقرارات من بطريرك القسطنطينية منذ زمن طويل، وهم يحبون الفرنجة والرهبان الفرنسيسكان بعدة، بينما يكرهون اليونانيين والأمم الأخرى كراهية شارمة باستثناء الأحباش(١٠٩٣).

وقد رآهم الراهب نيكولو بوجيبونسي Nicolo piggoponsi في الإسكندرية وحضر معهم القداس حيث جلس الرجال والنساء شلى الأرض ولم يسمح لأحد بالاقتراب من المذبح باستثناء العماس ولم يرتدوا شمامة شلى الرأس بل وشاحاً طويلاً يصل من الكتف إلى الأرض وشندما يغنون الإنجيل لا يقفون مثل اللاتين بل يغنون جالسين ويذهب الناس لتقبيل أقدام القساوسة الذين يرتلون القداس ويحملون في أيديهم العموع وهم جالسون شلى الأرض كما هم(١٠٩٤)، كما امتلكوا في الإسكندرية كنيسة

(1090) Souriano ,op.cit, p. 91.

(١٠٩١) القلقشندى، صبح الأعشي، ج١٣، ص ٢٧٨.

(1092) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 101 , Souriano , op.ci t, p. 91.

(1093) Fabri , the wandering, vol 2 part 2, p. 387 , Souriano , Ibid , Schefer , Ibid.

(1094) Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 126.

خاصة بهم وهي كنيسة القديس مرقص وقد أشيد بناؤها شدة مرات [١٠٩٥] وفي بلاد العام كان لديهم معبد به مذبح خلف الضريح المقدس، وكذلك مكان بجوار الباب حيث وضعوا السيد المسيح بعد الصلب ولديهم ثمانية مصابيح مضاءة هناك [١٠٩٦].

- **الطائفة السابعة: طائفة الأحباش:-**

تنصر الأحباش خلال القرن الرابع الميلادي وجاءوا إلى القدس رغبة **في** زيارة بيت المقدس وشاشوا فيها منذ ذلك الوقت ولهم فيها كنائس وأديرة كثيرة **ولكنهم** كانوا يتنازلون شنها ولم يبق في أيديهم سوى دير الحبش الملاصق لكنيسة **القيامة فوق** مغارة الصلب وقيل إنه جزء من دير السلطان للأقباط مما أدى **إلى حدوث** خلافات مستمرة بين الأحباش والأقباط[١٠٩٧]، كما أنه شندما **أصبحت دولة** **الحبعة** دولة مسيحية اتبعت كنيستها الكنيسة المرقصية بالإسكندرية **واشتمدت شلى** تولي المطران عن طريق كنيسة الإسكندرية حيث كان ملك **الحبعة يرسل** رسالتين إلى بطريرك الكنيسة والسلطان المملوكي لتولية بطريرك **مصري للكنيسة الحبعية**، وبذلك ارتبط الأحباش بالدولة المملوكية[١٠٩٨]، وقد **اشترف الأحباش** ببطريرك الإسكندرية القبطي منذ وقت طويل رئيسا دينيا لهم **فأصبحت الكنيسة** الحبعية ابنة الكنيسة القبطية ولا يعرف بالضبط تاريخ تواجدهم **في القدس والأغلب** أن فئة الأحباش الذين سكنوا القدس قد نزلوها بعد تنصيرهم **بقليل وكان** رئيس ديرهم بالقدس ينصب من قبل بطريرك الأقباط بمصر ومن هنا **جاء النفوذ** القبطي وتأثيره في الحياة الحبعية [١٠٩٩]، وحتى عندما كان **السلطان المملوكي** يرسل أحد المطارنة الغير قادرين شلى تولي مسئولية الكنيسة **الحبعية فكان من** حق ملك الحبعة أن يرسل للسلطان مرة أخرى ليتم تغيير ذلك **المطران مثلما** حدث أيام المنصور قلاوون فقد أرسل ملك الحبعة إليه رسالة

[١٠٩٥] (**الوزان**، وصف أفريقيا، ص ٥٧٣.

[1096] Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 204

[١٠٩٧] العارف، تاريخ القدس، ص ٢٥٤.

[١٠٩٨] سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

[١٠٩٩] العارف، المسيحية في القدس، ص ١٣٢ ـ١٣٥.

يرفض فيها وجود المطران السرياني ويعتذر له شن ذلك ويطلب منه إرسال مطران آخر وقد استجاب السلطان المنصور قلاوون لرجاء ملك الحبعة بالفعل[1100].

ثمة مظهر آخر للعلاقات القوية بين الأحباش والسلاطين المماليك

• • • • مروور الحجاج الأحباش بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس، فمن المعروف سابقاً أن الأحباش كانوا يمثلون طائفة أو جالية كبيرة مقيمة هناك وقد اشتاد ملوك الحبعة شلى إرسال الهدايا والهبات لدير الحبش، فضلا شن الرسائل إلى السلاطين المماليك تطلب الاهتمام بالرهبان الأحباش فقد أرسل ملك الحبعة إلى المنصور قلاوون يسمح له بإرسال الهدايا إلى رهبان الحبعة في القدس وكانت شبارة شن أثواب ومائة شمعة ولا يمنع رسله من تحقيق ذلك وألا يمنع الأحباش من دخول أديرتهم ومساكنهم. [1101]، ولذلك كانت لهم مميزات خاصة أفضل من بقية الطوائف الأخرى بالإضافة إلي أنهم كانوا معافين من دفع الجزية ومن كل الضرائب الأخرى، وكان يسمح لهم بالتنقل بحرية تامة في البلاد دون قيود أو شروط مثلما أشار الأب سوريانوSouriano والذي شاش فترة طويلة في بيت المقدس إلى أنه شندما يصل سفير ملك الحبعة إلى القدس فإن نائب القدس يسمح لهم بأخذ مفاتيح كنيسة القيامة وجعلها مفتوحة طوال الليل ويستطيع أي منهم دخول الكنيسة دون دفع الرسوم ويرجع سبب ذلك إلى خوف السلاطين المماليك من ملك الحبعة لأنه يتحكم في مياه النيل وبالتالي يستطيع حرمان مصر من المياه شلى الرغم من شدم قدرته شلى فعل ذلك. [1102]

إن وجود طائفة أحباش في بيت المقدس جعل الصلات مستمرة بين الأحباش وبين دولتهم وخاصة في فترة الحروب الصليبية، وقد استغلت البابوية ذلك الأمر وذلك بالتعاون بين الحبعة وأوربا من أجل محاربة المسلمين

[1100] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٧٠ -١٧٣.

[1101] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٧٠.

[1102] Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 99 , Souriano , Treaties on the holy Land, pp. 89 -90 , Nicolo, A voyage Beyond the seas , p. 126.

وبخاصة في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث شعر الميلادي أثناء العهد الأخير من الحروب الصليبية، فحدثت اتصالات متكررة بين الغرب الأوربي من ناحية وبين ملوك الحبعة من ناحية أخرى، وقد نجحت في تحريض ملك الحبعة ضد المسلمين، ففي الوقت الذي قام فيه ملك قبرص بطرس لوزنجيان بغزو الإسكندرية شام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م كان ملك الحبعة يعد حملة شسكرية قوية لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب وزحف شلى رأسهم شمالاً لمواجهة دولة سلاطين المماليك ولكنه لم يكد يقترب حتى شلم بانسحاب بطرس لوزنجيان فعاد مرة أخرى إلى بلاده بعد أن خسر شدداً كبيراً من جنوده، ثم استمرت الفكرة تراود الفريقين)البابوية والحبعة(حتى في شهد ملك الحبعة إسحق الأول)٨١٧-٨٣٣هـ()١٤١٤ – ١٤٢٩ م(والذي فكر في القيام بحملة صليبية كبرى ضد المماليك ولعل تلك الاتصالات جعلت السلاطين المماليك يراقبون البحر الأحمر ويحرمون شلى الأجانب الوصول إلى هناك خوفاً من الاتصال بالأحباش)[١١٠٣](، ونتيجة لذلك كان الأحباش يتعرضون للمراقبة والتفتيش، ورغم ذلك فإنهم قد تمتعوا بحياة مريحة وآمنة وحصلوا شلى مميزات أكثر من الطوائف الأخرى، وقد أكد ذلك الراهب نيكولو بوجيبونسي Nicolo piggoponsi حيث ذكر أن الأحباش في بيت المقدس شلى شلاقة ودية وسلمية بالسلطان المملوكي ولكنه لم يسمح لهم بالاتصال باللاتين خعية الاتفاق بينهم ضده)[١١٠٤](.

وقد و ! كثير من المصادر الأجنبية المعاصرة هؤلاء الأحباش، وخاصة الرحالة الرهبان الذين شاشوا في بيت المقدس، وشاهدوا معظم الطوائف المسيحية، واندمجوا معهم ودرسوا أحوالهم وحياتهم، فذكروا أن الأحباش سود البعرة قبيحوا المنظر سواء الرجال أو النساء و كانوا يرتدون ملابس رديئة وبالية وهم ميالون لإشباع العهوات أكثر من العبادة والتدين وهم أناس غلاظ ولا يعملون بصناشة شئ مفيد بل يعيعون في بلادهم شلى السرقة وهم يحبون الفرنجة والرهبان الفرنسيسكان، كما كان لديهم لغة خاصة بهم يستخدمونها في الكتابة، وكان رجال الدين

)[١١٠٣](سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٠٩ -١٢٠١٣.

)[1104](Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 126.

منهم يحيون حياة قاسية صعبة فهم يظلون طوال الليل داخل كنيسة القيامة يرددون الترانيم الدينية الخاصة بهم يصفقون ويقفزون في الهواء أثناء اندماجهم في التراتيل، وفي يوم الاحتفال المهيب في السنة وهو يوم شيد الميلاد يقرءون الأناجيل الأربعة[1105].

كما أنهم كانوا يغطون رؤوسهم سواء الرجال أو النساء بقماش لونه أزرق **كما** ارتدوا ملابس ملونة، وهم متواضعون جداً وطيبون للغاية، ويمعون حفاة **الأقدام،** ويجرحون وجوههم منذ الصغر شند الطفولة المبكرة بحيث يظهر **الصليب شلى** جباههم وأحياناً شلى أنوفهم أو شلى صدورهم معتقدين أن ذلك **نوع من** المعمودية وطريقة لغفران الذنوب والخطايا والآثام، وفي شيد الفصح **يلتقي الرجال** والنساء معاً ويؤدون الرقصات وينعدون الأغاني بطريقة خرافية **وبصوت شالٍ** وصخب شديد، حيث يقضون الليالي شلى تلك الحالة ويبدءون الرقص **بضرب** الأكف وكثير منهم يرقصون في دائرة ويقومون بالرقص بعنف **لدرجة أن يسقط أحدهم** مغعياً شليه بسبب كثرة الرقص والحركات العنيفة، كما أنهم **تحدثوا بلغتهم** الخاصة وشرفوا أيضا اللغة العربية[1106].

أشارت بعض المصادر **أيضاً إلى أن** الأحباش في صيام شيد الفصح كانوا يفعلون مثل الأرمن حيث **يأكلون** الفاكهة والنباتات فقط ويبتعدون شن اللحوم نهائياً، أما رجال الدين فكانوا لا **يأكلون** أثناء فترة الصيام إلا الخبز والماء، أما باقي أفراد الطائفة فكانوا **يفعلون ذلك في** أيام الأربعاء والجمعة فقط شلى مدار السنة وسمح لرجال **الدين الأحباش بالزواج**، وفي نفس الوقت فإنهم كانوا هراطقة لأنهم لم يعترفوا **بأخطائهم أمام أحد** إلا الرب[1107] شلى اختلاف الطوائف الأخرى التي تقوم **بالاشتراف بالخطايا** والآثام أمام الأسقف أو رئيس الكنيسة ليغفر لهم الخطايا والذنوب.

كانوا يتبعون اليهود واليعاقبة في تطبيق شقائد ليست من الديانة المسيحية

)1105(Souriano , Treaties on the holy Land, p. 90.

)1106(Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 466.

)1107(Ray john, Collection of Curious travels & Voyages, p. 355.

وقاموا بأداء طقوس غريبة منها شملية الختان للأطفال حيث استخدموا شموداً حديدياً ساخناً كان يوضع شلى وجه الطفل أو رأسه شلامة للختان واشتبر ذلك مخالفاً شن بقية الطوائف التي كانت تستخدم الزيت أو الماء شند الختان[1108].

وهم أيضاً امتلكوا كنيسة صغيرة في كنيسة الضريح المقدس، و كان لديهم مذبح ومصباح معتعل يقيمون شنده القداس وطقوسهم الغريبة يوميا ً، وتلك **الأماكن** موجودة جهة اليسار شند دخول الضريح المقدس بين أشمدة الكنيسة[1109].

- **الطائفة الثامنة: طائفة السريان)مسيحي الحزام(: -**

السريان شعب عريق يرجع عهدهم إلى القرن السادس **عشر ق. م** وشرفوا بالآراميين حتى القرن الخامس شعر ق.م **تقريباً ثم بالسريان**، ويعني بالآراميين أنهم مجموشة القبائل التي كانت تتكلم اللغة **العامية العمالية** والتي سكنت آرام في شمال بلاد العام، ثم توسعت حتى استولت **في القرنين التاسع** والثامن ق. م على بلاد النهريين فانتعرت لغتهم في بلاد فارس **والهند وشمت** بلاد العام والجزيرة وشندما شن ملك آشور الحرب شلى العراق **انتهت مملكة** الآراميين شام٧٢٠ ق.م، أما لفظ السريان فقد جاء متأخرا في **شهد الإمبراطورية** اليونانية وهم أول العصوب التي اشتنقت المسيحية حتى أن كلمة **سرياني أو** سورايا أو سوريان باللهجة السريانية العامة تعني مسيحياً)[1110]، **وقد** ظلت الكنيسة السريانية قوية حتى القرن الخامس الميلادي ثم ضعفت بسبب **اصطدامها** بالكنيسة الأرثوذكسية التي حرمت في مجمع خلقدونية شام ٤٥١**م السريان** المؤيدة للطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح، وأطلق شليهم اليعاقبة أيضًا نسبة **إلي زشيمهم** يعقوب البرادي الذي توفي شام ٥٧٨م)[1111].

بدأ ظهور طائفة السريان منذ القرن الأول الميلادي وقد تلقبوا باسم

)[1108](Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 126 , Fabri , the wan**dering, vol** 2part2 , p. 388.

)[1109](Fabri, The Wandering , vol 1 part 2 , p. 435 , Harf , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 204 , Souriano,Treaties on the holy Land, p. 90.

)[1110](ماهر يونان، الطوائف المسيحية في مصر والعالم، ص ١١٧ -١١٨.

)[1111](عارف العارف، المسيحية في القدس، ص ١١٤ وما بعدها.

مسيحي الحزام، لأنهم قد تلقوا حزام السيدة مريم العذراء شندما صعدت للسماء -كما يدشون ذلك - والتي قدمته للقديس توما الرسول، ولإحياء تلك الذكرى فإنهم كانوا يدخلون كنيسة الضريح المقدس وهم يرتدون حزاماً يعبه ما كانت ترتديه السيدة مريم العذراء[١١١٢]، ومن شقائدهم شند تعميد الأطفال أنه يتم تعميدهم يوم شيد الميلاد فقط ولا بد أن يصل سن الطفل إلى سنة أو سنتين ولا يقومون بتعميدهم بعد الولادة مباشرة كما يفعل اللاتين. [١١١٣]،كما استخدموا النار في التعميد حيث يقومون بحرق الطفل من الرأس أو الصدغ وفقاً للتقاليد والعادات التي يتبعونها في البلد التي يعيعون فيها[١١١٤]، كما يطبقون شعائر طائفة الروم الأرثوذكس)اليونانيين(وذلك باستخدام الخبز المختمر في الاحتفال بالقداس. [١١١٥] واستخدموا اللغة العربية في الكتابة، وأحيانا كانوا يستخدمون اللغة اليونانية أو السريانية في تأدية القداس والاحتفالات الدينية[١١١٦].

بالإضافة إلى أن السريان كانوا قليلي العدد في بيت المقدس ولكنهم كثيرون في أماكن أخرى ومنتعرون في كل مكان، وهم شلى شلاقة سيئة مع اللاتين وارتدوا ملابس بالية جداً وهم نحفاء الجسم ولا يقدمون الصدقات ويعيعون بين المسلمين ومعظمهم يعملون كخدم شند المسلمين ولذلك يرتدون ملابس تعبه ملابس المسلمين ويتميزون شنهم بوضع الحزام المصنوع من الصوف شلى خصرهم[١١١٧]، وهم أيضًا عاشوا في كنيسة الضريح المقدس، وفي كنيسة القديسة مريم بجانب كنيسة ودير

)1112(Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , p. 47 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 239.

)1113(Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 469.

)1114(Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 47 , 114.

)1115(Ibid, p. 114 , Wright , Early travelers , p. 189.

)1116(Frescobaldi, op.cit , p,114,Wright ,op.cit ,p.189, Souriano, Treaties on the holy Land,p.89.

)١١١٧(بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٣.

القديس جيمس الكبير، وقرب مكان ظهور السيد المسيح للمريمات الثلاثة وكذلك يمتلكون مكان صغير في كنيسة القديسة هيلانة بجوار الأحباش واليعاقبة(١١١٨).

- **الطائفة التاسعة: طائفة الأقباط:**

جاءت أول جماشة منهم إلي بيت المقدس في منتصف القرن الرابع الميلادي بمناسبة تدشين كنيسة القيامة ولكن كانوا قليلي العدد شن بقية الطوائف المسيحية الأخرى بدليل ما ذكره الأب سوريانوSouriano شندما كان رئيس دير صهيون في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس شعر الميلادي قائلاً بأنهم قد تركوا بيت المقدس ورحلوا إلى بلاد أخرى ومنها مصر وقد خلى مكانهم في كنيسة القيامة بسبب ذلك(١١١٩).

هؤلاء الأقباط أتقياء صالحون لكن توجد في شقيدتهم أخطاء معينة مثلما يوجد في كل الطوائف المسيحية وقد مثلوا الكنيسة الرومانية، وأثناء صلاتهم وتعبدهم كانوا يقومون بالغناء والإنعاد بلغتهم وبأسلوب مختلف شن اللاتين و اليونانيين يعبه أسلوب مسيحيي الحبعة (١١٢٠)، حيث كانوا يصدرون صيحات شالية وتنهدات ويذرفون الدموع الكثيرة دليلاً شلى التوبة الحقيقية ويضعون أولادهم الصغار فوق أشناقهم، وكانوا قد وقعوا في خطأ آخر حيث إنهم اشتقدوا أن بيلاطس الحاكم الروماني الذي حكم شلى المسيح بالصلب ليس مذنباً بل هو مسيحي مخلص وندم شلى ما فعله وما قام به إلا بسبب إرادة الرب الأشلى الذي أراد أن يحكم شلى المسيح بالموت ليخلص البعرية من الآثام والعرور، كما إنهم صاموا قبل أي شيد أربعة أو خمسة أيام بدون طعام وبذلك فهم يرهقون أنفسهم بعدة ويهلكون أجسادهم بصيام شديد يصل إلى حد الهلاك، وفي أيام الجمع أو يوم العيد يقضون الليل والنهار يحتفلون ويرقصون(١١٢١)،

(1118) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 204,Souriano, Treaties on the holy Land , p. 89,Fabri , the wandering, vol 1 part 2,p.436.

(1119) Souriano , op.cit, p. 92.

(1120) Langnon , Le Saint Voyage , p. 70.

(1121) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 100.

أما مكان صلاتهم فهو جبل الصلب خارج الكنيسة في المكان الذي وقفت فيه السيدة العذراء لتعاهد ابنها يسوع معلقاً شلى الصليب، ويقع مقرهم قرب كنيسة الضريح المقدس(١١٢٢).

- **الطائفة العاشرة: طائفة النساطرة:**

ينتمي النساطرة إلى القديس نسطوريوس الهرطقي أسقف كنيسة القسطنطينية، وهم مخطئون في أمور شديدة وخاصة في العقيدة المسيحية حيث قالوا إن السيدة **مريم** العذراء ليست أم السيد المسيح الروح الإلهي، بل هي أم السيد المسيح البعر **فقط، ولم** يؤمنوا بالطبيعة المزدوجة للسيد المسيح، بل يرون أنه ذو طبيعة واحدة **فقط وهي** الطبيعة البعرية، ووفقاً لمبادئهم فإن ابن الرب لا بد أن يكون **شيئاً واحداً** فقط وأن ابن البعر شئ آخر، وقد تمت إدانتهم والحكم شليهم من قبل **الكنيسة الأم في** روما بالفساد والهرطقة من قبل، وهم أيضاً استخدموا اللغة الكلدانية **في صلواتهم** واستخدموا الخبز المختمر في القداس وشاشوا في بيت المقدس بلا **مأوى وبلا** دير، وكان لديهم مذبح واحد قرب باب كنيسة الفرنسيسكان في دير **صهيون**(١١٢٣).

- **الطوائف اليهودية فى مصر والشام:**

أنقسم اليهود منذ بداية **تاريخهم إلى** فرق دينية مختلفة في الهيئة والعكل والتنظيم والقواشد المتبعة، **ورأت** كز فرقة أنها الأمثل والأفضل طريقة والأشد تمسكاً بقواشد وأصول الديانة شن **الفرق** الأخرى، وقد انقسموا إلي ثلاث فرق أساسية هي: الربانيون والقراءون **والسامرة**.

- **الطائفة الأولى: طائفة الربانيين:**

الربانيون هم أكبر طائفة يهودية من حيث العدد والأهمية حيث جرت العادة **أن يتولى** رئاسة **الطوائف** الثلاث أحد أفراد طائفة الربانيين فقط وليس من أي طائفة

(1122) Ibid , p. 101.

(1123) abri , The Wandering , vol 2 part 2, p. 388. Souriano ,Treaties on the holy Land , p. 91.

أخرى. (1124)، وقد سميت تلك الطائفة بذلك الاسم إشارة إلى اتباشهم تفاسير شلماء اليهود وفقهائهم في المعنا فقيل إنهم بنو معنو، ومعناه الثاني ويقصد به الكتاب العبري الفقهي الذي يفسر التوراة وقد كتب في طبرية بعد التخريب الثاني للقدس وتعريد اليهود، وهم يرجعون إلى أحكام العريعة المدونة لديهم في التلمود ولكنهم أبعد شن أصول العريعة ولا ينطبق شليهم اسم اليهود وخاصة بعد اتباع موسى بن **ميمون** القرطبي شام ٥٠٠هـ/١١٠٦م فصاروا أبعد الناس شما جاء به أنبياء الله **تعالى من** العرائع الإلهية (1125)، وقد اختلف أشداد يهود تلك الفرق من مكان لإخر فذكر **ميعولم** بن مناحم شام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١ م أن شدد اليهود الربانيين في الإسكندرية **كان حوالي** ٦٠ شائلة وليس منهم السامرة أو القرائيين مما يوحي أنه لم **يكن في الإسكندرية** سوى الربانيين فقط. (1126)، وفي القاهرة وجد ٨٠٠ عائلة يهودية **ولكن أكثرهم** من القرائين، و٥٠ فقط من السامرة، والباقي من الربانيين. أما شو**بديا الذي** زار مصر والعام شام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م فقد ذكر أنه في القاهرة حوالي ٧٠٠ **شائلة يهودية** يتألفون من ٥٠ شائلة من السامرة و ١٥٠ عائلة من القرائين **والباقي من** الربانيين، وفي مدينة الخليل كان يوجد بها ٢٠ شائلة يهودية **كلهم من الربانيين فقط** وليس بينهم طوائف أخرى. (1127)

يعد الربانيون أفضل **الطوائف** اليهودية، لأنهم حافظوا شلى قواشدهم نظريا وشمليا مثلما فعل يهود **أوربا** (1128)، كما انفرد الربانيون شن القرائيين بعرح موضوعى لفرائض **التوراة** واتفقوا معهم في اتخاذ صخرة بيت المقدس القبلة في صلاتهم ويوجهون **لها موتاهم** واتفقوا كذلك شلى أن الله كلم موسى شلى جبل طور سيناء، **ولكن اختلفوا** معهم في أمرين: أحدهما: بالظاهر والجنوح إلى التأويل بمعنى أن **القرائين اهتموا فقط** بالتوارة من الناحية الظاهرية أما الربانيون فهم اهتموا بالتفسير

(1124) (**القلقشندي**، صبح الأعشى، ج١١، ص ٣٥٨.
(1125) (المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٦٩.
(1126) (Adler , Jewish Travelers , p. 161.
(1127) (Ibid , pp. 171,225,234.
(1128) (Adler , Jewish Travelers, p. 171.

والتأويل العميق والعرح المستفيض لقواشد الديانة والتفسير بدقة لآيات التوراة، وثانيهماً: القول بالقدر فالربانيون قالوا أنه لا يوجد قدر محدد، أما القراءون فيؤمنون بوجود القدر مسبقاً [١١٢٩].

- **الطائفة الثانية: طائفة القرائين:**

اشتق اسم القرائين من المصدر العبري قرا بمعنى قرأ ولذلك أطلق شليهم بنو مقرا أو بمعنى دشا، لذلك أطلق شليهم أصحاب الدشوة الأولى، وهم لم يؤمنوا إلا بما يقرأ في التوراة والتي لم يعترفوا بغيرها من كتب اليهود ولذلك فإنهم احتكموا إلى نصوص التوراة فقط ولم ينظروا إلى من خالفها وفسروا النصوص كما يحلو لهم دون تقليد الطوائف الأخرى، كما إنهم كانوا شلى شداوة شديدة مع الربانيين بحيث أنهم لم يسمحوا بالتزاوج منهم ولا الإقامة معهم في مكان واحد ولا يدخل بعضهم كنيسة بعض[١١٣٠].

يرجع بعض الباحثين أصل تلك الفرقة إلى عنان داود)ت ٧٩٠، ٨٠٠ م(الذي دشا لمذهب جديد ينعق به شلى اليهود بسبب الخلاف الذي نعب بينه وبين أخيه الأصغر حول تولي منصب رأس شلماء الجالوت بعد موت حاخام العراق الأكبر، وفي ذلك الوقت تأثر شلماء اليهود بأراء المعتزلة وأصحاب شلم الكلام من المسلمين وصاروا ينقدون تعاليم الربانيين ويتهيئون للخروج شلى أحكام التلمود، وتزشم تلك الحركة ثلاثة من شلماء اليهود ونصبوا شنان شلى رأس حركتهم فاشتكى الربانيون للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي أمر بحبس شنان ثم أطلق سراحه ورحل إلى فلسطين وشيد كنيسة هناك وألف كتابين يتضمنان قواشد مذهبه[١١٣١]، وتولى زشامة القرائين بعد وفاة شنان ولده شاءول فحفيده يوشيه، لكن الفرقة لم تستطع أن تحتفظ بوحدتها فانعقت شلى نفسها وكان الربانيون لا يتركون فرصة إلا

)[١١٢٩](القلقشندي، صبح الأعشى، ص ١٣، ص ٢٥٧ ـ٢٥٨.

)[١١٣٠](المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٦٩.

)[١١٣١](بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠ ؛ انظر أيضا، قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص ١٠٥.

واستغلوها لمهاجمة بدع القرائين فاتهموهم بالزندقة والخروج شن الدين واشتبروهم غرباء شن اليهودية وحرموا الاتصال بهم والتزوج بهم، غير أن تلك المعارك ساشدت شلى انتعار القرائين واشتداد ساشدهم وامتدت فروشهم من فلسطين إلى سوريا والعراق وبلاد العرق وفي القرن الرابع شعر الميلادي انتعروا في أوربا.[١١٣٢] وقد ذكر المقريزى العانانية فرقة يهودية أخرى غير القرائين الذين تعود نعأتهم إلى فترة سابقة من التاريخ اليهودي[١١٣٣].

ذكر الرحالة اليهودي عوبديا جاريد أن•القرائين وضعوا تفسيرات جديدة للتوراة وقالوا إن القانون الذي وضعه القدماء يمكن تغييره إذا بدا أنه لا يتماشي مع نصوص الكتاب المقدس، كما أنهم كانوا يقرءون كل شيء وفقاً للتوراة ويرون أنهم شلى حق وصواب لأنهم يدرسون ويتعلمون ويؤدون صلواتهم التي تحتوي شلى ترنيمات مقدسة ونصوص من الكتاب المقدس، ومن قواشدهم الجديدة أنهم وضعوا قواشد القراءة في التوراة بحيث أنه يجب شلى اليهودي أن يقرأ التوراة كاملة يومي الاثنين والثلاثاء، وتلك القاشدة لم تكن موجودة من قبل، ويعتقدون أن كل قرائي هو يهودي غني وشريف لأنه ينحدر من شائلة داوود وكل الأجيال تعهد بذلك.[١١٣٤]، كما كان لديهم أياماً مختلفة لعيد رأس السنة وشيد الغفران، ولقد حددوا بداية العهر مع بداية ظهور الهلال باجتماع العمس والقمر[١١٣٥]، واليهود القراءون حرموا ذبح الخراف وأكل لحومها لأنه طبقاً لعريعتهم فإن الخراف تعتبر صنف من الأصناف الحيوانية التي تحرمها التوراة، وهم يفضلون أيضاً الذبح باستخدام سكين حادة خالي من السنون.، أما القراءون في القدس فكانوا لا يعتقدوا أن هناك خطأ ما في الاحتفال بعيد رأس السنة أو شيد الغفران، وكانوا يرسلون رجال الدين إلى القدس ليستطلعوا بداية العهر، ومن قواشدهم إضافة شهر إلى السنة لتصبح سنة كبيسة، ولكن قرائيى

[١١٣٢] بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

[١١٣٣] المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٦٩.

[1134] Adler ,Jewish Travelers pp. 227.

[1135] Ibid , p. 226.

القسطنطينية لا يرون ذلك حيث أن كل جماشة تحدد تقويمها وفقاً للمكان الذي تعيش فيه وهم يصومون اليوم السابع من شهر آب)أغسطس(، ويحتفلون كذلك بعيد العابوش)شيد الحصاد(يوم الأحد وفيه يجلسون تحت ظلال النخيل الأخضر وأغصان الأشجار والنباتات الأخرى في وسط المعبد وفي شيد السبت لا يعلون النيران في منازلهم ليلاً ولا نهاراً)[١١٣٦](.

وقد اشتبر مؤرخو شصر سلاطين المماليك أن الربانين والقرائين بمثابة **فرقة** واحد ة، وذلك رغم اختلاف الطرفين في القواشد والنظم والكنائس إلا أنهما **قد اتفقا** شلى استخراج ستمائة وثلاث شعرة فريضة من التوراة، كما اتفقا شلى نبوءة **موسى** وهارون ويوشع، وشلى نبوءة إبراهيم وإسحاق ويعقوب **وبنيه الاثنى عشر**)الأسباط(وتميزوا شن السامرة بأنهم اعترفوا بنبوءة أنبياء آخرون **غير موسى** ويوشع ونقلوا شن يوشع تسعة عشر كتاباً)[١١٣٧](.

- **الطائفة الثالثة: طائفة السامرة: -**

كانت السامرة طائفة قليلة أيام سلا**طين المماليك**، ويتضح ذلك من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين والر**حالة الأوربيين الذين** لم يهتموا كثيراً بذكر طائفة السامرة، وقد نعأت تلك الطائفة **في فلسطين ولم** يكونوا يهوداً في الأصل وليسوا من بني إسرائيل، وإنما هم **قوم قدموا** من بلاد العرق وسكنوا بلاد العام وتهودوا ويقال أنهم شعب من شعوب الفرس **خرجوا** إلى العام ومعهم الخيل والغنم والإبل والقسى والنعاب والسيوف **والمواشي** وتفرقوا في البلاد وسكنوا في مدينة شمرون)نابلس(، وظلوا فيها وزشموا **أنها هي** بيت المقدس وهي مدينة يعقوب شليه السلام[١١٣٨]، وبعد انتعار **المسيحية تعرض** اليهود السامرة لموجات الاضطهاد والتعذيب فتقربوا من **اليهود أنفسهم واشتبروا** فرقة يهودية معترف بها وأضافوا إلى التلمود فصلاً يوضح **طبيعة تلك الفرقة** وتنظيمها، وفي القرن السابع الميلادي انحسر النفوذ الروماني من

)[1136](Adler , op.cit , pp. 228 ,226.

)[١١٣٧](القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٥٧.

)[١١٣٨](المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٦٩ – ٣٧١ ؛ محمد علي كرد، خطط الشام، ج٦، ص ٢١٤.

العام بفضل الفتح الإسلامي فاستفاد اليهود من التسامح الديني، ولذلك وجدت منهم جماشات صغيرة في مصر والعام[1139].

وصف السامريون أنفسهم بالمحافظين لأنهم كانوا ولا يزالون يحافظون شلى أدق شعائر العبادات والعريعة دون تأويل أو تحريف وزشموا أن التوراة التي في أيديهم أصدق وأقدم توراة، والتوراة التي بين أيديهم مسطرة في درج طويل من الرق له اسطوانة مفضضة محفوظة في معبدهم في نابلس الذي أصبح سلوتهم الوحيدة **في** ذلك العالم الذي أصبحوا فيه غرباء شن كل الأمم[1140]، كما روي الرحالة **السير** جون منديفيل الذي زار مصر والعام شام٧٢٢هـ/ ١٣٢٢ م أن السامرة مؤمنون**، وقد** تعمدوا شلى يد الحواريين واعتنقوا قواشد ونظماً خاصة بهم **مختلفة شن** المسيحيين واليهود والمسلمين والوثنيين، وهم أيضًا آمنوا بوجود إله **واحد خلق الكون** وتمسكوا بالكتاب المقدس واستخدموا psatler مثلما فعل اليهود **وزشموا أنهم** أبناء الرب الأحباء [1141].

أختلف السامرة عن الطوائف الأخرى **في يوم شيد** الفصح وفي بعض الأمور ومنها الحج حيث كانوا يصعدون ثلاث **مرات في** السنة شلى جبل جرزيم في نابلس حاملين معهم حمامة ذهبية **ليقدموها قرباناً شلى** المذبح في أشلى الجبل حيث اشتقدوا أن جبل جرزيم هو الجبز **المقدس لديهم** ولذا لا يجب أن يحجوا إلى القدس، كما اشتادوا شلي تقديم العاة في شيد **الفصح محتفظين** بعظامها سليمة، وقد شاشوا في حي خاص بهم، و كان **لهم معبد** خاص بهم أيضاً ولهم شيد وأجازة في يوم السبت، ولكنهم انتهكوا حرمته في **وقت الظهر** حيث كانوا يصومون من منتصف يوم الجمعة حتى منتصف يوم **السبت ولديهم** خمسة كتب مقدسة لموسى وكتاباتهم مختلفة شن الربانيين **وزشموا أن تلك** الكتابات هي الأصلية الصادقة التي كانت قبل الأسر البابلي[1142].

[1139] **القلقشندي**، صبح الأعشى، ج١، ص ٢٦٨ -٢٦٩ ؛ بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ٣٧٣ -٣٧٤.

[1140] أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ٦١.

[1141] Wright , Early Travelers , p. 183.

[1142] Adler , Jewish Travelers, pp. 171 , 225 – 226.

- ا ••ا• تـو ••••ق •ا• •م و •:••

تميزت معظم نصوص الحجاج والرحالة الأجانب والعرب في فترة العصور الوسطي بزيارة الأماكن المقدسة والمزارات المسيحية واليهودية والإسلامية، كما اهتم الكثيرون منهم بعرح ووصف المكان المقدس مطابقاً لما جاء في الكتب المقدسة سواء التوراة أو الإنجيل مع الاشتماد شلى ذكر آيات تتناول ذلك الموقع المبارك، ومنهم من قدم وصفاً تفصيلياً للمزارات المقدسة بصورة مذهلة وذلك بتحديد المسافات والخطوات أو برسم خريطة وتوزيع الأماكن المقدسة شليها، ولكنهم أحياناً كانوا لا يذكرون أسماء المزارات والكنائس بصورة دقيقة وواضحة فكلاً منهم ذكرها حسب اشتقاده ووفقاً لما جاء في الكتب المقدسة والرحلات السابقة، وكان بعضها مختلفا شما جاء في المصادر الإسلامية المعاصرة، ولذلك حاولت الباحثة جاهدة شقد نوع من التوازن والترابط بين ما جاء في الرحلات الأجنبية والعربية ومع المصادر الإسلامية المعاصرة.

- **مزارات ومقدسات المسلمين فى الشام:**

أهم المقدسات والمزارات الإسلامية التي شاهدها وتحدث شنها الرحالة الأوربيون في بلاد العام هى **المسجد الأقصى ومسجد الصخرة فى بيت المقدس** وهما يقعان شلى جبل موريا [١١٤٣] وكان يطلق شلى المسجد الأقصى معبد سليمان، أو هيكل سليمان Templum Solmois، وقد تعرض ذلك المعبد إلى الخراب والتدمير شدة مرات، شندما قام تيتوس الإمبراطور الروماني)٦٩-٧٩م(بالاستيلاء شلى القدس وحرق المعبد ودمر المدينة وأسر اليهود وقتل بعضهم وسجن البعض وباع الآخرون، ثم أشطى الإمبراطور جوليان المرتد)٣٥٥-٣٦٣م(الإذن لليهود ببناء المعبد مرة أخرى ثم دمرته الزلازل، ثم جاء الإمبراطور هادريان)١١٧-

---

)[١١٤٣](عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، الهيئة العامة، ١٩٧٤ م، ص ١٣.

- جبل موريا: بمعنى الجبل المختار وهو احد الجبال الأربعة التى بنيت عليها بيت المقدس ويوجد عليه المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة ويعتقد اليهود أن إبراهيم حاول ذبح ابنه إسماعيل على هذا الجبل، انظر، بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٢٩، حاشية)١(، عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ١٣، ٦٢.

١٣٨م(فأشادوا بناء المدينة والمعبد ولم يسمح لليهود بالسكن هناك باستثناء المسيحيون)[١١٤٤].

[illegible]

كان اتساع المسجد حوالي ٦٤ ذراعاً ومثله في الطول وفي داخله أشمدة رخامية وفي الوسط درجات ارتفاشها ١٤ خطوة بأشمدة ذهبية)منبر المسجد(ويسمه اليهود قدس الأقداس)[١١٤٨]، أما الرحالة المسلم ابن بطوطة قد وصف لنا المسجد الأقصى بقوله وهو من المساجد العجيبة الرائعة الفائقة الحسن.......... وليس شلى وحج الأرض مسجدا أكبر منه وأن طوله من العرق الى الغرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراشاً بالذراع المالكية وشرضه من القبلة الى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراشاً.......... وهو مسقف في النهاية من إحكام العمل واتقان الصنعة، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة)[١١٤٩].

)[1144](Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 170.

)[1145](Luodolph , Description of the Holy land , p. 98, Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 107, See Also , Prescott , Jerusalem Journey , p. 177.

)[1146](Luodolph,Description of the Holy land ,p. 98, Schefer Le Voyage de Jean Thenaud,p.107.

)[1147](Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 169.

)[1148](Ibid , p. 170.

)[١١٤٩](ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٥٧-٥٨.

كان بالمسجد الأقصى اثنتا عشرة بوابة منها خمس مغلقة واثنتان مفتوحتان، هما بوابة الرحمة حيث كانت تدخلها الأفراح، والأخرى بوابة الجنائز حيث كانت تدخلها الجنائز لدفن الموتى وهما مصنوشتان من الحديد والبوابات الأخرى مغمورة تحت الأرض، وهناك ثلاث بوابات قد بناها المسلمون في الحائط[1150]، وقد ذكر الحنبلي تلك البوابات كالآتي بابان في السور العرقي داخل الحائط مما يلي المسجد وخلفهما وادي جهنم وهما باب الرحمة والتوبة ثم باب الجنائز أو البراق بالسور العرقي وهو مسدود بالبناء، باب الأسباط نسبة إلى أسباط بنى إسرائيل في آخر جهة العمال، باب حطة من جهة العمال، باب الدويدارية وكان يسمى باب شرف الأنبياء جهة العمال من المسجد [1151]، وقد اهتم المماليك كثيرا بالعناية بالمنعآت الدينية واستغلوا ثروات ضخمة في العناية بالمسجد الأقصى وأشارت كثير من المصادر الى تلك الرشاية والاهتمام التي تجلت في دهعة وإشجاب بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا المدينة[1152].

أما مسجد الصخرة، كان يطلق شليه معبد السيد Templum Domini يقع المسجد في الجزء العرقي من مدينة بيت المقدس في ساحة مربعة تجاه وادي يوشفات، وفي شام ١٥ هـ / ٦٣٥ م شندما دخل الخليفة أمير المؤمنين شمر بن الخطاب بيت المقدس ارسل العمال لبناء المسجد في ذلك الموقع حيث صلى أمام كنيسة القيامة، ثم أضاف إليه الخلفاء الآخرون الكثير من المباني وزادوا في روشته وجماله، ووصفه كثيرون فهو مثمن العكل وحوائطه مغطاة بالرخام وبأنواع شديدة من الرخام الثمين وقبته مطلية بالنحاس[1153]، وشندما استولى الصليبيون بيت المقدس حولوا المسجد إلى كنيسة وبنوا فوق الصخرة مذبحاً وكانوا يسمونها معبد السيد

(1150) Adler ,Jewish Travelers , p. 191.

(١١٥١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٢٧ - ٣٠.

(1152) A Visit to the Holy Places,p.128. Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p.249, Frescobaldi,

(1153) Casola, Pilgrimage to Jerusalem, p. 251.

وأنعأوا الحاجز المصنوع من الحديد المعبك الذي كان يفصل الصخرة شن المسجد، ثم أزال صلاح الدين معالم الكنيسة والمذبح والحاجز الحديدي وأشاد المسجد كما كان(١١٥٤)، وكان يطلق شليه أيضاً رواق سليمان أو هيكل سليمان ويقدسه المسلمون ويحترمون المكان ويسمونه الصخرة المقدسة بسبب وجود صخرة في وسطه محاطة بحاجز حديدي(١١٥٥)، وقيل إن خلف الصخرة قدس الأقداس ولا يسمح لأحد **بدخوله** سوى ناظر الحرم وتفتح أبوابه ليلاً ونهاراً وبه مائتا شخص لخدمة المسجد **وحراسته**. (١١٥٦)، والمسجد أيضاً شلى شكل مثمن وكان مزيناً بالفسيفساء المذهبة **وأرضيته** وحوائطه مزينة بأنقى وأثمن أنواع الحجارة ويتدلى فيه أكثر من ٨٠٠ **مصباح أما** سطحه فمنبسط جداً ومغطى بالرصاص(١١٥٧).

أما الصخرة ذاتها)ظلت خارج المسجد حتى شهد **الوليد بن** شبد الملك الذي أمر ببناء قبة شليها(، وضعت في وسط المسجد **شلى الصحن الكبير** المرتفع شن أرض المسجد وشليها بناء غاية في الحسن والإتقان **وهي قبة** مرتفعة شلوها ذراع وذلك الارتفاع من فوق الصحن وأما شلو **الصحن من** الأرض من جهة القبلة شند قبة النحوية فهو سبعة أذرع فيكون **ارتفاع القبة من أرض** المسجد ٥٨ ذراشاً ومرتفعة شلى أشمدة رخامية حوالي ١٢ **شموداً و** ٤ **سوارٍ** والصخرة يحوطها سور من الخعب ويحيط بالأشمدة والسواري **سور** حديدي وخارج القبة سقف مستدير مصنوع من الخعب المدهون بالذهب **شلى** ستة أشمدة رخامية و ٨ سوارٍ ثم توجد قبة على الصخرة وفوقها **سقف آخر** مدهوناً بالرصاص وبينهما فراغ(١١٥٨).

- **المزارات والمقدسات المسيحية في مصر:**

(١١٥٤) **النويري، نهاية** الإرب، ج ٢٨، ص ٤٠٥ ؛ محمد كرد، خطط الشام، ج٦، ص ٢٥١.

(1155) Luodolph , Description of the Holy land , pp. 98 -99.

(1156) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 109 , Adler , op.cit , p. 190.

(١١٥٧) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٥١ ؛ Souriano , Ibid.

(١١٥٨) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ١٧ ـ١٨ ؛ مزيد من التفاصيل عن الحرم القدسي، انظر، الهروي، الإشارات، ص ٢٤ ـ٢٨ ؛ العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٢٨ ـ٢٣٢ ؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٥٧ـ٥٨ ؛ البلوى المغربي، تاج المفرق، ص ٢٤٧.

انتعرت الكنائس والأديرة المسيحية في كل أنحاء مصر وكانت غالبية الكنائس ملكاً لليعاقبة بحكم كونهم الأغلبية، كما امتلك النصارى الملكانية)أو الملكية(بعض الكنائس في القاهرة والفسطاط وكذلك وجدت كنائس للأرمن والنساطرة ومسيحي الحزام والجورجيين، وقد بلغ شدد الأديرة في مصر حوالي ستة وثمانون ديراً لليعاقبة و ثلاثة أديرة للملكانية(١١٥٩).

- **كنائ ي الإسكندرية:**

كانت كنيسة القديس مرقص تقع شرق الإسكندرية و الذي سمى **بالقديس** مرقص الإنجيلي وقد تعرض للتعذيب والإهانة العديدة وتم جره **في** شارع القديس مرقص مربوط في ذيل الجياد إلى خارج بوابة المدينة، **حيث تم قطع** رأسه ونقل جسده إلى البندقية)١١٦٠(، وقد كان القديس مرقص **الإنجيلي واحد ممن** كتب الأناجيل الأربعة، ومؤسس كنيسة الإسكندرية، وكانت رأس **القديس المحفوظة** في الإسكندرية من المقدسات المسيحية الهامة، ولم يكن **البطريرك يعين** رسميًا إلا بعد أن يضع البطريرك الجديد ذلك الرأس في حجرته **تبركاً بها، و**شندما سرقها التجار البنادقة من الإسكندرية شام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م **غضب الأقباط** وطلبوا من السلطان المؤيد شيخ)٨١٥ هـ – ٨٢٤ م( )١٤١٢ – ١٤٢١ **م(** استعادة تلك الرأس)١١٦١(، ولكن لم تعر المصادر المعاصرة فيما **بعد إلى** استجابة السلطان لهم ولكنهم قد أشادوها في القرن الععرين. وكان يديرها **المسيحيون** اليعاقبة(١١٦٢)، وفي شارع القديس مرقص توجد كنيسة القديس **يوحنا المعمدان** وبها الصخرة التي أشدم شليها)١١٦٣(، وقرب

)١١٥٩(**المقريزي، الخطط**، ج٤، ص ٤٢٣.

)1160(Ghistele, Voyage en Egypte, p. 119,Guid book to **Palestine 1350** , trans by Bernard , P.P.T.S ,vol 6 ,London , 1894 , p. 33 , See A**lso, Wolff** , How Many Miles to Babylon ?, p.76.

)١١٦١(المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص ٥٠٥ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٥٧ ؛ ابن إياس، بائع الزهور، ج٢، ص ٤٩

)1162(Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 95.

)1163(Souriano, Treaties on the holy Land, p. 197 , Nicolo , A voyage

الإسكندرية قرية صغيرة بها كنيسة صغيرة وجميلة فيها قبو صغيرة ومن المعتقد أنه قد قطع فيها رأس القديس يوحنا، وقد كانت تستخدم سجناً وتولى الحرفيون والصناع المسلمون حراسة القبو وأشعلوا فيه المصابيح وتصدقوا شلى القبو والكنيسة بالأموال (١١٦٤).

أما كنيسة القديس سابي أو سابا Sabe فكانت شند البوابة المؤدية **إلى** رشيد، كانت كائنة شلى الناحية اليسرى من العارع، وهي شبارة شن بناء غاية **في** الجمال، وكانت تعبه الأديرة اليونانية وفي وسطها وجد مبنى حجري له **مدخل جانبي** به سلم مكون من ثمان درجات ومغطى بالرخام الأبيض، أما السدة (**مكان جوقة** المرتلين)فكانت مقامة شلى النظام اليوناني أيضاً، وشلى **اليسار وجدت كنيسة** صغيرة بها تمثال للقديسة مريم العذراء قد صنعه القديس لوقا(١١٦٥)**، وكانت تلك** الكنيسة مدفناً للاتين وتنازع شليها الجنوية والبنادقة لفترة طويلة **وانتهى الأمر بأن** أصبحت الكنيسة مشتركة(١١٦٦)، وفيها كذلك كنيسة القديس ميعيل، التي **كانت تابعة** للرهبان السوريان الأرثوذكسي(١١٦٧) ثم تولى إدارتها اليعاقبة(١١٦٨).

كما وجدت كنيسة القديس **مكاريوس شلى** بعد أربعة شعر ميلا من الإسكندرية، وكانت شبارة شن دير **جميل** وممتع وبداخله كنيسة مغطاة بالرصاص وبها ثلاثة أصحن مدشمة **بععرة** أشمدة وبداخلها مقبرة القديس وشظامه ومن يذهب إليها يقدم له الرهبان الطعام **والعر**اب بدون مقابل(١١٦٩).

Beyond the seas , p. 85.

(1164) Luodolph , Description of the Holy land , p. 64.

(1165) Ghistele, Voyage en Egypte, pp.118-120,Harff,The **Pilgrimage of** Arnold Von Harff,p. 95.

(1166) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard p.71,Souriano, **Treaties** on the holy Land, p. 197.

(1167) Ghistele , op.cit , p.120.

(1168) Harff , op.cit , p. 95

(1169) Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 85.

تغيرت معالم بعض الأ "•• الأخرى الـ ••• في الإسكندرية ولكن الرحالة شرفوا مكانها جيداً وفقاً لما ذكر في الكتاب المقدس وكتب القديسيين مثل، مكان تعذيب القديسة كاترين وسجنها ومسكنها، حيث زار الرحالة برنارد فون برندباخ المكان الذي قطعت فيه رأس القديسة كاترين[1170]، وفي شارع القديس مرقص وجدت الزنزانة التي سجنت فيها القديسة وهي شبارة شن حجرة يربى فيها بعض الحيوانات، وشند الدخول يميناً خلف البوابة توجد فتحة في الحائط كانت تجلس شندها القديسة وتعظ الناس، وأمام السجن وجد العمودان والعجلات التي تعذبت شليها القديسة كاترين[1171]، وبجوار كنيسة القديس يوحنا المعمدان منزل يخص القديسة كاترين والآن (زمن الرحالة نيكولو) يعيش فيها والي المدينة[1172].

- **كنائ ي دمياط:**

وجدت في دمياط شدة كنائس هامة الأولى كانت تابعة للسوريان الأرثوذكس ومكرسة شلى اسم القديسة ماري جرجس، والثانية كانت تابعة لليونانيين الأرثوذكس ومكرسة باسم النبي أرميا والذي أقام في الكنيسة ودفن فيها ولكن القديس جيروم ذكر أنه دفن في تنيس [1173] وفي منفلوط جنوب القاهرة وجد دير به كنيسة صغيرة حيث أقامت فيه السيدة العذراء ويوسف النجار [1174] وسمى بدير المحرقة، كما وجد فيها أديرة أخرى كانت تخص القديس مقار[1175].

- **الأماكن المقدسة فى صحراء سيناء:**

صحراء سيناء كانت الطريق الوحيد والمعتاد للمرور من العام إلى مصر أو

(1170) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , pp. 69 -70.

(1171) Ghistele,Voyage en Egypte , pp.119 -120 , Frescobaldi ,A Visit to the Holy Places, p. 41.

(1172) Nicolo, A voyage Beyond the seas , p. 85.

(1173) Guid book to Palestine 1350 , p. 33 , Ghistele, Voyage en Egypte , p. 167,Schefer , Le Voyage de Thenaud , p. 122.

(1174) Souriano , Treaties on the holy Land, p. 194.

(1175) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 52 -53.

العكس، ولذاكان لا يمكن المرور هكذا بدون رؤية وزيارة الأماكن المقدسة في سيناء وأهمها دير سانت كاترين، وجبل موسى، والمكان المعروف باسم العليقة المعتعلة [١١٧٦]، وسمي بذلك لأن المكان الذي التقى فيه الرب بموسى وسط نبات من العوك المتوقد ولكنه لا يحترق[١١٧٧].

يعد دير سانت كاترين والجبال والأضرحة والأماكن الدينية في سيناء **من** مواقع قديمة ومقدسة، وقد أصبحت تلك الأماكن مزارات أساسية وتقليدية **في زيارة** الحجاج، وخاصة شندما قام الإمبراطور جستنيان الأول Justinian)٥٢٧ -٥٦٥**م(** بحماية دير سانت كاترين من خطر العربان في الصحراء، حيث **أقام** حوله **أ**سوار ضخمة للحماية والتحصين بالإضافة إلى وجود حامي للدير **مسيحي في** القسطنطينية، وحامي مسلم في القاهرة يحميه من اشتداء العربان[١١٧٨].

وقد بنيت تلك الكنيسة خلال الفترة بين وفاة **الإمبراطور**ة البيزنطية ثيودورا شام ٥٤٨م وبين تولي الإمبراطور جستنيان **العرش شام ٥٢٧م**، وسميت في البداية كنيسة التجلي ثم سميت باسم دير القديسة **كاترين و**استكمل البناء في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[١١٧٩]، **وقد أمر الإمبراطور** جستنيان ببناء الدير شلى هيئة قلعة أو حصن فوقه شدة قلالي)**غرف للرهبان**(، وذلك لحمايته من خطر البدو الذين اشتادوا الإغارة شلى الدير **وشلى** الرهبان[١١٨٠]، وهناك أسطورة تتعلق بأسباب بناء ذلك الدير مفادها إنه حدثت **في إ**حدى السنوات مجاشة رهيبة فاضطر الرهبان إلى

)١١٧٦(**جوزيف نسيم، دراسات** في تاريخ العصور الوسطي، الإسكندرية، ١٩٨٣ م، ص ١٢٧ - ١٢٨.

)1177(Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 71.

)1178(Prescott , Once to Sinai , p.77.

)1179(Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , note)1(,p. 111.

- وفي حقيقة الأمر فان الدير قد بنى بين عامي ٥٤٠ -٥٤٥ م بناء علي أوامر الإمبراطور البيزنطي جستنيان، انظر، قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٢٦.

)1180(Souriano ,Treaties on the holy Land, p. 188 , Ghistele, Voyage en Egypte , p.159.

الهرب من الصوامع والغرف بحثاً شن الطعام تاركين جسد القديسة دون حراسة فتجلت لهم القديسة في الصحراء وأمرتهم بالعودة فعادوا إلى أماكنهم ليجدوا تلاً ضخماً من الحنطة والطعام فعيدوا الدير المعروف باسمها)[1181](.

شاشت القديسة كاترين في الإسكندرية في فجر المسيحية وكانت تدين بالوثنية ولكنها تركت شبادة الأوثان واشتنقت المسيحية وأخذت تدشو لها فانزشج الوثنيون واستمرت تعظ وترشد الناس إلى طريق الله والحق إلى أن انتهى بها الأمر باستدعهادها في الإسكندرية، ثم نقلت الملائكة جسدها شلى جبل سيناء وظلت هناك حتى تم بناء الدير وإقامة مقبرة خاصة بها وضعت فيها شظامها)[1182](.

ودير سانت كاترين مبنى قديم وشديد الجمال ومغلق بأسوار شالية كالحصن وبداخل الدير يوجد مكان يقيم فيه الرهبان وفي داخل الدير توجد كنيسة صغيرة في غاية الجمال والروشة ويتميز المكان بالنظام والنظافة وطابع الورع والتقوى)[1183](.

كما يوجد داخل سور دير سانت كاترين شدد من الكنائس أهمها كنيسة القديسة كاترين، وكانت تعرف من قبل باسم كنيسة القديسة مريم في العليقة، وشندما نقل جسد القديسة كاترين إليها سميت باسم كنيسة دير القديسة كاترين وهي في أيدي الرهبان الإغريق، وهي كنيسة مستطيلة واسعة مسقوفة بالرصاص من دون قبة أو برج، وأيضاً من دون نواقيس أو ألواح قرع خعبية وشوضاً شنها استخدموا شصا حديدية معلقة تعلق شليها أجراس برونزية، ويقرع شليها حافظ الذخائر المقدسة لدشوة الناس للصلاة، وعلق داخل الكنيسة الكثير من المصابيح والمذابح والأشمدة الأثنى عشر)[1184](.

كما يوجد في داخل الكنيسة صندوق به جسد القديسة كاترين، وهو شبارة شن

)[1181](بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٦ -٧٧.

)[1182](فايز اسكندر، مصر في كتابات الرحالة الروس، ص ٩ ؛ جوزيف نسيم، "دراسات في المخطوطات العربية بدير سانت كاترين "، مجلة آداب إسكندرية، العدد ٢٢، ١٩٦٩ م، ص ٩٥.

)[1183](Langnon , Le Saint Voyage, p. 46.

)[1184](Fabri , the wandering, vol 2 part 2 , pp. 512 -611.

صندوق مربع الشكل ومصنوع من الرخام الأبيض وشليه رسوم وأشكال ملونة والغطاء مصنوع من الرصاص وخعب الأرز، ووجد إلى اليسار من المذبح وبداخله أجزاء من شظامها تنضح بالزيت كل فترة رائحة شطرة ذكية، وقد اشتاد رهبان الدير تقديم ذلك البلسم أو الزيت هدايا للحجاج والوافدين (١١٨٥)، وبالقرب من الصندوق الرخامي إلى اليمين وجد مدخل كنيسة صغيرة يمكن الدخول منها إلى كنيسة **أخرى** إلى اليسار، وفي تلك الكنيسة المكان الذي شاهد فيه النبي موسى العجرة العليقة **كما** جاء في الكتاب المقدس، حيث أخذ موسى وروداً من العجرة ونثرها شلى **الجبل، وقد** اندهش الرحالة لوجود العجرة والورود حتى ذلك الوقت وفي نفس المكان **قال الرب** لموسى اخلع نعليك فذلك المكان مقدس، ولذلك يدخله رجال **الدين والعلمانيون** حفاة الأقدام احتراماً للمكان (١١٨٦).

أما باب الكنيسة فكان مرتفعاً فوق ٧ درجات **حجرية والباب** كبير مغطى بقبة من الخعب القبرصي، وأمام الباب ستارة سوداء، **وداخل الكنيسة** ذاتها نوع من السقيفة شرضها خمسة أقدام، وهناك باب لا **يفتح وفوقه** صورة بالفسيفساء للقديسة كاترين، وشلى الجانب الإخر صورة **للنبي موسى،** وأمامهما تعتعل ثلاثة مصابيح فضية(١١٨٧)، وداخل الكنيسة أيضاً **ثلاثة صحون** معتمدة شلى خمسة أشمدة رخامية لكز صحن، وداخل الدير **وجد ثمان** كنائس صغيرة، وفي الصحن المركزي المتوسط توجد السدة الصغيرة **وأمامها حائط** به باب شلى الطراز اليوناني، وخلف الحائط مذبح كبير وجميل وشنده **صورة** أخرى مزينة للقديسة كاترين والمسيح المخلص(١١٨٨)، كما توجد في الدير **حديقة جميلة** وواسعة أمام الدير وبها أنواع شديدة من الأشجار

)1185(Ghistele , Voyage en Egypte , p. 162 ,Wright , Early **Travelers , p.** 158 , Schiltberger, The bondage and Travel of Johan, p.55,Langnon , **Le Saint** Voyage ,p. 47.
)1186(Wright , Early Travelers , p. 158 , Schiltberger, The bondage and Travel of Johan, p.55,Langnon , Le Saint Voyage ,p. 47.
)1187(Luodolph , Description of the Holy land, p. 84.
)1188(Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp.59,113.

المتنوشة مثل، الزيتون والنخيل والرمان وفيها نبع مائي تروى منه الحديقة، وهناك رهبان يقيمون في غرف خاصة بهم يقومون بخدمة الحديقة ورشايتها ولا يذهبون إلى الدير إلا أيام الأشياد [١١٨٩].

كما توجد كنيسة أخرى صغيرة شلى الجبل حيث ظهرت شندها السيدة **مريم** العذراء لرهبان الدير حين تركوه وأبدوا شدم رغبتهم في الحياة فيه بسبب كثرة **الذباب** والدعرات فأمرتهم بالعودة إليه[١١٩٠]، وإلى أشلى توجد كنيستان أحداهما **أكبر من** الآخرى، وتقع الصغرى إلى اليمين وقامت بإذعائها القديسة مارجريت، **وإلى اليسار** الكنيسة الأخرى باسم كنيسة Helie [١١٩١].

وحين نصعد إلى أشلى الجبل نرى كنيسة صغيرة **تبدو مثل المصلى** تسمى بكنيسة موسى، وفي الخارج إلى اليسار توجد **صخرة كبيرة جلس** شليها موسى وأشطى الرب موسى العرائع والألواح وشندها أقام **موسى شليها** أربعين يوماً[١١٩٢]، كما توجد بجوارها كنيسة صغيرة أخرى باسم **القديس** يوحنا المعمدان وفيها أجساد القديس يوحنا وكليمنت وآخرون **ثم كنيسة القديس** جيمس الرسول وكلها مزينة ومزخرفة بالفسيفساء والصور **الجميلة**[١١٩٣].

وشند المدخل الأول لدير **القديسة كاترين** باتجاه الدعمال توجد غرف يقيم فيها الحجاج والرحالة القادمون **للزيارة**، وشند الدخول يصعد المرء إلى اليمين شدة سلالم حجرية تصل في نهايتها إلى شدد من الغرف بها الرهبان وبجوارها فرن لصنع الخبز وذلك الباب الحديدي **الأول** يحرسه الرهبان[١١٩٤].

عاش في دير سانت كاترين العديد من الرهبان اليونانيين والجورجيين

[1189] Nicolo , A voyage Beyond the seas , p 105 , Langnon , op.cit , p. 48.
[1190] Langnon, Le Saint Voyage, p. 49.
[1191] Langnon , Le Saint Voyage, p. 49 Wright, Early Travelers, p. 159,
[1192] Wright , Ibid , Langnon ,Ibid , p. 50.
[1193] Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 112.
[1194] Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 105.

العرب والأجانب من كل من رجال الكهنوت والعلمانيين وشددهم اختلف من فترة لأخرى، ولكن من الواضح أن شددهم كان آخذا في النقصان، كما ذكر الرحالة لودولف Luodolph الذي زار مصر شام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦ م أن شددهم كان حوالي ٤٠٠ راهب. [١١٩٥]، أما الرحالة الإيطالي جيوشي Gucci الذي زار الدير شام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٤ م فقد ذكر أن شددهم كان من ٢٠٠ إلى ١٥٠ راهبا فقط[١١٩٦]، **وأثناء** زيارة بيرو طافور pero tafur شام ٧٤٣هـ/ ١٤٣٩م للدير وجد به من ٥٠ **إلى** ٦٠ راهبًا وخادمًا[١١٩٧]، وذكر فيلكس فابري Filx Fabri أن شدد الرهبان في **الدير كان** حوالي ١٠٠ ومؤخراً كانوا ٨٠ لكن الآن أي في شام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م **وصل شددهم** إلى ٣٠ راهباً فقط[١١٩٨]، وفي شام ٨٩١هـ/ ١٤٩٦ م ذكر **فون هارف** Von Harff أن شددهم وصل إلي ٨ رهبان فقط [١١٩٩].

وقد تمتع دير سانت كاترين بعناية **السلاطين** المماليك وحمايتهم والدفاع شنه فقد صدرت مراسيم طوال شصر سلاطين **المماليك** إلى كبار موظفي الدولة في ثغر الطور وغيره من الثغور **في مصر** والعام، بتقديم كل التسهيلات اللازمة للرهبان، وتأمينهم في سفرهم **بين أجزاء البلاد** أو إلى خارجها، ومساشدة من يستخدمونهم شلى خلاص حقوقهم **وأوقافهم وأملاكهم**، كما أشفى الدير ورهبانه من كافة أنواع الضرائب اشتماداً **شلى** ما بأيديهم من المراسيم العرشية والعهود[١٢٠٠].

ولكنهم في بعض **الحالات** قد تعرضوا للقهر والظلم وخاصة من قبل القبائل العربية **المجاورة** للدير في صحراء سيناء، حيث اتخذت شلاقة الرهبان بالعربان شكلين **متناقضين**، فقد اشتمد الرهبان شلى البدو في أشمال تتعلق بحراسة

[1195] (Luodolph , Description of the Holy , p. 84.

[1196] (Frescobaldi ,op.cit , pp. 59 , 113.

[١١٩٧] (**بيرو طافور**، رحلة طافور، ص ٧٧.

[1198] (Fabri , the wandering, vol 2 part 2 , p. 616.

[1199] (Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p.141 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 451.

[١٢٠٠] (قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، ص ١٢٧.

الدير وإحضار الطعام إلي الرهبان مقابل أجور نقدية أو شينية من ناحية، كما أن العرب البدو كثيراً ما شنوا غاراتهم شلى الدير ورهبانه من ناحية أخرى فقد تعرض الدير لسوء معاملة العربان بصورة مستمرة، ولذلك كان الرهبان مضطرين لتقديم الخدمات المادية والعينية إليهم من الصباح الباكر حتى المساء وكذلك كل ما يطلبونه وإلا قاموا بسلب ونهب الدير بالقوة والإجبار، وأحياناً كان الرهبان يقدمون **الطعام** للعربان شن طريق حبل يتدلى من أشلى سور الدير ويرفضون دخولهم **خوفاً من** السرقة والنهب(١٢٠١)، وشندما كان فيلكس فابريFilx Fabri مع زملائه **في زيارة** للدير شعر بالقلق والإزشاج العديدين بسبب شيخ العرب وقواته الذين **عسكروا حول** الدير وقد تصرف معهم البدو بذوق وحسن خلقٍ، ولكن **ليس بسبب طباشهم** الكريمة الحسنة بل بسبب الحصول شلى الدراهم والدنانير من **الحجاج سواء** بالسرقة أو بالرضا(١٢٠٢)، ومع نهاية القرن التاسع الهجري / **الخامس شعر** الميلادي زادت الأمور سوءاً فقد ذكر الأب فرانسيسكو سوريانو Francisco Souriano أن العربان قد زاد إجرامهم واعتدوا شلى رهبان الدير **بصورة بعغة** حيث أقدموا شلى قتل رئيس الدير ورأى بنفسه الرهبان يلتفون **حول الجثة وهم** يبكون، وبذلك أصبحت حياة الرهبان في دير سانت كاترين **مثل الجحيم، كما** شاملوهم بقسوة وشنف شديد(١٢٠٣)، وقد بنى السور بطريقة **جيدة حيث** أن السور المحيط بالدير ضخم وسميك ومرتفع وشليه شرفات وأبراج، **وبنى من** حجارة منحوتة مربعة العكل وهو محصن بعكل ممتاز في الجزء **القريب من** المدخل ومن البوابة حيث يمكنه أن يصمد طويلا ضد أي شخص يحاول **اقتحامه وإحداث** العبث فيه مثلما حدث قبل ذلك، فقد لاحظ فيلكس فابري filx Fabri أن السور قد تحطم في بعض الأماكن ثم أشيد بناؤه مرة أخرى (١٢٠٤).

)1201(Souriano , Treaties on the holy Land , p. 188.

)1202(Prescott , Once to Sinai , p. 78.

)1203(Souriano , Treaties on the holy Land , p. 187.

)1204(Fabri , the wandering, vol 2 part2 , p. 612.

كما لاحظ الرحالة فون هارف Von Harff زيادة في تحصينات الدير لحمايته حيث وجد شند مدخل الدير ثلاثة أبواب صغيرة مغطاة بالحديد ويحتاج الفرد إلى تسلقها لدخول الدير [١٢٠٥]، ثم زاد الرهبان في التحصينات بصورة أكثر غرابة أدهعت الرحالة جان تينو Jean Thenaud حيث ذكر أنه شندما يطرق الزائر الباب يتدلى حبل من قمة السور إلى داخل الفتحة حيث يدخل قدميه ويلفها ثم يعد الحبل وظل ذلك الرحالة أربع ساشات أمام بوابة الدير حتى فتح له الرهبان بعد أن تأكدوا من رحيل العربان[١٢٠٦]، كما كان يجب شلى الرهبان إرسال كل شام هدايا من حديقة الديرإلي القاهرة لإرضاء السلطان والعودة من القاهرة ومعهم صك الأمان والحماية حتى يضمنوا صداقة قوية معه كوسيلة لحمايتهم من العربان[١٢٠٧].

أما عن حياتهم الخاصة داخل الدير فإنهم أتبعوا نظم وتعاليم القديس باسيل basil وشاشوا حياة فقيرة قاسية بائسة، وكانوا يحصلون شلى الخبز من القاهرة شن طريق الجمال والقوافل المارة بالدير، وكل منهم كان يأكل رغيفاً واحداً فقط في اليوم، أما الخبز فكان يصنع من القمح أو الشعير بدون غربلة الدقيق ويأكلون الفاكهة مرتين في الأسبوع فقط من حديقة الدير مع طبق واحد من السمك المملح ولا يعربون الخمور إلا في المناسبات والأشياد الخاصة وليس لديهم أثاث خعبي[١٢٠٨].

كانوا يحصلون شلى دخل شبه ثابت من خلال الصدقات والهبات التي يقدمها الحجاج والرحالة الذين يزورون الدير، لأن الحجاج كانوا يقدمون الأموال والهدايا لهم، كما أن ملوك أوربا أرسلوا معهم الهبات والعطايا للرهبان مثل بارونات فرنسا

(1205) Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 140.

(1206) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 71.

(1207) Prescott , Once to Sinai , p. 78.

(1208) Wright , Early Travelers , p. 157 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 59 , 113 ,Harff , op.cit , p.140 , Schiltberger , The bondage and Travel of Johan , p. 55.

وملك إنجلترا والفلاندرز وألمانيا، حيث كان ملك فرنسا الملك لويس التاسع يرسل ٢٠٠٠ دوكة ذهبية كل شام، في حين أنهم لم يكونوا يأخذون شيئاً من الحجاج مقابل إقامتهم في الدير إلا إذا تبرع أحدهم بعيء لخدمة الدير والرهبان(١٢٠٩).

- **المزارات المقدسة فى القاهرة والفسطاط وبابليون:-**

أولى تلك الكنائس المقدسة هي كنيسة القديس توماس بين القاهرة وبابليون والتي بناها بنفسه لأنه كان يسكن هناك وقام بذعر الدين المسيحي ويقيم فيها ويتولى إدارتها مسيحي الحزام الهنود وشددهم كثير ويأتون من كل المدن والأقطار(١٢١٠).

كنيسة القديسة بربارة في حارة الروم في منطقة بابليون وتحوي جسد تلك القديسة(١٢١١)، وهي كنيسة جميلة وشريقة وذات قدسية خاصة واحترام وتقدير، ووجد المذبح خلف السدة وشلى يمين المذبح حائط ارتفاشه ٤ أقدام وبه صندوق به جسد القديسة بربارة، حيث كان يسمح للزوار بلمس جسدها وتولى إدارتها أيضاً مسيحي الحزام، ثم الرهبان اليونانيون(١٢١٢).

ثم كنيسة العمود أو يطلق شليها كنيسة القديسة مريم، حيث وجد فيها العمود الذي جلست شنده السيدة مريم العذراء ومستوى سطح تلك الكنيسة شال ومرتفع حيث كان يدخلها المرء شن طريق سلم طوله ٢٩ درجة والجزء الأوسط فيها به ١٦ شموداً يحملون القبة، وجهة اليمين شند المدخل توجد السدة المكونة من أربعة أشمدة رخامية بيضاء اللون، ولتلك الكنيسة أهمية وقدسية، ولذا كان يضاء فيها المصابيح باستمرار وشند دخول الكنيسة ترى شلى اليسار السدة حاجزاً مصنوعاً من خعب السرو شلى الطراز اليوناني، ويفصل المذبح شن المصلين ومطعم بالعاج، وهناك مذبح آخر

)1209(Frescobaldi , A Visit to the Holy Places,p.113, Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff ,p.140,Souriano, Treaties on the holy Land , p. 188 , Luodolph , Description of the Holy , pp. 87 -88.

)1210(Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , pp.101, 198.

)١٢١١(المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٤٢٤.

)1212(Frescobaldi ,op.cit , p. 101 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 51 , Nicolo , A Voyage Beyond the seas , p. 96 , Dopp, Le Caire , p. 118.

للسيدة مريم وشلى اسمها سميت الكنيسة، وأمامه حوالي ٣٠٠ مصباح[١٢١٣]، وهي نفسها كنيسة السلم التي زارها الرحالة نيكولو وتبعد مقدار رمية حجر من كنيسة المغارة وشند دخولها تصعد ٣٠ خطوة وبها أيضاً شمود السيدة مريم[١٢١٤].

توجد كنيسة القديس مارتن للمسيحيين الأرمن شلى بعد ميل آخر عند الخروج من القاهرة نحو بابليون، حيث وجد بها جسد القديس الذي كان **أسقف** الإسكندرية[١٢١٥]، وقد تولاها أحياناً الرهبان النوبيون وفي أوقات **أخرى** اليونانيون[١٢١٦]، وبالسير في العارع في منطقة بابليون لمسافة ميل آخر **نجد كنيسة القديس** ميشيل)**ميخائيل**(وكانت في أيدي المسيحيين اليونانيين **والسوريان وهي** كنيسة متسعة وجميلة وفيها ذراع القديسة مارجريت[١٢١٧].

قرب برج بابليون وجدت الكنيسة المعلقة، أو كنيسة **العذراء** بمدينة مصر القديمة في خط قصر العمع[١٢١٨]، وبالسير إلى أسفل **تلك الكنيسة** لمسافة رميتي قوس

)[1213](Geshitele , Le Voyage en **Egypte** , p. 54.

)[١٢١٤](المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٤٢٥ ؛ Nicolo , A Voyage Beyond the seas , p. 96.

)[1215](Langnon , Le Saint Voyage, **p. 63**.

)[1216](Nicolo ,op.cit , p. 94 , Frescobaldi ,op.cit, pp. 51 , 198.

)[1217](Nicolo , A Voyage Beyond the seas , p. 95.

)[١٢١٨](المقريزي، الخطط، ج٤، **ص ٤٢٤**.

- الكنيسة المعلقة: **تقع الكنيسة المعلقة** في حى مصر القديمة، في منطقة أثرية هامة، فهي على مقربة من جامع عمرو بن **العاص ومعبد** ابن عزرا اليهودي، و كنيسة القديس مينا بجوار حصن بابليون، و كنيسة الشهيد **مرقوريوس)أبو** سيفين(، و كنائس عديدة أخرى. و سميت بالمعلقة لأنها بنيت على **برجين من الأبراج القديمة** للحصن الروماني)حصن بابليون(، ذلك الذي كان قد بناه الإمبراطور **تراجان في القرن الثاني** الميلادي، و تعتبر المعلقة هي أقدم الكنائس التي لا تزال باقية في **مصر.تذهب** بعض الروايات إلى أن الكنيسة بنيت على أنقاض مكان احتمت فيه العائلة المقدسة **)السيدة مريم العذ**راء، المسيح الطفل، و القديس يوسف النجار(أثناء الثلاث سنوات التي قضوها في مصر، انظر، موقع موسوعة الويكيبيديا العربية، مادة)الكنيسة المعلقة(.

-كنيسة المغارة: تقع هذه الكنيسة في حارة القديسة بربارة خلف دير مار جرجس بمصر القديمة. أُنشئت في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي، وكرست على اسم سرجيون وواخس، وهما جنديان مشهوران كانا من صانعي أسرجة الخيل في بلاط الأمبراطور الروماني

وجد دير رائع، وبه كنيسة كبيرة تسمى كنيسة الكهف- كنيسة المغارة -كنيسة أبو سرجة، وكانت شبارة شن المنزل الذى شاشت فيه السيدة مريم العذراء مع طفلها يسوع شندما هربت به من الناصرة خوفاً من هيرودس الحاكم الروماني، وفي المكان مذبح وفي الوسط البئر الذي شربت منه العذراء ويديرها مسيحي الحزام(١٢١٩).

"$ #توجد كنيسة القديس مرقص في القاهرة حيث يوجد فيها جسده ملفوف بالحرير، وقد رآه الرحالة ولمسه -هذه خرافة من الرحالة فلا يعقل أن يظل جسد إنسان ما كما هو بعد وفاته بسنوات كثيرة - وهى كنيسة مزينة ومزخرفة وبها كنيسة صغيرة أخرى مدفون فيها زوجة ملك أرمينيا الصغرى شندما جاء إلى مصر مع بعض البارونات وأمراء قبرص، ثم أطلق سراحهم جميعاً ولكنها توفت ودفنت فيها(١٢٢٠).

هناك أديرة أخرى مقدسة على نهر النيل في الصحراء الغربية، حيث وجد ديران هما دير القديس أنطوان، ودير القديس بولا، ودير القديس أنطوان به كنيسة معلقة ومحصنة وتبدو كالقلعة وبالقرب منها برج للاشتكاف يقيم فيه ٣٠ راهباً وذلك القديس يطلق شليه أنطوان البندقي Antoine de Venice، وقد شاش حياته ناسكاً قرب نهر النيل ولكن الرب أمره بأن يعيش في الصحراء بعيداً شن الرفاهية والنعيم فرحل شن مسكنه إلى مكان آخر، حيث شاش في منزل كبير وجميل محاط

مكسيميانوس. انظر موقع، www.al-hakawati.net

(1219) Langnon ,Le Saint Voyage, p. 63 , Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , pp. 54 -55,Wright, Early travelers p. 144,Poloner, Description of the Holy Land,p.42,See also, Wolff, How Many Miles to Babylon ? op.cit, p.140.

(1220) Frescobaldi, , A Visit to the Holy Places , pp51,103.

- الملكة الأرمينية هى مارجريت سيسون Margaert of Soisson وهى أرملة Humfroy of Scandelion ثم تزوجت من الملك ليو الخامس لوزنجيان Leo of Lusignan ووالدنها مارى توفيت في السجن في القاهرة وكلاهما توفيا بين عامي ١٣٧٩-١٣٨٢م وكانا مع الملك ليو عندما قبض ولى الملك القبرص بطرس لوزنجيان عام ١٣٧٧م الذى افتدى نفسه وهرب إلى بابا أفينون وتفي عام ١٣٩٣م في باريس.(Frescobaldi)

بأسوار شالية وسميكة مثل القلعة، ويجاوره كنيسة جميلة ومأوى للرهبان والحجاج، ثم بجواره دير القديس بول ويقيم به ستون راهباً وبه مصلى صغيرة ينزل إليها بعدة درجات أسفل صخرة، وقد كان القديس بولا يقيم هناك لأداء العبادة، ثم أقام القديس أنطوان مع بول ومات ودفن فيها(١٢٢١).

ذكر المقريزى شن دير الأب بولا أنه كان يقال شنه دير الأب بولس ثم **سمي** بدير الأب بولا، كما شرف بدير النمورة، وذلك الدير في البر الغربي من الطور **شلى** شين ماء يردها المسافرون والأب بولا، وهو من أهل الإسكندرية فلما مات **أبوه ترك** له ميراثاً كبيراً وأختلف مع أخيه شلى ذلك الميراث فخرج من الإسكندرية **هائماً على** وجهه حتى نزل شند تلك العين، فأقام هناك ومر شليه **القديس أنطونيوس** وشاشا الاثنان معاً وبنى ذلك الدير شلى قبره(١٢٢٢).

تعرضت تلك الكنائس إلى عمليات الهدم **والتخريب لأسباب** عديدة، إما بأمر سلطاني، أو بسبب فتنة بين المصريين **والمسيحيين**، أو بسبب شوامل جغرافية، ففي شام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م وقعت **حادثة للنصارى** أيام المنصور قلاوون، حيث زاد سلطان ونفوذ النصارى **وتعالوا شلى المصريين** المسلمين وتطاولوا شليهم وشلى الأمراء المماليك أيضاً **وضاق بهم الأمير** سنجر العجاشي، فأمر بألا يعمل نصارانى ولا يهودي شند **أمير من** الأمراء، وأن يعرضوا شليهم الإسلام وإلا القتل، فهرب النصارى من **بيوتهم، وتجمع** العامة ونهبوا بيوت النصارى واليهود، ونهبوا الكنيسة المعلقة **بمصر القديمة** وكادوا يخربونها(١٢٢٣).

زار مصر **الوزير** المغربي وفي شام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م وقد أغضبه ما شاهده من **قوة النصارى** وزيادة سلطانهم وشدم التزامهم بالعهد العمرى، فغضب لذلك **وطلب من الأمير** سلار وبيبرس الجاشنكير تولى الأمر، فأغلقوا بعض الكنائس منها

(1221) Langnon , Le Saint Voyage , pp. 68 -72.

(١٢٢٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٤١٠.

(١٢٢٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٤٠٢-٤٠٣.

كنيسة في حارة زويلة لليعاقبة وكنيسة بحارة البندقايين وغيرهم في القاهرة(١٢٢٤).

كما هدمت شدة كنائس في مصر في ساشة واحدة ففي شام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بحفر بركة بجوار كنيسة الزهري غربي اللوق فتأثرت الكنيسة بالحفر، فاستقبز بعض العامة ذلك القرار بالفرح وهدموا الكنيسة حتى صارت تراباً، وأخذوا ما فيها وهدموا كنيسة بومنا بالحمراء **بحارة** الروم، ثم اتجهوا إلى كنيستين بجوار السبع سقايات، ثم خربوا كنيسة بحارة **الروم،** وبحارة زويلة واتجهوا إلى الكنيسة المعلقة بقصر العمع فأغلقها **النصارى وهم** محاصرون وبعد شدة أيام هدمت أربع كنائس في الإسكندرية وكنيستان **في دمنهور** وست كنائس في قوص(١٢٢٥).

ومن المزارات المسيحية المقدسة في مصر منطقة **المطرية** وكانت قرية صغيرة قرب شين شمس، وتبعد حوالي شعرة كيلو **مترات شمال** شرق القاهرة، وهي ذات قدسية ومكانة خاصة في نفوس كل المسيحيين **الوطنيين و**الأجانب، ولذا زارها كل الرحالة الذين وفدوا شلى مصر، ففي **ذلك المكان** وصلت السيدة مريم العذراء وولدها الرضيع السيد المسيح في **حالة من الإشياء العديد** والتعب والعطش، وذهبت تبحث شن الماء في كل مكان ولكنها **لم تجده،** وحين شادت وجدت الماء يجرى تحت قدمي ابنها الوليد فععرت **بالسعادة** والفرح وقامت بغسل ملابس الطفل ومع كل قطرة ماء سقطت من ملابسه نبتت **شجرة** صغيرة كانت ذابلة وهي شجرة البلسان أو البلسم العطرية(١٢٢٦).

ذلك البئر **أو العين** المسماة بعين مريم وضعت في غرفة مغطاة بنبات الصفصاف **ويخرج** من تلك العين قنوات مائية يغتسل منها الزوار، وقيل إن ذلك الماء **له مزايا شلاجية تعالج** بعض الأمراض، وشلى يسار البئر بقليل توجد فتحة مربعة

(١٢٢٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٣٣ -١٣٥ ؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ١٤٠ -١٤١ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٩١٢ – ٩١٣.

(١٢٢٥) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٤٢٧ -٤٣٣.

(1226) Langnon, Le Saint Voyage ,pp. 56 -57 ,Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 54 ,Guide book , vol 6 , p. 32.

العكل كأنها نافذة مغلقة ومزينة بالأحجار والرخام الأبيض، ويقال أن السيدة مريم كانت تضع فيها ابنها المسيح ولذلك السبب يوقدون فيها مصباح يتركونه مضاء باستمرار[١٢٢٧].

كما وجد في المطرية حديقة البلسم الرائعة التي كانت محاطة بأسوار حصينة وبلغ اتساشها حوالي ٦٠ – ٧٠ قدماً وشجرة البلسم أو البلسان تعبه شجرة الكرمة **ولا** تنمو في أي مكان آخر، وكان السلطان يضع شلى الحديقة حراسة شديدة **لأن تلك** العجرة كان يخرج منها زيت أو دهان رائع اشتاد السلاطين أن يرسلوه هدايا **إلى ملك** الحبعة والقسطنطينية وملوك أوربا والبطاركة، ونظراً لأهميته كان السلطان **المملوكي** يحضربنفسه حصاد النبات في شهر أكتوبر، ويقوم بتوزيعه **شلى المار**ستانات لعلاج الكسور والباقي يباع بسعر خاص للأجانب نظراً لاستخدامه **في شمليات** التعميد شند النصارى. [١٢٢٨]، وأمام حديقة البلسان توجد شجرة **التين**)والمقصود بها شجرة الجميز(الضخمة ولونها أحمر وفي داخل الجزع فجوة **ضئيلة كانت** تختبئ فيها السيدة مريم وابنها السيد المسيح[١٢٢٩].

- **المزارات والمقدسات اليهودية فى مصر:**

يتناول ذلك العنصر ذكر **للمعابد والكنا**ئس اليهودية في مصر وفقاً لما ذكره الرحالة الأجانب شنها وهما **اثنان** فقط أحدهما ميعولم بن مناحم الذى زار مصر شام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١ م، والإخر **هو شوبديا** جاريه الذي جاء إليها شام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧ م.

- **معابد اليهود فى الإسكندرية والقاهرة والفسطاط:**

وجد في **الإسكندرية** معبدان فقط لليهود، معبد صغير وآخر كبير، وثبت أن المعبد **الصغير قد بناه** النبي إلياس وقد اشتاد اليهود الصلاة فيه وبداخله أنوار مضيئة

)1227(Geshitele,Voyage en Egypte , p. 72 , Nicolo, A Voyage Beyond **the seas, p.** 93 .

)١٢٢٨(القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٨٧ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٢٢٨ ؛ ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ١٣٣ ؛

Frescobaldi, , A Visit to the Holy Places , p. 107 , Wright , Early Travelers , p. 153.

)١٢٢٩(بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧١ ؛ Langnon, Le Saint Voyage , p. 58.

وبه اثنان من العمامسة وهما المسئولان شن إدارته وحدث شيء غريب في ذلك المعبد شام٨٦٠هـ/١٤٥٥م في ليلة رأس شيد الغفران هو أن الراهبين شندما ذهبا للنوم في المعبد رأيا في منتصف الليل رجلاً شجوزاً يجلس شلى كرسي فتقدموا نحوه في خضوع وخعوع وتوسلوا إليه وشندما اقتربا منه أكثر صعد إلى السماء ولم يعرفا من ذلك الرجل، وفيه أيضاً ٢٤ نسخة من الكتاب المقدس شلى أوراق البردي في أ**ربعة** أجزاء بخط رائع، وكذلك لفافة من الورق فيها القوانين والقواشد التي وضعها **النبي** شزرا وكذلك أشداد أخرى من المخطوطات اليهودية[1230].

وقد أحصي المقريزي عدد الكنائس اليهودية في القاهرة **بحوالي** ١٠ كنيسة مثل، كنيسة دموه بالجيزة، وكنيسة جوجر، **وفي الفسطاط** كنيسة بخط المصاصة في درب الكرمة وكنيستان بخط قصر العمع **وبالقاهرة** كنيسة بخط الجودرية وفي حارة زويلة خمس كنائس[1231]، **كما وجد في** الفسطاط دير للنبي إلياس، مثلما وجد في الإسكندرية، وقيل إنه قد شاش **فيه ويقع** في الناحية الجنوبية الغربية[1232]، وهناك دير آخر سمي كنيسة **جوجر شاش** فيها أيضاً[1233]، وفي خط المصاصة بالفسطاط هناك كنيسة **المصاصة التي بنيت** شام ٣١٥ م وزشم اليهود أنها كانت مجلساً للنبي إلياس[1234]، **وكان فيها أيضاً** معبد آخر للنبي شزرا قيل أنه شاش فيه وكتب التوراة بخطه، **وكانت** البردية موجودة حتى حاول أحد اليهود الأوربيين ذات مرة شرائها من خادم **المعبد** وحاول السفر إلى الإسكندرية، ثم إلى أوربا فغرقت السفينة، أما **الخادم الذي باع** البردية بمائة دوكة ذهبية فقد مات بعدها مباشرة ولكن البردية الأصلية **ما زالت في** المعبد، وحائط المعبد مبني منذ ٣٨ شام قبل هدم المعبد المجاور **له، ولكنه** ليس مساوياً له في الحجم والمساحة، و كان يذهب إليه اليهود

(1230) Adler , Jewish Travelers , pp. 161 -162 , 222.

(١٢٣١) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٥٠.

(1232) Adler, Jewish Travelers,pp.167,230.

(١٢٣٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٥٨

(١٢٣٤) نفس المصدر، ص ٣٦٠.

للصلاة في يوم السبت([1235])، وذلك المعبد ذكره المقريزي باسم كنيسة العاميين بخط قصر العمع ومكتوب شلى بابها بالخط العبراني حفراً في الخعب بأنها بنيت في سنة ٣٣٦ ق.م وقيل أيضًا إن بها التوراة مكتوبة بخط النبي شزرا([1236]).

قرب مدينة الجيزة وشلى مسافة قريبة من الأهرامات وجد معبد آ % ـٌ مكرس للنبي موسى عليه السلام وهو نفس المكان الذي اشتاد الجلوس فيها([1237])، وذكره المقريزي بأنه بكنيسة دموة وكانت تعد أشظم معابد اليهود بأرض مصر و اثبت اليهود أنه الموقع الذي أقام فيه موسى حين كان يبلغ رسالته، وزشم اليهود أنها قد بنيت بعد خراب بيت المقدس الخراب الثاني قبل الميلاد وبتلك الكنيسة شجرة كبيرة منذ شصر النبي موسى شليه السلام، ولتلك الكنيسة شيد يرحل إليها اليهود وهو شيد الخطاب في شهر مارس ويجعلون ذلك بدل حجهم إلى القدس([1238]).

- **المزارات والمقدسات المسيحية فى بلاد الشام:**

قال الحنبلي إن في القدس العريف شدة كنائس هامة للنصارى يحجون إليها أهمها كنيسة قمامة، فإنها شند النصارى بمكان شظيم وبناؤها في غاية الآحكام والإتقان، ويقصدونها في كل سنة من شدة أقطار الفرنج والروم وبلاد الأرمن والديار المصرية والعامية، ويليها كنيسة صهيون، ثم مار يعقوب بدير الأرمن قرب صهيون، وكنيسة المصلبية لطائفة الكرج بظاهر القدس جهة الغرب([1239]).

، ٠٠ ٠إ ٠؛ $ ⦿ ٠٠٠٠ وتسمى بكنيسة)القيامة – القمامة – الشهيد(وتعد البقعة الأولى التي يجب أن يراها الزائر بسبب قدسيتها ومكانتها وتقع في منتصف مدينة بيت المقدس، وفي البداية لم يهتم المسيحيون بالأماكن الخاصة بالمسيح ولكن بعد اشتناق الإمبراطور قنسطنطين المسيحية وجعلها الدين الرسمي للدولة، جاءت الإمبراطورة هيلانة إلى القدس للبحث شن المكان الذي صلب فيه المسيح وشن مكان الصلب ذاته،

([1235]) Adler,op.cit , p. 231

([1236]) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٦١.

([1237]) Adler , op.cit , p. 167.

([1238]) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٥٠.

([1239]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ٥١.

وشندما وجدتهما أمرت ابنها الإمبراطور ببناء كنيسة شلى تل الجلجثة)كلفاري Calvary - جبل أكرا – جبل الصلب(في مكان صلب المسيح، وكنيسة أخرى مكان القبر وقد استغرق بناؤها أحد شعر شاماً من شام ٣٢٥ م إلى ٣٣٦ م، ولكن الفرس هدموها شام ٦١٤ م، ثم أشاد بناءها الإمبراطور هرقل، وقد تعرضت للهدم من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي شام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩م وظلت خراباً حتى شام ٤٢٩ **هـ /** ١٠٣٧م حين شقد إمبراطور بيزنطة معاهدة فأرسل المهندسين والمعماريين **فوراً من** القسطنطينية وبنيت الكنيسة من جديد، وشندما قامت الحروب الصليبية في **شهد الملك** الصليبي بلدوين الثالث Baldwin iii)٥٣٨-٥٥٨( )١١٤٣-١١٦٢م(**إلى المعماري** الفرنسي جوردان بتوحيد البناء شلى الطراز القوطي في **أوربا**(1240).

هكذا فإن كنيسة القيامة تعد من أهم وأشظم الكنائس **في** بلاد العام شلى الإطلاق ومزاراً أساسياً للحجاج والرحالة لدرجة أنهم **كانوا يدخلونها** شدة مرات طوال فترة إقامتهم في بيت المقدس، حيث احتوت **شلى قبر المسيح** وشلى شدد من الكنائس والمعابد الصغيرة ذات الطابع المقدس **والتي ارتبطت** بحدث ديني هام ونظراً لقدسيتها فقد وصفها الرحالة المسلمون **أيضاً مثل الرحالة** ناصر خسرو حيث قال شنها للنصارى في بيت المقدس كنيسة **لها شندهم** مكانة شظيمة يحج إليها في كل سنة كثير من بلاد الروم وتلك الكنيسة **الفسيحة** العظيمة ومزخرفة بالرخام الملون والنقوش والصور منها صورة للسيد **المسيح** مطلية بزيت السندوس الذي يستخرج من صمغ بعض الأشجار **وصور أخري** ومغطي سطح كل لوحة بالزجاج العفاف وبها أيضًا لوحة مقسمة **إلي قسمين لوصف** الجنة والنار وليس في العالم كنيسة مثلها ويقيم بها كثير **من القساوسة** والرهبان يقرءون الإنجيل ويصلون ويعتغلون بالعبادة ليلًا ونهارًا **وفيها دير للرهبان** الفرنسيسكان الذين يخدمون الكنيسة وبها شدد آخر من الأديرة وكل **طائفة مسيحية** لها مكان محدد في كنيسة القيامة وأشظم احتفالاتهم في أيام الأسبوع

(1240) محمود العايدي، قدسنا، القاهرة، ١٩٧٢ م، ص ٣٨ ؛ محمد كرد، خطط الشام، ج٦، ص ٦-٧

Patterson)W.(, Sacred Sites , New York , 2004 , p. 48.

المقدس وشيد الفصح [١٢٤١]، وتلك الكنيسة قد سميت بكنيسة قمامة لأن مكانها كان موضعاً للقمامة وإلقاء القاذورات حيث كانت تقع خارج المدينة وفي ذلك المكان أيضاً تقطع فيه أيدي المفسدين وتصلب به اللصوص[١٢٤٢].

كنيسة الضريح وغيرها من الأماكن المقدسة كانت في أيدي المسلمين، وقد امتلكوا مفاتيحها حيث كان يتولى مفاتيحها ثمانية من مسلمون كان السلطان يختارهم بنفسه من أسرة مسلمة مقدسية أي مقيمة في بيت المقدس، وهم تحكموا في فتحها وإغلاقها والكنيسة ذات ثلاثة أبواب، اثنان منها مغلقان والإخر مفتوح ولا يسمح الحارس المسلم لأحد بدخولها إلا بعد الحصول شلى التصريح والآذن من حاكم بيت المقدس أو من السلطان وبعد دفع الرسوم يفتحون الباب ويتركونه فيها لصباح اليوم الثاني ويغلقون الباب. [١٢٤٣]، وشلى أية حال فإن أبواب الكنيسة كانت تفتح مرتين في السنة مجاناً لكل المسيحيين، ومواشيد الفتح هي من يوم الجمعة الحزينة حتى الاثنين من شيد الفصح، ومن شعية شيد الصلب حتى مساء اليوم الثاني، وكانت الكنيسة في تلك الأيام مزدحمة بالرجال والنساء من جميع بلدان العالم[١٢٤٤].

الكنيسة مستديرة الشكل وبلغ مقياس قطره بين الأشمدة ٧٣ قدماً باستثناء الأجلاء البارزة التي بلغ مقياسها ٣٠ قدماً حول جدار الكنيسة. [١٢٤٥]، وكانت مغطاة بالرصاص، وفي وسط الكنيسة مظلة تعبه المنزل الصغير بها باب منخفض وهى مزينة بالذهب والفضة وأحجار اللازورد وألوان شديدة وجميلة، وفى جهة اليمين منها وجد الضريح المقدس حيث دفن السيد المسيح[١٢٤٦]، كما احتوت تلك الكنيسة

[١٢٤١] ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٨٨ -٨٩.

[١٢٤٢] الهروي، الإشارات لمعرفة الزيارات، ص ٣٣.

[1243] Nicolo , A voyage Beyond the seas , pp. 12 ,16,Casola , Pilgrimage to Jerusalem ,p. 59,Fabri , the wandering , vol 1 part 2, p. 340.

[1244] Fabri , the wandering , vol 1 part 2,p. 427.

[١٢٤٥] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٣٨.

[1246] Wright , Early Travelers , p. 166 , Shilterberger , The bondage and Travel of Johan, , p. 57.

علي العديد من الأديرة والكنائس داخلها وخارجها، وقد بنيت تلك المباني المقدسة في أماكن ذات قدسية ومكانة روحية ودينية هامة فعلى سبيل المثال، خارج الكنيسة في الساحة توجد أربعة كنائس صغيرة، الأولى، ثليسة القديسة مريم العذراء حيث ظهر لها السيد المسيح، وكان يديرها المسيحيون الهنود، والثانية شلى نفس الجانب وسميت كنيسة القديس يوحنا المبشر وكان يديرها طائفة اليعاقبة ومكانها حيث صلب المسيح، والثالثة شلى اليد اليمنى بجوار برج الناقوس وهي كنيسة مريم المجدلية والتي كان يديرها طائفة اليونانيين، والرابعة كنيسة القديس يوحنا المعمدان(١٢٤٧)، وفيها كنيستان واحدة تحت الأرض شلى الطراز البيزنطي بنيت شام ٤٥٠م، والأخرى فوقها وشندما أستولى الصليبيون على بيت المقدس اتخذوا الدير والكنيسة مستعفى ومقراً لفرسان القديس يوحنا، وشندما استردها صلاح الدين أشادهما للرهبان(١٢٤٨).

وجدت صخرة الصلب في الكنيسة شلى الجانب الأيمن قرب السدة والتى اطلق شليها جبل الصلب حيث وضع السيد المسيح شلى الصلب، كما وجدت صخرة بيضاء اللون ملطخة بدماء وشليها الصليب(١٢٤٩)، وفي ذلك المكان بنيت كنيسة الصلب)الجلجثة(ذات العكل المستطيل بالرخام وزينت بأشمال الفسيفاء، والرسوم ولها أبراج أمام السدة وهي مفتوحة من أشلى(١٢٥٠)، وشلى جبل الصلب حدثت أمور أخرى حيث قتل هابيل أخاه قابيل وافتدى إبراهيم ابنه إسماشيل وذبح موسى الحمل في شيد الفصح شند اليهود ووجد شليه رأس آدم شليه السلام(١٢٥١)، وجبل الصلب يقع في

)1247(Souriano, Treaties on the holy Land , p.41 ,Poloner, Description of the Holy Land,p. 4 ,Guide book ,vol 6 , p. 259.

)١٢٤٨(عارف العارف، تاريخ القدس، ص ٢٣٩.

)١٢٤٩(بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٥ ؛ Wright , Early Travelers , p. 166.

)1250(Luodolph ,Description of the Holy land, p. 103, Fabri , the wandering, vol 1 part 2,p 364.

)١٢٥١(Fabri , the wandering, vol 1 part 2 , p. 364.

- هنا بعض الأخطاء العلمية التي ذكرها الرحالة الأوربيين، حيث قتل هابيل أخاه قابيل على جبل قاسيون في دمشق وفيه مغارة الدم، أما سيدنا إبراهيم فقد افتدى ابنه إسماعيل عند الصخرة التى في

الجانب الغربي من جبل موريا ويبعد حوالي ٢٠٠ خطوة خارج أسوار أورشليم القديمة وكان مكان تطبيق العقوبات أيام السيد المسيح(١٢٥٢)، وفي الساحة أيضاً قرب صخرة الصلب كنيسة صغيرة منحوتة في الصخر وليس بها نوافذ بل مذبح وبابان، وكان ذلك المكان سجناً أيام السيد المسيح يحبس فيه المجرمين وبه أدوات التعذيب مثل الصليب والمعنقة والعجلات وأخعاب للنار(١٢٥٣)، وشند دخول كنيسة الضريح ناحية اليمين توجد غرفة مظلمة فيها قبر الملك الصليبي جودفري Godfrey of Bouillon(٤٩٣-٤٩٤هـ) (١٠٩٩-١١٠٠م)، وأخيه بلدوين الأول Baldwin I (٤٩٤-٥١٢هـ) (١١٠٠-١١١٨م) وغيره من الملوك الصليبيين(١٢٥٤)، ثم كنيسة القديسة هيلانة ذات الباب الكبير وهي شبارة شن حوائط صخرية وشلى بعد شدة خطوات لأشلى يوجد سقف مقوس به فتحة يدخل منها النور وذلك السقف يعتمد شلى الأشمدة التي كانت تدشم الساحة التي حكم فيها السيد المسيح، وأحضرتها الإمبراطورة هيلانة لتدشم بها كنيستها واحتوت الكنيسة شلى مذبحين وبجوار المذبح الكبير ناحية اليمين يوجد كرسي حجري وشنده وجدت الإمبراطورة هيلانة الصليب المقدس(١٢٥٥).

أما عن وصف الضريح المقدس نفسه فهو مستدير الشكل ويبدو شليه أنه

منى في مكة المكرمة وعنده المنحر الآن، أما سيدنا آدم عليه السلام فقد دفن في جبل أبى قبيس في مكة المكرمة ثم نقله سيدنا نوح عليه السلام وقت الطوفان إلى الكوفة في منطقة النجف الأشرف في مكان يسمى مرقد نوح م يقال أنه دفن في بيت المقدس.)الباحثة(

)1252(Peters , Jerusalem The Holy City , p. 41.

- جبل الصلب: خصص لأولئك الذين حكم عليهم بالموت وحلقت شعورهم واصبحوا صلعاء وغدت جماجمهم بيضاء وجردوا من الطبيعة البشرية ولم يدفنوا في التراب ولذا دعي المكان باسم الجمجمة)الجلجثة(، انظر، يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد وبد الله البيشاوي، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٦٢.

)1253(Fabri , the wandering, vol 1 part 2 , p. 364 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 260 , Potvin , Oeuvres de Ghillebert, p. 75.

)١٢٥٤(بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٦ ؛

Casola ,Ibid , p. 275 , Fabri , Ibid, vol 1 part 2, p. 372 ,

)1255(Fabri , the wandering, vol 1 part 2, pp. 356 -361.

برج منخفض وشليه رسم لملاكين شند زواياه وفوق الضريح قبة يدشمها ٢٥ شموداً، ومحاطة بإفريز دائري والمقبرة ذاتها مغطاة بالرخام الأملس من الداخل والخارج، وفوق تلك القبة قبة أخرى مرتفعة جداً قائمة شلى أشمدة كبيرة الحجم، وبها فتحة كالنافذة مصنوشة من خعب شجر السرو القبرصي وخعب الأرز، والقبة مغطاة بالرصاص، وفي تلك الحجرة التي بها الضريح باب واحد صغير ومنخفض و**أمام** مدخل الغرفة توجد الصخرة التي كانت غطاءاً للضريح وفوقها أيضًا قبة **أخري بها** نافذتان ويتدلى من سقف الضريح ٤٠ مصباحاً[١٢٥٦].

- **مقدسات ومزارات جبل الزيتون ووادي يوشفات:**

توجد كنيسة الجسمانية شند سطح جبل الزيتون **وكانت موضع** حديقة كان يجلس فيها السيد المسيح وألقى القبض شليه فيها من **قبل الجنود الرومان** نتيجة خيانة يهوذا، وبها الصخرة التي كان يقف شليها وما زالت **شليها آثار قدميه**[١٢٥٧]، وفي ذلك المكان اصطحب المسيح تلاميذه قائلاً لهم: **ستظل روحي** حزينة حتى الممات وهناك تلقى القديس توما حزام السيدة مريم **العذراء وبكى** المسيح شلى أورشليم يوم شيد الفصح، وفيها أشطي جبريل سعفة **النخيل للسيدة** العذراء[١٢٥٨]، وهناك أيضاً شلى جبل الزيتون كنيسة **للقديسة بيلاجيا** Pelagia والتي كانت محظية وقد وهبها المسيح نعمة التوبة والغفران **وجعل** منها مثلاً للمعتبرين[١٢٥٩]، وشلى جبل الزيتون

[1256] Fabri , the wandering, vol 1 part 2, pp. 398 -**416, Souriano ,** Treaties on the holy Land, pp. 46 -47 , Luodolph, Description of **the Holy land,pp.** 104 -105.

[١٢٥٧] **بورخارد**، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٣٦ ؛ Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p.77 , Guide book , vol 6, p. 16 ,Langnon , Le Saint **Voyage , p. 17.**

[1258] Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 72 , Potvin , Ibid , R. B , Two Journey to Jerusalem , p. 36.

[١٢٥٩] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٤٨ ؛ Potvin, Oeuvres de Ghillebert, p. 78 , Guide book ,vol 6, p. 15.

أيضاً توجد كنيسة المخلص في الموضع الذي صعد منه السيد المسيح إلى السماء والذي تم تحديده في منتصف الكنيسة وفوق الموضع فتحة حيث صعد منها المسيح وبقيت مفتوحة هكذا[١٢٦٠] وسميت أحياناً بكنيسة الصعود أو كنيسة الزيتون وهي كنيسة مستديرة الشكل ولها قبو وسرداب وشاش فيها شدد قليل من **النساء** والراهبات[١٢٦١] وأطلق شليها الرحالة المسلم الهروى اسم كنيسة السليق[١٢٦٢]، وهناك كنيسة أخرى صغيرة وهي الموضع الذي علم عنده السيد المسيح **تلاميذه** الصلاة الربانية وسميت باسم كنيسة الصلاة الربانية أو باسم **كنيسة بيت** الخبز[١٢٦٣].

توجد كنيسة ضريح السيدة مريم العذراء في **وادي يوشفات** والتي فيها مقبرة السيدة العذراء وهي كنيسة تحت الأرض قليلاً **بعدة خطوات**، وقد كانت الكنيسة فوق الأرض ولكن نتيجة السيول من جبل **الزيتون هبطت تحت** الأرض قليلاً واحتوت الكنيسة شلى شدة مذابح والضريح **في وسطها في** داخل غرفة مضيئة بالمصابيح والكنيسة لها مدخل واحد من الغرب، **والآخر** من العمال، والمكان ليس مخصصاً لطائفة معينة بل المذبح يخص طوائف **شديدة**، فالمذبح الذي بجوار الضريح للأرمن والثاني تحت القبة للجورجيين، والثالث تحت النافذة لليونانيين، والرابع شند زاوية العمال للاتين، **والخامس** بجوار المدخل للهنود وفي داخل الكنيسة أيضاً مقبرة شظيمة مغطاة بالرخام **الأبيض حيث** دفنت الملكة Millicent التي بنت الكنيسة وشلى الجانب الإخر من **السلالم توجد** مقابر مزينة ومزخرفة ومنها مقبرة السيدة حنا أم السيدة مريم

[١٢٦٠] **بورخاد**، وصف الأراضى المقدسة، ١٤٨ ؛ بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٦ ؛
Luodolph , Description of the Holy land,p. 112.

[1261] Souriano, Treaties on the holy Land,, p. 118.

[١٢٦٢] الهروي، الإشارات لمعرفة الزيارات، ص ٣٣.

[١٢٦٣] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٤٨ ؛
Fabri , the wandering, vol 1 part 2 , p. 501 , Luodolph ,op.cit , p. 112.

العذراء والأخرى لوالدها شمران.[١٢٦٤]، ومفاتيح تلك الكنيسةكانت مع رهبان دير صهيون وذلك بعد الإذن والتصريح بذلك من السلطان المملوكي[١٢٦٥].

ومن المزارات الأخرى بركة سلوان في وادي يوشفات شند أسفل جبل صهيون والتي تتدفق منها المياه شبر قناة إلى البركة العليا وبركة الاستحمام **في** سلوان، وفيها يقوم الحجاج المسيحيون بالاغتسال والاستحمام كما فعل السيد **المسيح** مع الرجل الأشمى الذي شفاه[١٢٦٦].

- **مزارات ومقدسات جبل صهيون:**

وجدت كنيسة القديس متى في الطريق إلى جبل **صهيون وفيها** أحضرت الملائكة رأس القديس من يافا حيث قطعت رأسه هناك[١٢٦٧]، **وشلى** الجبل كنيسة القديس المخلص أو المنقذ والذي كان في الأصل **منزل** Caiaphas حيث اشتقل المسيح لأول مرة وشُذِبَ وجُلِدَ بالسوط، وشلى الحائط **خارج بو**ابة الكنيسة يوجد جزء من العمود الذي ربط شليه السيد المسيح، وفي **نفس المكان** كان بطرس الرسول يتنكر للمسيح شندما ظهر بعد وفاته، **وهناك أيضاً السجن** الذي سجن فيه المسيح حتى الصباح ثم أرسلوه إلى الحاكم **الروماني بيلاطس**[١٢٦٨]، ثم إلى أشلى نجد كنيسة القديس يوحنا المبعر[١٢٦٩]، **وشليه** شدة أماكن مقدسة أخرى مثل الحجرة التي شاشت فيها العذراء بعد وفاة ولدها، **وهناك** المصلى الذى كانت تصلى فيه، وقرب الكنيسة

)1264(Fabri , the wandering, vol 1 part 2 , pp. 464 -469 , Poloner , Description of the Holy Land , p. 7.

)1265(Souriano , Treaties on the holy Land,pp.112 – 114.

)١٢٦٦(**بورخارد، وصف** الأراضي المقدسة، ص ١٣٦ ؛
Fabri , the wandering, vol 1 part 2 , p. 526 , Wright , Early Travelers , p. 175.

)1267(Wright, Early Travellers, p, 173 , Guide book ,vol 6, p. 10.

)1268(Guide book , Ibid , p. 11 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 75 , Shilterberger , The bondage and Travel , p. 59.

)1269(Guide book , ibid.

المكان الذي تناول فيه المسيح الععاء مع حواريه وقدم لهم جسده ودمه في شكل خبز وخمر[١٢٧٠].

تعد كنيسة ودير جبل صهيون من أهم المقدسات والمزارات المسيحية في جبل صهيون وبلغ طول كنيسة صهيون ١٠٠ ذراع وشرضها ٥٠ ذراشاً وبها ثلاثة صحون ومغطاة بالبلاط والرخام الرائع والأرضية بالفسيفساء وقد دمرت تلك الكنيسة شام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م، ثم إشادة بناءها الدوق فيليب الطيب البرجندي)١٣٩٦ – ١٤٤٦ م(، وأنفق شليها ١٤٠٠٠ دوكة ذهبية لإشادتها كما كانت[١٢٧١]، وأصبحت غاية في الجمال والروشة وقيل أن تلك الكنيسة كانت شبارة شن الغرفة التي تناول فيها السيد المسيح الععاء الأخير مع تلاميذه قبل وفاته حيث يوجد المذبح العالي، وشلى الجانب الآخر الأيمن من المذبح يوجد مذبح آخر حيث غسل المسيح أقدام تلاميذه وخارج الكنيسة شلى الجانب الأيمن بالاتجاه إلى مساكن الرهبان يوجد المكان الذي وقف فيه الحواريون ونزل شليهم الروح القدس وتحتها كنيسة صغيرة للقديس توما الذي كان تلميذ المسيح[١٢٧٢].

شاش في الدير رهبان وكان به حارس للدير مسيحي من طائفة الرهبان الفرنسيسكان وسمى القيم شلى دير صهيون أو حارس الدير أو رئيس الأساقفة وكان تحت إمرته ثمانية رهبان أو أكثر موزشين كالآتي، اثنان في كنيسة الضريح وستة آخرون في كنيسة الميلاد في بيت لحم[١٢٧٣]، وقد استطاع الدوق فيليب البرجندي حماية الرهبان من تعسف وبطش السلاطين المماليك، وكان في كز شام يرسل للدير ١٠٠٠ دوكة ذهبية حتى وفاته ثم أوصى بأن يستمر خليفته في معاونة رهبان الدير، ثم حصل الرهبان شلى ٦٠٠٠ دوكة فيما بعد وأشادوا بناء أجزاء في الدير مما أثار

[1270] Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp. 192 - 193 , Nicolo, A voyage Beyond the seas , pp , 31 -34.

[1271] Souriano, Treaties on the holy Land, p. 123.

[1272] Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 254.

[1273] Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 75. Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 254

ضغينة وغضب العامة وقاموا بتدمير جزء منه مثل غرف الرهبان والصوامع وكان سبب التدمير هو اشتقادهم بأن تحت الكنيسة قبر النبي داود، وشندما شرف ملك أسبانيا بذلك أرسل إلى السلطان يهدده بتعذيب مسلمي الأندلس فأدى ذلك إلى توقف الهدم والتدمير(١٢٧٤).

قدم ملوك أوربا من فرنسا وصقلية والأندلس مبالغ مالية كبيرة ونفقات وهدايا للسلطان المملوكي لعراء الضريح المقدس وكنيسة الضريح وكنيسة دير جبل صهيون وكنيسة الروح القدس ومسكن النساك ومأوى الرهبان الفرنسيسكان في بيت لحم، كما بنى ملك فرنسا مسكناً للرهبان في جبل صهيون وقدمت ملكة صقلية ١٠٠ دوكة ذهبية هبه للدير(١٢٧٥).

نفهم من ذلك أن الرهبان الفرنسيسكان في دير جبل صهيون كان لهم وضع سياسي وديني مختلف شن بقية الطوائف، ولكنهم أحياناً كانوا يتعرضون للإساءة في حالات معينة فمثلاً، بعد أحداث غزو الملك القبرصي بطرس الأول لوزجنان peter 1)٧٦١-٧٧١هـ( )١٣٥٩ –١٣٦٩ م(للإسكندرية شام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م اشتدت حالة الفوضى السياسية والاقتصادية في البلاد، واتبعت السلطات المملوكية أساليب الانتقام من الجاليات الأجنبية المقيمة، وكذلك الرهبان وخاصة الرهبان الفرنسيسكان في دير جبل صهيون، فألقى القبض شليهم جميعاً في سجون القاهرة ودمنهور لمدة ثلاث سنوات بالإضافة إلى حرمانهم من حقوقهم وامتيازا تهم التي كانوا يتمتعون بها(١٢٧٦).

(1274) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 124.

(1275) Ibid,op.cit, p. 125.

(١٢٧٦) المقريزي، السلوك، ج٣ ق١، ص ١٠٧ ؛ النويري السكندري، الإلمام، ج٢، ص ١٥٦ - ١٥٧.

- حملة بطرس: قام الملك القبرصي بمساعدة ملوك أوربا بغزو الإسكندرية كمشروع صليبي وبالفعل أبحرت الحملة ووصلت الإسكندرية عند الغروب في يوم ١٦محرم ٧٦٧هـ/٩أكتوبر ١٣٦٥م وظن أهل الإسكندرية أنها سفن تجارية، وأستغل بطرس الأول وقت صلاة الجمعة وضعف أسوار المدينة وسوء الأحوال في الدولة عامة فأمر قواه بالنزول وهاجموا المدينة واستولوا عليها لمدة ثلاثة أيام

ذكر الرحالة الراهب جان جيرمان jean germane الذي كان معاصرا للسلطان المملوكي جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) (١٤٣٨-١٤٥٣م) سوء معاملة الرهبان الفرنسيسكان ففي شام ٨٥٦ هـ / ١٤٥١م تعرض الرهبان بدير صهيون لانتقام السلطات المملوكية والقبض شليهم والتعهير بهم في شوارع القدس وسجنهم **في** القاهرة[1277]، ثم القيام بحملات تفتيش شلى الكنائس والأديرة وكان ذلك مجرد **إجراء** انتقامي قام به السلطان المملوكي جقمق بسبب تعرض السواحل والثغور **المصرية** والعامية للغارات التخريبية من قبل القراصنة الأوربيين فأمر بهدم ما **استجد في دير** صهيون وانتزاع قبر النبي داود[1278]، وفي شهد السلطان الأشرف **إينال (٨٥٧-**٨٦٥هـ) (١٤٥٣-١٤٦١م) كانت هناك كنيسة للنصارى **مجاورة لكنيسة** القيامة ولها قبة شالية البناء وكان النصارى يقرءون كتابهم بصوت **مرتفع ويصل** صوتهم إلى مسجد قبة الصخرة، فانزشج المسلمون وشندما حدثت **زلزلة شام ٨٦٣** هـ / ١٤٥٨م، وهدمت القبة فتوجه النصارى بالمال لنائب السلطنة **وقاضي القدس** فأذن لهم بإشادة بنائها، ولكن القاضي شمس الدين هدم **ما استجده** النصارى من بناء في دير صهيون[1279].

وشهدت المدينة أفظع مذبحة **بالإضافة إلى** عمليات السلب والنهب ولم يفرق الغزاة بين مسيحى أو مسلم أو يهودى وخربت **المساجد والمقابر** و الكنائس وسرقت التحف والمحلات والأسواق وكذلك فنادق الأجانب، **وعندما وصلت** الأخبار إلى القاهرة وكان السلطان هو الأشرف شعبان صغير السن وكانت السلطة في **يد الأمير يلبغا** الخاصكي وبدأ يستعد بحملة عسكرية للإسكندرية وعندما علم بطرس **بذلك أمر قواده بالرحيل** بعد حوالى اسبوع من الأعمال الوحشية وأبحر الصليبيون يوم ١٦**أكتوبر وحملوا معهم** ١٥٠٠ أسير وبيعوا في أسواق أوربا. أنظر، النويري السكندري، الإلمام، **ج٢،ص ٨ 'وما بعدها**، المقريزي، السلوك،ج٣ق١، ص ٤١٣-٤٣٢ Hill,Ahistory of Cypurs,vol 2 ,p.332, Atiya ,op.**cit,p.354**.

(1277) Jean German , Les Discours de Voyage de Oultermer par Jean **German** ,R.O.L , tome 3 , Paris , 1895 , pp. 325 -326.

(١٢٧٨) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٩٨ ؛ أنظر أيضاً، محمد كرد، خطط الشام، ج ٦، ص ١٣ -١٤.

(١٢٧٩) الحنبلي، نفسه، ص ٢٦٣ -٢٦٤.

تمتع الرهبان في دير صهيون بعناية واهتمام السلاطين المماليك خاصة في شهد السلطان الأشرف قايتباي ففي شام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م أثناء رئاسة الراهب فرنسيس روسو البياتعنزى Friar Francis Rosso of Piacenza)١٤٦٧-١٤٧٢م(لديرجبز صهيون حدثت فوضى وتمرد في القاهرة لتولي السلطة وهرب الأمير قايتباي ومعه صديقه الأمير يعبك الفقيه وكان كلاهما مقدم ألف و**أمر** السلطان المملوكي الجديد بتحديد إقامتهما في بيت المقدس فقط ولم يسمح لهما **بالتحرك** خارجها، وكانا ممنوشين من ركوب الخيل، أو اتخاذ الخدم، أو مغادرة **المدينة، ولم** يكونا قادرين شلي زيارة أحد، وفي ذلك الوقت قابلهما رئيس الدير وقدم **لهما الطعام** والعراب والمال، وكان الرهبان يستقبلون قايتباي لا بوصفه **سجينا منفيا** بل اشتبروه سيدا نبيلا بالإضافة إلي أنه كان يأتي للدير بعغف كبير **لأنه كان يحب** الخضروات وطعام الرهبان، وبعد تولي الأشرف قايتباي السلطة **جاء رئيس** الرهبان إلى القاهرة وقابل السلطان ورحب به كثيراً وتذكر ما فعله معه **وقت العدة** وأشطاه صك الأمان والحماية ومن وقتها لم يؤذ أحد رهبان دير **صهيون**[١٢٨٠]، وهكذا أصبح رهبان دير صهيون محل الرشاية والاهتمام **والأمان والحماية** ورفع الظلم شنهم والاستجابة لمطالبهم بعمارة الأديرة والكنائس **وترميمها** حيث استطاشوا الحصول شلى شدة مراسيم سلطانية تعالج شئون **دينهم** وحياتهم وبذلك شهد شهد قايتباي سماحة شظيمة للرهبان الفرنسيسكان وكانوا **شلى** الدوام محلاً لرشاية السلطان والدوادار الكبير الأمير يعبك[١٢٨١]، ومنذ **ذلك الحين** فصاشداً وخلال شهد قايتباى كان للرهبان في بيت المقدس الأهمية **في البلاط** المملوكى ونعموا بالحماية و الرشاية.

أثبتت الوقائع والأحداث فيما بعد صحة تلك المراسيم الخاصة بالأمان **والحماية ففي شام** ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥م حدث أن قبض حاكم بيت المقدس شلى راهب

)[1280](Souriano , Treaties on the holy Land , p. 127 , See Also , **Wolff , How** Many Miles , pp.32-33.

- هذا النص لا يمكن التأكد من صحته في المصادر التاريخية الإسلامية المعاصرة حيث لم تعثر الباحثة علي نص مشابه.

)[1281](Schefer , Le Voyage de La Saincte de Jerusalem , p. xx.

دير صهيون ويدشى الراهب جاكومو ماجنا فاكبا Jacomo mangna vaccba، والذي صار رئيس الدير فيما بعد (٨٨٠-٨٨٢هـ) (١٤٧٥-١٤٧٧م) ووضعه في السجن وأجبره شلى دفع مبلغ ١٠٠ دوكة ذهبية، ثم سافر ذلك الراهب إلى القاهرة لعرض شكواه شلى السلطان قايتباي الذي أرسل شلى الفور إلى يعبك أمراً بالقبض شلى حاكم بيت المقدس وإحضاره إلي القاهرة مقيدا بالأغلال، وشندما تأكد من **احتياله** واستغلاله لمنصبه ضربه بقسوة أمام الرهبان، وخلع من منصبه، ووضع **في** **السجن** خمس سنوات، ولم يجرؤ أحد بعدها شلى إساءة وإيذاء الرهبان الفرنسيسكان **في** **جبز** صهيون[١٢٨٢].

لكن ذلك الوضع لم يكن ليستمر طويلاً فقد كان **الرهبان** **رهينة** في أيدي السلطان المملوكي استخدمهم كوسيلة للضغط شلى الدول **الأجنبية** شندما تسوء العلاقات معهم، ففى شام ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م شن **القراصنة** **غارة** شلى ميناء الإسكندرية وأسروا بعض كبار التجار في الميناء، **منهم** **تجار** السلطان قايتباي، وهم ابن شليبة، وابن يعقوب، وشلي الكيزاني **وغيرهم،** وتوجهوا بهم إلي بلاد الفرنج، واضطربت أحوال الإسكندرية وكادت **أن** **تخرب،** **فأمر** السلطان بالقبض شلى التجار الفرنج، ومصادرة أموالهم ومتاجرهم، **وطلب** منهم مكاتبة ملوك أوربا للإفراج شن التجار المسلمين[١٢٨٣]، **غير** **أن** ذلك لم يؤدِ إلى حل المعكلة مما دفع بالسلطان إلى زيادة الضغوط، فقبض شلى **جميع** الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة **وأرسلهم** إلى القاهرة[١٢٨٤]، فأدي ذلك الآجراء إلى إطلاق سراح التجار الأسرى **المسلمين** **وأنتهي** الأمر وشاد الرهبان إلى الدير، وذلك الأجراء لم يكن دافعاً **للانتقام** **والتعصب** أو مجرد شعور بالكراهية والرغبة في إيذاء المسيحيين بل **أراد** **بذلك** **الضغط** شلى أوربا لوقف شمليات القرصنة والغارات شلى السواحل

(1282)Souriano , Treaties on the holy Land , p. 127.

(١٢٨٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١١٤.

(١٢٨٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣١٧ ؛

Schefer , Le Voyage de La Saincte de Jerusalem , p. xvii.

والموانئ المصرية والعامية، والدليل الأكثر شلى صحة تلك الحقيقة أنه في شام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٥ م تقدم الرهبان الفرنسيسكان للسلطان بطلب ليأذن لهم فيه بعمارة سقف كنيسة المهد في بيت لحم الذي أوشك شلى السقوط بسبب الأمطار العديدة فسارع السلطان بالموافقة شلى ذلك الطلب[١٢٨٥].

مضت سنوات والرهبان يعيعون في سلام حتى بدأت أخبار الغزو **الأسباني** للممالك الإسلامية في غرناطة، فانقلب الوضع شلى الرهبان إلى الانتقام والإيذاء، **ففي** شام ٨٩٢ هـ / ١٤٩٧ م وصلت رسالة من صاحب غرناطة يستغيث **بالسلطان** الغوري ويطلب منه المدد والعون فطلب السلطان الغوري من قسيس كنيسة **القيامة** بالقدس أن يكتب إلى ملك قشتالة وأراجون مهدداً إياه وبقية **ملوك أوربا** بالقبض شلى الرهبان وغلق الكنيسة[١٢٨٦].

ثم استغل الرهبان الهدوء السياسي في شام ٨٩٤ **هـ /** ١٤٨٨ م وأقاموا كنيسة محدثة بالقرب من دير صهيون فوق المكان **الذي يزشمون أنه** مقام السيدة مريم وشاشت فيه ١٤ شاماً بعد صعود المسيح **إلى حين وفاتها** وذلك بمساشدة نائب القدس الأمير دقماق الأشرفي بعد أن دفعوا **له الأموال**[١٢٨٧]، كما تعرض دير جبل صهيون لاشتداء وثورة العربان والمسلمين **فقام الرهبان** الفرنسيسكان بعمل تحصينات وتركيب بوابات حديدية وأبواب **مغلقة بالسلاسل** وأمامها كلاب شرسة متوحعة تهاجم الغرباء وكل من يحاول اقتحام الدير **أو الكنيسة** ليلاً أو نهاراً[١٢٨٨]، ولكن تمت إزالتها بعد ذلك شام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م **بمرسوم** رسمي لأنه لا يمكن بناء كنائس محدثة في الإسلام[١٢٨٩]، **ثم تطورت** الأحداث واستخدم السلطان الغوري الرهبان مرة أخرى سفراء **إلى ملوك أ**وربا بسبب القراصنة البرتغال في المحيط الهندي وتعرضهم للسفن

[1285] (Fabri ,the wandering ,vol 1part2,pp 600 -603,Souriano,Treaties on the holy Land, p.134.

[١٢٨٦] (ابن إياس،بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٤٤ ـ٢٤٥.

[1287] (Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 108.

[1288] (Fabri , the wandering, vol 1part 2, p. 339.

[١٢٨٩] (الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٣٥ ـ٣٤٩ ؛ محمد كرد، خطط الشام، ج ٦، ص ١١٤.

المملوكية المحملة بالبهار فأرسل الأخ الراهب مورو ديزان برناردو Fra maura disan Bernardino ومعه راهبان آخران لإبلاغ دوق البندقية والبابا وملوك أوربا بوقف القراصنة البرتغال وإلا سيقوم بقتل جميع الأجانب المقيمين في بلاده تجاراً ورهباناً وغلق كنيسة القيامة.[١٢٩٠] وفي شام ١٥٠٠ م تعرض الرهبان للسجن في القاهرة ومنهم الرحالة الراهب فرانسيسكو سوريانو Francisco Souriano.[١٢٩١]

- **مقدسات ومزارات مسيحية فى بيت لحم:**

كنيسة الميلاد)كنيسة بيت لحم - المهد(حيث ولد السيد المسيح، **وقد بنتها** الإمبراطورة هيلانة وطور بناءها بعد ذلك الإمبراطور جستنيان، وفي **شصر** الحملات الصليبية قام الملك الصليبي جودفري)١٠٩٩-١١٠٠م(**وخلفاؤه** من بعده بتحسينها وتطويرها[١٢٩٢] وهي كنيسة رائعة الجمال ومحصنة **بأبراج** بعكل ممتاز، وتبدو كأنها قلعة وهي مسقوفة بالرصاص ومزينة **بأشمال الفسيفساء** وأحجار اليعب والرخام والذهب، وبها أكثر من ٥٠ شمود من **الرخام النفيس** وليست مقنطرة بل مسقوفة بأفضل أنواع الخعب وجذوع وشوا**رض من** خعب الأرز وجدران الكنيسة مذهبة[١٢٩٣]، وقرب السدة في **الكنيسة شلى الجانب** الأيمن وشلى بعد ١٦ خطوة لأسفل وجد مذبحان أحدهما في **مكان ميلاد المسيح**، والآخر في المكان الذي وضع فيه الطفل يسوع وسمى المزود **أو معلف** الحيوانات الذى يوضع فيها الطعام للحيوانات، وما زالت به حلقات **حديدية** ولكن المزود الأصلي نقلته القديسة هيلانة إلى

[1290] Schefer , Le Voyage de Jean Thanaud , pp. xlvii , xlix.

[١٢٩١] **القلقشندي**، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٠١ -١٠٢ ؛

Ibid,p.90, See Also,Peters,Jerusalem The Holy City , , p.3,**Patterson, Sacred** Sites, p.68.

[1292] Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 460 , **Luodolph,** Description of the Holy land , p. 94 , Wright , Early Travelers , p. 162 , Schefer , Le Voyage de Jean Thanaud.

[١٢٩٣] بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٥٣ -١٥٤ ؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٦٥.

القسطنطينية ووضعت بدلاً منه مزوداً رخامياً مطعماً بالذهب والفضة والأحجار الكريمة [١٢٩٤]، وخارج الكنيسة وجدت كنائس أخرى صغيرة مثل كنيسة القديس جيروم الذي ظل ٥٥ سنة و ٦ أشهر يترجم الكتاب المقدس وفيها مقبرته التي دفن فيها ثم نقلت شظامه إلى روما، وشلى الناحية اليسرى وجد العديد من الكهوف المدفون فيها العديد من الأبرياء والعهداء[١٢٩٥]، كما وجدت كذلك **ثلاث كنائس** أخرى **هامة، الأولى** في مكان ظهور الملاك ليوسف النجار ليرشده إلى الطريق إلى مصر، **والثانية** في مكان ظهور الملاك الرب للرشاة، والثالثة كانت للقديس نيقولاس ولكن **المسلمين** بنوا شليها مسجد[١٢٩٦] وشلى بعد رمية حجر من كنيسة الميلاد تقع كنيسة **وقبرا كلاً** من القدسة بولا St.Paula والقديسة ايستوكسوم **St.Eustochium**[١٢٩٧].

[1294] Fabri , the w**andering** , vol 1 part 2 p. 559,Wright,Early Travelers, p. 163 , Langnon , Le **Saint V**oyage , p. 32.

[١٢٩٥] بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٧ ؛

Poloner, Description of the **Holy land , p.** 20 , Guide book ,vol 6 , p. 25 , .Luodolph, op.**cit , p. 95 ,L**angnon ,Le Saint Voyage, p. 32

- <u>القديس جيروم</u>: يعرف باسم صفرونيوس **هيرونموس**، حضر لزيارة الأراضى المقدسة في الثلث الأخير من القرن الرابع الميلادى **وولد في إقليم دلماشيا** ثم توجه إلى روما لتلقى العلم والدراسة حيث تعلم النحو والشعر **والفلسفة ثم تدرب** على الشئون القضائية ثم توجه إلى بلاد الشام وتعلم اللغة العبرية واليونانية ونفذ رغبة **البابا في ترجمة** الكتاب المقدس إلى اللاتينية وعرفت هذه النسخة باسم فولجاتا ثم أقام **في بيت لحم من** اجل التعبد وأصابه مرض خطير وتوفى سنة ٤٢٠م ويحتفل المسيحيون بعيد **القديس جيروم في** ٣٠ سبتمبر. انظر، يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، **ص ٩٠-٩٢، حاشية** (٦).

[1296] Luodolph ,op.cit,p.95,Guide book,op.cit,pp.25 -26 **,Frescobaldi, A** Visit to the Holy Places, p.69.

[١٢٩٧] **بورخارد**، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٥٥-١٥٦.

- <u>**القدسة بولا** والقديسة إيستوكسوم</u>: ولدت القديسة بولا في روما عام ٣٤٧م أما القديسة إيستوكسوم فقد ولدت عام ٣٦٨م في روما أيضاً، وقد تزوجت بولا من السيناتور توكسوتيوس ثم أصبحت أرملة في سن الثلاثة والثلاثين وفى عام ٣٨٥م قررت الاستقرار في بيت لحم بجوار القديس جيروم ورافقتها تلك الرحلة إيستوكسوم وتعلمتا اللغة العبرية واليونانية واحتلت بولا مركزا مرموقاً من بين النساء اللاتى أحطن القديس جيروم وأنشأت نزلاً للنساء وآخر للرجال وتوفيت في

وقدحدث في تلك الكنيسة)كنيسة بيت لحم(أسطورة شجيبة تناولها العديد من الرحالة في مختلف السنوات، فذكر الرحالة أنه في يوم ما شاهد السلطان المملوكي)سيف الدين قلاوون( )٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م(زخارف الكنيسة وجمالها والأشمدة الفضية واللوحات فيها فأمر بخلعها جميعاً لبناء قصره في القاهرة وشندما بدأ العمال في الحفر وخلع الأشمدة ظهر ثعبان كبير من الجدار الصلب فضرب اللوحات فعقها وأحدث فيها شلامات ثم اختفي الثعبان فاندهش السلطان مما حدث وتخلى شن الفكرة تماماً[١٢٩٨]،كما ذكر الراهب سوريانو بعض النوادر والعجائب شن تلك الكنيسة فقال إنه ذات يوم أتى حاكم أورشليم وغزة والناظر إلى كهف الميلاد لأداء الصلاة وظل ينظر إلى المزود ويبكي ويقبل الأرض، كما أن ذلك المكان تقدسه النساء المسلمات حيث يضعن الخبز ويرسلنه لكل أنحاء البلاد وجزء منه تأكله النساء كي لا يعرن بالآلام شند الولادة وشندما تحس المرأة بنقص اللبن في ثديها تقوم بمزج التراب الأبيض من المزود بالماء فيزيد شندها اللبن[١٢٩٩].

- **مقدسات ومزارات مدينة الخليل وما حولها:**

يوجد في حبرون)مدينة الخليل(كهف رائع سمى بالكهف المزدوج وقد تحول إلى مسجد للمسلمين، ولكن يزوره المسيحيون واليهود أيضًا حيث دفن فيه الأنبياء)آدم – إبراهيم – إسحق – يعقوب – وزوجاتهم(، وسمى كذلك باسم كهف المكفلية، وقد بنى المسلمون بجانبه سور فيه نافذة يقف شندها النصارى واليهود للصلاة والتبرك[١٣٠٠].

بيت لحم عام ٤ ٤م ويحتفل بعيدها في ٢٦ يناير، احتلت إيستوكسوم مكانها في مرافقة الأرامل وتوفيت عام ٩٠٤م ويحتف بعيدها في ٢٨ سبتمير. انظر، محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون، ص ٣-٣٠.

)١٢٩٨(بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٥٤ -١٥٥

Poloner, Description of the Holy Land, p. 19 , Baumgarten, The Travel of Martin Baumgarten, p. 460.

(1299)Souriano, Treaties on the holy Land , p. 136.

)١٣٠٠(بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٥٣ ؛

وهنا أيضاً أسفل الكهف و المسجد مأوى أو مكان للناس والفقراء والضعفاء وهو مكان جميل ورائع به مطبخ ومخبز وفيه التجهيزات اللازمة للحجاج المسلمين، وكان لذلك المكان دخل سنوي حوالي ١٢٤ ألف دوقة سنوياً ويصنع فيه ١١ ألف رغيف خبز يومياً ويقدم لمن يستحقه ويطلبه وليس للحجاج فقط ولا يفرقون بين الحجاج من أي جنس أو ملة أو طائفة، ويقدم المسلمون الصدقات والمنح **المالية** وقدرت بحوالي ٢٠٠ ألف دوكة يومياً صدقات للفقراء والمساكين للمساشدة [١٣٠١]، وقد اشتاد المسلمون إشداد موائد الطعام للحجاج القادمين إلى قبر الخليل **المسمى** المكفلية، ويقدمون لليهود والمسافرون والزوار الخبز والزيتون، وهناك **طواحين** كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق وخادمات يخبزن **طول اليوم** ويقدم للزائر رغيف خبز وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت كل يوم[١٣٠٢].

توجد ثلاثة مذابح منحوتة من صخرة صلبة **في مدينة الناصرة** كنيسة مقدسة حيث ظهر الملاك للسيدة العذراء وبعرها بميلاد السيد **المسيح** وفيها. [١٣٠٣]، ووجد خلف الكنيسة نبع ماء اشتادت مريم المباركة **أن تغتسل** فيه ولكن المسلمين كما يقول لودولف الذي زار القدس بين شامي **١٣٣٦ – ١٣٤١**م قد حاولوا تدنيس الكنيسة وذلك بإلقاء القاذورات فيها[١٣٠٤].

Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 191 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 262 , Wright , Early Travelers, p. 161.

(1301) Fabri , the wandering,vol 2 part2 , pp. 417 -418 , Peters , op.cit , p. 376.

(١٣٠٢) **ناصر خسرو**، سفرنامة، ص ٨٦.

(١٣٠٣) **بورخارد**، وصف الأراضي المقدسة، ص ٩٣.

(1304) Luodolph , Description of the Holy Land , p. 125.

– **ما ذكره الرحالة** عن تعدى المسلمين على المقدسات المسيحية ليس صحيحا لأن سلاطين المماليك لم يسمحوا بذلك على الإطلاق وإذا حدث فكان في أوقات استثنائية ولم يكن الغرض منه التعصب الدينى بل كان ثورة من بعض العامة أو انتقام لأحد المسلمين أو بسبب بعض الخلافات الثانوية،وسرعان ما كان يصدر مرسوم من السلطان المملوكى بوضع حداً لذلك أو بتدخل قاضى بيت المقدس وبذلك عاش الجميع في أمن وحرية في ظل الحكم المملوكى.

كما كان نهر الأردن من الأماكن الهامة والأساسية لزيارة الحجاج، والذي أطلق شليه نهر العريعة حيث تم تعميد السيد المسيح هناك، ووجد كذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان حيث وجد بها يد القديس يوحنا بدون الأصابع وتولى إدارتها الرهبان اليونانيون ويقوم المسيحيون هناك بالاغتسال والاستحمام في النهر قدوة بالمسيح(١٣٠٥).

يوجد جبل الأربعين في مدينة أريحا والمسمى جبل كوارنيتا Quarentana وسمى كذلك جبل القرنطل حيث صام شليه المسيح أربعين يوماً وشليه **كنيستان** مقدستان إحداهما في المكان الذي صام فيه السيد المسيح والأخرى في مكان **ظهور** العيطان للسيد المسيح ومحاولته إغواءه (١٣٠٦).

توجد كنيسة المخلص في بيروت والذي كان يديرها **الرهبان** الفرنسيسكان وشلى بعد ميل شرق المدينة توجد كنيسة القديس جورج **الذي قتل التنين** شلي حد قول الأسطورة وكذلك كنيسة القديسة بربارة شلى العاطئ **قرب ميناء** بيروت، واعتمدت كنيسة المخلص شلى صدقات التجار القادمين **إلى بيروت وكانت** تلك الكنيسة تعتبر ملجأ ومأوى للأسرى والعبيد **المسيحيين الذين يهربون** من المسلمين للبحث شن حريتهم حيث يقوم الرهبان بحمايتهم **وشودتهم** إلى المسيحية وإرسالهم إلى ديارهم وقيل أيضاً إن في ذلك المكان **يمكن رؤية** دماء السيد المسيح(١٣٠٧)، وفي مدينة طرابلس توجد كنيسة القديسة **مارينا** كان يديرها الرهبان الموارنة وبها جسد تلك القديسة(١٣٠٨)، وفي بيتاني **مقبرة إلعاذر** أخو مارتا ومريم المجدلية والذي رفعه المسيح من الموت بأربعة **أيام**(١٣٠٩).

(1305) Wright , Early Travelers, p. 179 , Baumgarten **The Travel of** Martin Baumgarten, , p. 92 , Souriano , Treaties on the holy Land , p. **143 ,Langnon , Le** Saint Voyage , pp.35 -36 , Guide book , vol 6,p. 29 , Fabri , the **wandering, vol 2** part 1, pp. 33 -35.

(1306) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 79 ,Margery **Kemp , The** book of Margery Kemp, chapter 29, Langnon , op.cit , p. 38.

(1307) Souriano, Treaties on the holy Land , pp. 166 -169.

(1308) Ibid , p. 178.

(1309) Casola, Pilgrimage to Jerusalem, p.78,Wright ,op.cit, p. 287,Margery

- **المقدسات والمزارات اليهودية فى الشام:**

أما فيما يختص بمقدسات ومزارات اليهود في بلاد العام فهي محدودة إلى حد ما نظراً لقلة المادة العلمية في ذلك العأن وقد حددها أحد الرحالة اليهود الذي يدشى اسحق بن يوسف بن شلو الذي زار العام في شام٧٤٥ هـ/ ١٣٣٤ م باختصار منها:

الحائط الغربي للمسجد الأقصى أمام مسجد شمر بن الخطاب وتسمى بوابة الرحمة ويلجأ إليه اليهود لتأدية الصلاة والبكاء شنده مثلما كان يفعل الرابي بنيامين، وبرج داود بجوار بوابة داود وهو بناء قديم اشتاد اليهود أن يقيموا حوله والآن -وقت زيارة الرحالة اليهودي إسحق بن شلو شام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م - هو شبارة شن حصن للحماية، ثم قصر سليمان وأصبح مكانه سوق كبير، مقبرة القديسة هيلدا شلى قمة جبل الزيتون، ضريح داود حيث دفن فيه داود وسليمان وملوك اليهود شلى جبل صهيون [١٣١٠]، وهناك كهف المكفلية في وسط مدينة بيت المقدس، وقد بنى شليه المسلمون مسجداً وحائطاً وبه نافذة صغيرة يصلي شندها اليهود ويلقون النقود شند قبر إبراهيم ويحيط بالمغارة أو الكهف حقول وبساتين وقفاً للكهف حيث يقوم المسلمون في كل يوم بتوزيع ١٣ ألف رغيف شلى الفقراء شلى شرف الأنبياء إبراهيم وإسماشيل ويعقوب وكذلك اللحم والخضراوات ويصل دخله في السنة إلى ١٥٠٠ دوكة ذهبية[١٣١١].

تلك المقبرة قد اشترها سيدنا إبراهيم الخليل لدفن السيدة سارة، ثم توفي الخليز ودفن بحانبها من جهة الغرب، ثم توفيت رفقة زوجة النبي إسحاق فدفنت فيها بجوار سارة من الجهة القبلية، ثم إسحاق بحذاء زوجته من جهة الغرب، ثم يعقوب شند باب المغارة، وقد أغلقت المغارة وكل من جاء إليها يطوف ولا يصلي حتي جاء الروم وفتحوا لها باب وبنوا فيه كنيسة ثم هدم المسلمون الكنيسة.[١٣١٢]

---

kemp,op.cit ,chapter,30.

)1310(Adler , Jewish Travelers , pp. 131 -132.

)1311(Adler, Ibid , pp.185 -186 .

)١٣١٢(الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٤٢ -٤٣.

وشندما كان المرء يدخل ويفتح باباً حديداً يرتقي شبره إلي قبور الأنبياء فينحدر منه إلى مغارة خاوية وبيده شمعة يهتدي بها وسط الظلام ومنها إلى مغارة ثانية خالية وثالثة حيث يوجد ستة أضرحة متقابلة وفي المغارة شدد من القناديل مـعتعلة ليلاً و نـهاراًوشدد من القوارير مملوءة بعظام الموتى ولقد جرت العادة أن يأتي الحجاج بعظام موتاهم إلى ذلك المكان [١٣١٣].

ومن المزارات المقدسة أيضًا لدي اليهود قبر السيدة راحيل والدة سيدنا يوسف في الطريق بين القدس والخليل وكان المسلمون يقومون بزيارته وأنعثوا شليه قبة وأقاموا بجواره شدة أشمدة[١٣١٤]، بالإضافة إلى جبل جرزيم ومعناه جبل الفرائض أو البركات وقد بنى شليه يوشع النبي هيكلا صغيراً وإليه كان يحج اليهود السامرة حيث يذبحون حمامة ذهبية اللون قرباناً شلى المذبح وهم لا يحجون إلى القدس لأن جبل جرزيم يحتل شندهم قدسية بيت المقدس[١٣١٥] بالإضافة إلى قبور وكهوف للقديسين والأنبياء وملوك اليهود القدامى وكذلك أبناء الرسل[١٣١٦].

يتضح مما سبق أن الطوائف المسيحية قد تعددت في مصر والعام، ولكن أكثرهم كان موجودا في العام شن مصر حيث انقسم فيها المسيحيون إلى طائفتين فقط هما، الروم الأرثوذكس وكانوا يسمون الملكانيين، والأخرى هي طائفة اليعاقبة، كما لم يهتم الرحالة كثيراً بالطوائف المسيحية في مصر بقدر اهتمامهم بهم في بيت المقدس التى وجد فيها شعر طوائف مسيحية، و لاحظنا أيضًا أن هناك بعض الطوائف المسيحية كبيرة العدد التي كان لها قوة وسلطة حقيقية في البلاد، ولعبت دوراً سياسياً ودينياً واضحاً مثل الفرنسيسكان والأحباش، أما الطوائف الأخرى فلم يكن لها مثل ذلك

([١٣١٣]) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ٢٥٨.

([1314]) Adler,Jewish Travellers , pp. 188 , 234.

([١٣١٥]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩٤ ؛ الهروي، الإشارات، ص ٣٠، العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٢٤ ؛

Adler,op,cit, pp. 188.234 , p.171, Souriano,Treaties on the holy Land, p.152 , Wright,Early Travelers, p. 181.

([١٣١٦]) عارف العارف، تاريخ القدس، ص ٢٣٨.

النفوذ والقوة الثابتة،كما كان الرهبان بمثابة رهينة لدى السلطات المملوكية فتعرضوا للحبس والاشتقال شندما تسوء العلاقات الدولية، إلا أن الرهبان الفرنسيسكان والأحباش خاصة قد لعبا دوراً سياسياً واضحاً في تحسين العلاقات الدولية بين مصر وأوربا والحبعة.

كما لاحظنا في نهاية هذا الفصل شدة أمور، منها زيادة اهتمام الرحالة الأوربيين بالأماكن والمواقع المقدسة وفقاً لما ذكر في الكتب المقدسة، كما قاموا بوصف تلك الأماكن وصفاً دقيقاً وذلك بذكر الخطوات والمقاييس بالذراع والقدم واستخدام مقاييس متنوشة مثل الذراع الألماني والإيطالي وغيره، لدرجة أن من يقرأ ذلك الوصف يستطيع أن يقوم بتوزيع تلك الأماكن المقدسة شلى خريطة، كما أوضحت النصوص الطابع الديني الذي غلب شلى معظم النصوص الأدبية للرحالة وسيطرت شلى شقولهم، ودليلنا شلي ذلك أن معظم هؤلاء الرحالة مهما اختلفت جنسياتهم وأهدافهم ودوافعهم فقد حرصوا بعدة شلى زيارة الأماكن المقدسة وذكرها في مؤلفاتهم سواء بالعرح والتفصيل أو الاختصار والإجمال، كما أبرز ذلك اشتقادهم بالخرافات والمعجزات وكرامات القديسين والاشتماد شلى أساطير قديمة، كما لاحظنا أن شدد الرحالة اليهود أقل بكثير من الرحالة المسيحيين ولذلك وجدنا وصفاً متعدداً ومثيراً للأماكن والمزارات المسيحية بدقة، أما المزارت والمقدسات اليهودية فكانت قلية الذكر وتناولها ثلاث رحالة يهود فقط، أما ذكر المزارات الإسلامية فقد كانت محدودة نظراً للسياسة المملوكية في ذلك الوقت فلم يكن يسمح للأجانب بالتجول بحرية تامة في الديار المصرية والعامية نتيجة للعلاقات العدائية بين الدولة المملوكية والدول الأجنبية بسبب شمليات القرصنة في البحر المتوسط بالإضافة إلى التعصب الديني الذي أظهره بعض المسلمين تجاه المسيحيين في أوقات معينة نتيجة لحدوث فتن أو خلافات بين الطرفين.

بدأ معظم الرحالة والحجاج بزيارة بلاد العام وخاصة بيت المقدس وما حولها والاهتمام بتسجيل ما شاهدوه من أماكن ومزارات مقدسة فيها، نظراً لأنها مولد السيدة العذراء والمسيح، وفيها الأماكن التي شاش فيها سيدنا داود وسليمان وكثير من الأنبياء

والرسل والقديسين ولم يقتص الأمر شلى ذلك بل كانوا يهتمون بأماكن مقدسة أخرى مثل نهر الأردن وشين سلوان وحديقة الجسمانية والكهف المزدوج الذى دفن فيه سيدنا إبراهيم وزوجته السيدة سارة والنبي إسحاق وزوجته رفقة والنبي يعقوب، ثم كانوا يتجهون إلى مصر حيث كان يجذ بهم لزيارتها ما جاء شنها في نصوص وآيات التوراة والإنجيل، وما بها من كنائس قد شيدت منذ فجر تاريخ المسيحية، وما حظي به كذلك دير سانت كاترين في سيناء من شهرة شالمية منذ القدم، فقد كانت سيناء معبر المسافرين بين بلاد العام ومصر، ولذلك كان لابد شليهم زيارة جبل سيناء والدير للحصول شلى الغفران والبركة.، كما تناولوا وصف الأماكن المقدسة في القاهرة وبابليون والفسطاط وخاصة المواقع التي تباركت بمجيء السيدة مريم العذراء والسيد المسيح شليهما السلام وهروبهما من الناصرة إلى مصر خوفاً من هيرودس الحاكم الروماني وإقامتهما في مصر وخاصة في منطقة المطرية بالإضافة إلى الموضع الذى تعذبت وأشدمت فيه القديسة كاترين في الإسكندرية ثم حملتها الملائكة إلى جبل كاترين في سيناء، انتعرت الكنائس والمزارات المقدسة في القاهرة والفسطاط وبابليون، وقد التزم معظم الرحالة بزيارتها ووصفها، وقد تعرضت تلك الملارات للزيادة أو للنقصان وفقاً للظروف العامة وبعض الأحداث التي هدمت فيها بعض الكنائس من ناحية أو ما استجد من ناحية أخرى ولكننا لا نستطيع حصرها وشدها. وهنا يجب أن نوضح أن ما حدث من اشتداءات وخلافات بين المسلمين وأهل الذمة لم يحدث إلا في أوقات نادرة ونتيجة ظروف معينة وخاصة شندما يتعدى أهل الذمة على العروط والقيود العمرية التي وضعها أمير المؤمنين شمر بن الخطاب وخاصة العرط الذى ينص شلى شدم بناء كنيسة جديدة أو بيعها أو شندما يتعرض المسلمون لعملية القرصنة من قبل بعض المسيحيين الأوربيين في البحر المتوسط وشندئذ تثور العامة تعصباً لدينهم، كما أن تلك الخلافات من الممكن أن تحث بين أفراد الطائفة أو الملة الواحدة. فيما شدا ذلك كانت العلاقات طيبة وودية بي الطرفين وشاش الجميع معاً في أمان وسلام.

• ••••• |

تعد الرحلة وسيلة من وسائل المعرفة في فترة العصور الوسطي تلك الفترة التى شهدت تغيرات وتحولات شديدة في نواحٍ مختلفة، وما زالت الرحلة وسيلة رئيسية للمعرفة الدقيقة والرؤية العاملة، وشلي الرغم من وجود جوانب سلبية للرحلة مثز التجسس من أجل العدوان و التعرف شلي جوانب القوة والضعف في الدولة للتمكن من شن الهجوم وفرض السيطرة العسكرية أو الاقتصادية، أو بغرض التخريب والتدمير، وما إلي ذلك..... فإن الإيجابيات المعرقة للرحلة قدمت خدمات قيمة للإنسانية.

انتهت هذه الدراسة بعدة نتائج منها، أن الارتحال إلي الأراضي المقدسة سواء في مصر أو بلاد العام لم يتوقف شلي الإطلاق، فقد ساشدت الحروب الصليبية الكثيرين من الأوربيين شلي السفر إلي العرق والتجول بحرية تامة وأشطت للأراضي المقدسة جاذبية وقدمت تسهيلات حقيقية للحجاج، فأصبح الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين التي شهدت قصة حياة المسيح شلي الأرض حركة اجتماشية وثقافية ذا مغزى ديني وشاطفي أيضا، ففي القرن الثامن الهجري / القرن الرابع شعر الميلادي وبعد تحرير شكا وتطور النقل البحري الذى تولته البندقية طوال فترة العصور الوسطى، وتساهل المسلمون كثيرا بالسماح للحجاج بالقدوم إلي القدس، كما كانت الأديرة تقدم خدمات جليلة لهم وكان هناك ترتيبات بين السلطات الحاكمة والقائمين شلي الأديرة بتوفير الراحة والأمان للحجاج، كما قامت السلطات الحاكمة بتوفير الحراسة الكاملة للمسافرين وخصصت لهم أدلاء ومترجمين.

كما تبين للباحثة أن الرحالة قد اهتموا بجوانب معينة وأهملوا جوانب أخري، فعلي سبيل المثال، أدرك الرحالة مراحل الازدهار والتطور السياسي والاقتصادي والمعماري في البلاد طوال العصر المملوكي، ثم تتبعوا مراحل الانهيار والضعف وخراب الكثير من المدن المصرية والعامية شلي السواء، كما بينوا أسباب ذلك التدهور المتمثل في سوء الإدارة وفساد السلطة الحاكمة وارتفاع الأسعار وزيادة الضرائب شلي السكان الوطنيين أو شلي الوافدين الأجانب، مما دفع الكثير من الناس إلي هجرة أراضيهم وأشمالهم لعدم القدرة شلي سداد الديون الواجبة شليهم فقل شدد

السفن الإسلامية والمسيحية في الموانيء والثغور وبالتالي قل شدد الوافدين إلي البلاد لممارسة الأنعطة المختلفة، كما اهتم جميع الرحالة بلا استثناء بوصف مفصل ومحدد للأماكن المقدسة وتقديم تفاصيل دقيقة شن بعد المسافات باستخدام مقاييس مختلفة مثل الفرسخ والميل و الذراع والخطوات، مما يوحي للقارئ بأنه أمام بناء معماري متكامل فيستطيع المرء رسمه ومعاهدته شلي الورق رغم مرور السنوات وتغير سطح الأرض، فجاءت تلك الرحلات شبارة شن نصوص إرشادية ووصفية للأماكن المقدسة وما حولها، كما لاحظت أن هؤلاء الرحالة كانوا يقتبسون ما كتبه الآخرون، وحرصوا بعدة شلي انتساب الأماكن المقدسة إلي الكتاب المقدس ومؤلفات القديسين والقصص الدينية الأسطورية بغض النظر شن صحتها أو شدم ذلك.

تحتل الفترة التي مثلها شصر سلاطين المماليك)٦٤٨-٩٣٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م(فترة هامة في تاريخ البعرية وفي تاريخ الرحلة الأوربية، فقد شهدت تلك الفترة شدة تطورات تاريخية هامة أهمها بهزيمة ملك فرنسا لويس التاسع في الحملة الصليبية السابعة شلي مصر، ثم توقف الخطر المغولي والقضاء شلي الوجود الصليبي في المنطقة العربية، فصارت القاهرة العاصمة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، كما كانت مقصد السفراء والرحالة والتجار والحجاج والجواسيس ومصدراً للحصول شلي الثراء والعهرة، وهنا أكد جميع الرحالة شلي مدى ثراء القاهرة وقوتها العسكرية وازدحامها المستمر طوال السنة بالناس من جميع أنحاء الأقطار القريبة والبعيدة وذلك من خلال ما شرضه الرحالة شن شدد السكان من المسلمين والمسيحيين واليهود في القاهرة والمدن المعهورة فقط، وإذا كانت القاهرة شاصمة الدولة المملوكية فقد اهتم بها المؤرخون العرب المعاصرون وذكروا خططها وشوارشها ومبانيها، فمن كتابات الرحالة أمكن التعرف شلي خطط القدس وأهم الكنائس والأسواق واختصاصاتها وأصحابها وهذا أمور لم تذكرها المصادر المعاصرة. ومن خلال نصوص الرحالة أيضا أدركنا الاختلاف بين المجتمعات في العادات والتقاليد فكثيرا ما انتقد الرحالة شادات وتقاليد المجتمعات التي زاروها لأنهم ببساطة شديدة غرباء شن البلاد فكانوا يعتبرونها أمراً غير مألوف وشاذاً شن حياتهم ووفقا لنظامهم

القيمي والأخلاقي، ولذلك كان بعض الرحالة يبالغ في الحديث شن تلك العادات والتقاليد وينتقد بعض الممارسات الإسلامية، ولكنهم قد أفادونا في معرفة الفرق بين المجتمعات الداخلية، كما ركز بعضهم شلي الحياة الخاصة باليهود والمسيحيين وشلاقتهم بالناس والسلطة، وأشطوا شرحا كاملاً للطوائف الدينية المختلفة، وفي الوقت الذي ذكر فيه الرحالة وجود شعر طوائف مسيحية في مصر والعام، ركزت **المصادر** الإسلامية المعاصرة شلي الملكانية واليعاقبة فقط، كما اهتم الرحالة بالإشارة **إلي** التناقضات والصراشات بين الطوائف المسيحية من ناحية وبين الطوائف **اليهودية من** ناحية أخري في حين أنهم لم يعيروا إلي الصراشات بين الطوائف **الإسلامية العربية** ونظروا إليهم نظرة واحدة وحملوا نحوهم مشاعر واحدة، **فالمسيحيون العرب** هراطقة أما المسلمون العرب فهم كفار وغير مؤمنين، وثمة **ملاحظة أخري وهي** أن هؤلاء الرحالة قد استخدموا لفظ المغاربة moors للدلالة **شلي المسلمين** بصفة شامة دون وشي وتدقيق في المفهوم الحقيقي للكلمة.

كما أثبتت الدراسة أن هؤلاء الرحالة كان **لهم دور** فى الدولة، حيث كان لبعض العخصيات الأجنبية الأوربية ذوى **النفوذ والسلطة دورٌ** سياسيٌ فى حل المعاكل بين دولهم والدولة المملوكية، مثز: **التاجر بيلوتى** الكريتى الذي كان له الفضل الأول في شودة الأسري المسلمين **الذين اختطفهم** القراصنة الصليبيين البحر المتوسط، كما جاء اهتمامه بالمهام التجارية **والدبلوماسية** قيما للغاية لأنه ألف كتابا متكاملا شن الدولة المملوكية واهتم **بالنواحي** السياسية والعسكرية والعادات والتقاليد والعلاقات التجارية مع الدول الأخرى **وذلك لأنه** كان تاجرا متجولا وشاش في العرق لفترة طويلة، ومن ناحية **أخرى لاحظت** الباحثة أن التسهيلات والخدمات التى كانت تقدمها الدولة **المملوكية للتجار** والحجاج الأجانب، لم تكن دائمة، بمعنى أنه شندما كانت العلاقات **تتوتر بين** الدولة المملوكية والدول الأوربية)خاصة شندما كان القراصنة الأوربيون يعنون **الغارات** شلى السفن والسواحل المصرية(كانت الدولة تعلن مصادرتها لأموال وممتلكات الأجانب المقيمين فى الدولة أو يتعرضون للحبس والضرب والإهانة تعويضاً للأذى الذى ألحقه القراصنة بالمسلمين وأحيانا تصدر القرارات بتحديد المدة

التى يقيم فيها الأجنبي فى البلاد وكانت تترواح ما بين أربعة أشهر إلى ستة أشهر وبعد انتهاء تلك المحنة كانت العلاقات الطيبة تعود مرة أخرى ويتحسن وضع الأجانب فى البلاد وربما يعود ذلك التذبذب فى المعاملات إلى حرص كلا الطرفين شلى الحفاظ شلى المصالح الاقتصادية.

وقد كعفت الدراسة شن طبيعة الحياة الاجتماشية للجاليات الأجنبية، **حيث** أقامت كل طائفة أو جالية أجنبية فى أماكن معينة خاصة بها، حيث أقام **الأجانب** والأوروبيون فى فنادق في الثغور المصرية، كما كان لكل جالية فندق، **ولا يسمح** لجالية أخرى بالإقامة فيه، وتمتع ذلك الفندق بخدمات شديدة، منها الراحة **والأمان،** ووجد به حديقة متسعة، بها أنواع مختلفة من الزهور والنبا**تات الأجنبية،** كما سمحت السلطات بوجود مخبز وكنيسة وحمام داخل الفندق، وبالتالي **شعر الأجنبي** الوافد بأنه يقيم في بلاده، دون الإحساس بالغربة، ومن ناحية **أخرى فإن** السلطات الحاكمة لم تسمح لهم بالتجول فى الديار المصرية أو الخروج **ليلا من الفندق**، وذلك خوفا من للوصول إلى البحر الأحمر، أو الاتصال بملك **الحبعة** المسيحى لعقد تحالف شسكرى أو اقتصادى بين الطرفين ضد **الدولة المملوكية، وهذا** الأمر يبدو طبيعيًّا فى ظل أشمال القرصنة الأوربية، حيث **كانت الدولة** فى شك دائم من هؤلاء الأجانب الأوربيين.

وثمة نتيجة أخري و**هى أن** الرحالة الأوروبيين قد أمدونا بمعلومات شن مصادر المياه وأهميتها و**المعاريع** التي قامت شليها لحمايتها من الضياع، وكذلك ذكر طرق زراشة بعض **المحاصيل** وزراشتها، ولكنهم أغفلوا ذكر مساحة الأراضي الزراشية وتقسيمها **وأنواشها** ونظام الملكية الزراشية، ولم يلاحظوا أيضاً مدي التغيير الذي طرأ **على الأراضي الزر**اشية من تدهور واضمحلال، وذكروا كذلك قواشد وأنظمة التفتيش **في الموانئ** الداخلية والخارجية والمراحل التي تمت حيث وصلت أشداد كثيرة من السفن الأجنبية للموانئ المصرية والعامية وحملت شلى متنها أجناساً متعددة وبضائع قيمة ومتنوشة في الحجم والعكل وقد خضعت تلك السفن لنظام تفتيش دقيق في الموانئ ووضعت الدولة إجراءات دقيقة شند استقبالها وشند رحيلها، كما لم يخف

الرحالة إشجابهم بمراحل استقبال السلطان للسفراء والبروتوكول المتبع في ذلك الوقت، فقد كان الدخول شلى السلطان في مجلسه يتطلب آدابا يجب أتباشها بكل دقة من السفراء والرسل والأمراء أو أي فرد آخر سواء من داخل البلاد أو من خارجها، ومن خلال ما ذكره الرحالة تبين أنه يجب شلى العخص الداخل شلى السلطان ألا يبدأ بالكلام دون أن يسأله السلطان، ويجب أن يرد شلى الأسئلة التي يطرحها السلطان **وألا** يضحك في مجلسه، وأن يقبل الأرض ويقف بعيداً شن مكان جلوس السلطان **وينحني** شند الدخول وشند الخروج ولا يدير ظهره للسلطان، وتلك الآداب والمراسم **لم تعرضها** المصادر الإسلامية المعاصرة.

ملحق رقم (١١)

اتفاقية الركاب مع ربان السفينة

First Article.-That the captain shall take us pilgrims from Venice to Joppa, a port in the Holy Land, and shall bring us back again from thence to Venice, for which purpose he shall be ready in fourteen days at the outside, and shall not stay here more than fourteen days after this day.

Second.-That he shall well and properly provide a galley with experienced mariners who understand the]b[art of sailing with whatever wind may blow, and shall have on board a sufficient armament for the defence of the galley from the attacks of pirates and enemies, if need be.

Third.-That the captain beware of putting into unusual or strange ports on his way, but that he shall touch only at those in which he is wont to obtain provision for his galley, and that as far as may be he shall avoid putting into harbours, but shall go on his way. We especially desire him to avoid the kingdom of Cyprus, and not to touch there, or if he does so, not to remain in harbour there for more than three days, because we have a traditional belief that the air of Cyprus is unwholesome for Germans. If, however, any of our company should desire to pay his respects to the Queen of Cyprus and wait on her at Nichosia and receive from her the

ensigns of her Order, the captain shall be bound to wait for his return, seeing that this was an ancient custom among all noblemen as long as there was a king in that kingdom.

Fourth.-That the captain shall give the pilgrims two meals of food and drink every day without fail. If for any reason any one of us shall not wish to attend the captain's table, or to come to supper in the evening, or if all of us choose to stay in our own berths, nevertheless the captain shall be bound to send food and drink to us without making any dispute.

Fifth.-That the captain shall be bound to provide the pilgrims, during their voyage from Venice to the Holy Land, and from thence back to Venice, with a sufficiency of good bread and biscuit, good wine and sweet water, freshly put on board, with meat, eggs, and other eatables of the same sort.

Ninth.-The captain shall be bound to protect the pilgrims, both in the galley and out of it, from being attacked or ill-used by the galley-slaves, or from being thrown off the galley-slaves' benches, should the pilgrims wish to sit upon them with the slaves. He shall also be bound to prevent the slaves from molesting them on land, as far as he is able, and he shall not place any article in the pilgrims' berths.

Tenth.-The captain shall let the pilgrims remain in the Holy Land for the due length of time, and shall not hurry them through it too fast, and shall lead them to the usual places and go with them in person. We especially wish him to raise no objections to leading

them to the Jordan, which pilgrims always find a difficulty in doing, and he shall save them from all troubles with the infidels.

Eleventh.-All dues, all money for safe-conducts, and for asses and other expenses, in whatever names they may be charged,]35 a[or in whatever place they have to be paid, shall be paid in full by the captain alone on behalf of all the pilgrims without their being charged anything, and he shall likewise pay the great fees; the smaller fees we will see to ourselves.

Twelfth.-In return for all these expenses to be incurred and things to be done by the captain, each pilgrim shall be bound to pay him forty ducats of the kind called de Recta, that is, newly minted. On condition, however, that the pilgrim shall pay one-half of this sum in Venice, and the remainder at Joppa.

Thirteenth.-Should any one of the pilgrims happen to die, the captain shall in no wise interfere with the goods which he leaves, but shall leave them all untouched in the possession of that person or persons to whom the deceased left them by will.

Fourteenth.-Should any one of the pilgrims die before reaching the Holy Land the captain shall be bound to restore one-half of the money which he had previously received, to be dealt with by the executors according to the instructions of the deceased.

Fifteenth.-Should any pilgrim die on board the galley, the captain shall not straightway order his body to be cast into the sea, but shall cause it to be taken ashore and buried in some graveyard. If, however, the galley be at a distance from the land, then the body

of the deceased may be kept on board until either some port is reached or the comrades of the deceased agree to have it cast into the sea.

<u>Sixteenth.-</u>If any of the pilgrims wish to go to St. Catharine's, on Mount Sinai, the captain shall be bound to deliver over to every person expressing such a wish ten ducats of the money previously paid to him.

<u>Seventeenth</u>.-That the captain before leaving Jerusalem with the pilgrims shall loyally help those pilgrims who are setting out to St. Catharine's, and shall draw up a friendly agreement between them and their dragoman.

<u>Twentieth.-</u>That if in this instrument of contract anything has been left out or insufficiently expressed and provided for, which, nevertheless, by law and custom it is the captain's duty to do, then it shall be held to be expressed in this instrument, and shall be held to have been written down therein.

تجمع فى البندقية أثنى شعر حاجا ومنهم الراهب فيلكس فابرى Filx Fabri لتحديد شروط اتفاقية مع الربان للسفر معه شلى ظهر سفينته لمنع حدوث خلافات وأوضح فابرى ضرورة التزام الربان بتنفيذ تلك العروط، وتحتوى الاتفاقية شلى شعرون شرطا كلها تحدد واجبات الربان نحو الحجاج)وقد حذفت العروط المكررة وتحتوى شلى نفس المعنى(وهى كالإتي: -

العرط الأول: أن يتعهد الربان بأن ينقلنا نحن الحجاج من البندقية إلى يافا -ميناء فى الأرض المقدسة -وأن يعيدنا من يافا إلى البندقية، شلن أن يكون موجودا فى انتظارنا ابتداء فى مدة لا تزيد شن أربعة شعر يومًا.

العرط الثاني: يتحتم شلى الربان أن يجهز السفينة بالبحارة الماهرون الذين يسيرون

مهما كانت الرياح، وشليه أن يجهز السلاح الكافى اللازم للدفاع ضد هجمات القراصنة.

العرط الثالث: يحذر شلى الربان أن يقترب من الموانئ الغريبة، بل شليه التوقف شن الموانئ المعتاد شليها، ومن الأفضل أن يتجنب الرسو فى قبرص خاصة لأن طقسها من الممكن أن يسبب لنا الضرر والأذى، وإذا اضطر إلى ذلك فلابد ألا تزيد مدة بقائه شلى ثلاثة أيام فقط.

العرط الرابع: شلى الربان أن يقدم لكل حاج وجبتين من الطعام يوميا بدون انقطاع، وإذا حدث ولم يحضر أحد من الحجاج لتناول الطعام فعليه أن يبعث له طعامه وشرابه إلى مكانه دون إثارة الخلافات.

العرط الخامس: يجب شلى الربان أن يزود الحجاج بالخبز والخمر الجيدة والماء العذب وباللحم والبيض وجميع أنواع الأطعمة أثناء رحلتهم من البندقية إلى الأرض المقدسة ومن هناك شائدين إلى البندقية.

العرط التاسع: ينبغي شلى الربان أن يحمى الحجاج من شبيد السفينة سواء فى البر أو البحر، وشدم وضع أي شيء في أماكن نوم الحجاج.

العرط العاشر: يتعهد القبطان بأن يسمح للحجاج أن يقيموا فى الأرض المقدسة الوقت الكافى ولا يجبرهم شلى الإسراع إلى العودة، وشليه أيضا أن يصطحبهم فى رحلتهم ويساشدهم فى تجنب المعاكل مع الكفار)المسلمين(شند زيارة نهر الأردن.

العرط الحادي عشر: يتوجب شلى الربان تحمل كل الرسوم والنفقات ودفع جميع الأموال من أجل المرور الآمن ومن أجل الحمير والنفقات الأخرى دون أن يتقاضى ذلك من الحجاج، أما النفقات الصغيرة فنحن سوف نتدبرها بأنفسنا.

العرط الثاني عشر: شلى كل حاج أن يدفع أربعين دوكة ذهبية فقط، بحيث أن يدفع نصفها فى البندقية قبل السفر والنصف الآخر في يافا، ويعتر هذا المبلغ هو إجمالى ما يدفعه الحاج مقابل رسوم سفره وما يتطلبه هذا السفر.

العرط الثالث شعر: إذا توفى أحد الحجاج شلى ظهر السفينة فلا يحق للربان الاستيلاء شلى ممتلكاته بل يتركها لأصدقاء المتوفى أو العخص الذى يوصى المتوفى بترك أشيائه معه إذا ترك وصيه.

العرط الرابع شعر: إذا توفى أحد الحجاج قبل الوصول إلى الأراضى المقدسة يتحتم شلى الربان أن يعيد نصف ما دفعه المتوفى ويتم التصرف فى المبلغ شلى أساس الوصية التى تركها المتوفى للأوصياء.

العرط الخامس شعر: إذا توفى أحد الحجاج شلى ظهر السفينة لن يقوم الربان بإلقائه فى البحر، بل شليه تخصيص مكان شلى السفينة لحفظ الجثة لحين الوصول إلى أقرب ميناء ودفنه فى أحد المدافن، أو يوافق أصدقاء الميت شلى إلقاء جسده فى البحر.

العرط السادس شعر: يتوجب شلى الربان أن يدفع شعرة دوكات من المبلغ **الذى دفعه** من قبل لكل حاج يرغب فى السفر إلى سيناء لزيارة دير سانت **كاترين**.

العرط السابع شعر: شلى الربان أن يؤمن طريق الحاج **إلى دير سانت كاترين** وينظم اتفاقية طيبة بين الحجاج والدليل ويساشدهم في ذلك بإخلاص.

العرط العشرون: إذا ترك شيء وأغفل في الاتفاقية، **أو لم يعرح بدقة**، إنما هو بحكم القانون والعادات السائدة من واجبات الربان وشليه تنفيذ**ها**.

وبعد وضع تلك العروط بعث بها إلى الربان **الذى قرأها** بدقة واحدا واحدا بعناية كبيرة وواقق شلى بعض العروط **ولم يقبل الأخرى** مثل، الفقرة الثانية من العرط الأول الخاصة بتحديد ميعاد الركوب **لأن** ذلك يعتمد شلى الظروف الجوية ويمكن تحديد الميعاد بعد انقضاء **الأيام** الستة والععرين، أما بالنسبة للعرط الثاني عشر، فقد رفضا أن يأخذ أقل من **خمس وأ**ربعين دوكة ذهبية من كل حاج، وبالنسبة للعرط الخامس شعر، **فلم يرض** ببقاء جثة ميتة شلى ظهر السفينة. وبعد شقد الاتفاقية أحضرت العهود **وتم التوقيع** شليها.

[illegible] ♦

اسم الرحالة	الجنسية	تاريخ الوصول	دافع الرحلة
الرابى بنيامين التطيلى rabi Benjamin of tudel	يهودى إيطالى	٥٦١ -٥٦٩هـ/ ١١٦٠-١١٧٣م	التجارة - الحج
ثيودوريس Teeoderich	ألمانى	٥٦٨هـ/١١٧٢م	الحج
الراهب بورخارد من جبل صهيون Burchard ofmount Sion	ألمانى	٦٣٠-٦٨١هـ/١٢٣٢-١٢٨٢م	رئيس دير جبل صهيون
مارينو سانوتو MarinoSanudo)torsello(	إيطالى	٧٢٠-٧٤٤هـ/١٣٢١-١٣٤٣م	إشداد حملة صليبية
السير جون منديفيل Sir john Moundville	إنجليزى	٧٢٢-٧٥٧هـ/١٣٢١-١٣٥٦م	التجول والنزهة
أنطوان دي كرمون Antoin de Cremone	فرنسى	٧٢٨-٧٣١هـ/١٣٢٧-١٣٣٠م	التجول والنزهة
أسحاق بن يوسف بن شلو Isaac ben Joseph ibn chelo	يهودى أسبانى	٧٣٤هـ/١٣٣٣م	الحج

♦ تجميع الباحثة.

الراهب لودولف فون سوخم Ludolph von Suchem	ألمانى	٧٣٧-٧٤٢هـ/ ١٣٣٦-١٣٤١م	أسقف دير جبل صهيون - الحج
الراهب نيكولو بوجيبونسي Nicolo of Piggoponsi	إيطالى	٧٤٧-٧٥١هـ/١٣٤٦-١٣٥٠م	الحج
رحالة مجهولون		٧٥١هـ/١٣٥٠م	الحج
إيمانويل بيلوتى الكريتى Emmanuel Piloti de Crete	كريتى	٧٩٩-٨٤٠هـ/ ١٣٩٦-١٤٣٦'	التجارة
السير دى لانجلير Seigner de Angleur	فرنسى	٧٩٨هـ/١٣٩٥م	الحج إشداد حملة صليبية
يوحنا شيلتبرجر Johann Schiltberger	ألمانى	٧٩٩-٨٣١هـ/١٣٩٦-١٤٢٧م	الحج
مارجرى كمب Margery Kempe	إنجليزية	٨١٦-٨١٨هـ/١٤١٣-١٤١٥م	الحج
رحالة مجهول		٨٢٢-٨٢٩هـ/١٤١٩-١٤٢٥م	الحج
يوحنا بولونير Johan Poloner	ألمانى	٨٢٤هـ/١٤٢١م	الحج والتجول
جلبيرت دى لانوى Gillerbert de	فرنسى	٨٢٤هـ/١٤٢١م	جمع معلومات لإشداد حملة

Lannoy			صليبية
فيليس برانكاشى Fielice brancacci	فلورنسى	٨٢٥هـ/١٤٢٢م	سفير فلورنسى لهدف تجارى
برتراندو لابروكيير Bertrando de la broquiere	فرنسى	٨٣٦-٨٣٧هـ/١٣٣٢-١٤٣٣م	جمع معلومات لإشداد حملة صليبية
بيرو طافور Pero tafour	أسبانى	٨٣٩-٨٤٣هـ/١٤٣٥-١٤٣٩م	سفير ملك قبرص
الراهب جان جيرمان Jean Jermein	فرنسى	٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م	أسقف كنيسة بدير صهيون - جمع معلومات لإشداد حملة صليبية
الراهب فيلكس فابري Felix Fabri	ألمانى	الرحلة الأولى ٨٨٥هـ/١٤٨٠م	الحج
الراهب فرانسيسكو سوريانو Francisco sauriano	إيطالى البندقية	الرحلة الأولى ٨٨٦-٨٨٩هـ/١٤٨١-١٤٨٤م	راهب دير فى بيروت
الرابى ميعولم بن مناحم الفولتيرى Rabii Meshullam ben Menahem of voltera	يهودى ايطالى	٨٨٦هـ/١٤٨١ م	الحج والتجول

جوز فان جستيل Joos van ghistele	فرنسى	٨٨٧-٨٨٨هـ/١٤٨٢-١٤٨٣م	الحج والتجول
الراهب فيلكس فابري Felix Fabri	ألمانى	الرحلة الثانية ٨٨٨-٨٨٩هـ/١٤٨٣-١٤٨٤م	الحج والتجول
الراهب برنارد فون برندباخ Bernhard von breydenbah	ألمانى	٨٨٨-٨٨٩هـ/١٤٨٣-١٤٨٤م	الحج والتجول
ليوناردو فريسكوبالدى Leonardo Frescobaldi جورجيو جيوشى Giorgio Gucci سيمون سيجولى Siemon Sigoli	إيطاليا فلورنسا	٨٨٩هـ / ١٤٨٤م	الحج والتجول
الراهب فرانسيسكو سوريانو Francisco sauriano	إيطالى البندقية	الرحلة الثانية ٨٩٩-٩٢١هـ/١٤٩٣-١٥١٥م	ريس دير جبل صهيون
الفارس أرنولد فون هارف A knigh arnold von Harff	ألمانى	٩٠٢-٩٠٥هـ/١٤٩٦-١٤٩٩م	الحج والتجول

لودفيكو فارتيما)الحاج يونس المصرى(	إيطالى برتغالى	٩٠٩-٩١٥هـ/١٥٠٣-١٥٠٩م	التجسس لملك البرتغال
مارتن بوم جارتن Martin baumgartin	ألمانى	٩١٣هـ/١٥٠٧م	الحج
جان تينو Jean thenaud	ألمانى	٩١٨هـ/١٥١٢م	الحج والتجول
دومينكو تريفزانى Dominico Trevisan	إيطالى البندقية	٩١٨هـ/١٥١٢م	سفير لدوق البندقية
ليون الإفريقى)حسن الوزان(	شبد مملوك للبابا ليو العاشر وتربى فى أفريقيا	٩٢٣هـ ١٥١٧م	التجول والنزهة

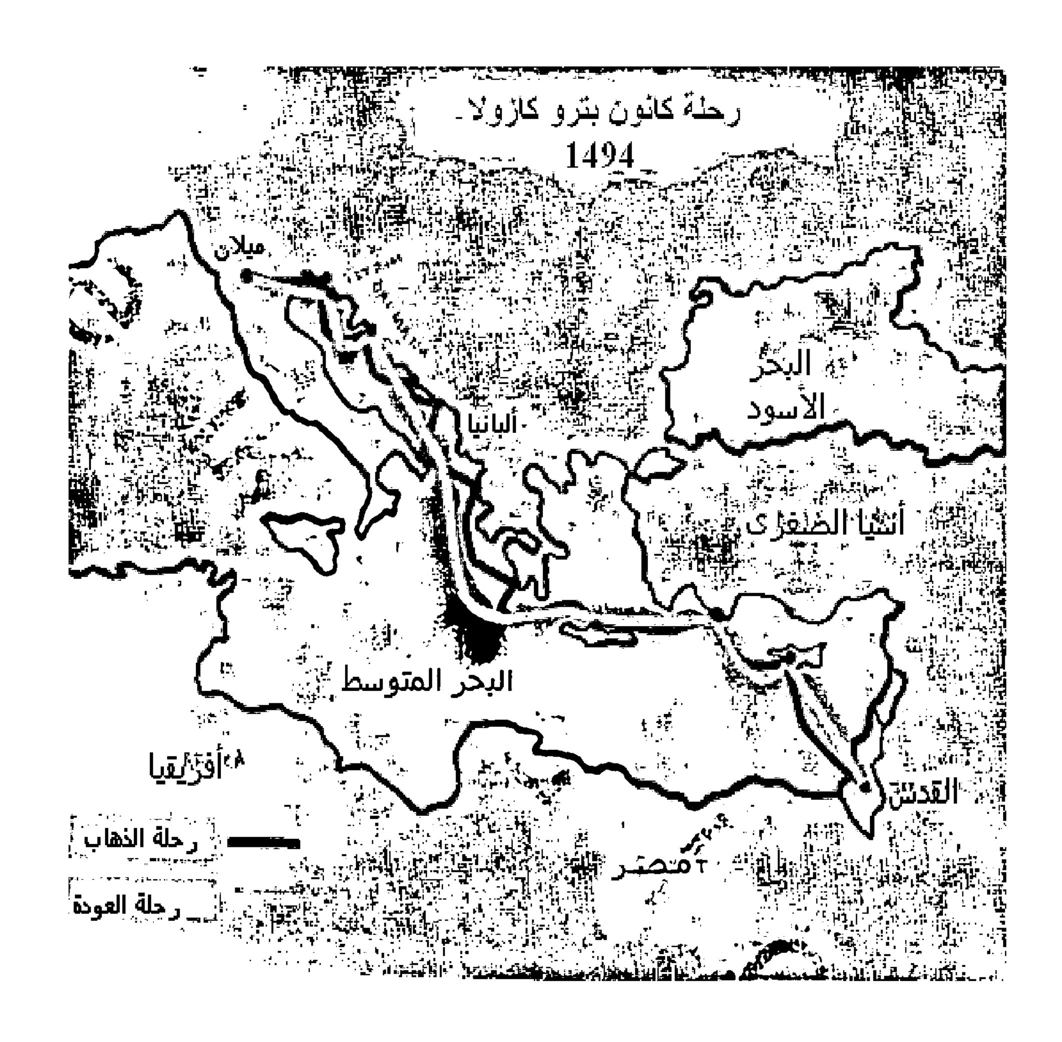
[illegible] •

ترتيب الشهور العربية و القبطية والسريانية والرومانية والعبرية

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
المحرم	آب	أغسطس	توت	تعرى
صفر	أيلول	سبتمبر	بابة	مرحعوان
ربيع١	تعرين ١	أكتوبر	هتور	كسلا
ربيع٢	تعرين٢	نوفمبر	كيهك	طابات
جمادي١	كانون ١	ديسمبر	طوبة	شباط
جمادي٢	كانون ٢	يناير	أمعير	آذار
رجب	شباط	فبراير	برمهات	نيسان
شعبان	آذار	مارس	برمودة	آيار
رمضان	نيسان	إبريل	بشنس	سيوان
شوال	آيار	مايو	بؤونة	تموز
ذو القعدة	حزيران	يونيو	أبيب	آب
ذو الحجة	تموز	يوليو	مسرى	أيلول

• تجميع الباحثة.

- من المعروف أن أيام السنة الشمسية في المدة التي تقطع الشمس الفلك فيها مرة واحدة حسب ما توجبه حركتها في ميلها في الجنوب والشمال ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم بالتقريب، وأيام السنة الهلالية في المدة التي يقطع القمر الفلك فيها اثنتي عشرة دفعة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وسدس يوم فيكون التفاوت بينها أحد عشر يوماً وسدس يوم أو تكون زيادة السنين الشمسية عن السنين الهلالية كل ثلاث سنين شهراً واحداً وثلاثة أيام ونصف يوم تقريبا أو في كل ثلاث وثلاثين سنة، سنة واحدة فإذا تمادى الزمان زاد تفاوت ما بين السنين حتى يكون كل ثلاثمائة سنة شمسية ثلاثمائة وتسع سنه هلالية. انظر، القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ج٣ تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٢٢١-٢٢٢.



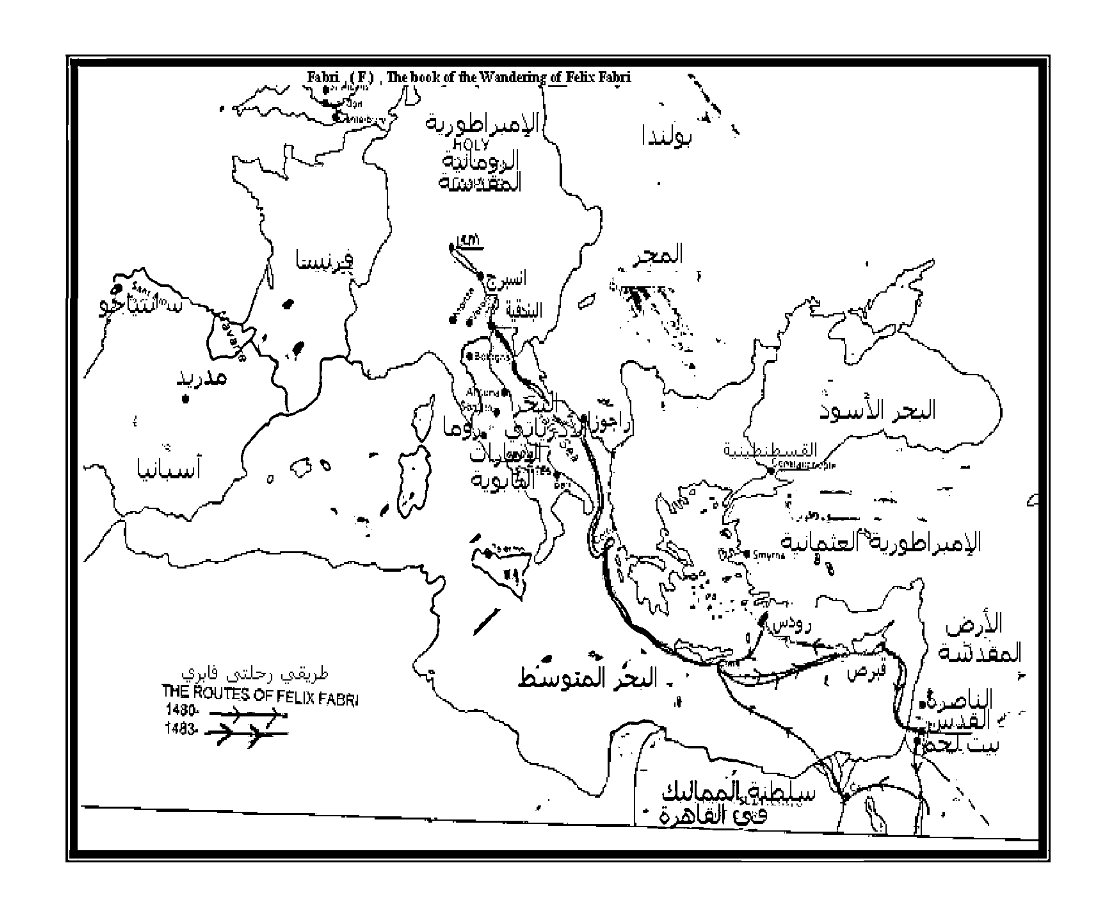
خريطة رقم (١)

تخطيط رحلة الرحالة بيترو كازولا من ميلان إلى بيت المقدس

نقلا عن Casola,Pilgrimage to Jerusalem

موقع حج بيت المقدس للرحالة بيترو كازولا

http://chass.colostate-pueblo.edu/history/seminar/seminar97.html



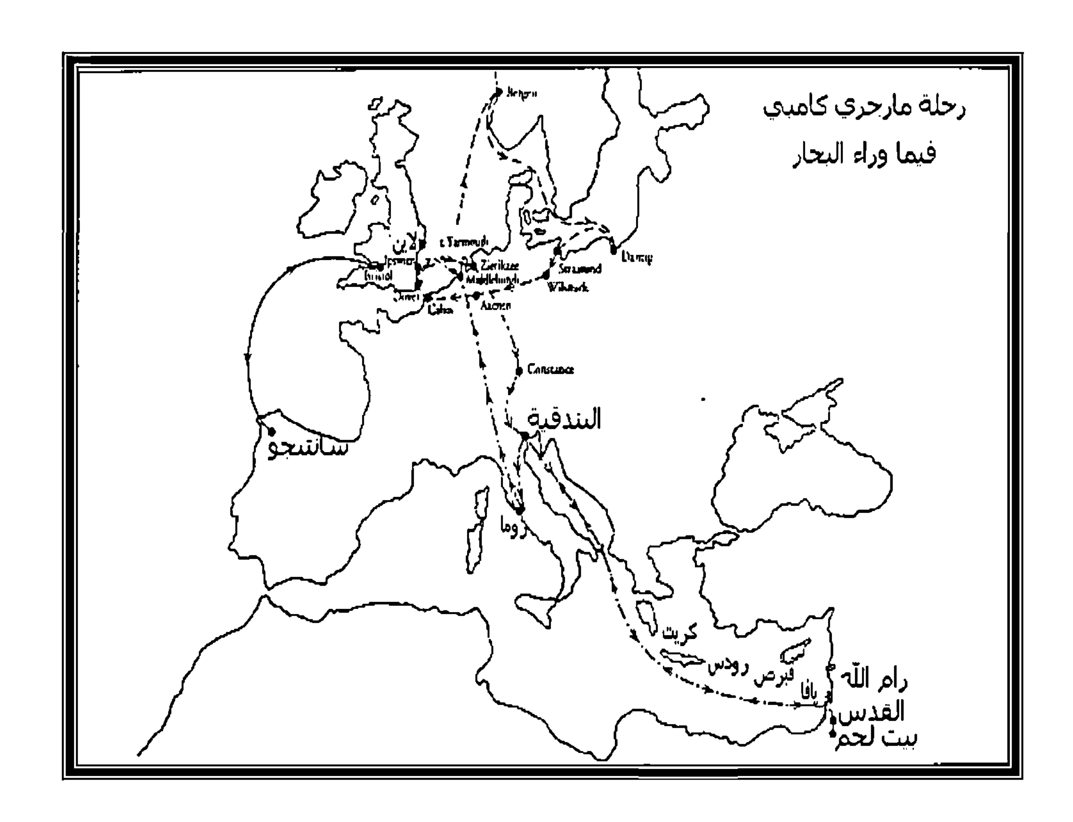
خريطة رقم (٢)

خط سير رحلتي الراهب الألماني من مدينة أولم إلى مصر والشام

نقلا عن Fabri,the book of the Wandering of Felix Fabri

موقع حج بيت المقدس للرحالة فيلكس فابري

http://chass.colostate-pueblo.edu/history/seminar/seminar97.html



خريطة رقم ٣

خط سير رحلة السيدة مارجري كمب من مدينة لاين إلى بيت المقدس

نقلا عن Skinner,)J.(,The book of Margery Kemp

موقع حج بيت المقدس ال رحلة السيدة مارجري كمب

http://chass.colostate-pueblo.edu/history/seminar/seminar97.html

صورة رقم (٢)

توضح تشابه ملابس المسلمين وأهل الذمة في العصر المملوكي

نقلاً عن

Harff, The pilgrimage of Arnold Von Harff, p.113.



(ابن الأخوة)محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بأبن الأخوة ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م(

- معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليوى، مكتبة المتنبي، القاهرة، ب. ت.

(ابن أبي الفضائل)مفضل بن أبى الفضائل، ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م(

- تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نعره وترجمه للفرنسية وشلق شليه

E .Blauchet,patralogia Orientalis,3 vols,Paris,1919 ,1952 , 1929

٣(ابن إياس)محمد بن أحمد بن إياس المصري، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م(

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٢ – ١٩٨٣م.

- اشتمدت أيضاً شلى نسخة ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة العحب،١٩٦٠م.

٤(ابن أيبك الدواداري)أبو بكر شبد الله بن أيبك، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م(.

- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م

- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر وهو الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق هانس روبرت ويمر، القاهرة، ١٩٦٠م.

٥(ابن بطوطة)شبد الله بن محمد بن إبراهيم ت ٧٧٩ هـ /١٣٧٧م(.

-رحلة ابن بطوطة المسماة بـ)تحفة النظار في غرائب الأمصار وشجائب الأسفار(، بيروت ١٩٦٠

٦(ابن بهادر)كمال الدين محمد بن محمد المؤمني ٨٧٧هـ – ١٤٧٢م(.

- فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر)مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧ تاريخ(.

٧(ابن تغرى بردى)جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م(.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب المصرية حتى ج١٢، القاهرة، ١٩٦٠م، من ج١٣ –١٦، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م
– منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والعهور، حررها وليام بير، كاليفورنيا، ١٩٣٠م.

8(ابن جبير)أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير، ت ٦١٤هـ/١٢١٧م(.
- رحلة ابن جبير، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف، ط١، ٢٠٠٠م.

9(ابن الحاج)أبو شبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي ت٨٣٧هـ/١٤٣٣م(،المدخل إلي العرع العريف، ٤ أجزاء، دار الحديث، بيروت، ١٩٨١ م

١٠(ابن حبيب)الحسن بن شمر بن حبيب، ت ٧٧٩هـ / ٣٧٧'م(.
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج١،ج٢،ج٣، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سعيد شاشور، القاهرة، ١٩٧٦ ١٩٨٦،١٩٨٢م.

١١(ابن دقماق)صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م(.
- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق سعيد شاشور، أحمد دراج، الرياض، ١٩٨٢م.
- الانتصار لواسطة شقد الأمصار، ج٥، بيروت، ١٨٩٣ م.

١٢(ابن سعيد المغربي)شلى بن سعيد المغربي، ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م(.
- المغرب في حلى المغرب،ق٢ الخاص بالقاهرة والمعروف بالنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٧٠م.

١٣(ابن شاهين)غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهري، ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م(.
– زبدة كعف المماليك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس، باريس ٨٩٤'م.

١٤(ابن طولون)شمس الدين محمد بن طولون، ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م(
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج١، تحقيق محمد مصطفي، القاهرة، ١٩٦٢ م.

١٥(ابن ظافر)جمال الدين أبى الحسن شلي بن ظافر الأزدي ت ٦١٣هـ/١٢١٦م(

- أخبار الدول المنقطعة، تحقيق اندرية فرية، المعهد الفرنسي، القاهرة،١٩٧٢ م.
١٦(ابن ظهيرة
- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، كامل المهندس، دار الكتب المصرية، ١٩٦٩م.
١٧(ابن شبد الظاهر)محي الدين بن شبد الظاهر، ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م(.
– تعريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.
- الروض الزاهر في سيره الملك الظاهر، تحقيق شبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م
- الروضة البهية الزاهرة في خطط القاهرة المعزية، تحقيق ايمن فؤاد السيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.
١٨(ابن شساكر)ابن شباس بن إسماشيل بن شساكر ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م(
- حسن المناقب السرية المنتزشة من السيرة الظاهرية، تحقيق شبد العزيز خويطر، الرياض١٩٧٦م.
- الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تحقيق، شبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٩٨ م.
٩(ابن الفرات)ناصر الدين محمد شبد الرحيم، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م(.
- تاريخ ابن الفرات المعروف بـ "تاريخ الدول والملوك"، ج٧، تحقيق قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٣٦م.
• ([ابن كثير)شماد الدين أبو الفدا إسماشيل الدمعقي، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م(.
- البداية والنهاية،بيروت،١٩٨٢م.
٢٠(ابن كنان)محمد بن شيسى، ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م(
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق شباس الصباغ، بيروت،١٩٩١م.
٢([ابن مماتي)الأسعد مماتي بن الوزير الأيوبي، ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩م(.

- قوانين الدواوين، تحقيق شزيز سوريال شطية، القاهرة، ١٩٤٣م.
٢٢) إبراهيم بك حليم
- التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، تحقيق نجوي شباس، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٤ م.
٢٣(الأبعيهي)بهاء الدين محمد الأبعيهى ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦م(
- المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢، القاهرة، ١٩٥٢.
٤٢) الإدريسي)أبى شبد الله محمد بن محمد بن شبد الله، ت ٦٥٠ هـ/ ٢٥٥'م(.
- نزهة المعتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، ب. ت.
٢٥(البدري الدمعقي)أبي البقاء شبد الله بن محمد البدري المصري الدمعقي(، نزهة الأنام في محاسن العام، القاهرة، ١٣٤١ هـ.
٢٦(البغدادي)صفي الدين شبد المؤمن بن شبد الحق البغدادي، ت ٧٣٩ هـ/١٣٣٨م(
- مراصد الاطلاع شلي أسماء الأمكنة والبقاع، القاهرة، تحقيق شلي محمد البجاوي، ط١،١٩٥٤ م.
٢٧(البغدادي)احمد بن شبد الله بن شبد اللطيف البغدادي(
- رحلة شبد اللطيف البغدادي في مصر تحقيق شبد الرحمن شبد الله العيخ، ط ٢، الهيئة العامة، ١٩٩٨م.
٢٨(البلوي)خالد بن شيسى بن أحمد بن إبراهيم بن خالد البلوى(
- تاج المفرق في تحلية شلماء المعرق، تحقيق الحسن السائح، الدار البيضاء،١٩٧٠م.
٢٩(بنيامين التطيلي
- رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة شزرا حداد، تقديم شبد الرحمن العيخ، الإمارات، ٢٠٠٢ م
٣٠(بورخارد من جبل صهيون
- وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيعاوي، شمان، ١٩٩٥
٣١(بيبرس المنصوري)ركن الدين بيبرس بن شبد الله المنصوري الدوادار ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م(

- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩، تحقيق زبيدة شطا، القاهرة، ١٩٨٩ م.
- مختار الأخبار، تحقيق، شبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٣ م.
٣١) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور في شالم القرن ١٥ م، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.
٣٢) الحموي)شهاب الدين أبي شبد الله ياقوت الحموي ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م(
- معجم البلدان، بيروت ط١، ١٩٧٩ م.
٣٣) الحميري)محمد بن بعد المنعم الحميري(
- الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق إحسان شباس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.
٣٤) الحنبلي)القاضي أبو اليمن مجير الدين الحنبلي ت ٩٢٧هـ/ ٠ ٥٢٠م(
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.
٣٥) السخاوي)شمس الدين محمد بن شبد الله بن شبد الرحمن(
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٤٥ هـ.
٣٦) السيوطي)الحافظ جلال الدين بن شبد الرحمن ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م(.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، جزءان، القاهرة، ١٩٦٨م.
٣٧) العوكاني)القاضي محمد بن شلي العوكاني ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٨م(
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق خليل المنصور، جزءان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
٣٨) الصفدي)صلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدي ٧٦٤هـ/١٣٦٢م(
- أشيان العصر وأشوان النصر، ج٢، تحقيق، شلي أبو زيد وآخرون،ط١، دار الفكر، دمعق،١٩٩٨م.
٣٩) الصيرفي)شلي بن داود بن إبراهيم الصيرفي ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م(
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبعي، القاهرة، ١٩٧٠ – ١٩٧٣م.

- إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبعي، الهيئة العامة، ٢٠٠٢ م.
٤٠(العسقلاني)الحافظ بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م(.
– إنباء الغمر بأنباء العمر، ٩ أجزاء، دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٨٦م.
- الدرر الكامنة في أشيان المائة الثامنة، ٤أجزاء، تحقيق العيخ شبد الوارث محمد على، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
٤٠(العمرى)شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله **العمرى** ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م(
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٢، تحقيق دوروتيا **كرافولسكي، ط**'، بيروت، ١٩٨٦ م.
- التعريف بالمصطلح العريف، القاهرة، ١٣١٢هـ.
٤١(العيني)بدر الدين محمود العيني ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١'(
- شقد الجمان في تاريخ الزمان، ٤ أجزاء، تحقيق محمد **محمد** أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٧- ١٩٨٨- ١٩٨٩- ١٩٩٢م.
٤٢(القرماني)أحمد بن يوسف **القرماني ت** ٩ '' **هـ**/ ١٦١٠م(.
- أخبار الدول وآثار الأول **في التاريخ**، تحقيق أحمد حطيط، فهمى سعيد، بيروت،١٩٩٢م.
٤٣(القزويني)زكريا بن **محمد بن** محمود(.
- آثار البلاد **وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت،١٩٧٩م.
٤٤(القلقعندي **)شهاب الدين** أحمد بن شلى ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م(.
- صبح **الأشعى في** صناشة الإنعا، ١٤ جلء، القاهرة، ١٩١٣-١٩١٨م.
٤c(**لود فيكو فارتيما**
- **رحلات فارتيما**)الحاج يونس المصري(، ترجمة شبد الرحمن العيخ، الهيئة العامة **للكتاب، القاهرة**، ١٩٩٤م.
٤٦(مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب باسترجاع الأراضي المقدسة، ترجمة الأب سليم رزق الله، بيروت ١٩٩١م.

٤٧(المسعودي، أبى الحسن على بن الحسين بن على)ت٣٤٦هـ / ٩٥٧م(
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٨٧م
٤٧(المقريزي)تقى الدين أحمد بن شلى المقريزي، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م(.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمي محمد، القاهرة، ١٩٧١م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١،ج٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة،ج٣،ج٤، تحقيق سعيد شاشور، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م، ١٩٧٢م، ٩٧٣'م.
- الخطط المقريزية المعروفة بالمواشظ والاشتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، نعر كلية الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م.
٤٨(مؤلف مجهول
- تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترستين، ليدن، ١٩'٩م.
٤٩(ناصر خسرو
- سفرنامه، ترجمة، يحي الخعاب، الهيئة العامة، ١٩٩٣م.
٥٠(النويري)شهاب الدين احمد بن شبد الوهاب النويري ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م(
- نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج٣٠، تحقيق محمد شبد الهادي شعيرة،الهيئة العامة، ١٩٩٠ م
٥١(النويري السكندري)محمد قاسم بن محمد السكندري ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م(
- الإلمام بالإشلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية، ٥ أجزاء، تحقيق شزيز سوريال، ايتن كومب، الهند، ١٩٦٩-١٩٧٣ م.
٥٢(الهروي)أبى الحسن شلى بن أبى بكر الهروي ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م(
- الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق شلى شمر، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م.
٥٣(الوزان)الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بـ جان ليون الأفريقي(
- وصف أفريقيا، ترجمة شبد الرحمن حميدة، السعودية، ١٣٩٩هـ.

(إبراهيم حسن
- البحرية في شصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦ م
٢(إبراهيم شلي طرخان
- النظم الإقطاشية في العرق الأوسط في العصور الوسطي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.
٣(أحمد دراج
- تاريخ المماليك والفرنج في القرن ٩ هـ/ ١٥ م، دار الفكر العربى، ١٩٩٠.
٤(أحمد رمضان
- المجتمع الإسلامي في بلاد العام في شصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧ م.
٥(أحمد شبد الجواد
- الأسبلة قطرات من ماء ولمسات من جمال، مجلة العربي، العدد ٥٦١، أغسطس ٢٠٠٥ م.
٦(أحمد شبد الرازق
- الرنوك الإسلامية، المجلة التاريخية، م ' '، ١٩٧٤.
- الحضارة الإسلامية، في العصور الوسطي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠م.
- الجيش المصري في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩م.
- المرأة في مصر المملوكية، الهيئة العامة، ١٩٩٩م.
٧(أحمد مختار العبادي
- تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٠ م.
٨(آدم متز
- الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ، ترجمة محمد شبد الهادي، الهيئة العامة، الألف كتاب، ج٢
القاهرة، ٢٠٠٣م.
٩(آشتور. آ

- التاريخ الاقتصادي للعرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة شبد الهادى شيلة، دمعق، ١٩٨٥م.
١٠) أمينة العوربجي
- رؤية الرحالة المسلمون للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، الهيئة العامة، ١٩٩٤م.
١١) إير لابيدوس
- مدن إسلامية في شهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧م.
١٢) جاستون فيت
- المواصلات في مصر في العصور الوسطي، ترجمة محمد وهبة، مجلة المقتطف، ١٩٣٧ م.
١٣) جمال الدين العيال
- مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية، ١٩٤٩ م.
١٤) جورج كيرك
- موجز تاريخ العرق الأوسط، ترجمة شمر اسكندر، القاهرة، ب.ت.
١٥) جوزيف نسيم
- دراسات في المخطوطات العربية بدير سانت كاترين، مجلة آداب إسكندرية، العدد ٢٢، ١٩٦٩ م.
- دراسات في تاريخ العرق والغرب، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
١٦) جومار
- وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة ايمن فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٨٨ م
١٧) جوناثان رايلى سميث
- تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ترجمة، قاسم شبده قاسم، دار شين للنعر، ط١ / ٢٠٠٧ م
١٨) حسين شطية
- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م)، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

١٨) رأفت النبراوي
- المسكوكات الصليبية في بلاد الشام، القاهرة، ١٩٩٨ م
١٩) رئيسة عبد الفتاح
- نابلس في العصر المملوكي، فلسطين ١٩٩٩ م
٢٠) ستانلي لين بول
- سيرة القاهرة، القاهرة، ١٩٥٦م.
٢١) ستيفن رنسيمان
- تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١ م
٢٢) سعاد ماهر
- القاهرة وأحياؤها القديمة، القاهرة، ١٩٦٧ م.
٢٣) سعيد البيعاوي
- الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، دار **المعرفة**، الإسكندرية، ١٩٩٠ م.
- دراسات في الأديان والفرق، **عمان**، ١٩٩٦ م.
٢٤) سعيد عبد الفتاح عاشور
- المجتمع المصري في **العصر** المملوكي، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٢م.
- الحركة الصليبية، جزءان، **الأنجلو** المصرية، ١٩٦٣م.
- العصر المماليكي **في** مصر والشام، ط٢، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٦ م.
- "بعض أضواء **جديدة على** مدينة القدس" بحث المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، **إبريل** ١٩٨٠م.
٢٥) **سمير علي الخادم**، العرق الإسلامي والغرب المسيحي، بيروت، ١٩٨٩م.
٢٦) **السيد** الباز العريني، الإقطاع الحربي بمصر، القاهرة، ١٩٥٦م.
٢٧) شارل ديل، جمهورية البندقية، ترجمة أحمد عزت، دار المعارف القاهرة، ١٩٤٨م.
٢٨) صبحي لبيب

- "الفندق ظاهرة سياسية و اقتصادية وقانونية"، ندوة مصر وشالم البحر المتوسط، دار الفكر، ١٩٨٥م.
٢٩) شارف العارف
- المسيحية في القدس، القدس، ١٩٥١ م.
- تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١ م
٣٠) شبد الحميد زايد
- القدس الخالدة، الهيئة العامة، ١٩٧٤ م
٣١) شبد القادر الريحاوي
- مدينة دمعق و تراثها، دمعق، ١٩٦٩م،
٣٢) شبد المنعم ماجد
- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج ١، ط٢، الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.
٣٣) شزيز سوريال شطية
-الحروب الصليبية وتأثيرها شلي العلاقات بين العرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، ط٢، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٠م.
٣٤) شلي السيد شلي
- "القاهرة في شيون الرحالة الأوربيين في القرنين ١٤،١٥م"؛ مجلة الفكر العربي، العدد ١٣، ١٩٨٨م.
٣٥) شلي مبارك
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج ١١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.
٣٦) شمر كمال توفيق
- مجتمع الإسكندرية في العصور الوسطي، الإسكندرية، ١٩٧٢ م.
٣٧) فايد حماد شاشور
- العلاقة بين البندقية والعرق الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف، ١٩٨٠ م.

٣٨) فايز إسكندر
- مصر في كتابات الرحالة الروس في القرن ١٥م، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
٣٩) ماهر يونان
- الطوائف المسيحية في مصر والعالم، القاهرة، ٢٠٠٢ م.
٤٠) محاسن الوقاد
- اليهود في مصر المملوكية، الهيئة العامة، تاريخ المصريين، العدد ١٣٥، ١٩٩٩م.
٤١) محمد أحمد دهمان
- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠ م.
٤٢) محمد أنيس
- الدولة العثمانية والعرق العربي (١٥١٤ – ١٩١٤ م)، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٧٧ م.
٤٣) محمد حسنين ربيع
- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م،
٤٤) محمد شدنان
- بحث في تاريخ بلاد العام، شمان، ١٩٩٠ م.
٥٤) محمد غلاب
- الساحل الفينيقي في الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩ م.
٤٦) محمد كرد شلي
- خطط العام، دمعق، ١٩٢٥م.
٤٧) محمد محمود النعار
- شلاقة مملكتي قعتالة وأراجون بسلطنة المماليك، دار شين، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧ م.
٤٨) محمد مصطفى زيادة
- "المحاولات الحربية للاستيلاء شلى رودس"، ترجمة جمال الدين العيال، مجلة الجيش ١٩٤٦م.

٤٩) مصطفي حسن الكناني

- العلاقات بين جنوة والعرق الأدنى الإسلامي، الهيئة العامة، ١٩٨١م.

٥٠) محمود العايدي

- قدسنا، القاهرة، ١٩٧٢ م.

٥١) محمود الحويري

- الأوضاع الحضارية في بلاد العام في القرنين ١٢-١٣م، دار المعارف، ١٩٧٩م.

٥٢) الموسوشة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للعباب الإسلامي، الرياض، ١٩٨٩م.

٥٢) محمود سعيد شمران

- الحملة الصليبية الخامسة)٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م(، الاسكندرية، ١٩٨٥م،

٥٣) نبيل شبد العزيز

- الحمام الزاجل وأهميته في شصر المماليك، المجلة التاريخية، م ٢٢، ١٩٧٥ م.

٥٤) نعيم زكي

- طرق التجارة ومحطاتها الدولية، القاهرة، ١٩٧٣ م.

٥٥) نقولا زيادة

- رواد العرق العربي، مجلة المقتطف، القاهرة، ١٩٤٣م.

٥٦) نورمان كانتور

- التاريخ الوسيط، ج٢، ترجمة قاسم شبده قاسم، دار شين، القاهرة، ١٩٩٤م.

٥٧) هايد.ح

- تاريخ التجارة في العرق الأدنى، ترجمة احمد رضا، الهيئة العامة، ١٩٩٤

[illegible]

١) أحمد شبد الله

- التجارة في الساحل العامي في القرنين ١٢و١٣، ماجستير غير منعور، آداب شين شمس، ٢٠٠٦ م.

٢) أسامة سيد شلي

- الساحل الشامي، في القرن ١٢ م، ماجستير غير منشور، عين شمس، ١٩٩٢ م.
٣) جمال فاروق
- تطور استراتيجية الحروب الصليبية، ماجستير غير منشور، جامعة طنطا، ٢٠٠٦ م.
٤) حسناء حسين محمد
- الإمارات التركمانية على حدود دولة المماليك، ماجستير غير منشور، بنات عين شمس، ٢٠٠٢ م.
٥) حسين النحال
- دولة المماليك ودول البحر المتوسط، ماجستير غير منشور، آداب الزقازيق، ١٩٨٧ م.
-الحروب الصليبية المتأخرة على مصر وتونس في أواخر العصور الوسطى، دكتوراه غير منشورة، بآداب عين شمس، ١٩٩١م.
٦) سليمان عطية
- سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر برسباي، دكتوراة غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٥٩ م.

رابعاً: المصادر الأجنبية:

1(Adler,)E. N.(,
- Jewish Travelers, 1 ed , , London , 1930.
2(Anonymous,
Guid book to Palestine 1350 , trans by Bernard , P.P.T.S ,vol 6
– ,London , 1894.
3(Baumgarten ,)M.(,
-The Travel of Martin Baumgarten through Egypt ,Syria ,Palestine , London , N.D.
4(Casola ,)C.P.(,
-Pilgrimage to Jerusalem ,trans. by M. Margaret Newett ,

Manchester,1907.
5(Doop.)P.h(,
- Les relations Egypte – Catalans et les corsairs au commencement du quinzieme siecle , le caire , 1949.
- L'Egypte au commencement du quinzieme siecle, le Caire , 1950.
- Le Caire vu par les voyageurs accident du mogen ages, tome 24-26, le caire, 1951.
6(Fabri,)F.(,
- The book of the Wandering of Felix Fabri)1480-1483 A.D(,2vol,p.p.t.s,vol 7-10, trans. by Aubrey Stewart, London ,1896.
- Le Voyage en Egypte 1483, 3 toms, trad. Du Latin Presente et annote par J. Masson , Le Caire , 1975.
7(Frescobaldi , Gucci , Sigoli,
- A Visit to the Holy Places , trans. by Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948.
8(Germain ,)J.(,
- Le Discours du Voyage de Oltremere au tres victoorieux roi Charles vii , R.O.L , tome 3 , Paris ,1895. 9(Harff ,)A.V.(, The Pilgrimage of Arnold Von Harff , trans by Letts Malcolm ,London , 1946. 10(Johan Schiltberger,
- The bondage and Travel of Johan, schiltberger, native of Bavaria in Europe , Asia , Africa,)1396- 1427(, trans by Karl Fredric,London , 1859.

11(Joos Van Ghistele ,
-Voyage en Egypte)1842 - 1483(, trans by , Bauwens Preaux ,
. Bruxelles , 1975
12(Langnon ,)B.(,
- Le Saint voyage de Jehrusalem de Seigner de Angleur ,paris ,
1878.
13(Larrivaz ,)f.(, - Le Saints Peregrinations de Bernard de
Breydenpah 1483,Le Caire ,1904.
14(Ludolph Von Suchem, - Description of the Holy land and
the way thither , translated by Aubrey Stewart, London , 1895.
15(Margery Kemp,
- The book of Margery Kemp,trans by Skiner jemes , New York ,
1998.
16(Nicolo of Poggibosi ,
- A voyage Beyond the seas)1346-1350(, Jerusalem , the
Franciseen Pres , 1945.
17(Poloner ,)J.(,
- Description of the Holy Land 1421 , trans by Aburey Stewart ,
in P.P.T.S , vol 6 , London , 1894.
18(Potvin ,)C.H.(,
.- Oeuvres de Ghillebert de Lannoy , London , 1878
19(R.B , Two Journey to Jerusalem , London , 1685. 20(
Schefer,)c,h(
-Le Voyage de Jean Thenaud et Dominico Trevisani , Paris,1864.
20(Souriano ,)F.(,

- Treaties on the holy Land ,translated by Fr. Theophilus Bellorini ,Jerusalem,1948.
21(Theoderich,)G.H(,
- Guide to the Holy Land trans byAburey Stewart ,2 ed ,New york,1968.
22(William of Tyre ,
- History of Deeds done beyond the sea , New York ,1978.
23(Wright ,)T.(,
- Early travelers in Palestine , London , 1948.

1(Armstrong ,)K.(, A history of Jerusalem ,one city, three faiths , U.S.A , 1997.
2(Atiya,)A.S(,
- the latter crusades in the middle ages , London ,1938.
- Egypt and Aragon , Leipzig , 1938. 3(Bryane ,)G.(
-Genoes Shipping in the 12-13 centuries.Cambridge , 1930.
4(Callis ,)L.(, - Memory of medieval women , new York , 1962.
5(Coleman ,)S.(, and Elsmere)J.(, - pilgrimage past and present in the world religions ,Cambridge , 1995. 6(Davis,
- Bernard Von Breydenpach and his Journey to the Holy Land, London , 1911.
7(Day)C.(,
- History of Commerce , New York , 1940.
8(Deeping ,)E.(,
- Histoire de Commerce enter le Levant et Le Europe depuis des

les Craissades, Paris 1830.
9(Dopp ,)P.H.(,
- Les Relations Egypte-Catalans et les corsairs au commencement du 15 siecle , le Caire,1949.
10(Encyclopedia of Religion , vol 10 ,2ed , U.S.A , 2005. 11(Gale ,)T.(
-New catholic encyclopedia ,U.S.A , 2003
12(Graham ,)P.(,
- Top graphical dictionary of Palestine , or the holy land ,London , 1836.
13(Hill. G ,
- History of Cyprus, vol 2 ,Cambridge , 1972.
14(Lane ,)E.(,
- The Economic Meaning of the Invention of the compass , London ,1963.
15(Lane)F.G(,
- Ventian Shipping during the Commercial Revolution , London , 1937.
16(Lane ,)F.(,
-Venice Maritime Republic , London , 1973.
17(Lopez and Raymond ,
- Medieval trade in Mediterranean world, New York, 1955.
18(Lutfi ,)H.(,
-Al Quds al Mamlukiyya , Berlin , 1985.
19(**Margaret ,A history of medieval church 590-1500,London**

,1972.

19(Marty,)W.(,and Echols,)A.(,

- Between pit and pedestal: Women in the middle ages, Prinston,1994.

20(Mina ,)K.(,

- Israel land of Jews , new York , 1972.

21(Painter ,)S.(,

.- A history of the middle ages , New York , 1954

22(Patterson)W.(,

- Sacred Sites , New York , 2004.

23(Peters,)G.(,

- Jerusalem The Holy City , U.S.A , 1985.

24(Poston ,)T.(,

- The Cambridge economic history, vol 2, Cambridge,1952.

25(Prescott,)G.(,

- Once to Sinai,The Further Pilgrimage of Felix Fabri ,London, 1957.

- Jerusalem Journey Pilgrimage to the holy land in 15 century ,London ,1954.

26(Ray Johan,

- Collection of Curious travels &Voyages, trans by Nicholas Staphorst ,London,1693.

27(Renna ,)T.(,

-Jerusalem in medieval through 400-1300 , Lewiston,2002.

28(Schefer ,)C.H.(,

Le Voyage de la Saincte de Hierusalem , Paris , 1882.
29(The New Encyclopedia Britain, vol 8, London , 1974.
30(Thompson ,)J.W(,
- Economic and Social of the Middle ages)300 – 1300(,vol 1,London,1959.
- History of the middle ages , London ,1931.
31(Vredan ,)J.(,
-Travel in the Middle ages , trans. By Gearge Holoch ,Noterdam ,2003.
32(Wad ,)M.(,
- Medieval travelers , London ,1983.
33(Wolff ,)A.(,
- How Many Miles to Babylon ? , Liverpool , 2003.
34(Ziada,)M.M(,
- The Foreign relation of Egypt in 15 century London ,1967.

The Title of this study is "The cultural situations in Egypt and Syria throughout the writings of the Europeans travellers during the Mamluk era)648-923( )1250-1517AB (These situations mean all what man had

produced, developed and change in various fields. Cultural means in general a group of intellectual, spiritual and material features which spread in any society. From here we can not also imagine a society without cultural but we can say that there is a difference in the cultural level between nations and citizens because each nation and has its own view of life. Each nation has its style of thinking, traditions, habits, industrial productions, different arts that serve it. Therefore we can say that the cultural situations are group of traditions, thoughts systems and rules, which deal with the problems of a certain society. Briefly and another word "cultural is the whole features of the human activity"

Travelling was a mean of acquiring knowledgement in the medieval centuries, which has various changes in all fields. It is still an essential mean of acquiring accurate knowledgement and comprehensive view. It is considered an easy way of collecting all the important and distinguished information because it depends on witnesses. A voyage is the ensight eye, which leads to the truth and reality. It presents a point of view which differs from the point of view of the native people. Here the value of the traveller appears because he could see clearly and deeply the events and the geographical description of the country such as its climate, plants and the different enviromental and population phenomena and its effection, he can also deduct things and discover events which we would not know about unless he wrote about. Those Travellers observed and studied the matters of the countries they passed by whether in their prosperous or unprosperous conditions. They have left for us a number of valuable books which narrate the condition of the countries and their nations in all fields recording precious notes and details which appeared for the historians of these countries as a familiar matter which did not attract their attention, they had also left records full of description of the towns they visited, they also interested in their western peers especially traders and pilgrims, they also interested in the conditions of the citizens and describing the Egyptian and Syrian towns with the ways that leads to each town, in addition to that they interested in mentioning the most important station of the pilgrims trips between Joppa then Jerusalem then Sinai to Cairo or the

coasted cities such as Damietta, Rashid and Alexandria. Thus they left important and valuable informations about each spot they visited.

In addition to that each traveller had his own writings and points of view which differ from the others, this is due to their different nationalities and targets, these difference leaded to different interests according to the environment in which they grew and their economical, political and religion conditions, some of them were Italian, Spanish, German and French, some of them interested in the political field, the system of the countries and the military status in the Islamic countries, some interested in the commercial field that you find that their research included describing ports, the capacity of commerce in these ports and the important industries and crafts, some of them were Christians and they were interested in the states of the Christians in Egypt and Syria, how the Mamluk government treated the visiting the holy lands describing the ancient churches with its importance and sacredness for the native and foreigners Christians. On the other hand the Jews travellers interested in the numbers of the Jews in the Islamic countries, their affairs, economical activities and their position in the area and their relations with the Moslems, Christians and the Mamluk government and they mentioned their temples.

The targets and motives of the travellers who came to the Mamluk countries had varied. They suffered a lot of troubles and great risks; they faced different dangers and problems in the sea and on the land such as storms and bad winds, which threatened their ships in the middle of the sea, and the attacks, which the pilgrims were facing by the Christians and Moslems pirates as well. For their targets; some of them came to perform the pilgrimage and visit the holy lands in Egypt and Syria, which was related to biography of the Christ, and also to visit the monasteries, churches and tombs of the saints. Some others monks or preachers to be appointed in one of the monasteries. Some came as ambassadors for kings to reconcile, contract truces, threaten, spy or to make commercial bargain and receiving new commercial privileges for the communities of their countries. In addition to that there were economical

tagets since a lot of people went to Syria with he beginning of he crusades where hey settled and gaied enormous benefits as a result of being commercial agent between he east and he west, a lot of hose travellers frequented on he Egyptian and Syrian ports and hey wandered in he countries to buy ad sell.

Add to all he former tagets he desire of recognizing he situation of heir eastern Christian brohers in order to send another crusade to he east to protect he Christian sanctuary in he islamic east or for special reasons related to he traveller's own desire of wandering, discovering, people 's conditions and studying he habits and traditions of new nations whom he don't know hem. Thus he European travellers visited he Mamluk countries for various reasons and to achieve various tagets.

The European travellers travelled from he west to he east using many and various ways, but he most important way is he Mediterranean where he British, French, Italian and German used to reach he harbours of Venice, Genoa, Marcilla by land inside he borders of heir countries, hose harbours were considered he most important and he best harbours of he Mediterranean in Europe, and hose were he places which he pilgrims and hose who travelled by sea from Europe to he east turned to. Venice was considered he best and he most important Italian cities at all, so Venice, Joppa, Alexandria way he shortest and he best.

The first chapter studies some situations of he Mamluk royal palace with its formation beginning with he Mamluk standard hat was formated of he Mamluks who were bought from he market of he slaves and hose were called captives, The Mamluk government was built by hem, heir life was isolated away from he citizens 'life and he method of training, heir residence in he castle, heir clohes, heir power in he country, and hey were he essential reason for ruin of he country and he collapse of he internal and external states of he country. The chapter also deals with how hey reach different positions;

such as the Mamluk sultan who reached his position by force, then it exposed some system of the royal palace, rules of authority, means of entertainment, their private life, the international political affairs between the Mamluk country and the other countries, means of punishment they used to punish criminals and finally the ceremony which they follow when they received the foreigners ambassadors.

The second chapter is titled by "The economical situations in Egypt and Syria" these situations are represented in agriculture which was based on sources of water, and different kinds of crops; how and when they were planted and harvest, also it exposes the system of irrigation and projects were established to protect and preserve water of the River Nile, then it deals with the different industries such as textiles and cloth, industries of glass, wood. Bricks, and sugar and honey which were gotten from sugarcane, it also studies wines which were produced from grapes and different kinds of oil especially olive and elsirag, then grinding grains and weapons industry As for trade there were two kinds of it; International trade which dealt with ways of trade by land or sea, markets, and goods. Add to these methods of keeping birds and animals, which were the most amazing, and surprising for all travellers. This chapter also deals with how strong the movement of buying and selling was. The other kind of trade is the external trade, since the Mamluk country enjoyed a strong factors of the attraction forced the various foreign countries to deal with it. Add to these factors the existence of their communities in Egypt and Syria constantly because of the different ports, the policy of forgiveness which the Mamluk government followed and the commercial privileges they gave to the foreigners. The imported and exported goods in the ports were different in spite of the special procedures which the Mamluk governments were applying and the strictness of the inspection or colleting taxes at the custom house. In spite of the facilities the government gave to them and allowed them to build commercial establishments such as inns and hotels, the government was considering those foreigners as captives and used them to press on the foreigner governments in order to guarantee that their ships will reach to the harbours safely or recover

Moslem s captives whom the pirates capture during their trips. The bad treatment, the greediness of the Mamluk sovereign, the monopoly of some goods and the high taxes that were collected from foreigner merchants; all these factors resulted in the bankruptcy of many of them, the flight to others, reduction of numbers of the delegated ships and the ruin of some coasted cities, consequently the reduction of the financial income and regress of the economy generally.

The title of the third chapter "The social status in Egypt and Syria". Egypt and Syria had witnessed a remarkable growth in population at the beginning of the Mamluk era. That because of the period of peace that started since the sultan Baybars ruled the country; he made truces with the crusade kings in order to devote his forces to oppose the Mangoles who invaded most of the Islamic eastern countries, these countries faced slaughtering and terror then the mamluks could oppose them before interning the Egyptian borders, so the Mamluk government achieved a whole century of great progress for Egypt and Syria, add to the former the political and economical stability, the external immigration, improving the financial status in Egypt and Syria and prosperity of the internal and external trade which in return helped in facilitating earning incomes and devilling safely and freely. The sultan Baybars, al mansour Qalaun and al Nasir Mohamed Ibn Qalaun improved the commercial relationships with the foreign countries, they also deleted some taxes which the residents were obliged to pay, there for the stability of the whole system was the real reason of the growth of the population in Egypt and Syria. Population decrease began in the second half of the fourteenth century because of the plague in 749/1347 which called the black death or the great death, that plague is considered the real beginning of the population decrease in that time.

The travellers divided the residents into three sections; The first one: the slave Mamluks (who were promoted to high positions in the country and lived separately away from all the other residents. So that they became and distinguished rank and we have mentioned their origins and private life in chapter one. The second section: the nations with all

its parties which were submitted to the power of the sultan politically and to the khalifa religiously, they were divided into Moslems, Christians and Jewish. The third section: the Bedouins who resided the desert and the nomadic who farmed the lands and lived in the rural areas. The travellers dealt with the different traditions and customs for each section and the special ceremonies either it was religious, social or national ceremonies. The native people (Moslems, Christians and Jewish) lived a quiet and stable life, the evidence for that was the participation of those people in the national and religious celebrations, food, clothes and the public life away from the ruling class. But the Bedouins were considered as a strange part in the Egyptian society because of their clothes, shelters, food, and daily behavior. Add to that the insanes and eldarawish who renouned the world, they were a source of amazement for the travellers because of their clothes and strange believes. we shall not also forget the existence of the numbers of poor people who were in the streets since they haven't any place to live in but streets. Travellers also noticed that the residents were interested in searching for entertainment as a method which these residents used their troubles, anxious and daily problems. Native people created methods of entertainment and they devoted places for having fun such as the grave yard (elkarafa), elazbakia, ect. The Egyptian and Syrian cities didn't lack public bathes which were essential in their life because they didn't care of building bathes in their houses. In addition to the natural hot bath.

Women had a great important role in the society, they were allowed to walk, wander and travel freely. They used to go out to the market and visit their relative all the day. They also worked in trade and other jobs. Therefore many contemporaneous travellers and jurisprudents criticized them because of that freedom, which made travellers describe them as liberties and jesters. As for houses, the residents built wonderful houses with marvelous internal and external designs. They were also interested in decorating them with flowers, plants and fountains in order to guarantee the quietness and stability in their houses. They kept the sacredness of their houses by building wooden windows with small

openings,which called "mashrabia". Those openings enabled those whom were inside the house to see the outside world without bothering the residents. The Mamluks sultans had cared about education, they built schools near the mosques where young children learnt the Holy Quraan and the principles of reading and writing also there were " katatib ". But Jews were concerned about teaching their children in a special school belonged to their temples.

The last chapter deals with the states of the different religious parties in Egypt and Syria. Christians enjoyed freedom of religion and forgiveness since the establishment of the Islamic country, they possessed important positions in the country, their churches and monestries were found everywhere, they were allowed to stay safely and freely whether they were native or foreigners, they were also allowed to perform their rites as they like. The internal government also facilitated the journey of the Christians pilgrims to the holy land, those facilitates and services encouraged a plenty of western travellers to come to the Islamic state. The sultans Mamluks applied carefully religious justice for the religious minorities in the Mamluk country But in hard occasions they pressed on them because of the European pirateness on the Egyptian and Syrian coasts, that pushed the Mamluk government to rage at their Christian residents randomly and in groups included pilgrims, monks, and foreign consuls, they sometimes closed one of the monestries or the public church and prevented pilgrims to enter it,or destructed one of the religious establishment that belongs to it especially when the Moslems are angry But rapidly all those situations calmed down and peace spreaded again. The Christians parties varied and their number reached to ten parties, the travellers talked about their states, believes, how they lived and the places where they dwelled. Those parties differed in their believes, prospectives, rules, the language they used and how they performed their rites and the religious ceremonies. Each part thought that it was better than the others and it followed the right belief But the Jewish parties were three basic parties in Egypt and Syria, then the travellers mentioned the Islamic parties especially two only.

Most writings of the Arabian and foreign pilgrims and travellers in the medieval era were characterized with description the holy places and Islamic, Christian, Jewish shrines. The most Islamic shrines that the European travellers saw and talk about in Jerusalem were masjid elaqsa and masjid elskhra and both are located on Morya mountain A lot of them concerned about explaining and describing the holy places matching it with what was written in the Bible and the Gospel depending on the mentioning some verses which tells about this holy place. Some of them described the holy shrines in a amazing details through defining spaces and steps and through drawing a map of these places Most travellers and pilgrims started with visiting Syria especially Jerusalem and the places around it, they recorded what they saw there because the Virgin Mary and the Christ were born on its land Nevertheless they also visited Egypt because they were attracted to it because of what is written about it in the Bible and the Gospel, churches that were established since the beginning of the Christian history and ST Cathrin monestry which gained an international fime But the Jews were interested in visiting Grizem the holy mountain as they considerd it the place of sacred pilgrimage, they were also interested in visiting the graves of the prophets and saints and the double cave.

هذا البحث بعنوان "الأوضاع الحضرية في مصر والشام من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين في العصر المملوكي ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م"، وقد صاحبت تلك الأوضاع كل ما أنتجه الإنسان وأحدثه عليه تطورات وتغييرات عديدة في مجالات متنوعة، فالحضارة تعبر بصفة عامة مجموعة المظاهر الفكرية والمادية والروحية التي تسود أي مجتمع من المجتمعات وهنا لا يمكننا الفصل بين هذه المظاهر أو أن ننكر وجود علاقة بينها في حياة أي شعب من الشعوب كما أننا لا نستطيع أن ننفي التأثير المتبادل بينها، كذلك لا يمكن تصور مجتمع ما بدون حضارة، لكن يمكن القول بأن هناك اختلافًا في المستوى الحضاري من أمة إلى أخرى ومن شعب إلى آخر، لأن لكل شعب نظرته للحياة وله أسلوبه في التفكير والعادات والتقاليد وله أيضًا موضوعات وحرفًا وفنونًا مختلفة تفيده وتخدمه ولذا يمكن القول بأن الأوضاع الحضرية هي مجموعة من التقاليد والأفكار والنظم والقوانين التي تعالج مشكلات مجتمع ما، وبعبارة أخرى مختصرة وأكثر وضوحًا "إن الحضارة هي جميع مظاهر النشاط البشري".

كانت الرحلة وسيلة من وسائل المعرفة في فترة العصور الوسطى تلك الفترة التي شهدت تغيرات وتحولات عديدة في نواحٍ مختلفة، وما زالت الرحلة وسيلة رئيسية للمعرفة الدقيقة والرؤية الشاملة، فهي طريقة سهلة وميسورة لجمع كافة المعلومات الهامة والمميزة لأنها تعتمد على المشاهدة عيانًا، فالرحلة هي العين المبصرة والوصول للحقيقة والواقع وتقدم وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر السكان الأصليين، وهنا تبرز قيمة الرحالة حيث يتمكن من رؤية واضحة وعميقة لبعض الأحداث والوصف الجغرافي للبلاد مثل التضاريس والمناخ والنبات الطبيعي والظواهر البيئية والسكانية المختلفة ومدى تأثيرها، ويستنتج بعض الأمور ويكشف النقاب عن أشياء وأحداث لم نكن لنعرفها إلا عن طريق كتابات هؤلاء الرحالة، حيث لاحظوا ودرسوا أحوال البلاد التي مروا بها في حالة الازدهار، أو في حالة الانهيار والتدهور، وقد تركوا لنا الرحالة

مؤلفات قيمة تسرد ظروف البلاد وشعبها في شتى نواحي الحياة مسجلين أدق الملاحظات والتفاصيل التي قد تبدو للمؤرخين من أبناء البلاد شيئًا مألوفًا لا تلفت نظرهم ويغفلون تسجيلها كما تحفل بوصف المدن التي زاروها وأحوالها ووصفها بدقة بأخبار إخوانهم من الغربيين من تجار وحجاج وكذلك أحوال الوطنيين كما اهتموا بوصف المدن المصرية والشامية وثغورها والطرق المؤدية لكل مدينة بالإضافة إلى ذكر أهم محطات رحلة الحج التي تنحصر بين نابلس ثم بيت المقدس ثم سيناء ومنها إلى القاهرة أو المدن الساحلية مثل دمياط ورشيد والإسكندرية ولهذا فقد تركوا لنا معلومات هامة وقيمة عن كل بقعة شاهدوها

فضلًا عن أن لكل رحالة كتاباته الخاصة وآراءه المختلفة عن غيره وذلك نظرًا لاختلاف جنسياتهم وأهدافهم فأدى ذلك إلى اختلاف وتنوع اهتماماتهم وفقًا للبيئة التي نشأوا فيها وظروفهم السياسية والاقتصادية والدينية فكان منهم الإيطالي والأسباني والألماني والفرنسي ومنهم من اهتم بالجانب السياسي وأنظمة الدولة والوضع العسكري في البلاد الإسلامية ومنهم من اهتم بالجانب التجاري فشمل وصف الموانئ والثغور ومدى حجم التجارة في هذه الموانئ وأهم السلع والحرف التي عمل بها أهل البلاد وكذلك اهتم الكثيرون من الرحالة الأوروبيين بشراء السلع والمنتجات من أجل بيعها في أوطانهم وتحقيق الربح المادي وخاصة إذا علمنا أن العديد من الأسواق التجارية في الشرق كانت متمثلة في أسواق مصر والشام والتي ترد إليها المنتجات الشرقية كلها وتوزع فيما بعد إلى أوروبا.، وهناك الرغبة الملحة في كشف سحر الشرق ومشاهدة معالمه التي قرأوا عنها في الكتاب المقدس وفي رحلات السابقين فأرادوا تحقيق الحلم وذلك بالرحلة والسفر إلى مصر والشام

ومنهم الرحالة المسيحيون الذين اهتموا بأحوال المسيحيين في مصر والشام ومعاملة الدولة المملوكية لهم وزيارة الأماكن المقدسة ووصف الكنائس المسيحية

القديمة ومدى أهميتها وقدسيتها للمسيحيين الوطنيين والأجانب. الرحالة اليهود فقد كان اهتمامهم منصباً على أعداد اليهود في البلاد الإسلامية وأعمالهم ونشاطهم الاقتصادي ووضعهم في المنطقة وعلاقتهم بالمسلمين والمسيحيين والسلطات المملوكية وذكر ديارات اليهود ومعابدهم

تنوعت أهداف ودوافع الرحالة الذين جاءوا إلى الدولة المملوكية وتحملوا مصاعب جمة ومجازفات كثيرة حيث تعرضوا في البحر والبر لمعوقات ومخاطر عديدة مثل العواصف والرياح القوية التي تهدد سفنهم في عرض البحر، ويبدو أنها كانت لها النصيب الأكبر من الخطر الذي أحدق بهم بالإضافة إلى الهجمات التي كان يتعرض لها الحجاج من قبل القراصنة المسيحيين والمسلمين أما عن أهدافهم فهناك من جاء بهدف الحج وزيارة الأماكن المقدسة في مصر والشام والمتعلقة بسيرة السيد المسيح وكذلك زيارة الأديرة والكنائس والأضرحة الخاصة بالقديسين أو من جاء راهباً وطلب ليتم تعيينه في أحد الأديرة أو كان سفيراً من ملك لملك لطلب الصلح أو عقد هدنة أو للتهديد أو للتجسس أو لعقد اتفاقيات تجارية والحصول على امتيازات تجارية جديدة لرعايا بلاده بالإضافة إلى الدوافع الاقتصادية إذ ذهب الكثيرون إلى الشام منذ بداية الحروب الصليبية وأقاموا فيه وحققوا أرباحاً طائلة نتيجة القيام بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب فقد تردد الكثير من هؤلاء الرحالة على الموانئ المصرية والشامية وتجولوا في البلاد للبيع والشراء.

هذا بالإضافة إلى الرغبة في معرفة أوضاع إخوانهم المسيحيين الشرقيين للتمهيد لإرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق لحماية المقدسات المسيحية في الشرق الإسلامي وأسباب خاصة تتعلق برغبة الرحالة ذاته في التجول والاستطلاع للتعرف على أحوال البلاد ودراسة عادات وتقاليد شعوب جديدة لا يعلم عنها شيئاً.

وهكذا اتجه الرحالة الأوربيون إلى الديار المملوكية لأسباب عديدة وتحقيق مآرب متنوعة.

وقد سافر الرحالة الأوربيون من الغرب إلى الشرق في طرق عديدة ومتنوعة، ولكن أهمها كان طريق البحر المتوسط حيث اعتاد الرحالة القادمون من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا المجيء إلى موانئ البندقية وجنوه وبيزه ومرسيليا برًا داخل حدود بلادهم حتى الوصول إلى هذه الموانئ والتي كانت تعد أهم وأقوى وأفضل موانئ البحر المتوسط في أوربا، وهي الأماكن التي كان يقصدها الحجاج والرحالة المسافرون بحرًا من أوربا إلى الشرق وكانت مدينة البندقية تعد أفضل وأهم المدن الإيطالية على الإطلاق ومكان السفر من خلالها ولذلك كان طريق البندقية - يافا - الإسكندرية أقصر الطرق وأفضلها.

تناول الفصل الأول بعض ظروف عصر سلاطين المماليك المتمثلة في تكوينه وتشكيله بداية من تكوين الطبقة المملوكية التي تكونت من المماليك الذين كانوا يشترون من أسواق العبيد وهؤلاء أطلق عليهم المماليك المشتروات وكانوا أسرى حرب وقد قامت الدولة المملوكية على أكتافهم وسميت باسمهم وحياتهم التي كانت منعزلة تمامًا عن الشعب وطريقة تربيتهم الخاصة ومسكنهم في القلعة وملابسهم وسلطتهم في الدولة والمشكلات التي تسببوا فيها وكانوا هم السبب في تدهور الدولة وانهيار أحوالها الداخلية والخارجية، وكيفية توليهم المناصب المختلفة، وعلى رأسهم السلطان المملوكي الذي كان يتولى السلطة بالقوة والاغتصاب ثم عرض بعض أنظمة السلاطين وقواعد الحكم ووسائل الترفيه والتسلية والحياة الخاصة لتلك الطبقة، وكذلك العلاقات السياسية الخارجية بين الدولة المملوكية والدول الأخرى ووسائل العقاب المتبعة في عقاب المجرمين ومراسم السلاطين المماليك في استقبال السفراء الأجانب

أما الفصل الثاني الذي يحمل عنوان "الأوضاع الاقتصادية في مصر والشام" متمثلة في الزراعة التي تقوم على مصادر المياه وأنواع المحاصيل المختلفة وطرق زراعتها ومواسم الزراعة والحصاد وكذلك نظام الري والمشاريع التي أقيمت للحفاظ على مياه النيل، ثم الصناعات المتنوعة فمنها النسيج والأقمشة والملابس وكذلك الصناعات الزجاجية والخشبية، والطوب والسكر والعسل الذي يستخرجون من محصول قصب السكر، والخمور المصنوعة من عصير العنب والزيوت وأهمها زيت الزيتون والسيرج ثم طحن الحبوب وصناعة الأسلحة، أما التجارة فهي نوعان منها، التجارة الداخلية فتناولنا فيها طرق التجارة الداخلية البرية والمائية والأسواق والسلع وكذلك طريقة تربية الطيور والحيوانات والتي تثير انتباه ودهشة وإعجاب جميع الرحالة، ومدى قوة حركة البيع والشراء، ثم التجارة الخارجية حيث تمتعت الدولة المملوكية بعوامل جذب بقوة جذبت العديد من الدول الأجنبية للتعامل معها وتواجد جالياتها في مصر والشام بشكل مستمر منها تعدد الموانئ وسياسة التسامح التي اتبعتها السلطات الحاكمة والامتيازات التجارية الهامة التي منحتها للأجانب كما تنوعت السلع الصادرة والواردة إلى الموانئ المصرية والشامية، في حين كانت السلطات المملوكية تنفذ بعض الإجراءات الخاصة بدخول السفن في الموانئ المملوكية ولكنها اتسمت بالشدة والقسوة سواء في التفتيش أو في جمع الضرائب في الجمرك ورغم التسهيلات التي قدمتها السلطات وسمحت بإقامة المنشآت التجارية الخاصة بهم مثل الخانات والفنادق لأنها كانت تعتبر هؤلاء الأجانب رهينة في أيديها تضغط بهم على الحكومات الأجنبية لتضمن عودة السفن الأجنبية إلى موانيها أو لتسترد الأسرى المسلمين الذين كان يأسرهم القراصنة في عرض البحر، ونتيجة لسوء المعاملة وطمع السلاطين المماليك واحتكار بعضهم للسلع الهامة وفرض الضرائب الباهظة على التجار الأجانب والموظفين أدى ذلك إلى إفلاس العديد منهم وهروب البعض وقلة أعداد السفن الوافدة وخراب بعض المدن الساحلية وبالتالي نقص العائد المادي وتدهور الاقتصاد بصفة عامة.

يأتي الفصل الثالث بعنوان "الأوضاع الاجتماعية في مصر والشام"، فقد شهدت مصر والشام في بداية العصر المملوكي نمواً سكانياً ملحوظاً نتيجة لفترة السلام التي بدأها الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) (١٢٦٠-١٢٧٧م) منذ توليه السلطة حيث قام بعقد معاهدات مع المغول وكذلك الصليبيين وبذلك التفرغ لصد الهجمات المغولية التي غزت معظم بلدان الشرق الإسلامي وتعرضت هذه البلدان إلى عمليات الذبح الجماعية والفزع والرعب فاستطاع المماليك صدهم قبل أن يصلوا إلى حدود مصر وبتلك الحكومة القوية لكل من مصر وسوريا أمناً كاملاً مع الازدهار العظيم أضف إلى ذلك الاستقرار السياسي والهجرات الخارجية الاستقرار الاقتصادي وتحسين الأوضاع المالية في مصر والشام وازدهار حركة التجارة الداخلية والخارجية مما ساعد على توفير سبل العيش والإقامة بأمان وحرية، كما عمل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون على تحسين العلاقات التجارية مع الدول الأجنبية، فساهم ذلك في تحسين النقد والوضع الاقتصادي كما ألغوا بعض الضرائب والمكوس التي كانت مفروضة على السكان وهكذا كان استقرار النظام بكل جوانبه دافعاً لزيادة السكان في مصر والشام لزيادة الهجرات الخارجية الأخرى ثم بدأ التناقص السكاني في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة للطاعون عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٧م والذي أطلق عليه الموت الأسود أو الفناء الكبير - ويعد ذلك الطاعون هو البداية الحقيقية للتدهور السكاني في ذلك الوقت

وقد قسم الرحالة الأوربيون السكان إلى ثلاثة أقسام الأول هم المماليك العبيد الذين تحولوا وأصبحوا أسياداً في الدولة وعاشوا منفصلين عن سائر السكان وأصبحوا طبقة ممتازة وقد سبق الحديث عن أصلهم وحياتهم الخاصة في الفصل الأول، والثاني هم الشعب بكل طوائفه الخاضعة لحكومة السلطان سياسياً والمختلفة دينياً وهؤلاء عددهم كبير جداً وينقسمون إلى مسلمين

ومسيحيين ويهود والثالث هما الأعراب الذين يسكنون الصحراء أو الأعراب المستقرين الذين عاشوا في المناطق الريفية، وهنا تناول الرحالة العادات والتقاليد المختلفة لكل قسم من السكان والاختلافات الخاصة بهم سواء كانت دينية او اجتماعية او وظيفية ورغم ذلك إلا أن السكان الوطنيين سواء من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود عاشوا حياة هادئة متسقة فيما بينهم بل مشاركة الجميع في الاحتفالات الوطنية والدينية وفي الملابس والمأكل وفي الحياة العامة منعزلين عن السلطات الحاكمة، أما البدو فقد اعتبروهم طائفة غريبة عن المجتمع المصري من حيث الملابس والمسكن والمأكل والسلوكيات اليومية، أضف إلى ذلك وجود جماعة من المجاذيب والدراويش الذين زهدوا الدنيا وكانوا مصدرًا لدهشة الرحالة بسبب ملابسهم ومعتقداتهم الغريبة ولا ننسى أيضًا وجود أعداد من الفقراء والمعدمين في الشوارع الذين لم يجدوا مكانًا غيره للإقامة فيه، فكان الشارع هو الملجأ والملاذ لهم كما لاحظ الرحالة مدى اهتمام السكان بالبحث عن وسائل الترفيه والتسلية كوسيلة للتخلص من الهموم ومشاكل الحياة اليومية المستمرة فقد تفننوا في ابتكار طرق التسلية واتخذوا بعض الأماكن مراكز للهو والترفيه مثل منطقة القرافة والأزبكية وغيرها، هذا وتميزت المدن المصرية والشامية من وجود الحمامات العامة التي كانت أساس الحياة اليومية حيث ثلوم يهتم الناس بإنشاء حمامات في منازلهم بالإضافة إلى الحمامات الطبيعية الخاصة مثل بحيرة طبرية والتي كانت طريقة من طرق العلاج الطبيعي كما كان للمرأة دور بارز وهام في المجتمع فتمتعت بحرية التجول والترحال حيث كانت تخرج طول اليوم إلى السوق وزيارة الأقارب وتعمل بالتجارة وأعمال أخرى وعاب بكثير من الرحالة والفقهاء المعاصرين على تلك الحرية التي سمحت لهن بحرية التصرف والحركة مما جعل الرحالة يصفهن بالمجون والخلاعة، أما المنازل فقد حرص السكان على إنشاء منازل رائعة الجمال من حيث التصميم الداخلي والخارجي واهتموا بتجميلها وتزيينها بالزهور والنباتات الجميلة والنافورات تحرص

على توفير الراحة والهدوء في المنزل والحفاظ على حرمته ولذلك جعل النوافذ الخشبية ذات فتحات ضيقة سميت بالمشربية والتي تسمح لمن في داخل المنزل برؤية من في الخارج دون التسبب في إزعاج أهل المنزل، كما اهتم السلاطين المماليك بالتعليم فأنشأوا المدارس بالقرب من المساجد وتعلم فيها الصبية الصغار القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة ، كما وجدت الكتاتيب فوق الأسبلة التي أنشئت لتوفير المياه العذبة للطرق في الشوارع فكانت صدقة جارية لصاحبها وقد كان يبنى بجوارها مساكن لها صدقات أو للفقراء وعابري السبيل أيضاً أما اليهود فقد اهتموا بتعليم أبنائهم في مدارس ملحقة بهم داخل معابدهم

يتناول الفصل الأخير أحوال الطوائف الدينية المختلفة في مصر والشام حيث تمتع المسيحيون منذ نشأة الدولة الإسلامية بالحرية الدينية والتسامح فقد تولوا مناصب ووظائف مهمة في الدولة، وكانت لهم الكنائس والأديرة المنتشرة في كل مكان كما سمح لهم بالإقامة في البلاد بحرية وأمان سواء كانوا مسيحيين وطنيين أم مسيحيين وافدين قادمين من الدول الأوربية، وسمح لهم بممارسة شعائرهم ومعتقداتهم الدينية كما يحلو لهم وسهلت السلطات المملوكية دخول الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة، وقدمت تسهيلات وخدمات عديدة لهم ساهمت على كثرة الوافدين الغربيين إلى الدولة الإسلامية، وقد حرص سلاطين المماليك على الالتزام بتحقيق العدالة الدينية للأقليات الدينية في الدولة المملوكية، ولكنهم في أوقات الشدة مارسوا عليهم ضغوطاً شتى بسبب عمليات القرصنة الأوربية على السواحل المصرية والشامية مما جعل السلطات المملوكية تصب غضبها على سكانها المسيحيين بصورة عشوائية وجماعية شملت رهبانها والحجاج والقاصدين لها من الأجانب كانت تقوم بغلق أعداد الأديرة والكنائس المهمة ومنع الحجاج من دخولها، أو هدم أحد المنشآت الدينية التابعة لهم وخاصة في حالة إثارة العامة من المسلمين ، ولكن سرعان ما تهدأ الأوضاع

ويسود اليهود والمسلمون أخرى فأدى ذلك إلى تعدد الطوائف فالمسيحية وصل عددها إلى حوالي عشر طوائف فذكرها الرحالة وتحدثوا عن أصلها وطقوسهم وعقائدهم وظروف حياتهم ومعيشتهم وأماكن وجودهم تلك الفرق تختلف في مفهومها وعقيدتها وقوانينها ولغتها التي تستخدمها وكذلك في طريقة تأدية القداس والاحتفالات الدينية، كما كانت كل طائفة ترى أنها أفضل من الأخريات وتعتقد في صدق عقيدتها وحسن نيتها وتصف الأخريات بالكفر والهرطقة، أما الطوائف اليهودية فهي ثلاث طوائف فلسطينية انتشرت في مصر والشام ثم الطوائف الإسلامية وأهمها ما ذكره الرحالة عن الشيعة مثل الحشاشين والدروز فقط

تميزت معظم نصوص الحجاج والرحالة الأجانب والعرب في فترة العصور الوسطى بذكر ووصف للأماكن المقدسة والمزارات المسيحية واليهودية والإسلامية كما اهتم الكثيرون منهم بشرح ووصف المكان المقدس مطابقًا لما جاء في الكتب المقدسة سواء التوراة أو الإنجيل مع الاعتماد على ذكر آيات تتناول ذلك الموقع المبارك ومنهم من قدم وصفًا تفصيليًا للمزارات المقدسة بصورة مذهلة وذلك بتحديد المسافات والخطوات وبرسم خريطة توزيع الأماكن المقدسة عليها بدأ معظم الرحالة والحجاج زيارتهم لبلاد الشام وخاصة بيت المقدس وما حولها والاهتمام بتسجيل ما شاهدوه من أماكن ومزارات مقدسة فيها نظرًا لأنها مولد السيدة العذراء والمسيح وفيها أماكن تشرفها سيدنا داود وسليمان وكثير من الأنبياء والرسل والقديسين ورغم ذلك فإنهم كانوا يتجهون إلى مصر إذ كانت تجذبهم لزيارتها ما جاء عنها في نصوص آيات التوراة والإنجيل وما بها من كنائس وقد شيدت منذ فجر تاريخ المسيحية وما حظيت به كذلك دير سانت كاترين في سيناء من شهرة عالمية منذ القدم فقد كانت سيناء معبر المسافرين بين بلاد الشام ومصر وبذلك كان لابد عليهم زيارة جبل سيناء والدير

للحصول على الغفران والبركة، ومن أمثلة المزارات المسيحية، كنيسة القيامة)كنيسة الضريح المقدس(وكنيسة الميلاد)كنيسة بيت لحم(، وكنيسة ضريح حنا والدة السيدة مريم العذراء، ودير سانت كاترين، وسجن القديسة كاترين، كما تتناول وصفاً للأماكن المقدسة في القاهرة وبابليون والفسطاط وخاصة المواقع التي تباركت بمجيء السيدة مريم العذراء والسيد المسيح عليهما السلام وهروبهما من الناصرة إلى مصر خوفاً من هيرودس الحاكم الروماني وإقامتهم في مصر، أما اليهود فقد اهتموا بزيارة جبل جرزيم المقدس الذي كان يعد مكان الحج المقدس أو أضرحة القديسين والأنبياء، أما أهم المقدسات والمزارات الإسلامية التي شاهدها وتحدث عنها الرحالة الأوروبيون في بلاد الشام فهو المسجد الأقصى ومسجد الصخرة في بيت المقدس وهما يقعان على جبل موريا وكان يطلق على مكانهما معبد السيد Temple domini أو هيكل سليمان وقد تعرض ذلك المعبد إلى الخراب والتدمير عدة مرات والمسجد الأقصى مستدير الشكل ومبني على النمط الإغريقي أما مسجد الصخرة)مسجد عمر بن الخطاب(فيقع في الجزء الشرقي من مدينة بيت المقدس في ساحة مربعة تجاه وادي يوشافات